تاريخ الموحدين الدروز السياسي
في المشرق العربي

تاليف الدكتور عبّاس أبو صالح
بالاشتراك مع الدكتور سَامي مكارم

منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء



تاريخ الموحدين الدروز السياسي
في المشرق العربي

تاليف الدكتور عبّاس أبو صالح
بالاشتراك مع الدكتور سامي مكارم

الطبعة الثانية

منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء

الطبعة الأولى ١٩٨٠

بيروت ١٩٨١

شكر وتقدير

نتقدم بجزيل الشكر والتقدير الى حضرة صاحب السماحة الشيخ محمد ابو شقرا شيخ العقل لقراءته مخطوطة هذا الكتاب وللاحظاته القيمة ونصائحه الرشيدة .

كما نتقدم بالشكر الجزيل للمجلس الدرزي للبحوث والانماء الذي حثّ على تأليف هذا الكتاب وقدّم من أجل انجازه الدعم المادي والمعنوي .

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية

في خضمّ الموجات الطائفية التي أخذت تعصف في لبنان وسائر بلدان المشرق العربي أخذ الولاء الطائفي ينمو على حساب الانتماء القومي والوطني. وبرزت مشاعر منها ما هو انكماشي انطوائي ومنها ما تجاوز القومية الى ولاءات اخرى يمليها الشعور الطائفي السياسي. ويخشى أن تكون هذه المشاعر قد أخذت تؤثر بدورها في الموحدين الدروز كما أثرت في بعض الطوائف اللبنانية. وهذا من شأنه أن يسيء الى ولاء الدروز الوطني والقومي. وبما أن الموحدين الدروز ما عرفوا في تاريخهم أي انتماء سياسي طائفي بل كانوا دائماً حماة الارض يدافعون عن هويتهم القومية العربية ويذودون عن هذه الأمة ضد غزوات الاجنبي ومطامع المستعمر، رأينا لزاما علينا أن نظهر للقارىء الدرزي خاصة وللقارىء العربي عامة هذا التراث الدرزي الوطني وذلك الدور السياسي البارز الذي قام به الموحدون الدروز عبر تاريخهم النضالي الطويل. وهو دور يظهر ان النزاعات الطائفية ومزج القومية بالمعتقد الديني أمر غريب عن تراث الموحدين الدروز السياسي والثقافي.

لقد كان من دوافع هذا الكتاب اظهار هذه الحقيقة الدامغة. فاذا ما فهم الدرزي تراثه على حقيقته دون تشويه بعض المؤرخين والناتج عن نية سيئة حينا وعن اهمال وعدم اكتراث بهذه الفئة الوطنية حينا آخر. استطاع أن يعي واجبه الوطني وان يضطلع بدوره القومي ويتخلى عن تلك الولاءات الجانبية التي أضرت وما تزال في بنية الوطن القومية.

أما القارىء غير الدرزي فاننا نأمل ان يساعده هذا الكتاب على فهم تراث الموحدين الدروز السياسي بتجرد وموضوعية وأن يعينه على نبذ ما طبعه عليه بعض المؤرخين من تضليل تاريخي عن دور الدروز الوطني والقومي . ومن يقرأ هذا الكتاب الموثق يستخلص ان النهج الذي انتهجه الموحدون الدروز عبر تاريخهم كان قائما على الفصل بين معتقدهم الديني الفكري من جهة وواجبهم القومي الوطني من جهة أخرى . وقلما نرى في المشرق العربي كالدروز من استطاع ان يفصل بين ولائه لله وولائه للوطن . ذلك ان مفهوم الدروز للدين قائم على علاقة الفرد بالله من جهة وعلاقة الانسان باخيه الانسان في المجتمع من جهة ثانية . هذه النظرة الدينية لم تمس في حال من الاحوال النظرة الوطنية القائمة على التفاعل بالارض وعلى المشاركة التاريخية والمستقبلية مع اخوانهم في القومية . ولذلك كان تاريخ الدروز السياسي هذا ليس تاريخا طائفيا وانما هو تاريخ وطني يستطيع أن يعطي المواطن العربي أمثولة صالحة في النضال الوطني الشريف . وهو نضال رفع لواءه الدروز احيانا كثيرة بصمت ومن غير منّة ولا تباهي فيه أو تبجح .

وتجدر الاشارة الى أن هذا الكتاب قُصِد به تأريخ الاحداث السياسية التي كان للموحدين الدروز فيها دور اساسي بارز ، وذلك بطريقة علمية ومنهجية تُوخّي فيها الاعتماد على المصادر الاساسية ، بخاصة المصادر الدرزيّة المخطوطة التي لم يتسنَّ لكثير من المؤرخين السابقين الاعتماد عليها . ويشمل هذا التاريخ دراسة حول أسلاف الموحدين الدروز قبل ظهور مذهبهم ، كما يشمل عرضاً شاملاً لمختلف الظروف السياسية التي نشأ فيها المذهب . وندين للدكتور سامي مكارم

كتابة الفصل الثالث من هذا الكتاب، وابداءه بعض الآراء والملاحظات القيمة على هذا التاريخ. وقد تناول في الفصل الثالث هذا، التاريخ السياسي للموحدين الدروز خلال العهد الفاطمي. وقد أخذنا على عاتقنا كتابة بقية فصول هذا التاريخ السياسي، أي منذ بروز الموحدين الدروز على مسرح الاحداث السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال العهد العباسي، حتى نهاية ثورتهم الوطنية ضد الانتداب الفرنسي. وقد توقفنا عند هذه المرحلة الفاصلة من تاريخ الموحدين الدروز آملين أن يلي هذا الكتاب جزء آخر يتناول دور الموحدين الدروز السياسي في التاريخ العربي الحديث والمعاصر.

بيد أن هذا الكتاب الذي نحن بصدده، يتناول بشكل خاص تاريخ الدروز في لبنان وجبل الدروز في سوريا، ولا يتناول بالتفصيل تاريخ الدروز في الاماكن الاخرى من بلاد الشام خصوصا دمشق وجوارها والجبل الاعلى في منطقة حلب والى حد الجليل الاعلى في منطقة صفد في فلسطين. ذلك لأن دور الدروز في هذه المناطق لا يتناسب مع قلة المصادر المتوفرة. لهذا فان تاريخ الدروز في تلك المناطق يحتاج الى دراسة اخرى يصار الى كتابتها اذا توفرت وسائل الاتصال ومصادر البحث اللازمة.

وقد اقتصر هذا الكتاب على الجانب السياسي من تاريخ الدروز دون التطرق الى النواحي الاخرى من تراثهم الديني والفكري والثقافي والاجتماعي. ذلك لأن بحث هذه الجوانب يحتاج الى دراسات اخرى مستقلة ومتخصصة. كما أغفل في هذا البحث بعض التفاصيل الهامشية التي لا شأن لها والتي يمكن أن ترهق القارىء بأمور محلية وفردية.

وغني عن القول أن هذا التاريخ هو في الوقت نفسه سجل للمعارك الحربية التي خاضها الموحدون الدروز أو شاركوا في خوضها عبر تاريخهم واظهروا فيها الكثير من البسالة والتفاني والتضحيات.

اخيراً، نودّ ونحن بصدد الطبعة الثانية من هذا الكتاب ان نكرر شكرنا لكل من ساهم في اخراج هذا التاريخ الى حيز النور **فللأستاذ** وليد جنبلاط الذي أولى مشروع كتابة هذا التاريخ رعايته واهتمامه، شكرنا وتقديرنا. ونخص بالشكر أيضاً صاحب السماحة الشيخ محمد ابو شقرا شيخ العقل لقراءته مخطوطة هذا الكتاب، وابدائه العديد من الآراء والملاحظات القيمة، كما نشكر المجلس الدرزي للبحوث والانماء الذي حثّ على تأليف الكتاب وقدّم من أجل انجازه الدعم المادي والمعنوي. آملين أن نكون قد وفقنا الى بلوغ الغاية التي من أجلها كتب هذا التاريخ.

عباس ابو صالح

بيروت
حزيران/ ۱۹۸۱

الفصل الأول
اسلاف الموحدين الدروز

« اني اردت ان اجمع شيئاً يستفيد به الخلف عن اخبار السلف . . . فجمعت هذه التذكرة معتذراً الى الواقف عليها من ركّة اللفظ ومواقع الخطأ بعد الاجتهاد على صحة النقل وحذف الفضول لاني لا اريد ان اكون مغالياً في السلف فاصفهم بأزيد مما فيهم ولا حسوداً فانعتهم بما ليس فيهم . . . »

صالح بن يحي التنوخي

يستدل من جميع ما نشر من بحوث تاريخية علمية حول الذين يؤلفون اليوم سكان بلاد الشام ان الموحدين الدروز لا يختلفون من حيث اصولهم العرقية عن هؤلاء السكان ، لذلك فان تاريخ الموحدين الدروز يشكل في الواقع جزءا اصيلا من تاريخ بلاد الشام . ومع انه يبدو من الصعب بل من المحال احيانا فرز تاريخ اسلاف الموحدين الدروز في المرحلة التي سبقت دعوة التوحيد (الدرزية) عن التاريخ العربي الاسلامي لبلاد الشام ، فان ما توفر لنا من مصادر تاريخية عن تلك الحقبة يمكن ان تعطي صورة واضحة عن اسلاف الدروز .

والاخبار الواردة في هذه المصادر عن هؤلاء تكون بالفعل جزءا لا بأس به من تاريخ الهجرات العربية الى بلاد الشام حيث استقرت بعض القبائل العربية في المناطق التي يوجد فيها الموحدون الدروز اليوم . وهي من حيث التحديد الجغرافي تشمل بعض المناطق الجبلية الواقعة بين حلب وانطاكية في شمال سوريا اي منطقة جبل السماق ، واخرى تشمل القسم الاوسط من جبال لبنان الغربية فضلا عن وادي التيم وسائر القرى الممتدة على سفوح جبل الشيخ الشرقية والغربية وتصل الى منطقة صفد في فلسطين جنوبا . ويمكن ان نضيف الى ذلك بعض المناطق الداخلية في جوار دمشق واخرى ساحلية في لبنان . اما وجود الدروز في جبل حوران فهو يعود لفترة متأخرة وسنأتي على ذكره بالتفصيل فيما بعد .

اصل الدروز :

ويستنتج من الاخبار المنقولة عن اعيان العائلات الدرزية الكبرى (وقد دونت هذه الاخبار في مرحلة متأخرة عن هذه الحقبة) بان اسلاف هؤلاء الدروز الذين يسكنون بعض هذه المناطق اليوم يرجعون في غالبيتهم من حيث النسب الى اثنتي

عشرة قبيلة عربية كانت تقيم في منطقة معرة النعمان منذ اوائل الفتح العربي الاسلامي وانتقلت تدريجيا الى لبنان[1]. ولا بد من الاشارة هنا الى مختلف النظريات المغلوطة حول اصل الدروز ، خاصة تلك التي وضعها بعض المستشرقين والرحالة الغربيين والتي ورد ملخص لها في كتاب فيليب حتي « اصول الشعب الدرزي ودينه » الصادر عن جامعة كولومبيا بالانكليزية عام ١٩٢٨[2]. اذ حاول معظم هؤلاء لغايات مختلفة طمس الاصل العربي للموحدين الدروز من غير اي اثبات علمي يمكن الركون اليه. واغرب هذه النظريات تلك التي حاولت تلفيق اصل صليبي او فرنسي للدروز كرواية كل من هنري مندرل[3](Henry Maundrell)وبيجه دوسان بيار (Puget deSaint - Pierre)[4]

وفي الوقت الذي ذهب فيه بعض الرحالة العلماء من الاوروبيين الى القول بان الدروز عرب امثال كارستن نيبور (Carstin Niebhur)[5]، رأى غيرهم امثال بارفت (Parfit) انهم من اصل عربي وفارسي وهندوسي[6] . ولكن فيليب حتي ذهب في كتابه المذكور الى ابعد من ذلك ، اذ تبنى بعض هذه النظريات المغلوطة وخلص الى الاستنتاج بان الدروز هم مزيج من عناصر فارسية وعراقية وعربية اتخذت طابعا فارسيا[7]. واخطر ما في هذه النظرية المغلوطة التي تبناها فيليب حتي قوله ان الدروز انتحلوا العروبة تقية لانهم كانوا اقلية في وسط اكثرية عربية[8]. ويبني حتي استنتاجه

---

١ - راجع ، الدكتور محمد كامل حسين ، **طائفة الدروز ،تاريخها وعقائدها** (**دار المعارف** ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠) ص ٥ - ١٠

٢- Philip K. Hitti, *the origins of the Druze people And Religion* (New York, Colombia University Press, 1928) PP. 13-14.

٣- H. Maundrell,, AJourney *From Aleppo to Jerusalem On Easter A.D. 1697* (London, 1810,) PP 51-52.

٤ - Puget de Saint-Pierre, *Histoire des Druzes, peuple* du *liban, Forme Par une* colonie de François *avec des notes politiques et* géographiques (Paris, cailleau, 1763) P.

٥ - Carstin Niebhur, *Travels Through Arabia And Other* Countries in The East. Translated by R. Heron (Edinburgh, 1972), Vol II, P. 179.

٦ - J.T. Parfit, *Among the Druzes of Lebanon and* Bashan (London, 1917), P. 33.

٧ - Hitti, *op. cit.*, P. 23

٨ - *Ibid* PP. 14-22

الخاطىء هذا على فرضية مفادها ان انتشار المذهب الدرزي في وادي التيم اولا على يد دعاة جميعهم من اصل فارسي وفارسي تركي يستوجب وجود جماعات من اصل فارسي لتقبلها وذلك لما في العقيدة الدرزية (بحسب رأيه) من مؤثرات فارسية جعلت هذه الجماعات ذات نزعة شيعية متطرفة . ويستنفد حتي كل ما لديه من حجج لاثبات نظريته المغلوطة هذه ، فاعتبر مثلا بان ورود بعض الكلمات الفارسية في رسائل الدروز الدينية احد الادلة على الاصل الفارسي للدروز ، كما اتخذ من تحدر بعض العائلات الدرزية من اصل كردي او فارسي حجة لدعم نظريته هذه[٩] . ويحشر حتي في هذا السياق رواية البلاذرى عن اسكان الخليفة الاموي معاوية (٦٦١ - ٦٨٠ م / ٤١ - ٦١ هـ) لجماعات من فارس والعراق في مقاطعة بعلبك وجنوب لبنان دليلا آخر على وجود اقوام من الفرس في المناطق التي انتشر فيها المذهب الدرزي ، خاصة في وادي التيم الذي كان مركزا لحركات التشيع منذ وقت مبكر[١٠] .

غير ان هذه المزاعم التي اوردها حتي لنفي اصل الدروز العربي لا يمكن الاخذ بها علميا لاسباب عدة منها : ان وجود بعض مذاهب التشيع في هذه المناطق التي انتشر فيها مذهب التوحيد لا يدل بالضرورة على ان هؤلاء المتشيعين هم من اصل فارسي . ذلك ان بعض العشائر التي كانت تسكن هذه المناطق كان معظمها من اصل عربي وعرفت بتشيعها منذ وقت مبكر[١١]. واغفل الدكتور حتي عن قصد او غير قصد اهمية الاختلاط الذي نشأ عن تمازج هذه العشائر العربية التي قدمت مع الفتح الاسلامي او قبله بالسكان الاصليين . اما ما يزعمه فيليب حتي ان جميع الدعاة هم من اصل فارسي وفارسي تركي كالدرزي ، فقد غرب عن بال حتي ان الدرزي طرد من الدعوة بعد سنتين من اعلانها . اما كون حمزة بن علي من خراسان فهذا لا يعني ان جميع الدعاة كانوا من الفرس . وهنا لا بد من السؤال لماذا اغفل فيليب حتي دعاة كبارا من اصل عربي كاسماعيل بن محمد التميمي ومحمد بن وهب القرشي وعلي بن احمد الطائي .

---

٩ - *Ibid* PP 20-22

١٠ - احمد بن يحي البلاذرى ، **فتوح البلدان** (ليون ١٨٦٦) ص ، ١١٧

١١ - راجع محسن الامين ، **خطط جبل عامل** (بيروت ، ١٩٦١) ج ١١ ، ص ٦٥-٦٨

وخلافا لنظرية فيليب حتي القائلة بالاصل الفارسي للدروز ، فان معظم الباحثين في هذا الموضوع يرجعون الموحدين الدروز الى اصل عربي ومن هؤلاء هو هوجارت وبل (D. Hogarth) و(G. Bell) اللذين اعتبرا العنصر العربي هو الغالب بين الدروز وذلك على الرغم من اختلاطهم بسكان الجبال الآريمي الاصل[١٢]. ومما يدعم صحة هذا الرأي تلك البحوث التي اجراها العالم الانثروبولوجي كابرس (C. Kappers) كما تبين من خلال دراسات الدكتور بار (W. L. Parr) استاذ البكتيريا والهيجن ان الدروز والمسلمين العرب من صنف واحد[١٣] .

عروبة الدروز وعروبة بلاد الشام :

ومهما تعددت النظريات حول الاصل العربي للموحدين الدروز ، فاننا نرى بان عروبة الدروز لا يصح فصلها عن عروبة السواد الاعظم من سكان بلاد الشام . فقبل ان يصبح الدروز طائفة دينية مستقلة ذات مذهب اسلامي خاص بهم في القرن الحادي عشر للميلاد/الخامس للهجرة ، كان معظمهم على الاقل يؤلفون جزءا من سكان بلاد الشام عربا كانوا ام مستعربين[١٤]. ومن المسلم به تاريخيا ان حركة الاستعراب هذه كانت ترافق حركة الهجرة العربية من الصحراء الى تخوم البادية ومنها الى مناطق اخرى في بلاد الشام[١٥]. ومنذ القرن الاول قبل الميلاد كان نفوذ الايطوريين العرب يشمل الاقسام الجنوبية من بلاد الشام وسهل البقاع والمنطقة الساحلية الممتدة بين طرابلس وصيدا بما فيها الهضاب المشرفة على الشاطىء[١٦] وبعدهم بنحو قرنين وصل نفوذ الانباط العرب الى دمشق والبقاع[١٧] . هذا ولا يغرب

١٢- retrude Bell And David Hogarth,«Druzes» *Encyclopadia Britanica*, II th edt. 1910, Vol VIII, P-605.

١٣ - راع سليمان ابو عز الدين « اصل الدروز » **المقتطف** (حزيران ١٩٣٠) ص ٧٩ - ٨٠

١٤ - راجع I.G.S. Hodgson, «Druz» the *Encyclopaedia of Islam* New edt. Vol II, P. 633.

١٥- alibi, *op. cit*, Ps. 15-16- 26

١٦ - هنري لامنس ، **تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الاثار** (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٠) ج ٢ ص ٣٩ . كذلك محمد كرد علي ، **خطط الشام** (دمشق ، المطبعة الحديثة ١٩٢٥) ج ١ ، ص ٦٢ - ٦٣

١٧ - فيليب حتي ، **تاريخ العرب (مطول)** (بيروت . دار غندور ، ١٩٧٤) ص ١٠٤

عن بالنا ان عددا من القبائل العربية كان قد استوطن بلاد الشام قبل الاسلام بزمن طويل ، ومن هذه القبائل كلب وغسان وتنوخ . وبعضهم قدم الى بلاد الشام بعد الاسلام كلخم وعاملة وطيء وهي قبائل يمنية . والهمداني مثلا يذكر ان اقواما من لخم كانت تقطن في الرملة والجولان وحوران كما سكنت عاملة في جبلها المشرف على طبرية الى نحو البحر[١٨] .

ومن المعروف ايضا ان حركة الاستعراب هذه بلغت ذروتها مع الفتح العربي الاسلامي وترسخت في بلاد الشام قبل بدء دعوة التوحيد الدرزية في بداية القرن الخامس للهجرة[١٩] . فلا بدّ والحالة هذه من ان تكون المناطق التي انتشرت فيها الدعوة الدرزية فيما بعد قد تعرضت بدورها الى هذا التمازج بين العرب القادمين اصلا من الجزيرة العربية وبين بقية السكان الآرامي الاصل منذ وقت مبكر بحيث انها اصبحت في القرن العاشر للميلاد / الرابع للهجرة كسائر مناطق بلاد الشام الداخلية يغلب عليها الطابع العربي الاسلامي[٢٠] . ومما يعزز هذا الرأي ما قاله بنيامين الطليطي - وهو اقدم رحالة غربي يذكر اسم الدروز وقد زار المشرق في اواسط القرن الثاني عشر للميلاد - بان الدروز متحدرون من الايطوريين العرب[٢١] .

نسب العائلات الدرزية :

اما الدروز فيعتبرون انفسهم عريقين في العروبة ويستندون في ذلك الى تواريخ مخطوطة لنسب عدد كبير من العائلات الدرزية وروايات شفوية متواترة على السنتهم خلفا عن سلف .

كما ان نقاء مخارج حروف لغتهم العربية المحكية فضلا عن اسماء اسلافهم العربية وعاداتهم وتقاليدهم مما يدعم الحجة في صحة نسبهم العربي هذا[٢٢] . وعلى الرغم

---

١٨ - راجع ، نزار عبد اللطيف الحديثي ، **اهل اليمن في صدر الاسلام ، دورهم واستقرارهم في الامصار** (رسالة دكتوراه غير منشوره ، جامعة بغداد ١٩٧٥) ص ١٥٨ - ١٧٥ وكرد علي ، **المرجع السابق** ، ص ٦٥

١٩ - **المرجع نفسه** ، ص ٦٧ .

٢٠ - قارن : N.M. Izzedin, *The Racial Origin of the Druzes* (Chicago, 1944), P 2-3.

Carra de vaux, «Druzes» *Encyclopaedia of Islam* (Leyden, 1913,) Vol I, P. 1075.

٢٢ - حسين ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦ - ٢٧

من اعتراف الدروز انفسهم بوجود بعض العائلات المتحدرة من اصل غير عربي بينهم ، فان السواد الاعظم من الدروز يعتزون بعروبتهم [٢٣] . ونحن بدورنا نرى في صحة نسب عدد من العائلات الدرزية العريقة الى قبائل عربية معروفة استقرت في بلاد الشام قبل الاسلام وبعده دليلا ثابتا على عروبتهم . ومن هذه القبائل تيم الله او (تيم اللات) التي هاجرت اولا من الجزيرة العربية الى وادي الفرات ثم استقرت في المكان المعروف اليوم بوادي التيم في جنوب لبنان مهد دعوة التوحيد الدرزية [٢٤] . ومنها قبيلة لخم التي استقرت في الحيرة واليها ينتسب الامراء الارسلانيون والبحتريون التنوخيون الذين حكموا لبنان خلال القرون الوسطى [٢٥] . ومنها قبيلة طيء التي استقرت في الاطراف الجنوبية من بلاد الشام والتي قامت بدور مهم في تأييد الفاطميين وتزعمت على عرب فلسطين [٢٦] .

ونذكر ايضا في هذا المجال قبيلة ربيعة النجدية التي ينتسب اليها بنو معن وقد نزلوا اولا في الجزيرة الفراتية ثم في الديار الحلبية واخيرا استقروا في لبنان كما سنرى فيما بعد [٢٧] . وكذلك بنو جندل الذين ينتسبون الى قبيلة تميم وقد نزلوا في وادي التيم .

وليست هذه العشائر التي تزعمت الدروز لفترة طويلة هي الوحيدة التي تنتسب الى اصل عربي بل ان معظم العائلات الدرزية التي مثلت دورا لا يستهان به في تاريخ الدروز السياسي تنتسب بدورها الى اصل عربي ، ومنها على سبيل المثال لا

---

٢٣ ـ شكيب ارسلان ، « الدروز او بنو معروف باجمعهم عرب صراح » في كتاب : الكابيتان بورون ، **الدروز** ، ترجمة عادل تقي الدين (حريصا ، مطبعة القديس بولس ، ١٩٣٣) ص ٢٤٤ ـ ٢٤٧

٢٤ ـ محمد بن جرير الطبري ، **تاريخ الرسل والملوك** (ليون ، ١٨٨٩) ج ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠

٢٥ ـ شكيب ارسلان ، « عروبة ال معروف » **مجلة المجمع العلمي العربي** ، م ١١ (تموز ـ آب ١٩٤٣١) ص ٤٤٩ ـ ٤٦٣

٢٦ ـ ابن العديم ، **كتاب من تاريخ حلب** ، ج ٣ ، (مخطوط ، ص ٢٤٧) . كذلك : مصطفى الحيارى ، **الامارة الطائية في بلاد الشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين** (رسالة غير منشورة ، الجامعة الاميركية في بيروت ١٩٦٩) ص ٥٥ ـ ٥٩ والجدير بالذكر ان السيد المقتنى بهاء الدين امام دعوة التوحيد بعد حمزة هو من قبيلة طيء وآل ابو مصلح يرجعون نسبهم الى طيء .

ColonelChurchill *Mount Lebanon, A Ten Year Residence From 1842—1852* 2 nd edt, (London, 1833) Vol 1, PP. 221-223.

الحصر ، آل نكد الذين ينتسبون الى بني تغلب وقد اشتركوا بحسب ما ترويه بعض المصادر بعملية الفتح الاسلامي لمصر وبلاد المغرب [28] . وكذلك آل تلحوق المنتسبين الى بني عزام وهم فرع من قبيلة الازد ، استوطنوا الجزيرة الفراتية ثم قدموا الى لبنان مع الامراء المعنيين . ونذكر ايضا آل عبد الملك المنتسبين بدورهم الى بني شويزان وقدموا الى لبنان مع بعض الامراء التنوخيين [30] . كما نشير في هذا المجال الى الامراء اللمعيين الدروز المنتسبين بدورهم الى بني فوارس وهم على الارجح فرع من تنوخ قدموا الى لبنان في القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد [31] . كذلك فان آل ناصر الدين القاطنين اليوم في كفرمتى وآل القاضي القاطنين في بيصور يعيدون نسبهم الى تنوخ . الا ان هذه العائلات المتحدرة من اصل عربي لا نعرف لها تاريخا سياسيا قبل قيام دعوة التوحيد الدرزية باستثناء الارسلانيين والبحتريين التنوخيين . وان اوسع المعلومات التي وصلتنا عن هذه الحقبة تتعلق باخبار هذين الفرعين المنتسبين الى قبيلة لخم العربية . وتجدر الاشارة هنا الى الالتباس القائم حول صلة الامراء التنوخيين الدروز في لبنان بتنوخ التي هي كما يبدو ، عبارة عن حلف من القبائل من ارومة واحدة على الارجح ، تحالفت على المقام بمكان ما قيل انه في البحرين وقيل في الشام [32] . وفي رأي بعض المؤرخين ان تنوخ هي فرع من بني قضاعة القحطانيين الذين هاجروا من اليمن بعد تهدم سدّ مأرب في اوائل القرن الثاني للميلاد [33] . وقد التفت حول قضاعة قبائل بطون نمارة بن لخم وغيرهم من بني قحطان .

---

٢٨ - راجع عارف النكدي ، « ابو نكد » **دائرة المعارف الحديثة** م ٥ ص ١٥٨ وكذلك : طنوس الشدياق ، **اخبار الاعيان في جبل لبنان** (مكتبة العرفان ، بيروت ، ١٩٥٤) ج ١ ص ١٨٥

٢٩ - بطرس البستاني ، **دائرة المعارف** (القديمة) م٦ ، ص ١٩١ ، كذلك الشدياق ، **المرجع السابق** ،ج ١ ، ص ١٩٥ .

٣٠ - Churchill,op.cit,p222-226
والشدياق ، **المرجع السابق** ،ج ١ ، ص ٢٠٠

٣١ - رئيف ابي اللمع ، « ابو اللمع » **دائرة المعارف الحديثة** م ٥ ، ص ٩١ ، ويؤكد ان أل ابي اللمع هم فرع من التنوخيين ولكنه لا يذكر اي مصدر لاثبات ذلك ، اما تشرشل فانه يؤكد في المصدر المذكور ان بني فوارس هم فرع من تنوخ ويرجع نسب اللمعيين بدوره الى بني فوارس . وآل الصايغ اليوم من بلدة شارون وهم اصلا من شمليخ ينتسبون الى بني الفوارس .

٣٢ - راجع H . Kinderman ، « تنوخ » **دائرة المعارف الاسلامية** (ترجمة) م ٥ ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩

تنوخيو لبنان فرع من لخم :

جاء في بعض الروايات ان قضاعة هاجرت من البحرين الى العراق واسست لها دولة هناك عرفت بدولة آل تنوخ دامت نحو مئة وثلاثين سنة . وبعد مقتل جذيمة آخرملوك هذه الدولةالذي لم يترك عقبا انتقل الحكم الى ابن اخته عمروبن عدي اللخمي سنة **٢٦٨** م فكان اول ملوك اللخميين المناذرة في الحيرة [٣٥] . واستمرت هذه المملكة العربية نحو اربعة قرون وقامت بدور مهم في الصراع بين الفرس والبيزنطيين الى ان زالت بظهور الاسلام وفتح خالد بن الوليد للحيرة . ولا حاجة لتفصيل اخبار دولة المناذرة اللخمية في الحيرة اذ هي معروفة مشهورة لكل من له بعض الاطلاع على تاريخ العرب القديم . ولكننا في سياق هذا الموضوع لا بد لنا من ذكر بعض ملوك الحيرة اللخميين الذين يعيد بعض العائلات الدرزيةنسبه اليها . وقد مثلت هذه العائلات دورا مهما في تاريخ الدروز السياسي خلال القرون الوسطى . ونذكر في مقدمة هؤلاء الملوك اللخميين المنذر الثالث (**٥١٤ - ٥٦٣** م) الملقب بابن ماء السماء واليه ينتسب الامراء الارسلانيون والبحتريون التنوخيون . ونذكر ايضا آخر حكام اللخميين في الحيرة وهو النعمان الثالث بن المنذر الرابع الملقب بابي قابوس (**٥٨٥ - ٦١٣** م) وهو الذي قضى عليه وعلى امارته العربية كسرى ابرويز ملك الفرس . وبعد مقتل النعمان هاجرت افخاذ من تنوخ ولخم فسكن بعضهم معرة النعمان في منطقة حلب [٣٦] . ويرى بعض المحققين ان امراء لبنان التنوخيين لا ينتسبون الى تنوخ قضاعة التي اعتنقت النصرانية قبل الاسلام وانما الى

---

٣٣ - يذكر حمزة الاصفهاني في تاريخ سني الملوك والانبياء (ص ١٢٦) بان انفجار سد مأرب وقع قبل ظهور الاسلام باربعة قرون ، فيما يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان ج ٤ ، ص **٣٨٣** وقوع هذا الحدث قبل ظهور الاسلام بقرن واحد . الا انه يستخلص من مختلف الروايات التاريخية بان سد مأرب قد تعرض للانفجار عدة مرات قبل القرن السادس للميلاد . وتعزو الاخبار نزوح التنوخيين ومنهم اللخميين الى بلاد الشام خلال المرحلة الاولى . راجع « M'ARIB » في **دائرة المعارف الاسلامية** (القديمة) .

٣٤ - علي ظريف الاعظمي البغدادي ، **تاريخ ملوك الحيرة** (مصر ، المطبعة السلفية ، **١٩٢٠**) ص ٦ - ٩ .

٣٥ - الاعظمي ، **المصدر السابق** ،ص ٢٠

٣٦ - ابن قتيبة ، **المعارف** ،ص **٣١٩**

قبيلة لخم التي ، كما سبق وذكرنا ، تحالفت مع قضاعة وغيرها من القبائل في حلف سُمي بتنوخ [٣٧] . ولعل تحالف هذه القبائل تحت اسم تنوخ جعل بعض المؤرخين ينسبون تنوخي لبنان الى قضاعة [٣٨] .

وسواء كان للخميين صلات بتنوخ قضاعة ام لا ، فان تنوخيي لبنان الارسلانيين والبحتريين اثبتوا صحة نسبهم اللخمي . وفيما ينتسب الارسلانيون الى المنذر الخامس الملقب بالمغرور وهو ابن النعمان بن المنذر الثالث بن ماء السماء (**٥١٤** م - **٥٦٣** م) فان البحتريين ينتسبون بدورهم الى تميم بن النعمان بن المنذر الثالث بن ماء السماء [٣٩] . اي ان الارسلانيين والبحتريين هما فخذان من اصل واحد . اما تسمية الامارة البحترية في لبنان بالامارة التنوخية فانها على الارجح ترجع الى احد جدود البحتريين وهو تنوخ بن قحطان المنتسب بدوره الى المنذر بن ماء السماء اللخمي [٤٠] . كما ان نسبة الامراء الارسلانيين الى تنوخ تعود ، اما لنسبة لخم الى الحلف القبلي المسمى تنوخ او لاحد جدود الارسلانيين المنذر بن مسعود الملقب بالتنوخي [٤١] .

حول قدوم التنوخيين الى لبنان :

ومع ان المؤرخ صالح بن يحي البحتري التنوخي لا يخبرنا عن كيفية قدوم اجداده التنوخيين الى لبنان ، فان مصادر اخرى وبعضها متأخر كالسجل الارسلاني « وعمدة العارفيين » و « تاريخ ملوك الحيرة » تلقي بعض الضوء على هذا الموضوع . فالاشرفاني يذكر في كتابه المخطوط « عمدة العارفين » بان فخذا من التنوخيين قدم الى بيروت ومنطقة الغرب في لبنان مع انقوات الفتح الاسلامي [٤٢] .

---

٣٧ - راجع عجاج نويهض ، **ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، لخم والمردة** (بيروت مطبعة دار الصحافة ، ١٩٦٢) . ص ٥٠

٣٨ - ارسلان « عروبة لبنان » ، ص ٤٦١ .

٣٩ - صالح بن يحي ، **تاريخ بيروت** ، تحقيق فرنسيس هورس وكمال الصليبي (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٩) ص ٣٩ . كذلك ، نويهض ، المرجع السابق ، ص ٣٣ . راجع ايضا شجرة نسب كل من الامراء الارسلانيين والبحتريين التنوخيين في نهاية هذا الفصل .

٤٠ - راجع الامير امين ال ناصر الدين « الامراء ال تنوخ » **اوراق لبنانية** ، م ١ ، ص ٢٦٣ - (حزيران ، ١٩٥٦) كذلك ، الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٦ .

٤١ - اسد رستم « ال ارسلان » **دائرة المعارف اللبنانية** ، م ١ ، ص ١٦٣ - ١٦٧ ، كذلك ، الشدياق ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

٤٢ - محمد مالك الاشرفاني ، **عمدة العارفين** ، مخطوط ، ورقة رقم ٢٧٩ .

وفي رواية اخرى لا نعرف مصدرها وردت في كتاب « تاريخ ملوك الحيرة » لعلي ظريف الاعظمي البغدادي ، انه لما قتل النعمان الثالث (٦١٣ م) ملك الحيرة اللخمي ، سار احد اولاده بحملة من قبائل العرب ونزل بهم في سفح جبل لبنان الغربي فاستقروا هناك وثبتت الامارة لاولاد النعمان وتوارثوها[٤٣] .

ولكن السجل الارسلاني - وهو كناية عن مجموعة اوراق قديمة وحجج صادرة عن قضاة الشرع في معرة النعمان ودمشق وبيروت وطرابلس وصيدا تتعلق بنسب الارسلانيين واخبار اللخميين الذين قدموا الى لبنان سنة **١٤٢ هـ / ٧٥٩ م** ، حافل باقدم الاخبار واوثقها عن اللخميين جدود الفرع الارسلاني منذ الفتح العربي الاسلامي لبلاد الشام [٤٤] . وجاء في هذا السجل ان الامير عونا اللخمي سار برفقة خالد بن الوليد من العراق الى الشام لنجدة الجيش الاسلامي ومعه نحو الف وخمسماية فارس من اللخميين واستشهد في موقعة اجنادين (**٦٣٤ م / ١٣ هـ**) [٤٥] .

وخلف الامير عونا ابنه الامير مسعود الملقب بقحطان واشترك في عملية فتح دمشق وموقعة اليرموك الحاسمة ودخل مع الجيش الاسلامي الفاتح الى القدس ثم سار برفقة القائد ابي عبيدة بن الجراح لفتح حلب حيث ابلى بلاء حسنا في القتال واستقر مع عشائره في معرة النعمان كما وعده بذلك الخليفة عمر بن الخطاب [٤٦] . وبقي اللخميون في المعره حتى قيام الدولة العباسية حيث انحاز احد امرائهم المدعو مالكا الى العباسيين وقاتل في صفوفهم في معركة الزاب الفاصلة سنة **١٣٢ هـ / ٧٥٠ م** . ولكن استقرار اللخميين في المعرة لم يدم طويلا بعد قيام الدولة العباسية ، اذ سرعان ما كلفوا بمهمة عسكرية في لبنان من قبل الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور . ذلك ان الخلافة العباسية وضعت في مطلع عهدها خطة عسكرية للدفاع عن تخومها ضد غزوات البيزنطيين واعوانهم المردة . وكان البيزنطيون خلال العهد الاموي يغزون

---

٤٣ - الاعظمي ، المرجع السابق ، ص ٢٢١

٤٤ - راجع ، نويهض ، المرجع السابق ، ص ١٠ - ١١

٤٥ - جرت موقعة اجندين بين جيش الفتح العربي الاسلامي والجيش البيزنطي في الثلاثين من تموز ٦٣٤ م ، وكان النصر حليف القوات الاسلامية (موقعها على طريق غزة القدس) .

٤٦ - شكيب ارسلان ، **الروض الشقيق في الجزل الرقيق ، ديوان المرحوم الامير نسيب ارسلان ومعه ترجمة الناظم وفيها نسبه وسلسلة نسب العائلة الارسلانية** (دمشق مطبعة ابن زيدون ١٩٢٥) ، ص ٢٤٠

سواحل بلاد الشام من حين الى آخر ، وكانت غزواتهم تتكرر بشكل خاص عندما يكون الحكم الاسلامي ضعيفا او في كل فرصة ينشب فيها الصراع الداخلي في الدولة الاسلامية [٤٧] . على ان هذه الحملات البيزنطية قلما اتخذت شكل الحرب النظامية المستمرة ولكنها اصبحت اشد خطورة بعدما سرّب البيزنطيون منذ عهد معاوية بن ابي سفيان جماعة من الجراجمة [٤٨] ، اتخذت قواعد لها في جبال لبنان الشمالية واخذت تغير مع بعض الموالين لها على اطراف الدولة الاموية وداخلها [٤٩] . ولا بدّ من الاشارة هنا الى ان كبار المؤرخين والباحثين ما زالوا مختلفين اختلافا شديدا حول طبيعة الصلة التي تربط هؤلاء الجراجمة بالمردة والموارنة وكذلك صلتهم بالسكان الاصليين في لبنان [٥٠] . ولكنه يبدو ان الاهمية الاستراتيجية للبنان قبل الاسلام وبعده جعلت البيزنطيين يعملون على ايجاد جماعات موالية لهم في المناطق الجبلية والساحلية سواء كانت هذه الجماعات من سكان لبنان الاصليين ام من خارجه [٥١] . وسرعان ما ادرك القادة المسلمون خطورة المرتفعات والمدن الساحلية اللبنانية المطلة على القسم الشرقي من البحر المتوسط في عملية الدفاع عن دولتهم ضد الخطر البيزنطي . وتذكر المصادر العربية ان معاوية اولى المدن الساحلية هذه اهتماما خاصا فشرع في تحصينها وتجهيزها بالمقاتلين [٥٢] . ولما كانت بعض المدن الساحلية انذاك قليلة السكان بسبب الحروب والنزوح عمد معاوية الى نقل بعض السكان الجدد اليها [٥٣] . وكان البيزنطيون ـ الذين سربوا الى المناطق الجبلية في لبنان بعض الجراجمة ليثير هؤلاء بمساندة حلفائهم القلاقل والاضطرابات في وجه الامويين ـ قد رضوا زمن حكم

---

٤٧ ـ احمد العدوى ، **الامويون والبيزنطيون** (القاهرة . مكتبة الانجلو مصرية ، **١٩٥٣**) ص ١١١

٤٨ ـ اسد رستم ، **الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب** (بيروت . دار المكشوف ، **١٩٥٦**) ج ١ ، ص ٢٦٠ - ٢٦١

٤٩ ـ احمد بن يحي البلاذرى ، **فتوح البلدان** ، نشر صلاح الدين المنجد (القاهرة . مكتبة النهضة المصرية ، **١٩٥٦**) ص ١٨٩ . كذلك راجع A.A.Vasiliev, *History of the Byzantine Empire(Madison,1925)* pp 214-215

٥٠ ـ راجع بما يخص تلك الخلافات ، لامنس ، **المرجع السابق** ، ج ٢ ، ص ٤١ - ٤٨

٥١ ـ فيليب حتي ، **لبنان في التاريخ** ، ترجمة الدكتور انيس فريحة (بيروت . دار الثقافة ، **١٩٥٩**) ص ٣٣٦ .

٥٢ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٠ ، كذلك فتحي عثمان ، **الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري** (الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦) ص ٣٣٦ - ٣٣٧

٥٣ ـ ابن واضح اليعقوبي ، **كتاب البلدان** (ليون ، طبعة دى جوى ، **١٨٩٢**) ص ٣٢٧ .

معاوية ومن بعده زمن عبد الملك بن مروان ان يتوقفوا عن مساندة هؤلاء مقابل ضريبة سنوية [54] . ولم تكن سياسة الامويين هذه الا عملا مؤقتا لكي يستطيعوا الانصراف الى معالجة شؤونهم الداخلية ، اذ بقي البيزنطيون قادرين على اثارة اعوانهم عندما يتوقف مفعول تلك الهدنة مع الامويين .

التنوخيون يتصدون للغزو البيزنطي :

جاءت الثورات التي قامت في بداية الحكم العباسي داخل لبنان ومنها ثورة المنيطرة (١٤٢ هـ) (٧٥٩ م) [55] ، لتبرهن ان سياسة الامويين لارضاء البيزنطيين واعوانهم بالمال ليست بالحل الدائم ، وان حماية سواحل بلاد الشام من الخطر البيزنطي تستوجب وجود قوة عسكرية مستعدة للتدخل فورا ضد اي عمل عسكري يقوم به البيزنطيون على الساحل . وطالما ان مثل هذه القوة لا يمكن ان تبقى وتستمر في فاعليتها الدفاعية الا بين سكان موالين لها وللسلطة الحاكمة معا ، فالحل العملي كان يقضي باسكان عدد من القبائل العربية الموالية للسلطة في المواقع الاستراتيجية ومنها المنطقة الجبلية المطلة على الشاطىء اللبناني والتي كانت لا تزال قليلة السكان [56].

فمثل هذه القبائل تستطيع ان تدافع عن هذا الجزء المهم من الدولة الاسلامية وان تستنجد بجيش الخليفة عند الضرورة . ويبدو من سياق الاحداث ان الخليفة العباسي ابا جعفر المنصور كان اول من تبنى هذه الاستراتيجية الدفاعية الجديدة ضد الخطر البيزنطي على السواحل ، وذلك عندما طلب من الاميرين ارسلان واخيه المنذر اللخميين النزول (بعشائرهما) في المناطق الجبلية المحاذية لبيروت [57] . وقد ورد في السجل الارسلاني ان الاميرين اللخميان منذر وارسلان استجابا لطلب الخليفة العباسي في حدود السنة ١٤١ هـ / ٧٥٨ م ورحلا بعشائرهما من المعرة الى لبنان ونزلا اولا في حصن ابي الجيش في وادي التيم ثم في المغيثة (بالقرب من صوفر) واعتزلوا بعدها

---

٥٤ ـ البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠

٥٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٦٢

٥٦ ـ لامنس ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤ ـ ٢٥

٥٧ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠ ، ويذكر ان ابا جعفر المنصور كان قد بلغه قوة المردة في لبنان ومنعهم ابناء السبيل عن المرور في الطرقات .

المضارب وتفرقوا في البلاد . ولا ندري ما هو عدد الرجال الذين جاؤوا في عداد هذه العشائر الى لبنان ولكن قد يصح تقديرها بعدة آلاف اذا ما تذكرنا بان الامير عوناً اللخمي لما سار برفقة خالد بن الوليد الى فتح الشام سنة **١٣** هـ / **٦٣٥** م كان بحوزته نحو الف وخمسماية فارس من اللخميين[٥٨] . ومما يعزز صحة هذا التقدير ما جاء في بعض المصادر المتأخرة « كاخبار الاعيان » للشدياق حيث يذكر في « اخبار الامراء الارسلانيين » بان ابا جعفر المنصور «كان قد بلغه قوة مردة لبنان ومنعهم ابناء السبيل عن المرور في الطرقات المجاورة بلادهم . وان غزواتهم قد اتصلت الى بلاد حماه وحمص وغيرها . ولم تتمكن الاسلام من بلادهم لسطوتهم وتحصنهم في الجبال العاصية . فاستصوب ان يقيم بعض العشائر في البلاد الخالية المجاورة بلادهم لقهرهم . . . فلما رأى ما عندهم ـ اي عند الاميرين اللخميين منذر وارسلان ـ من الحماسة والقوة اطلعهم على ارادته بذلك فلبوه مخلصين . فامرهم بالسكنى في جبال بيروت الخالية وانعم عليهم باقطاعات معلومة في لبنان واعطاهم مناشير بها واستنهضهم للذهاب[٥٩] .

فاذا كان الهدف من مجيء الامراء اللخميين هو رد غزوات المردة ودرء خطر البيزنطيين على السواحل وتأمين الطريق التي تربط دمشق ببيروت والساحل ، فلا بد والحالة هذه ان يكون لدى الأمراء اللخميين قوة كافية للقيام بهذه المهمة . ويستنتج من احدى حجج السجل الارسلاني انه جاء الى لبنان مع الاميرين المذكورين اولاد اخوتهما ، الامير خالد بن الامير حسان والامير عبدالله بن الامير النعمان والامير فوارس بن الامير عبد الملك . واستوطن الامير منذر بن مالك في حصن سرحمول (الغرب) بينما استقر اخوه الامير ارسلان في سن الفيل . اما الامير خالد فقد سكن طردلا والامير عبدالله في كفرا والامير فوارس في عبيه[٦٠] . ومن الملاحظ ان المواقع التي استقر فيها هؤلاء اللخميون كانت ذات اهمية استراتيجية من الوجهة

---

٥٨ ـ ارسلان ، المرجع السابق ، ص **٢٤١** نقلا عن السجل الارسلاني .

٥٩ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج **٢** ، ص **٢٧٨** .

٦٠ ـ نويهض ، المرجع السابق ، ص **٣٧** ، والشدياق ، المرجع السابق ، ج **٢** ، و ص **٢٧٨** ـ **٢٧٩** . طردلا ، قرية دراسة تقع في الشحار الغرب . كفرا ، قرية دارسة تقع شرقي قرية عيناب من الغرب الاعلى في لبنان .

العسكرية . وجرت بينهم وبين المردة مواقع عديدة اشهرها معركة نهر الموت ومعركة انطلياس . وكان النصر حليف هؤلاء الامراء فتمكنوا من احكام سيطرتهم على القسم الاوسط من لبنان واجبروا المردة على الانكفاء عن ساحل بيروت . ومنذ سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م اصبحت الزعامة بين هؤلاء الامراء اللخميين للفرع الارسلاني . وكان اولهم الامير مسعود بن ارسلان الذي كان يقطن سن الفيل واشتهر امره في معركة حاسمة انتصر فيها على المردة في هذا المكان (١٧٥ هـ / ٧٩١ م) . بيد ان انتصار الامير مسعود الارسلاني على المردة لم يمنع ظهور السفن البيزنطية احيانا على الساحل ، واستطاعت هذه السفن (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) ان تصل الى منطقة الاوزاعي خلسة فتخطف الامير عمرو الارسلاني ومعه ثلاثة رجال . ولكن الدولة العباسية التي بلغت ذروة مجدها زمن خلافة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٤ هـ / ٧٨٦ - ٨٠٩ م) لم تتوانَ عن اتباع سياسة عسكرية حازمة ضد البيزنطيين واعوانهم فأستأنفت سياسة الهجوم وتصدت لغزواتهم . وتذكر بعض المصادر ان الرشيد قرر تعزيز قوة اللخميين في لبنان ضد اعدائه البيزنطيين . وبعد ان عمل على اطلاق سراح الامير عمرو ورفاقه طلب من الامير ثابت بن نصر الخزاعي امير الثغور الشامية ، اطلاق التنبيه في البلاد للرحيل الى لبنان وشد ازر امرائه اللخميين ضد (اهل العاصية)[٦٢] . وتعزو تلك المصادر الى هذه الفترة بالذات قدوم عشائر عربية جديدة الى لبنان تنفيذا لهذه السياسة . فالشدياق يذكر في كتابه « اخبار الاعيان » بان قدوم الامير تنوخ جد الامراء البحتريين الى لبنان كان في حدود السنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م . وقد جاء معه عشرة طوائف هي : بنو فراس ، وبنو عزايم ، وبنو عبدالله ، وبنو عطير ، وبنو خضر ، وبنو هلال ، وبنو كاسب وبنو شجاع وبنو نمر ،وبنو شرارة[٦٣].ولكن الشدياق يذكر رواية اخرى لقدوم هذه العشيرة اللخمية

---

٦١ - الشدياق ، المرجع السابق ، ص ٢٨ .

٦٢ - راجع محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ١ ، ص ٦٨ . كذلك . نويهض ، المرجع السابق ، ص ٤٥ - اهل العاصية لقب اطلقه العرب على المردة اي « اهل الجبال العاصية » .

٦٣ - يوسف ابراهيم يزبك ، **ولي من لبنان ،سيرة العارف بالله الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي** (بيروت ، ١٩٦٠) ص ٢٢ - ٢٣ . لم يرد اسماء هذه العشائر في كتاب الشدياق المطبوع وانما وردت في تاريخه المخطوط والمحفوظ في مكتبة يوسف ابراهيم يزبك . ويذكر الامير شكيب ارسلان ، في **الروض الشقيق** ،ص ٢٢٩ ان اسماء هذه العشائر وردت في احد كتب الانساب المخطوطة حيث يجعلها اثنتي عشرة عندما كانت لا تزال في معرة النعمان . ولعل الشدياق نقل هذه الاسماء عن هذا المصدر .

الجديدة الى لبنان . وملخص تلك الرواية ، انه لما كان التنوخيون في الجبل الاعلى من منطقة حلب تعرض المشد ـ الذي ولي عليهم من قبل حاكم حلب ـ لبعض حريمهم فوثب على المشد رجل اسمه نبا فقتله . وخوفا من انتقام الوالي فَر الامير نبا مع عشيرته الى كسروان في لبنان وبنى له منزلا هناك وسكنه وسمي المكان باسمه « برج نبا »[٦٤] . الا ان هذا الحادث الذي يرويه الشدياق لا يعدو كونه احد الاسباب الخاصة لمجيء التنوخيين الى لبنان . ذلك ان الشدياق لا يذكر اي سبب لقدوم بقية الطوائف المذكورة مع التنوخيين مما يدفعنا للاعتقاد بان اسبابا اخرى اكثر اهمية جعلت هذه العشائر ترحل الى لبنان في هذه الحقبة . وقد توزعت هذه العشائر في المناطق الوسطى من لبنان والتي كانت قليلة السكان او غير مأهولة . وتمتد هذه المناطق من شمال شرق صيدا حتى شمال شرق بيروت بما فيها الهضاب المشرفة على الشاطىء اي بما فيها منطقة الغرب اليوم وهي مناطق استراتيجية من الناحية العسكرية ، مما يعزز الاعتقاد بان هذه العشائر اتت الى لبنان من اجل تعزيز صمود اللخميين في وجه البزنطيين والمردة اعداء الدولة العباسية . وتذكر بعض المصادر المتأخرة ان هذه العشائر نزلت اولا في منطقة عين دارا حيث شيد بنو تنوخ القرية هناك . وتقدم بنو شويزان جدود آل عبد الملك الدروز الى جوار نبع الصفا حيث بنوا قرية عين زحلتا . بينما تقدمت عشيرة بني فوارس التي ينتسب اليها اللمعيون الدروز الى المتن . اما آل عبد الله وهلال فقد استقروا في المواقع التي تقع فيها القرى التالية ، البنيه وكفرمتى ورمطون وطردلا وعرمون وعين كسور وعبيه وسرحمول[٦٥] .

زعامة الفرع الارسلاني لتنوخي لبنان :

ويستنتج من الاخبار التي وردتنا عن هذه الحقبة بان زعامة هذه العشائر ظلت كما يبدو في قبضة الفرع الارسلاني من اللخميين . فالامراء الارسلانيون الذين والوا الخلافة العباسية قبل قدومهم الى لبنان ظلوا محافظين على هذا الولاء السياسي لعدة قرون . ولم يقتصر نشاط هذه العشائر العربية على الدفاع عن سلامة هذه المناطق ضد غزوات البيزنطيين بل تعدى ذلك الى مساعدة الخلافة العباسية في

---

٦٤ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٧ كذلك . Churchill, o.p,cit , p 223.

٦٥ ـ قابل ايضا الروض الشقيق ، ص ٢٣٠ كذلك Churchill,op.cit,pp.225-227

حروبها خارج بلاد الشام . وتروي لنا بعض المصادر ان زعيمهم الامير مسعود الارسلاني رافق الخليفة المأمون مع فرسانه الى مصر واشترك معه في حربه ضد الاقباط سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م . واظهر الامير الارسلاني ورجاله شجاعة نادرة في القتال مما جعل الخليفة العباسي يوليه بالاضافة الى امارة الغرب التقليدية ولاية صيدا ومقاطعة صفد . كما ان اميرا ارسلانيا آخر في فترة لاحقة وهو النعمان بن عامر بن مسعود (٢٧٠ - ٣٢٥ هـ / ٨٣٠ - ٩٣٦ م) حارب مع قواته الى جانب قائد العباسيين آماجور التركي ضد ثورة عيسى ابن الشيخ الشيباني في بلاد الشام . ولما كان النصر حليف العباسيين كوفىء النعمان بتوليته بيروت وصيدا وتوابعهما وبجعل الامارة له ولذريته من بعده [٦٦] .

الامير النعمان الارسلاني :

ولم ينس النعمان مهمته الاولى ، وهي التصدي لغزوات البيزنطيين واعوانهم ، فأسر سنة ٢٠٦ هـ / ٨١٥ م ربابنة بعض السفن البيزنطية عندما حاولوا النزول عند رأس بيروت كما صدّ بدوره هجوما جديدا للمردة عند نهر بيروت شرقي المدينة وانتصر عليهم . وعرف الخليفة العباسي بنشاط النعمان ، فسر لشجاعته ، وبعث له بكتاب يمدحه ويقره على ولايته كما اهداه سيفا وشعار العباسيين الاسود[٦٧]

وحافظ الا ميرالنعمان خلال فترةحكمه الطويلةعلى سياسة الود والولاء الروحي للعباسيين ، مع ان بلاد الشام كانت قد اصبحت منذ عام ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م تحت نفوذ احمد ابن طولون[٦٨] . ولما احتدم الصراع بين العباسيين والطولونيين على بلاد الشام عمل النعمان على اتباع سياسة الحياد ما امكن تجنبا لما يمكن ان تجره تلك الحروب الاسلامية الداخلية من ويلات وخراب على امارته . وكذلك فعل النعمان فيما بعد ازاء حملات القرامطة والصراع الحمداني - الاخشيدي - العباسي خلال هذه

---

٦٦ - ارسلان ،الروض الشقيق ، ص ٢٣١ - ١٣٣ . راجع ايضا : الشدياق ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨١ - ٢٨٢

٦٧ - المرجع نفسه ، ص ٢٨٤

٦٨ - احمد بن طولون هو مؤسس الدولة الطولونية في مصر (٨٦٨ - ٩٠٥ م) استولى على سورية سنة ٨٧٧ م ، ثم قضى على هذه الدولة العباسيون سنة ٩٠٥ م .

الفترة من تاريخ ولايته . واستطاع بفضل سياسته الحكيمة ان يجنب امارته مساوىء تلك الاضطرابات المستمرة التي وقعت في بلاد الشام[69] .

ولم يكن ولاء هؤلاء الامراء للخلافة العباسية وموقفهم الثابت الى جانبها ضد اعدائها البيزنطيين ليتناقض مع سياستهم الرامية الى المحافظة على نوع من الاستقلال الداخلي في مناطقهم ، خاصة عندما كان ينشب الصراع بين مختلف القوى الاسلامية نفسها حول بلاد الشام . فلقد كانوا في مثل هذه الحالة يفضلون الوقوف على الحياد ما امكن وان لم يستطعوا ذلك كانوا يميلون بشكل عام الى جانب الفئة التي يرون انها سترجح كفتها في الصراع والتي يمكن ان تقرهم على امتيازاتهم المتوارثة في السلطة والحكم على هذا الجزء المهم من الدولة العربية الاسلامية . وتجلت هذه السياسة في موقف الامير النعمان تجاه احمد ابن طولون كما توضحت بشكل خاص في موقف احفاده ازاء الحكم الفاطمي في بلاد الشام[70] .

وهكذا لم يأت النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد حتى كانت المناطق الوسطى من لبنان والتي انتشرت فيها دعوة التوحيد الدرزية فيما بعد قد استقرت فيها عدة عشائر عربية منذ فترة طويلة وكانت لها الزعامة على السكان الاصليين . وتعرضت هذه كغيرها من مناطق بلاد الشام لحركة الاستعراب والاختلاط بالقادمين الجدد بحيث اصبح طابعها عربيا اسلاميا قبيل قيام دعوة التوحيد (الدرزية) . وهذا الخليط من السكان شكل ما يمكن ان نسميه اسلاف الموحدين الدروز . ومثل هؤلاء جميعا بزعامة الامراء اللخميين دورا اساسيا في لبنان الذي كان بدوره يشكل جزءا هاما من الدولة العباسية . وقد تمثل هذا الدور بالمحافظة على عروبة هذا الجزء من الدولة العربية الاسلامية وامنها ضد اعدائها البيزنطيين والمردة . الا ان النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد/ الرابع للهجرة شهد تغيرات هامة في بلاد الشام ،

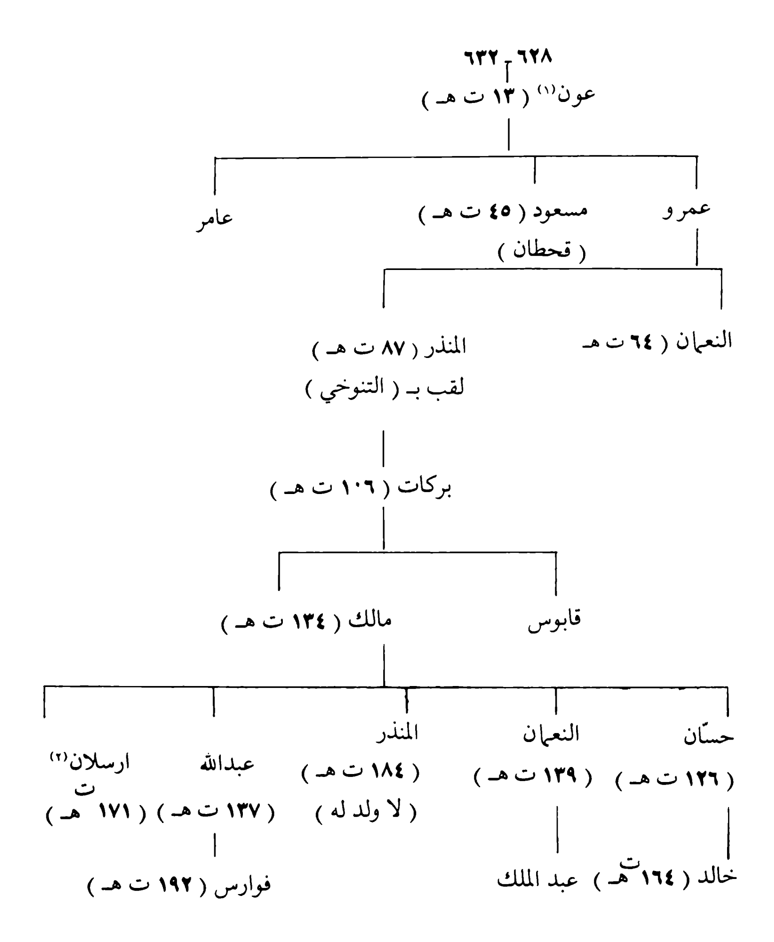
---

٦٩ ـ الدولة الاخشيدية اسسها محمد بن طغج الملقب بالاخشيد زمن الخليفة العباسي الراضي في مصر سنة ٩٣٩ م . ثم استولى الاخشيد على سورية وفلسطين والحجاز ونافس الدولة الحمدانية في حلب ، الى ان قضى الفاطميون على هذه الدولة سنة ٩٦٩ م .

راجع عز الدين ابو الحسن علي بن محمد (ابن الاثير) ، **الكامل في التاريخ** ، تحقيق عبد الوهاب النجار (مصر : ادارة الطباعة الميزية ، ١٣٥٣ هـ) ج ٦ ، ص ٩٩ ـ ١٠٠ و ص ١٠٤ ـ ١١٠ .

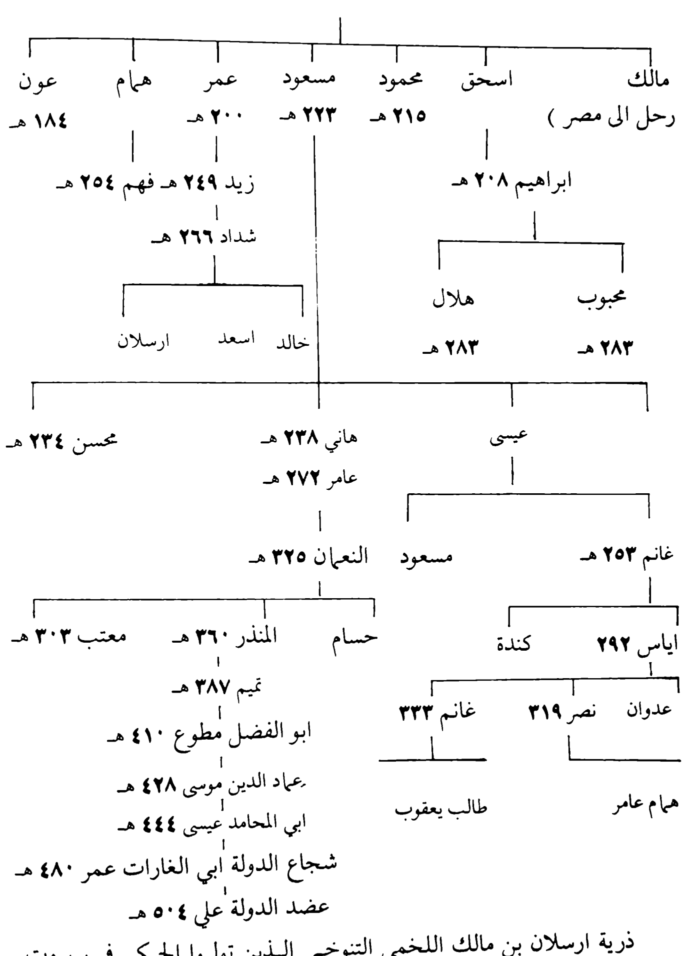
٧٠ ـ راجع . محمد علي مكي ، **لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني** (بيروت . دار النهار ، ١٩٧٧) ، ص ٧٩ ـ ٨٦ .

فقد رافق قدوم الفاطميين الى بلاد الشام تحول في الموقف السياسي لاسلاف الموحدين الدروز وزعمائهم تجاه العباسيين . ولكن تغير الموقف السياسي رافقه ايضا على ما يبدو تحول مذهبي عقائدي بلغ ذروته في مطلع القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد وتمثل بظهور دعوة التوحيد الدرزية كما سنرى في فصل لاحق .



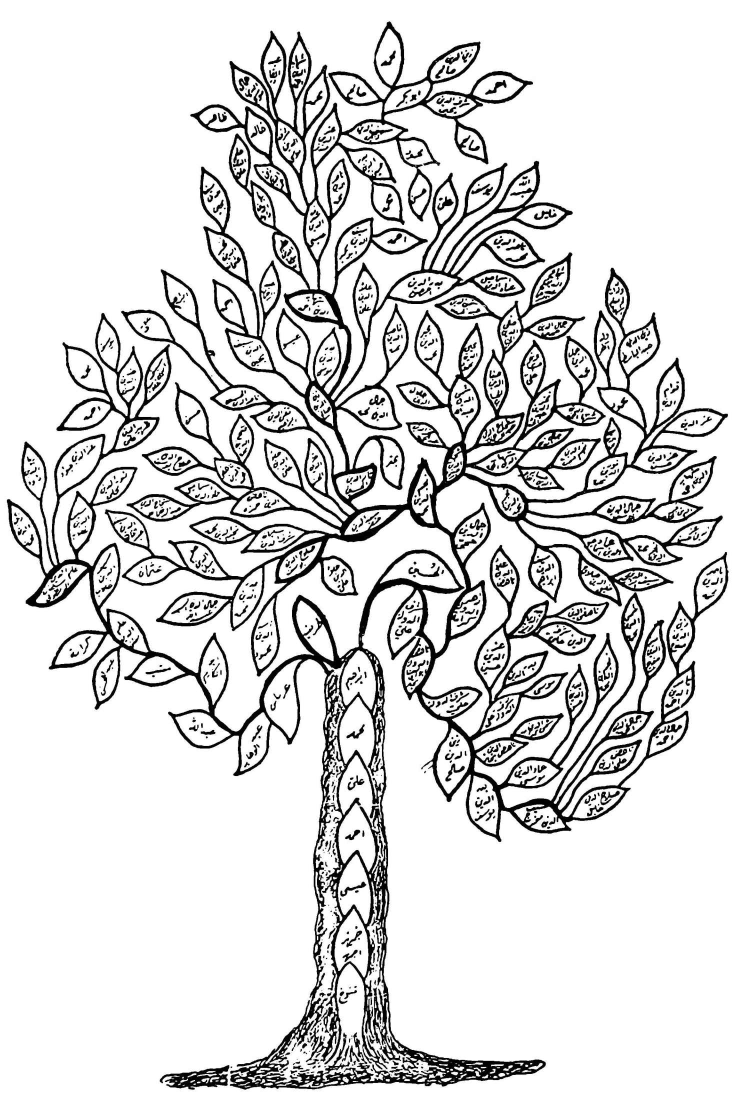
هؤلاء امراء لخم الذين انتقلوا بعشائرهم من المعرة الى لبنان سنة ١٤١ هـ - ٧٥٨ م

مصدر : عجاج نويهض ، ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان (بيروت ، دار الصحافة ، ١٩٦٢) .



ذرية ارسلان بن مالك اللخمي التنوخي الذين تولوا الحكم في بيروت والغرب قبل قدوم الصليبيين الى الشرق .

المصدر : عجاج نويهض « ابو جعفر المنصور وعروبة لبنان » ، ص ٣٤ .



شجرة النسب لبني تنوخ نقلاً عن تاريخ صالح بن يحيى

الفصل الثاني

دعوة التوحيد الدرزي

الظروف السياسية التي نشأت فيها الدعوة

لا شك ان دعوة التوحيد الدرزية بدأت بعد تسلم الحاكم بامر الله شؤون الخلافة الفاطمية بزمن يسير [1] . ولكن دعوة التوحيد هذه لم تنطلق فجأة من غير مقدمات وظروف سياسية ومذهبية دينية معينة مهدت لها الطريق وتركت آثارا واضحة على مدى نجاحها وانتشارها . ولذا نرى من الضروري قبل ان نبسط قصة الدعوة بكاملها ان نعطي صورة شاملة عن الظروف التي نشأت فيها الدعوة خلال فترة معينة من الحكم الفاطمي . وسيكون التركيز اذن في هذا الفصل على الاوضاع السياسية والدينية وما يرتبط بها من امور اثرت على وضع الدعوة في عهدي الحاكم والظاهر وقسم من خلافة المستنصر بالله . الا ان ارتباط العقائد المذهبية في العهد الفاطمي بالناحية السياسية تجعل من الصعب على الباحث تناول الوضع السياسي من غير التعرض للناحية العقائدية المذهبية . ولا تختلف عقيدة التوحيد من هذه الناحية عن بقية الفرق الاسلامية التي ترعرعت في ظل دولة ما وعملت على دعمها وتأثرت بمختلف الظروف السياسية المحيطة بها . والدولة الفاطمية التي نشأت في ظلها دعوة التوحيد الدرزية ، كان مذهبها شيعياً اسماعيلياً . والمذهب الاسماعيلي كما هو معروف هو احد مذاهب الشيعة الاسلامية الذي يحصر الامامة باسماعيل بن جعفر الصادق وهو الامام السابع المتحدر من سلالة الامام علي بن ابي طالب . وبعد موت الامام محمد بن اسماعيل اضطر اتباع هذا المذهب تحت وطأة الظروف السياسية واضطهاد الدولة العباسية لهم ان يعملوا بسرية تامة وبزعامة الائمة المستورين . ويرجح ان عدد هؤلاء ستة (ثلاثة منهم ائمة وثلاثة حلفاء) تعاقبوا على هذا المركز الديني الى ان اخذ الاسماعيليون يعملون في العلن من جديد وذلك بعد ظهور

---

(١) Sami Makarem, The Druze *Faith*, (New York : Caravan Books, 1974) P. 15

المهدي بالله في شمال افريقيا سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م حيث قضي على دولة الاغالبة واسس على انقاضها الدولة الفاطمية[٢] .

وتعاقب على الحكم في الدولة الفاطمية حتى عهد الحاكم بامر الله خمسة خلفاء من اهمهم بعد المهدي المعز لدين الله (٣٨٣ - ٤٠٧ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥م) الذي استولى على مصر بعد ان قضى على الدولة الاخشيدية . ثم العزيز بالله (٤٠٧ - ٤٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) الذي بلغت الدولة الفاطمية في عهده اوج اتساعها ، وبسطت سلطانها على المغرب ومصر والحجاز ومعظم بلاد الشام . ولما تسلم الحاكم بامر الله شؤون الخلافة (٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م) كان النفوذ الفاطمي في بلاد الشام قد شهد فترة مد وجزر خلال عهدي المعز والعزيز وذلك بسبب خطر القرامطة على المدن الداخلية وتهديد البيزنطيين للمدن الساحلية . وبالتالي سيطرة الحمدانيين على شمال سوريا[٣] .

الفاطميون والقرامطة :

يرى معظم الباحثين في المذاهب والفرق الاسلامية بان حركة القرامطة كانت على صلات وثيقة بالعقيدة الاسماعيلية في بلاد الشام . الا ان حركة القرامطة اتخذت في منحاها السياسي خطا ثوريا[٤] . واستطاع اتباع هذه الحركة ان يؤسسوا دولة لهم في الاحساء ، بزعامة ابي سعيد الجنابي قبل ان يتوسعوا باتجاه بلاد الشام . اما بلاد الشام فقد كانت خلال هذه الفترة تمر بمرحلة من عدم الاستقرار والفوضى السياسية بسبب ضعف الخلافة العباسية . واصبحت بعض المناطق الريفية من تلك البلاد خاضعة لسيطرة بعض القبائل والعشائر البدوية . ففي الشمال مثلا اشتد نفوذ

---

٢ - راجع برنارد لويس ، **اصول الاسماعيلية** ،ترجمة خليل جلّو وجاسم الرجب (مصر : دار الكتاب العربي لا . ت) ص ١٦٠ - ١٦٢ ، وقابل : Sami Makarem, «the Hidden Imams Of the IsmaiLis» **في الابحاث** م (٢٢ حزيران ، ١٩٦٩) ، ص ٢٣ - ٣٦

٣ - ابو يعلى حمزه بن القلانسي ، **ذيل تاريخ دمشق** (بيروت . نشر الاباء اليسوعيين ، ١٩٠٨) ص ١ - ٢١ : كذلك :

تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، **اتعاظ الحنفاء باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء**،تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة دار الفكر العربي ، ١٩٤٨) ص ١٧٨ - ١٧٩

٤ - لويس ، المرجع **السابق** ،ص ١٧٤ - ١٨٠ . راجع ايضا :

The Ency Clopaedia *Of Islam* VoL 2, PP 767 - 69 «Karamatian».

الكلبيين القيسيين ، وفي الجنوب كانت السيطرة لعشائر طيء .

وعندما أخذ القرامطة يغزون بلاد الشام في القرن العاشر للميلاد لقيت حركتهم تأييدا من بعض العشائر وسكان المناطق الريفية . ويذكر الطبري بان قائد القرامطة ابا القاسم حاول ان يكسب ولاء قبائل اسد وطيء وتميم عند غزوه لبلاد الشام [٥] . ولا يبدو في هذا الامر غرابة طالما ان المناطق الريفية في بلاد الشام كانت منذ نهاية القرن التاسع للميلاد وبداية القرن العاشر مسرحا لعدد من الفرق والمذاهب الاسلامية التي ابتعدت عن مذهب السنة ، ومن هذه الفرق ، الشيعة الامامية والاسماعيلية والنصيرية [٦] .

وفي الوقت الذي اخذ فيه القرامطة يغزون بلاد الشام كان الفاطميون يعملون على غزو مصر . ويبدو ان تحالفا ما كان قائما بين القرامطة والفاطميين في هذه المرحلة ، فبالاضافة الى التقارب المذهبي فقد جمع فيما بينهم هدف مشترك هو القضاء على الخلافة العباسية . الا ان علاقة الود بين الفريقين ما لبثت ان انقلبت الى عداء سافر.لخلافات سياسية في معظمها مما جعل التنافس بينهما للسيطرة على مصر وبلاد الشام يشتد [٧] . وكان نفوذ القرامطة آنذاك قد وصل الى مصر واوقعوا بالاخشيديين هزيمة تكراء واجبروهم على تأدية ضريبة سنوية . ولما احتل الفاطميون مصر وتقدموا لغزو بلاد الشام طلب زعيم القرامطة آنذاك الحسن بن احمد بن ابي سعيد (الاعصم) من الفاطميين تأدية الضريبة نفسها التي كان يؤديها لهم الاخشيديون من قبل . ولكن الفاطميين رفضوا ذلك مما اغضب الحسن وجعله يتبع سياسة عدائية للفاطميين . ونفى الاعصم اخوة بني طاهر المعروفين بولائهم للفاطميين كما تقرب من اعدائهم في بلاد الشام واقام الخطبة للخليفة العباسي المطيع بدل الخليفة الفاطمي المعز لدين الله [٨] . وبالمقابل رحب الخليفة العباسي والامراء البويهيون بالاعصم

---

٥ ـ محمد بن حرير الطبري . **تاريخ الرسل والملوك** . تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (مصر : دار المعارف ؛ ١٩٦٨) ج ١٠ ، ص ٩٤ ـ ٩٥ ولكن الطبري يدعوه زكرويه بن مهرويه خطأ

Kamal SaLibi, *Syria under Islam, Empire on Trial* 634 - 1097 (Delmar, N.Y Caravan, 1977) P 45 - 47

٧ ـ انظر كتاب الخليفة المعز لدين الله الى الحسن بن احمد القرمطي في كتاب المقريزي ، **اتعاظ الحنفا** ،ص ٢٥٩ ـ ٢٦١

٨ ـ جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٣٣) ج ٤ ، ص ٧٤

وامدوه بالمال والرجال لمحاربة الفاطميين . واستطاع الاعصم بفضل هذه القوات ان يهزم جيش الفاطميين بالقرب من دمشق سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م وان يجتاز فلسطين الى مصر سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م لمحاربتهم في عقر دارهم . ولكن جوهر الصقلي اعظم قادة الفاطميين استطاع ان يوقع بالقرامطة هزيمة نكراء ادت الى انسحاب جيش القرامطة من مصر ورجوعهم الى البحرين . واذ حاول الحسن القرمطي تحدى الفاطميين مرة ثانية بمساعدة حسّان بن مفرج بن جراح الطائي في القاهرة سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م اوقعوا به هزيمة جديدة واستطاعوا هذه المرة تصفية نفوذ القرامطة في بلاد الشام بقيادة ابي محمود بن جعفر بن فلاح . غير انه بعد موت الحسن الاعصم تولى رئاسة القرامطة مجلس مكوّن من اعيان ستة كانوا ينتخبون من بين احفاد ابي سعيد الجنابي وكانوا يلقبون بالسادة[9] .

ولكن تغلب الفاطميين على القرامطة لم ينه مشكلة الصراع القائم على بلاد الشام مع خصمين آخرين هما العباسيون والبيزنطيون . وقبيل تسلم الحاكم بامر الله شؤون الخلافة في اواخر القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر للميلاد) كان البيزنطيون قد تمكنوا من اقامة منطقة نفوذ لهم في بعض النواحي من شمال سوريا . اما الفاطميون فقد ثبتوا اقدامهم في المدن الساحلية حتى طرابلس شمالا . اما في الداخل وعلى الرغم من محاولة اعتمادهم على ذلك الحلف القبلي الكبير المؤلف من كلب في الشمال وكلاب في جوار دمشق وطيء في الجنوب فان وضع الفاطميين في دمشق لم يكن مستقرا . ففي بداية خلافة الحاكم بامر الله ثار اهالي دمشق على والي الفاطميين سليمان بن فلاح واجبروه على الفرار[10] . وتلاهذه الحادثةثورةفي صور بقيادة بحار مغامر اسمه علاقة . وكان علاقة قد سيطر على الحكم في صور واستقل بها بعد ان وصلته الامدادات البيزنطية عن طريق البحر . ولكن برجوان وصي الحاكم بامر الله تصدى لثورة علاقة بحزم وارسل (حملة) بقيادة جيش بن الصمصامة عن طريق فلسطين حيث اخضعت في طريقها انتفاضة المفرج بن دغفل بن الجراح في الرملة وتقدمت الى حصار صور برا . وانجد الفاطميون ابن الصمصامة باسطول

---

٩ - ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٣ . كذلك ميكال يان دي خويه ، القرامطة ، نشأتهم ، دولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين - ترجمة حسني زين (بيروت : دار ابن خلدون ، ١٩٧٨ ، ص ١٥٥ - ١٥٦
١٠ - ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

بحري بقيادة الحسن بن ناصر الحمداني وفايق الخادم ، فهُزم البيزنطيون واسر علاقة وصلب .[١١] .

وتقدم ابن الصمصامة بعساكره الى دمشق فخلع واليها سليمان بن جعفر الكتامي ثم تقدم الى افامية حيث واجه قوة بيزنطية فهزمها وطارد البيزنطيين حتى انطاكية .

الا ان البيزنطيين لم يتركوا بلاد الشام تستقر في ظل ولاية ابن الصمصامة ، فهاجموا المدن الساحلية الواقعة بين انطاكية وبيروت سنة **٣٩٠** هـ / **٩٩٩**م . وضيق الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني الحصار على مدينة طرابلس ولم ينسحب منها لو لم يظهر الخطر البلغاري على دولته فاضطر للتراجع . واستقر الوضع في بلاد الشام بعد ان سعى برجوان (وصي الحاكم) لعقد صلح مع البيزنطيين كي يتسنى له التفرغ للشؤون الداخلية ، فبدأ مفاوضات الصلح مع باسيل الثاني وانتهت بعقد اتفاق سلمي بين الفريقين لمدة عشرين سنة[١٢] .

وعلى الرغم من تشدد الحاكم في معاملته لاهل الذمة خلال الفترة المتبقية من عهده فقد عمل على استمرار تلك الهدنة مع البيزنطيين . واستطاع بفضل هذه السياسة السلمية ان ينصرف الى ترسيخ الحكم الفاطمي في بلاد الشام ، فولى الحاكم بامر الله على بلاد الشام حكاما اتبعوا سياسة صارمة وحالوا دون قيام اية ثورة خطيرة ضده باستثناء ثورة المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي الذي برغم عفو الخليفة السابق عنه ثار على الفاطميين من جديد . وجاءت ثورة المفرج هذه المرة بتحريض من وزير الحاكم السابق ابي القاسم حسن بن علي بن المغربي . واحتل بنو الجراح الرملة وعاثوا فسادا في فلسطين واستمرت ثورتهم اكثر من سنتين . ومما زاد في خطورة هذه الثورة استدعاؤهم لابي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني امير مكة ومبايعته بالخلافة بدل الخليفة الفاطمي . وقدم ابو الفتوح الى فلسطين حيث بويع بالخلافة واتخذ لقب الراشد لدين الله وخطب له في صلاة الجمعة في معظم انحاء بلاد الشام . بيد ان الحاكم بامر الله لم يقف مكتوف الايدي امام هذه الثورة الجديدة ضده ، بل ارسل حملة عسكرية بقيادة يارتكين العزيزي للقضاء عليها . ولكن

---

١١ - سعيد ابن البطريق ، **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق** ، تحقيق الاب لويس شيخو (بيروت : مطبعة الاباء اليسوعيين ، ١٩٠٥ - ١٩٠٩) ج ٢ ، ص ١٨٢

١٢ - **المصدر نفسه** ، ص ١٨٤

الحملة فشلت في تحقيق غرضها ووقع قائدها في الاسر وقتل . وعند ذلك عمد الخليفة الفاطمي الى استمالة زعماء الثورة من بني الجراح بالمال والهبات بدلا من القتال ونجح بابعادهم عن ابي الفتوح واضطر الاخير للتنازل عن منصبه والرجوع الى مكة . ولم ينتقم الحاكم بامر الله من ابي الفتوح بل عفا عنه عندما طلب العفو واعاده الى منصبه اميرا على مكة من قبل الفاطميين[١٣] . اما بنو الجراح فقد رأى الخليفة الفاطمي من خلال تجربته السابقة معهم ضرورة كسر شوكتهم ومراقبتهم . وبعث بحملة جديدة الى فلسطين بقيادة علي بن جعفر بن فلاح فقضى على حكم بني الجراح وشتت شمل زعائمهم ووضع بذلك حدا لاكبر خطر احدق بسلامة الدولة الفاطمية في عهد الحاكم بامر الله .[١٤]

الفاطميون والدولة الحمدانية :

ثم ان سياسة الحاكم حققت نصرا آخر في شمال سوريا إذ شمل النفوذ الفاطمي ولاية حلب الحمدانية . وكان سعد الدولة (ابو الفضائل) امير الدولة الحمدانية ووزيره لؤلؤ قد استعانا بالبيزنطيين ضد الفاطميين ، فتمكنا بفضل هذا التحالف من ايقاف المد الفاطمي عند حدود ولاية حلب . الا ان الصلح الذي عقده الفاطميون مع البيزنطيين والذي اعقبه موت سعد الدولة **٣٩٣** هـ / **١٠٠٢** م غير الوضع السياسي في تلك المقاطعة لمصلحة الحاكم بامر الله . وما ان توفي سعد الدولة حتى انتزع وزيره ابو نصر لؤلؤ الحكم من ولدي سيده ـ ابي الحسن علي وابي المعالي ـ كما اجبر اخا سعد الدولة ابا الهيجاء على الهرب الى انطاكيه . واستقل ابو لؤلؤ في ولاية حلب ولكنه عمل على استرضاء الفاطميين خوفا على منصبه واعلن الطاعة للخليفة الفاطمي بدلا من الخليفة العباسي .[١٥]

وبقيت الاوضاع مستقرة نسبيا في شمال سوريا حتى وفاة ابي لؤلؤ **٤٠٠** هـ / **١٠٠٩** م فخلفه ابنه المنصور . ولكن ابا الهيجاء (اخا سعد الدولة) قام يطالب

---

١٣ ـ ابو العباس احمد بن علي المقريزى ، **الخطط المقريزية المسماة بالموعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (القاهرة ، المليجي ، ١٣٢٤ ـ ١٣٢٦ هـ) ج ٣ ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦

١٤ ـ محمد جمال الدين سرور ، **النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة** (القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٧) ص ٤٤

١٥ ـ ابن الاثير ، **الكامل في التاريخ** (بيروت : دار صادر ١٩٦٦) م ٩ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨

بالعرش بدعم من البيزنطيين وقبيلة كلاب . واغتنم الفاطميون هذه الفرصة ودعموا المنصور الذي اعترف بسلطتهم على حلب . وغلب ابو الهيجاء على امره واجبر على الفرار الى بيزنطة مما ادى الى زوال حكم الحمدانيين ، وتقوية نفوذ الفاطميين .

واستمر الحاكم بامر الله في تنفيذ مخططه لاحكام سيطرته على شمال سوريا . وكان تأييده للولاة في هذا الاقليم مرتهنا بمدى ولاء هؤلاء الحكام له . واظهر في الوقت نفسه مرونة فائقة لبلوغ ذلك الهدف ووجد في صالح بن مرداس زعيم قبيلة كلاب حليفا يمكن الاعتماد عليه في هذه المرحلة . وكان صالح بن مرداس الكلابي قد استولى على دمشق . وطمع بمد نفوذه الى حلب عاصمة الحمدانيين فهاجمها سنة **٤٠٣** هـ / **١٠١٢** م وقهر جيش ابن لؤلؤ واخضع دولة الحمدانيين . واستغل الحاكم بامر الله هذه الفرصة فمنح صالح لقب اسد الدولة ودخلت ولاية حلب بكاملها تحت نفوذ الفاطميين [١٦] . ولكن خوف الحاكم من تقلب صالح بن مرداس ، جعله يعمل على اعادة التوازن بين قوة المرداسيين وقوة الحمدانيين كوسيلة فضلى لاستقرار النفوذ الفاطمي في شمال سوريا . وتنفيذا لهذه السياسة ولىّ الحاكم على مقاطعة حلب اميرا من بني حمدان يدعى عزيز الملك فاتك فظل هذا حاكمها من قبل الفاطميين حتى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله .

الفاطميون والحكم البويهي في بغداد :

وهكذا استطاع الفاطميون خلال عهد الحاكم بامر الله ان يحافظوا على مركزهم القوي في بلاد الشام وغدا بامكانهم التقدم شرقا باتجاه عاصمة الخلافة العباسية في بغداد . ولكن الخلافة العباسية كانت في هذه الحقبة ترزح تحت نفوذ البويهيين الفرس . وعلى الرغم من تشيع البويهيين على المذهب الزيدي ـ نسبة الى زيد من احفاد الحسين بن علي ـ فانهم كانوا يشاركون الخليفة العباسي السني في جميع مظاهر الخلافة . وبسبب تشيعهم هذا يبدو انهم كانوا يؤثرون الفاطميين دينا على العباسيين . وظلوا طوال حكمهم في بغداد يشجعون اتباع مذهب التشيع مما ساعد على انتشار الدعوة الفاطمية في العراق . وتروى بعض المصادر بان معز الدولة البويهي (**٣٣٤ ـ ٣٥٦** هـ / **٩٤٥ ـ ٩٦٦** م) فكر في القضاء على الخلافة العباسية

---

١٦ ـ ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣٥

السنية ومبايعة العزيز بالله الفاطمي . ولكنه لم ينقل الفكرة الى حيز التنفيذ كي لا يخسر نفوذه السياسي وفضل ان يبقى مستأثرا بالسلطة في ظل الخليفة العباسي الضعيف من ان يكون تابعا لخليفة علوي لا سلطة له عليه[١٧] . ولعل افضل مرحلة مرت بها العلاقات البويهية الفاطمية كانت في عهد عضد الدولة (**٣٣٧ - ٣٧٣** هـ) (**٩٤٩ - ٩٨٣** م) اعظم امراء بني بويه . ويشهد على ذلك تلك الرسائل الودية التي تبادلها مع الخليفة الفاطمي العزيز بالله[١٨] . ومما ساعد على التقرب بين الفريقين موقفهما المتشابه من الحمدانيين والبيزنطيين ، وبالتالي انتماؤهما الى التشيع مع ما بين مذهبيهما من فروقات اساسية . ويبدو من خلال هذا الواقع ان الفرصة كانت سانحة امام الفاطميين للسيطرة على العراق ، ولو تسنى لهم ان يعقدوا تحالفا قويا مع البويهيين في تلك الفترة بغية القضاء على الخلافة العباسية السنية ، لربما نجحت الدولة الفاطمية في السيطرة ليس على العراق وحسب بل على الشرق الاسلامي بكامله.

غير ان تلك العلاقات الودية بين الفاطميين والبويهيين ما لبثت ان تغيرت بعد وفاة عضد الدولة ، وبعد تسرب الضعف الى الاسرة البويهية نفسها . ونتج عن هذا الضعف انتعاش مركز الخليفة العباسي الديني والمعنوي في بغداد. وعادت سياسة الدولة العباسية الى عدائها السابق للفاطميين ومذاهب التشيع . وكان اول بوادر تلك السياسة ان الخليفة العباسي القادر بالله تصدى لامير بني عقيل قرواش بن مقلد الملقب بمعتمد الدولة عندما اعلن الاخير في الموصل الطاعة للحاكم بامر الله ٤٠١ هـ / ١٠١١ م وصك النقود باسمه . فارسل الخليفة العباسي جيشا لقتال المعتمد مما اجبر امير بني عقيل للتراجع عن موقفه المؤيد للفاطميين وابطل الدعاء لخلفائهم .[١٩]

ولكم كان بود الخليفة العباسي ان يقضي على الخلافة الفاطمية بقوة السيف ، ولكن عجزه عن ذلك جعله يلجأ الى سلاح الدعاوة والطعن والتشهير بنسب الفاطميين . وكان اول ما فعله الخليفة العباسي القادر بالله بهذا الشأن ، انه اصدر

---

١٧ - ابن الاثير ، المصدر السابق ، م٨ ، ص **٤٥١ - ٤٥٣**

١٨ - ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ، ص **١٢٤ - ١٢٥**

١٩ - المصدر نفسه ،ص ٢٢٤ - ٢٢٧

عام ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م محضرا رسميا اجبر على توقيعه عدداً من الفقهاء والعلماء العلويين الشيعة يطعن بموجبه بنسب الفاطميين ويرده الى اصل مجوسي كما ينفي من خلال هذا المحضر اية صلة نسب ، للفاطميين باهل البيت ويتهمهم بالفسق والزندقة وبلعن السلف وحتى بادعاء الالوهية . (٢٠) ويظهر ان العباسيين توخوا من هذه المحاضر والبيانات الدعائية ضد اعدائهم الفاطميين ، ابعاد الشيعة في العراق من التقرب الى الفاطميين . كما توخوا تحريض السنة في المناطق الواقعة تحت سلطان الفاطميين على الثورة . غير ان الحاكم بامر الله تصدى لسياسة العباسيين هذه بطريقة قد تكون اشد اثرا من سلاح الدعاوه ، فاغدق الاموال والهبات على ولاة العراق وامراء البويهيين لاجتذابهم اليه . كما نشط دعاته في مختلف الامصار في المشرق الاسلامي حتى بلاد الهند يدعون للمذهب الفاطمي . ولكن قيام الدولة الغزونية (٣٦٣ - ٥٨٢ هـ / ٩٦٢٠ - ١١٨٦ م) السنية التي قضت على سلطان الدولة البويهية في بلاد فارس وقف في وجه التقدم الفاطمي في ذلك الاقليم .

النفوذ الفاطمي في شبه الجزيرة العربية :

اما في شبه الجزيرة العربية فقد لقيت الدعوة الفاطمية موطىء قدم لها منذ وقت مبكر ، اذ وصل دعاتها الى اليمن والحجاز والبحرين منذ القرن الثالث للهجرة . وقد تكلمنا فيما سبق عن الصلات التي كانت قائمة بين الفاطميين والقرامطة . وقد سهل مهمة دعاة الاسماعيلية في ذلك الاقليم ، العداء الديني الذي كان قائما بين سكان الجزيرة العربية والخلافة العباسية . ولكن الدعوة الاسماعيلية في اليمن لقيت نجاحا اكبر من سائر انحاء الجزيرة ونعمت هناك بحرية التحرك . وظهر في صنعاء نفسها كبير دعاة الفاطميين ابو عبد الله الشيعي . وبسبب نجاح دعوته هناك كاد يعلن الخلافة الفاطمية في اليمن بدلا من المغرب (٢١) .

اما الحجاز فقد كان بدوره مسرحا لعدة حركات مناهضة للعباسيين في هذه الفترة . وكان بنو الحسن بن علي قد اسسوا دولة الطالبيين في مكة . غير ان دولتهم هذه خضعت في بادىء الامر للقرامطة عند استيلائهم على الحرمين ٣١٧ هـ / ٩٣٩ م

---

٢٠ - راجع نص المحضر في : **المصدر نفسه** ،ص ٢٢٩ - ٢٣ صح

٢١ - حسين الهمداني وحسن سليمان ، **الصلحيون والحركة الفاطمية في اليمن** (القاهرة ، ١٩٥٥)ص ٣٩

ثم للاخشيديين . ولما ضعفت الدولة الاخشيدية تمكن بنو الحسن بن علي من تأسيس دولة علوية جديدة هي الدولة الموسوية في مكة . [٢٢] كما قامت في الوقت نفسه دولة علوية اخرى في المدينة هي دولة الحسينيين [٢٣] . وحصل نزاع بين الدولتين العلويتين وبتحريض من الخلافة العباسية للسيطرة على الحرمين فادى هذا النزاع الى شل موسم الحج كليا . ولم يكن بوسع الدولة العباسية حسم هذا الصراع ، بيد ان التدخل الفاطمي حل النزاع وامن طريق الحج . وتروي المصادر ان الخليفة الفاطمي المعز ارسل وفدا الى مكة بغية التوسط بين الدولتين المتنازعتين ودفع ديات القتلى وحل النزاع ، ودُعي للمعز في الحجاز بدلا من الخليفة العباسي . [٢٤] وهذا يدل على مدى النفوذ المعنوي والسياسي الذي بلغه الفاطميون في الحجاز . وعلى الرغم من تهديد القرامطة لهذا النفوذ وحركة ابي الفتوح فيما بعد ، فان الدعاء للخلفاء الفاطميين ظل قائما في هذا الاقليم حتى خلافة المستنصر بالله[٢٥] .

الدولة الفاطمية في المغرب :

كان المغرب المركز الاساسي الذي انطلق منه الفاطميون نحو الشرق اي الى مصر وبلاد الشام والجزيرة . وكان الخليفة الفاطمي المعز قد عين واليا على المغرب يدعى ابا الفتوح يوسف بن زيرى الصنهاجي وعرف ايضا باسم بلكين او بلقين . ولكن المعز ابقى في حوزة الفاطميين بعض السلطات منها شؤون القضاء والخراج وسك النقود . كما فصل اقليم طرابلس (الغرب) عن ولاية بني زيرى ومنحها لعبد الله بن يخلف الكتامي . واخلص هؤلاء الولاة للفاطميين وكونوا سدا منيعا في وجه الدولة الاموية في الاندلس . الا ان بعض قبائل المغاربة السنية في برقة لم تكن على ولاء تام للفاطميين مما شجع اعداء الفاطميين في ذلك الاقليم بقيادة ابي

---

٢٢ ـ نسبة الى موسى بن عبد الله حفيد الحسن بن علي .

٢٣ ـ نسبة الى محمد بن طاهر من سلالة الحسين بن علي .

٢٤ ـ المقريزي ، **اتعاظ الحنفا** ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ .

٢٥ ـ راجع عبد المنعم ماجد ، **ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها** (مصر : دار المعارف ، ١٩٦٨) ص ٢١٨ ـ ٢٢٧

٢٦ ـ عبد الرحمن بن خلدون ، **العبر وديوان المبدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر** (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩) ج ٦ ، ص ٣١٧ ـ ٣٢١

ركوة ـ [٢٧] الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل والمنتسب للبيت الاموي في الاندلس ـ على القيام بثورة ضد الحاكم بامر الله . وكان ابو ركوة قد لجأ الى مصر عندما اغتصب المنصور بن ابي عامر السلطة في الاندلس وحاول التخلص من الخليفة الاموي هشام المؤيد بالله وسائر زعماء بني امية . [٢٨] وبعد ان درس الحديث في مصر تجوّل في الحجاز وبلاد الشام ثم رجع الى برقة واستقر فيها . واذ وجد الفرصة سانحة للعمل السياسي هناك اخذ يدعو لهشام المؤيد بالله ، فلقيت دعوته نجاحا ملموسا بين قبائل المغاربة السنية والمعادية للفاطميين . [٢٩]

ولما قوى امره في المغرب هاجم بجيش من اتباعه مدينة برقه فصده اهلها في البداية ولكنه اعاد الهجوم على المدينة وشدد عليها الحصار سنة **٣٩٥** هـ / **١٠٠٥** م واستطاع ان يهزم ينال القائد الذي ارسله الحاكم بامر الله لفك الحصار عن برقه . ودخل ابو ركوة المدينة وانتقم من اتباع الفاطميين واعلن المذهب السني بدل المذهب الشيعي واتخذ لقب امير المؤمنين وسك النقود باسمه . بيد ان الحاكم بامر الله حاول ان يقضي على هذه الحركة المناوئة لسلطانه في المغرب فارسل حملة عسكرية جديدة بقيادة فاتك للقضاء على ابي ركوة ولكنها فشلت في مهمتها . واستفحل خطر ابي ركوة عندما جهز جيشا من القبائل المغربية جلهم من البدو والمرتزقة للزحف على مصر بغية القضاء على الخلافة الفاطمية . وخلال زحفه الى عاصمة الفاطميين انضم اليه عدد من الزعماء الناقمين على الحاكم في مصر . [(٣٠)]

وتربص الحاكم للخطر المحدق بدولته وتصدى لهجوم ابي ركوة بجيش كبير جله من العرب والترك والديلم والسودان وبقيادة الفضل بن الحسن بن صالح (المعروف ايضا الفضل بن عبد الله) . وانضم الى جيش الفضل عدد من المصريين الذين شعروا بسوء العاقبة بعد الخراب الذي احدثه رجال ابي ركوة خلال زحفهم الى مصر . واستطاع الفضل بعد سلسلة من المعارك ان يهزم جيش ابي ركوة في معركة

---

٢٧ ـ يقال انه لقب بابي ركوة لانه كان يتظاهر بالنسك ويحمل دائما ركوة للوضوء على الطريقة الصوفية .

٢٨ ـ ابن البطريق ، **المصدر السابق** ،ج **٢** ، ص **١٨٨ ـ ١٨٩**

٢٩ ـ ابن تغري بردى ، **المصدر السابق** ،ج **٤** ، ص **٢١٥ - ٢١٧**

٣٠ ـ المقريزى ، **الخطط** ،ج **٤** ، ص **٧٠**

فاصلة في صحراء الفيوم ٣٩٦ هـ / ١٠٠٦ م حيث قتل عدد كبير من رجال ابي ركوة وتفرقت الجموع التي انضمت اليه .

اما ابو ركوة فقد نجح في الهرب الى بلاد النوبة ولكنه القي القبض عليه وسلم الى الفضل حيث ارسله بدوره الى القاهرة واعدم . [٣١]

ولعل اهم النتائج التي ترتبت على انتصار الحاكم بامر الله على ابي ركوة هي اعادة هيبة النفوذ الفاطمي الى المغرب خاصة وان زعماء هذا الاقليم كانوا ينوون الاستقلال عن الخلافة الفاطمية . ومع ان خلفاء ابي الفتوح يوسف بن زيرى الصنهاجي (بلقين) في المغرب حافظوا بشكل عام على علاقة الود التقليدية مع الفاطميين ، فيظهر انهم لم يساعدوا الحاكم في حربه ضد ابي ركوة . ولكننا نلاحظ بان الوالي ابا مناد باديس الزيرى (٣٨٦ هـ / ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠١٥ م) يعمل بعد هزيمة ابي ركوة على تثبيت النفوذ الفاطمي في المغرب ، فاستولى باديس سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م على طرابلس بعد ان اخرج منها قبيلة زناته عدوة الفاطميين وكافأه الحاكم على ذلك باضافة برقه وما يتبعها من المناطق الى ولايته . كما حارب باديس بني عمه الحماديين الذين استقلوا عن الفاطميين ودعوا للخلفاء العباسيين . [٣٢]

غير ان مركز الفاطميين في المغرب كان قد بدأ يتحول لصالح اعدائهم منذ بداية القرن الخامس للهجرة واواخر عهد الحاكم بامر الله . وكان باديس قد توفي ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م فخلفه في الحكم ابنه القاصر المعز مما عزز مركز الحماديين الذين اعتمدوا في سياستهم على العباسيين . وعاد المذهب المالكي السني للسيطرة تدريجيا على المدن المغربية ، بينما اخذ المذهب الفاطمي الشيعي هناك يضعف ويخسر تدريجيا ، كما أخذ اتباع الفاطميين بعد خلافة الحاكم بامر الله يتعرضون للتضييق والاضطهاد [٣٣] .

واذا كانت الدولة الفاطمية قد تميزت خلال هذه المرحلة بالقوة السياسية

---

٣١ - **المصدر نفسه** .ونفس الصفحة

٣٢ - ابن الاثير ، **المصدر السابق** .ج ٩ ، ص ١٧٧

٣٣ - راجع : ابن عذارى المراكشي ، **كتاب البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب** .تحقيق ج كولان وليفي بروفنسال ، (بيروت : دار الثقافة ، ١٩٤٨) ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٨٨

والعسكرية فقد تميزت ايضا بالمنجزات الفكرية والفلسفية والعلمية والدينية . واصبحت القاهرة موئلا من موائل العلم والمعرفة ، وذلك لما حوته من مراكز للعلم والفن والشرع والدين والفلسفة والادب واللغة ، كالازهر الذي اسسه الخليفة المعز وكدار الحكمة او دار العلم التي انشأها الخليفة الحاكم بامر الله سنة **٣٩٥ هـ / ١٠٠٥** م.

دار الحكمة :

كانت دار الحكمة هذه متصلة بالقصر ، وقد احتوت فيما احتوته على مكتبة كبيرة ، وعلى كثير من القاعات تلقى فيها المحاضرات في شتى العلوم ، شأنها في ذلك شأن الازهر وما شابهه من مراكز العلم والثقافة في القاهرة وغيرها من حواضر الدولة الفاطميه . وقد ذكر المؤرخ تقي الدين احمد بن علي المقريزي في كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار » نقلا عن محمد بن عبد الله المسبحي مؤرخ الدولة الفاطمية يصف دار الحكمة هذه فقال : « وفي يوم السبت . . . يعني العاشر من جمادي الاخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة . وجلس فيها الفقهاء ، وحملت الكتب اليها من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس اليها ، ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها ، وجلس فيها القراء والمنجمون واصحاب النحو واللغة والاطباء ، بعد ان فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع ابوابها وممراتها الستور ، واقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها ـ وحصل في هذا الدار من خزائن امير المؤمنين الحاكم بامر الله من الكتب التي امر اليها من سائر العلوم والادب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعا لاحد قط من الملوك ، واباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ، ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فكان ذلك من المحاسن المؤثورة ايضا التي لم يسمع بمثلها ، من اجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره ، وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعليم . وجعل فيها ما يحتاج الناس اليه من الحبر والاقلام والورق والمحابر » .

ويذكر المقريزي في موضع اخر ان الحاكم بامر الله نقل الى دار الحكمة من خزائن قصره والقصور الاخرى في البلدان الفاطمية ما يقدر بستمائة الف مجلد ، وقد

بلغ مجموع الكتب التي حوتها هذه الدار مليونا وستمائة الف مجلد .

وكان في دار الحكمة ، عدا الكتب والخطوط المنسوبة ، الخرائط والالات الفلكية والتحف النادرة . وقد ذكر المؤرخون ان من التحف التي كانت في دار الحكمة كرتان ارضيتان احداهما من الفضة يقال انها من صنع الفلكي الاغريقي بطليموس وقد كان خالد بن يزيد بن معاوية الامير الاموي العالم قد حصل عليها . اما الكرة الثانية فقد كانت من النحاس وقيل ان ابا الحسن الصانع المشهور كان قد صنعها لاسد الدولة صالح بن مرداسي الكلابي اول الامراء المرداسيين في حلب . هذا وكانت دار الحكمة تحتوي الى ذلك صناديق مملوءة اقلاما قيل انها من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من مشهوري الخطاطين . وهكذا لم تكن دار الحكمة مؤسسة ثقافية وجامعة علمية ومركزا للدعوة الفاطمية فحسب بل كانت ايضا متحفا يحتوي التحف النادرة والقطع الفنية الثمينة . وكان الحاكم بامر الله يشرف بشخصه على دار الحكمة وعلى ما يجري فيها ، فكانت تجري بحضرته المناظرات والمجالس دينية كانت ام علمية ام فلسفية ام فقهية ام ادبية ولغوية . وفي سنة ثلاث واربعمئة للهجرة احضر الحاكم بامر الله اهل الحساب والمنطق كما أحضر جماعة من الفقهاء والاطباء واخذت كل فئة من اولئك العلماء تتناظر في حضرته ، وكان الحاكم يخلع على هؤلاء العلماء الخلع ويصلهم بالصلات . وقد اوقف الحاكم بامر الله الوقوف على دار الحكمة هذه ،وكان ريع هذه الوقوفات يكفي للصرف على دار الحكمة وعلى مرتبات موظفيها وصلات العلماء والفقهاء والطلاب . كذلك كان يصرف من ريع هذه الوقوفات على اثاث الدار وادوات الكتابة ولوازمها . ولم يكتف الحاكم بذلك بل خصص للدار نسبة من اوقاف الجامع الازهر وجامع المقس وجامع راشدة . وكان الحاكم قد بنى الجامعتين الاخيرتين وهكذا فقد كانت الاموال تتدفق على دار الحكمة وعلى علمائها وطلابها من هذه الوقوفات بالاضافة الى الصلات الكثيرة والهبات الكريمة والخلع التي كان يغدقها الحاكم على علماء دار الحكمة وفقهائها . وقد ذكر بعض المؤرخين ان مقدار النفقة على دار الحكمة بلغت ثلاثة واربعين مليون درهم في السنة .

كانت هذه الاهمية الكبيرة التي اعطيت لدار الحكمة تنبع من الاسباب التالية : اولا : كانت دار الحكمة مركزا لنشر الدعوة الفاطمية وتثبيت اركانها . فقد

خرّجت الدعاة الفاطميين يلقون العلم والمعرفة في العالم الاسلامي ويدعون الى المذهب الفاطمي وبالتالي الى الدولة الفاطمية .

ثانيا : كانت دار الحكمة مركزا تقوم فيه البحوث العلمية التي تحتاج اليها الدولة الفاطمية من النواحي التنظيمية والهندسية والعسكرية والاقتصادية والتربوية والمالية لذلك حوت الدار الى جانب الفقهاء والفلاسفة والدعاة علماء الفلك والرياضيات والادارة والمال . ثالثا : كانت دار الحكمة جامعة علمية تثقف الناس في مختلف العلوم والفلسفات والمذاهب . فلم تكن تلقى في هذه الدار مبادىء الدعوة الفاطمية وحسب بل كانت تعلم فيها مختلف المذاهب الدينية والفقهية الى جانب الفلسفة والعلوم والادب واللغة والتاريخ والفنون ، كل ذلك دون ان يتكلف طالب العلم شيئا من ماله .

وقد ضاقت الدار بمن يرتادها من طلاب العلم فأخذ الفاطميون يعقدون بعض مجالس الحكمة في اماكن اخرى كالايوان والمحول . هذا وكانت العلوم تلقى في دار الحكمة وملاحقها على مستويات مختلفة ، حسب درجات الطلاب العلمية . فكان يفرد للاولياء مجلس وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ولعوام الناس مجلس وللطارئين مجلس .

كذلك كان الامر بين النساء فكانت لخواص النساء تعقد مجالس تختلف عن تلك التي تعقد لعامتهن . وكانت المجالس تدون في كتب خاصة تسمى مجالس الحكمة .

وفي سنة **٤٦١** للهجرة الموافقة لسنة **١٠٦٨** للميلاد ثار الجند على الخليفة الفاطمي المستنصر ونهبت دار الحكمة وروى شاهد عيان انه رأى خمسة وعشرين جملا محملة كتبا وقد استعملة وقيدا للنار بعد ان انتزعت جلودها الثمينة لتصنع احذية للجنود . ولكن الدار عادت بعد ذلك الى العمل وبقيت الى سنة **٥١٦** للهجرة الموافقة لسنة **١١٢٢** م عندما اغلقت ابوابها بعد ان استحكمت الخلافات المذهبية بين اعلامها . غير انها عادت في السنة التالية ، حين اعاد فتحها المأمون البطانجي وزير الآمر باحكام الله ، غير انه نقلها من مكانها بجوار القصر بعيدا عن المعترك السياسي بعد أن بني لها صرح كبير في مكان خال بلغت نفقته فيما يقال اكثر من مئة الف دينار وعرفت بدار العلم الجديدة . ولم تزل عامرة الى اخر الدولة الفاطمية اي الى سنة

٥٦٧ للهجرة الموافقة لسنة ١١٧١ للميلاد .

وخلاصة القول ان الوضع الثقافي والسياسي والعسكري للدولة الفاطمية في عهد الحاكم بامر الله كان قويا بشكل عام . وقد تمثلت قوة الفاطميين السياسية بالسيطرة التامة على مصر ومناطق معينة من بلاد الشام . اما في المغرب وشبه الجزيرة العربية فقد تعرض سلطان الدولة الفاطمية الى هزات عنيفة ولكنه بقي مسيطرا على هذه الاقاليم . اما فيما تبقى من بلدان المشرق الاسلامي كالعراق وبلاد فارس والهند فقد كان النفوذ الفاطمي محدودا ولكنه كان كافيا لاشعار الناس بوجوده . بيد ان النفوذ السياسي للدولة الفاطمية لم يصل الى الاندلس غربا ولا الى اقاليم معينة من بلاد فارس والهند شرقا . وهذا الوضع السياسي لا بد انه اثر بشكل بالغ في الوضع المذهبي الديني في الدولة الفاطمية كما اثر في مدى نجاح دعوة التوحيد الدرزية في عهد الحاكم وانتشارها . وتجدر الاشارة في هذا المجال الى ان سكان المناطق التي انتشرت فيها دعوة التوحيد (الدرزية) في بلاد الشام - كانوا يدينون بالولاء السياسي للفاطميين منذ وقت مبكر . وتذكر بعض المصادر بان سيف الدولة التنوخي امير منطقة الغرب وبيروت وقف الى جانب الفاطميين عندما استولى هؤلاء على دمشق سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م فاقره الفاطميون على الولاية[٣٤] . وعندما نشب الصراع بين القرامطة والفاطميين بقي الامير سيف الدولة منحازا للجانب الفاطمي . ومثله فعل خليفته وابنه الامير تميم (عز الدولة) من بعده الذي اضطره موقفه هذا للتخلي عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م عن الحكم لابن عمه درويش بن عمرو الذي تعاون بدوره مع هفتكين التركي حليف القرامطة . وظل الامير مواليا للفاطميين ومقربا منهم حتى انه سار عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م الى مصر وقابل الخليفة الفاطمي العزيز بالله . ولما رجع الاخير لمحاربة هفتكين المذكور في الرملة حضر معه المعركة وكافأه العزيز وولاه امارة الغرب وبيروت من جديد . ويبدو ان هذا الولاء السياسي بلغ ذروته في عهد الحاكم بامر الله فاضاف الخليفة الفاطمي الى ولاية الارسلانيين التنوخية التقليدية في بيروت والغرب ولايتي صيدا وطرابلس ومقاطعة صور لفترة قصيرة .[٣٥]

---

٣٤ - الشدياق ، المرجع السابق ،ج ٢ ، ص ٢٨٦

٣٥ - المرجع نفسه ،ص ٢٨٩

وقد رأينا من خلال هذا البحث كيف تمكن الحاكم بامر الله من احكام سيطرة الفاطميين على مختلف انحاء بلاد الشام باتباعه سياسة حازمة مع كافة الاطراف . وبعد ان قوي الحلف القبلي المؤيد للفاطميين والمؤلف من قبائل كلب وكلاب وطيء عمد الى تعيين ولاة اكفاء على مختلف المدن والمقاطعات الشامية [٣٦] . ولعل اخلص هؤلاء الولاة واكثرهم خدمة للدولة الفاطمية في عهد الحاكم بامر الله هو انوشتكين الدزبرى الذي كان واليا على مقاطعة بعلبك ثم على فلسطين فدمشق في عهد الخليفة الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٦ م)!واقام الدزبرى علاقات جيدة مع سكان المناطق الجبلية غرب دمشق وطبرية وخاصة مع تلك العشائر التي كانت قد. تقبلت التفسير الاسماعيلي للاسلام او وقفت سياسيا ضد الخلافة العباسية [٣٧] . وبفضل هذه السياسة تمكن الدزبرى وهو صهر رافع بن ابي الليل الكلبي من تهيئة الظروف السياسية الملائمة لنشر دعوة التوحيد الدرزية في المناطق التي يقطنها الموحدون الدروز في بلاد الشام .

---

٣٦ - ابن الاثير ، **المصدر السابق** ،ج ٩ ص ٢٣٠ كذلك :

SaLibi, Syria under Islam P 107

٣٧ - ابن القلانسي ، **المصدر السابق** ،ص ٧١ - ٧٢ ،ويقول ابن القلانسي عن سياسة الدزبري ما نصه « صادق ولاة الاطراف . . . ومن حسن سياسته فيها (مقاطعة بعلبك) وجميل عشرته لاهلها وحمايته لها ما ذاع به ذكره وحسن به صيته وكثر شكره » .

الفصل الثالث

الموحدون الدروز خلال دعوة التوحيد

(٤٠٨ ـ ٤٣٥ هـ / ١٠١٧ ـ ١٠٤٣ م)

الحاكم بأمر الله .

تولى المنصور ، وقد لقب بالحاكم بأمر الله ، الخلافة الفاطمية بعد ظهر يوم الثلاثاء في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦/ ١٤ ايلول سنة ٩٩٦ م . وكان له من العمر نيف واحدى عشر سنة . وقد تسلم الخلافة في مدينة بلبيس المصرية الواقعة على الطريق بين مصر والشام ، وذلك بعد ان قضى الخليفة الفاطمي الخامس ، العزيز بالله وهو في طريقه الى الشام لمحاربة الروم البيزنطيين[١] .

وتذكر لنا المصادر التوحيدية[٢] ان الامام الفاطمي الجديد اخد بعد نحو ثلاثة أشهر من توليه الخلافة ، يبث النذر يبشرون بقدوم دعوة التوحيد في وقتها المحدد .

دعوة النذر .

كان النذير الأول في دعوة النذر هذه ابا الخير سلامة بن عبد الوهاب السامري[٣] . وقد اخذ خلال دعوته هذه يهيء الناس الى تقبل دعوة التوحيد ويعدهم للدور المرتقب ويشير الى النذير الذي سيليه . وبعد انقضاء سبع سنين على

---

١ ـ راجع لذلك تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، **كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** (القاهرة . بولاق . ١٢٧٠ هـ) ، ج ٢ ، ص ٢٨٥ ، المقريزي ، **اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء** ، تحقيق محمد حلمي محمد احمد (القاهرة . المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧١ م) ، ج ٢ ، ص ٣ . احمد بن خلكان ، **وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان** (القاهرة ، بولاق ، ١٢٩٩ هـ) ، ج ٢ ، ص ٢٠١ .

٢ ـ راجع

Makarem, *The Druze Faith*, p. 1

٣ ـ نسبة الى مدينة سامرا في العراق .

دعوته تسلم الدعوة ابو عبد الله محمد بن وهب القرشي . وكان ذلك سنة **٣٩٤** هـ/ **١٠٠٣** او **١٠٠٤** م . وقد انضم اليه ابو الخير سلامة بن عبد الوهاب هو ودعاته . وبقي محمد بن وهب على راس الدعوة الى تمام سبع سنين اخرى ، حين ترأس الدعوة ابو ابراهيم اسماعيل بن محمد التيمي ، وذلك سنة **٤٠١** هـ/ **١٠١٠** او **١٠١١** م . فاضيف النذيران السابقان ودعاتهما اليه . وبقي على راس دعوة النذارة سبع سنين كذلك ، يهيء الناس لدعوة التوحيد . حتى اذا انقضت سبع سنين اخرى ، حضر في شهر جمادي الآخرة او رجب من سنة **٤٠٧**/ تشرين الثاني ـ كانون الاول ، **١٠١٦** م. واتخذ الدعاة مسجد ريدان ، خارج اسوار القاهرة ، مركزا لهم يجتمعون فيه بكبير الدعاة حمزة بن علي بن احمد الزوزني(٤) . كما كان الازهر الذي شيده المعزّ لدين الله ، ودار الحكمة التي بناها الحاكم مركزين ثقافيين لدعم الدعوة .

الامام حمزة بن علي ودعوة التوحيد .

ليلة الجمعة في الأول من محرم سنة **٤٠٨** هـ / **٣٠** نوار **١٠١٧** م اصدر الحاكم سجلا يعلن فيه بداية دعوة التوحيد . ونودي بحمزة بن علي اماما للموحدين(٥) . وكان عمره انذاك نحو ثلاث وثلاثين سنة . فقد ولد حمزة بن علي نحو سنة **٣٧٥** هـ/ **٩٨٥** م(٦)،اي في السنة ذاتها على الارجح التي اتجد فيها الحاكم . وكان مولده في مدينة زوزن في خراسان . وغالب الظن انه نشأ فيها الى ان قارب العشرين من عمره ، ثم هاجر الى مصر والتحق بدار الخلافة فعرف بحمزة الفاطمي . وهكذا فقد كان قدومه الى القاهرة في السنة التي اقام فيها الحاكم ، دار الحكمة التي اصبحت احد المراكز الثقافية الرئيسة في الدولة الفاطمية . وفي القاهرة نال حظوة عند الحاكم كبيرة فعين صاحب الرسائل والمكاتبات . وفي شهر جمادي الآخرة او رجب من سنة **٤٠٧** هـ على الارجح ، كما ذكر اعلاه ، اتخذ حمزة بن علي مسجد ريدان في ظاهر القاهرة مركزا له حيث هاجرت اليه جميع الدعاة لتجتمع به في انتظار اعلان دعوة التوحيد . ولذلك سمي هذا المسجد بدار الهجرة الجامعة . وقد عين حمزة بن علي كلا من هؤلاء الدعاة في مرتبته وارسلهم الى مراكزهم . حتى اذا ما اعلن بدء الدعوة في اول سنة **٤٠٨**

---

٤ ـ المرجع ذاته

٥ ـ المرجع ذاته ، ص ١٧ .

٦ ـ الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

هـ ، كما مر معنا ، اخذ الدعاة يدعون الناس الى التوحيد وياخذون على من استجاب ميثاقا يكتبه على نفسه ويتعهد فيه باتباع اوامر الدعوة . وكان هذا الميثاق لا يؤخذ الا على من كان صحيح العقل والجسم بالغا خاليا من الرق . وكان قد صدر سجل حاكمي - كما تقول النصوص التوحيدية[٧] - يامر باعتاق العبيد والغاء الرق . ويشير يحي بن سعيد الانطاكي الى شيء من ذلك اذ يقول في الحاكم : « وعتق سائر مماليكه وملكهم امور نفسهم والتصرف فيها فيما يملكونه واقتنوه من اموالهم واثاثهم ورباعهم على ارادتهم »[٨] . وباعتاق العبيد تسنى للناس ان يستجيبوا الى دعوة التوحيد بملء اختيارهم ودون اي اكراه . ومع ان المصادر غير التوحيدية المعروفة باستثناء الانطاكي ، تغفل امر اعتاق العبيد ، فان في اعتاق الحاكم للرقيق خطوة ثورية جديرة بالبحث والدراسة ، لما تنطوي عليه من ثورة اجتماعية وسياسية واقتصادية لم تشهد مثلها القرون الوسطى .

وقد اقام الامام الجديد حمزة بن علي دورا للقضاء خاصة بالموحدين تختلف عن غيرها من دور القضاء . كما قبضت عنهم ، حسب المصادر التوحيدية ، ايدى اصحاب الشرط وجميع الايدي السلطانية مما يدل على تأييد الحاكم المطلق لحمزة بن علي وفي ذلك يقول الانطاكي : « وكان اصحاب الهادي[١٠] يلقون الحاكم في كل يوم في القرافة[١١] للسلام عليه ، وهو مع ذلك يعتني بالهادي ويسأله عن عدد ما حصل في بيته من اهل دعوته ويظهر منه المشورة بالكثرة »[١٢] .

ويستجيب الى دعوة التوحيد جموع كبيرة من الناس حتى ان الانطاكي يقول في حمزة بن علي ان جريدته صارت ستة عشر الفا .[١٣] ومن الذين استجابوا الى دعوة التوحيد عدد من كبراء الدولة والاعيان ، كالشريف فخر الدولة ابي يعلا حمزة بن ابي العباس الحسيني نقيب الطالبين (المنتسبين الى علي بن ابي طالب) في بلاد

---

٧ - راجع الرسالة ٥ من الجزء الخامس من الاصول التوحيدية .
٨ - الانطاكي ، **تاريخ يحي بن سعيد الانطاكي** ، ص ٢٢١ .
٩ - راجع الرسالة ٥ من الجزء الخامس من الاصول التوحيدية .
١٠ - يعني في ذلك حمزة بن علي .
١١ - موضع في القاهرة
١٢ - الانطاكي ، ص ٢٢٤ .
١٣ - المصدر ذاته ، والجريدة هي فرقة من الفرسان لا رجالة فيها .

الشام .[١٤] وامراء آل تنوخ : ابي الفضائل عبد الخالق بن محمد ، وابي الحسن يوسف بن مصبح ، وابي اسحق ابراهيم بن عبد الله الذين كان اسلافهم من دعاة النذر[١٥] . والى ابي اسحق ابراهيم بن عبد الله ، الذي كان اميرا بالبيرة[١٦] في ناحية الغرب من جبل لبنان ، ينتسب الامير ناهض الدولة ابو العشائر بحتر بن شرف الدولة علي بن الحسين جد الامراء البحتريين من ال تنوخ امراء بيروت والغرب في جبل لبنان[١٧] . ومن الاعيان الذين استجابوا الى دعوة التوحيد ايضا يمكننا ان نعد الامير ابا الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسي ، من اعيان ناحية الغرب كذلك ، وزماخ بن مفرج بن دغفل بن جراح الطائي واخاه جابرا ، وهما من امراء الرملة ، والامير عز الدولة ابا العلى رافع بن ابي الليل بن عليان الذي اصبح فيما بعد امير بني كلب ، والشيخ ابا الخير سلامة بن جندل من اعيان بني جندل التميمي في وادي التيم ، وسلاطين الاحساء من القرامطة الملقبين بالسادة : ابا الفضل الطاهر وابا العباس والعباس وابا الفضل العمران وابا اسحق المعلي وابا الفتح الفرج ، بالاضافة الى راجبال ابن سومر الذي تسلم امور دعوة التوحيد في الهند[١٨] .

ابن تالشليل .

ولكن كما حظيت دعوة التوحيد بمن يشد ازرها ، كذلك قيض لها من الاعداء من حاول القضاء عليها . ففي السنين الاولى من الدعوة نرى ابن تالشليل امير الاكراد يجرد على الموحدين في وادي التيم حملة بمساعدة عبد الرحيم بن الياس والي دمشق وولي عهد المسلمين الفاطمي الذي كان ، بخلاف السلطة الفاطمية المركزية في ذلك الوقت ، من الد اعداء الموحدين . وقد قتل وسبي واحرق في هذه الحملة من الموحدين عدد كبير . ولكن السلطة الفاطمية سرعان ما خفت الى نجدة الموحدين وانكر الحاكم هذا الامر ، فانفذ عبد الرحيم بن الياس احد معاونيه ، ويعرف ابن الخرقاني ، الى حسان بن مفرج بن الجراح امين الرملة ليعينه على الحاكم . غير ان

---

١٤ - الاشرفاني ، محمد مالك ، عمدة العارفين ، ج ٣ ، ص ١٢٢ (مخطوط) راجع كذلك ابن القلانسي ، ص ٨٣
١٥ - الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١٣٩ - ١٤٢ .
١٦ - صالح بن يحي . تاريخ بيروت ، تحقيق لويس شيخو ، ص ٤٧ .
١٧ - المصدر ذاته ، ص ٤٣ .
١٨ - الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١١٨ - ١٢٠ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٥٦ - ١٥٨ ، ١٦٦ كذلك راجع ميكال يان دي خويه ، القرامطة ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الجيش الفاطمي سرعان ما اعلن العصيان على عبد الرحيم بن الياس ، فقتل الجنود ابن الخرقاني في دمشق وتوجهوا الى دار ولي عهد المسلمين في ظاهر دمشق ، وكان عبد الرحيم قد استغاث باهل دمشق والغوطة . ونشب قتال بين الفريقين اسفر عن انسحاب اهل دمشق والغوطة فدخل الجنود القصر ونهبوه[١٩] ، ولكن عبد الرحيم استطاع الافلات والفرار[٢٠] .

وبقيت دعوة التوحيد ، مع ما لاقت من الخصومة والعداء ، تزدهر وتقوى ويكثر اتباعها . غير انه لم يكن كل من استجاب الى هذه الدعوة مخلصا صادقا ، اذ كثير منهم حملتهم على الانخراط بها اغراض شخصية ، لا سيما في عهد الحاكم الذي كان يوليها الكثير من دعمه وعطفه .

نشتكين الدرزي .

كان من بين هؤلاء الذين استجابوا الى الدعوة طمعا في جاه او مركز رجل يعرف بنشتكين الدرزي . وقد كان داعيا للحاكم سنة ٤٠٧ هـ/ ١٠١٦ - ١٠١٧ م فلما عين الحاكم حمزة بن علي اماما للموحدين ، اضمر الدرزي الضغينة للامام الجديد ، وجمع حوله الاتباع محاولا الاستقلال بالدعوة ، فحرف مضمونها وشوه تعاليمها مما اثار كثيرا من الناس والبهم على اتباعها . وقد اطلق العامة على اتباع دعوة التوحيد اسم الدروز نسبة الى الدرزي ، دون ان يفرقوا بين رئيس الدعوة حمزة بن علي وهذا الداعي . وقد كثر الناقمون على هذه الدعوة لما كان يظهره الدرزي من عدم تفهم لمضمونها ومن تفريط بقدسياتها ، وتزوير للسكة وقيام بامور مخالفة للاخلاق والاصول هذا وكثر اتباع الدرزي من جهة اخرى ، لما كان عليه من تساهل في تقبل الاتباع واغراء للعامة[٢٢] .

حيال هذا الامر خشي القيمون على الدعوة من ان تسير في غير مجراها الصحيح ، وان يكثر المستجيبون طمعا بما كان يحسن لهم الدرزي من امور الدنيا .

---

١٩ - الانطاكي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧

٢٠ - بعد ان استتاب الحاكم عاد عبد الرحيم واليا على دمشق .

٢١ - راجع :

Sami Makarem, *The Druze Faith*,p,19

٢٢ - الاصول التوحيدية ، ج ٢ ، الرسالة ٢ . الرسالة ١٦ .

فما هلّت سنة ٤٠٩ هـ/ ٢٠ ايار ١٠١٨ م ، حتى علقت الدعوة ، واعتكف الحاكم ـ كما تقول المصادر التوحيدية ـ اختبارا لمن استجاب الى دعوة التوحيد .

غير ان تعليق الدعوة لم يثن الدرزي عن نشاطه . بل شجعه اعتكاف الحاكم واعتزال حمزة بن علي على المضي في دعواه واستجلاب من يستطيع استجلابه اليه ، وكانه في ذلك كان يرمي الى السير في خطى ابي ركوة في ثورته السابقة . وقد كان تعليق الدعوة التوحيدية خطة حكيمة عزلت الدرزي ودعوته نهائيا عن دعوة التوحيد ، واظهرتهما على حقيقتهما في اعين الناس مفترقين كليا عن الدعوة التوحيدية لا علاقة لهما بها على الاطلاق . وهكذا فلا تكاد سنة ٤٠٩ هـ ان تشرف على الانتهاء حتى تكون نقمة اهل القاهرة على الدرزي قد بلغت مبلغا جعلتهم ، في ٢٨ ذي الحجة ، ٨/٤٠٩ ايار ، ١٠١٩ ، يتصدون للدرزي ويلحقون به هزيمة ذهب ضحيتها نحو اربعين قتيلا من اتباعه . ويبدو ان الدرزي ، في محاولة منه اخيرة لرأب الصدع بينه وبين القاهريين وانجاء دعوته من فشل نهائي ، سعى الى مفاوضة اهل القاهرة ، واقنعهم بالتصدي لحمزة بن علي الذي كان معتكفا مع بعض من الموحدين في مسجد ريدان المحصن الواقع خارج اسوار القاهرة . وهكذا نجح الدرزي بتحويل النقمة على حمزة بن علي . وقد انضم الدرزي اليهم ، ليزحف ـ فيما قال ـ ما ينيف على العشرين الفا لقتال امام الموحدين . وتقول مصادر التوحيد انه لم يكن مع حمزة بن علي في حصنه ذاك الا نفر قليل لا يتجاوز الاثني عشر ، منهم خمسة لا يصلحون للقتال نظرا لكبر السن او صغره . اما السبعة الآخرون فهم اسماعيل بن محمد التميمي ومحمد بن وهب القرشي وسلامة بن عبد الوهاب السامري ـ وهؤلاء كانوا دعاة النذر ـ والمقتنى بهاء الدين علي بن احمد الطائي وايوب بن علي ورفاعه بن عبد الوارث ومحسن بن علي . وقد استطاع حمزة بن علي ومن معه ان يصمدوا امام المهاجمين خلف تحصينات المسجد . وعند المغرب ، وكانوا قد بلغوا اشد درجات الضيق ، اطل الحاكم عن شرفة قصره المشرف على المسجد . فلما رأت الجموع الخليفة كفوا عن القتال وتراجعوا ورفع عن حمزة بن علي الحصار ليعود بعودة الحاكم ونصرته له الى سابق عهده .

وفي صباح تلك الليلة اي في الاول من محرم سنة ١٠/٤١٠ ايار ١٠١٩ قتل الدرزي بافعاله ، واستقام الوضع مجددا واستؤنفت الدعوة . فعاد الدعاة الى سابق

نشاطهم يدعون في مختلف الامصار[٢٣] . وبقيت دعوة التوحيد مستمرة ما يقارب العامين تحت رعاية الحاكم وامامة حمزة بن علي .

غيبة الحاكم :

وفي ليل **٢٧** شوال ، **٤١١/١٢** - **١٣** شباط ، **١٠٢١**م، غادر الحاكم قصره قاصدا جبل المقطم كعادته . ولكنه هذه المرة لم يعد . وفي اعتقاد الموحدين ان غيبة الحاكم هذه كانت امتحانا لهم ولاخلاصهم لدعوة التوحيد . وبغيبة الحاكم اعتزل حمزة بن علي الدعوة ، وسلّم مقاليدها الى المقتنى بهاء الدين علي بن احمد الطائي حسب تقليد كان قد صدر عن الامام قبل ذلك باكثر من شهرين ، اي في **١٣** شعبان ، **٤١١/٣** كانون الاول **١٠٢٠**م.

هذا وتقول المصادر التوحيدية ان الحاكم كان قبل غيبته تلك قد اخذ على الامير علي الفاطمي ، الذي اصبح خليفة بعد غيبة الحاكم ، عهدا بالمحافظة على الموحدين وعدم نيلهم بسوء . وتضيف بعض هذه المصادر ان الحاكم أخذ على علي هذا اربعين قسما بالا يحنث بعهده ، وكذلك فعل ببقية اعيان الدولة[٢٤] .

المقتنى بهاء الدين .

ولد المقتنى بهاء الدين علي بن أحمد الطائي في قرية سمّوقة قرب مدينة حلب . وقد لقبه الامام حمزة بن علي بالمقتنى كناية على انه في قنية الامام[٢٥] لاستكمال دعوة التوحيد ، وكان هذا اللقب احد القابه اليه . واشتهر المقتنى في كتب التاريخ بعلي بن احمد بن الضيف او بعلي بن الضيف . وقدساهم المقتنى بهاء الدين في دعوة النذر[٢٦] .

اذا كان المقتنى بهاء الدين علي بن احمد هو نفسه علي بن احمد بن الضيف ، كما يقول الشيخ محمد مالك الاشرفاني[٢٧] فيكون المقتنى قد تولى على أفاميه في شمالي

---

٢٣ - راجع الاصول التوحيدية ، الرسالتين ١٠و١٩ ، يوسف العقيلي ، خبايا الجواهر ، ص ٧٣٠ .
٢٤ - تقي الدين ، الشيخ زين الدين عبدالغفار، **مختصر البيان في مجرى الزمان** ، الورقة ٦٤ .
٢٥ - المصدر ذاته الورقة ١٦٧ .
٢٦ - الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١٠١-١٠٢
٢٧ - المصدر ذاته ، ابن العميد ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ راجع ايضا .

سوريا[٢٨] من قبل الحاكم ، ليأخذ حلب عنوة من الحمدانيين سنة **٤٠٦** هـ ويضمها الى ولايته .

ما ان بدأت دعوة التوحيد حتى انضم المقتنى بهاء الدين الى الامام حمزة بن علي مع غيره من النذر ولازمه . وقد ارسله الامام في السنة الاولى من دعوة التوحيد الى دمشق حيث اسر واليها عبد الرحيم بن الياس ولي عهد المسلمين وارجعه الى القاهرة بعد ان كان الحاكم قد خلعه عن ولاية دمشق[٢٩] .

وعندما علقت الدعوة في آخر يوم من سنة **٤٠٨** هـ/ **١٩** ايار **١٠١٨** بقي المقتنى بهاء الدين ملازما حمزة بن علي طيلة سنة **٤٠٩** هـ . وقد كان احد السبعة الذين قاتلوا مع الامام حمزة في مسجد ريدان عندما هاجمهم اكثر من عشرين الفا في آخر يوم من ايام سنة **٤٠٩** هـ/ **٨** ايار ، **١٠١٩** م . وعندما استؤنفت الدعوة بقي المقتنى مع الامام حمزة بن علي حتى سلمه مقاليد الدعوة بعد احتجابه وغيبة الحاكم في ليل **٢٧** شوال ، **٤١١/١٢ - ١٣** شباط ، **١٠٢١** م . وقد بقي المقتنى على اتصال دائم مع الامام حمزة بن علي في معتكفه في القاهرة يستمد منه ويسير الدعوة بتوجيهاته .

المحنة : كان قد كتم امر اختفاء الحاكم الى يوم عيد الاضحى من سنة **٤١١/ ٢٧** آذار ، **١٠٢١** م ، حين شهر فقده وبويع لابي الحسن علي بالخلافة ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله[٣٠] . وما ان اعتلى الخليفة الجديد العرش ، حتى بادر الى اضطهاد الموحدين محنثاً بالعهد الذي قطعه على نفسه للحاكم . وقد ظهر عزمه على مناصبتهم العداء في السجل الذي قرىء على الناس عند اعتلائه العرش . وفيه يعظم ، كما ذكر الانطاكي ، « ما عرفه من ذهاب طائفة من الجهال الى الغلو في الامامة ، وعدولها بالأباطيل عن موجب الحقائق ووصفها المخلوق بصفة الخالق » . ثم يقول فيه ، « ان جميع من خرج منهم عن حدّ الأمانة والعبودية لله عز وجل ، فعليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين والملائكة والناس أجمعين . وأنه قد قدّم انذاره لهم بالتوبة الى الله تعالى من كفرهم ولما يعتمده من الابقاء على الجماعة ، ومن اتى ذلك فيهم وأقام على كفره فسيف الحق يستأصله »[٣١] .

---

٢٩ - الاشرفاني ، ج **٣** ، ص **١٨٨** ، ص **١٠٤-١٠٥**

٣٠ - راجع الانطاكي ، ص **٢٣٥** .

٣١ - المصدر ذاته ، ص **٢٣٦** .

كان هذا السجل ايذانا ببدء المحنة على الموحدين وهدر دمهم . غير ان ما ورد فيه من اتهامات لم يكن الا السبب الظاهر لاضطهاد الخليفة لهم يسوّغ فيه اراقة دمائهم امام العامة من الناس . اما ما أتهم به الخليفة الظاهر الموحدين من وصف المخلوق بصفة الخالق ، فلا يعد في العقيدة الفاطمية غلّوا في الامامة ، كما يذكر السجل ، وانما هو لله تنزيه عن الصفات . فالله ، حسب العقيدة الفاطمية لا صفة له على الاطلاق ، وانما الصفات لا تقع الا على المخلوق .

اما السبب الحقيقي لاضطهاد الظاهر للموحدين فهو كون الموحدين لم يعترفوا بالظاهر اماما لهم . فالامامة الفاطمية انتهت ، حسب معقتدهم ، بالحاكم[٣٢] الذي سلّمها في الأول من محرم سنة ٤٠٨ هـ الى حمزة بن علي وقد لقّبه بامام الزمان . اذن ، كان الموحدون في نظر الخليفة الظاهر ، خارجين عن طاعته لا يعترفون بامامته ، وبالتالي لا يدينون له بالولاء . لذلك كان لا بد له من استئصالهم بالسيف على حدّ تعبيره .

فلما اعتلى الظاهر عرش الخلافة الفاطمية ، وكان قد مضى على اختفاء الحاكم نيف واربعون يوما ، عدّ كل يمين من الأربعين يمينا ، التي قيل انه اخذها على نفسه بالاّ يصيب الموحدين بسوء ، قبالة يوم واحد ، حسب المصادر التوحيدية التي تضيف ان ذلك كان بمشورة احد اخصام الموحدين وهو صالح بن مرداس والي حلب[٣٣] . وهكذا اخذ الظاهر يسوم الموحدين شتى انواع الاضطهاد والتعذيب والتنكيل . وقد هدر دماءهم في مختلف انحاء مملكته ودامت فترة الاضطهاد هذه نحو ست سنوات ونيف[٣٤] .

وقد بقي الموحدون على صبرهم وثباتهم امام هول المحنة . وان لم يتمكنوا من مجابهة اضطهاد الظاهر لهم عسكريا والوقوف دون بلوغ مآربه منهم فقد صمدوا في وجهه وتقبلوا هذه المحنة بصبر . وقد حاول قادتهم رفع الضيم عنهم ما امكنهم

---

٣٢ - راجع
Sami Makarem, «al - Hakim bi - amrallah; appointment of his successors,» *Al-abbath*, vol 23 (Dec. 1920)

٣٣ - يوسف العقيلي ، ص ٧٣٨ - ٧٣٩

٣٤ - تقي الدين ، مجرى الزمان ، الورقة ١٦٤ ، الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١٩٣ .

ذلك بالطرق السياسية . فهذا الامير رافع بن ابي الليل ، الذي اصبح قائدا من قواد الظاهر العسكريين ، يعمل ما امكنه لحقن دماء الموحدين والذب بماله ونفسه عنهم كما نعته المقتنى بهاء الدين . هذا ويبدو ان المقتنى بهاء الدين نفسه لم يقف مكتوف اليدين في عهد الظاهر ، فكما اطرى المقتنى الامير رافعا على سعيه الى حقن دماء الموحدين والذب عنهم ، وذلك من خلال ما كان له من مقام رفيع عند الظاهر ، فقد يكون هو ايضا سعى الى ما سعى اليه الامير رافع بن ابي الليل من خلال تقربه الى الخليفة الفاطمي . ان الاصول التوحيدية التي بين ايدينا بقيت صامتة عن نشاط المقتنى وبقية الدعاة طيلة ايام المحنة حتى اول سنة ٤١٧هـ / ١٠٢٦ م عندما تلقى المقتنى كتابا من الامام حمزة بن علي بامره فيه باستئناف الدعوة[٣٥] .

فماذا كان عليه نشاط المقتنى في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الموحدين ؟ هل كان متخفيا عن عيون الظاهر مؤثرا السلامة الى ان يؤذن له باستئناف الدعوة ؟ قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن قد يكون العكس ايضا هو الصحيح ، خصوصا عندما نرى غيره من الموحدين ، كالامير رافع بن ابي الليل ، يحاول ، من خلال انخراطه في صفوف الظاهر ، ان يخفف المحنة عن ابناء عقيدته بما اوتى من سلطة ونفوذ . ومما يدعم هذا الاستنتاج ما اورده بعض المؤرخين في ان علي بن احمد الضيف كان من قادة الظاهر العسكريين[٣٦] . فقد ارسله الظاهر ، حسب رواية ابن العديم ويحي بن سعيد الانطاكي ، سنة ٤١٣هـ الى حلب على رأس حملة عسكرية ليتسلم المدينة عنوة من واليها وليسلمها بدوره الى الوالي الجديد المعين[٣٧] . فاذا كان ما اورده الانطاكي وابن العديم صحيحا ، واذا كان علي بن احمد الضيف الذي يذكره هذان المؤرخان هو ذاته المقتنى علي بن احمد المعروف بالضيف ، فيجب علينا الوقوف عند هذا الحدث المهم الذي يستحق مزيدا من البحث والتحقيق فاذا صح هذا الامر يكون المقتنى ، وربما غيره ايضا من الدعاة ، شانهم في ذلك شان الامير رافع بن ابي الليل ، قد تسللوا الى صفوف اعدائهم يذبّون عن اخوانهم في العقيدة ، ويحاولون ان يسيروا دفة الامور كلما راوا الى ذلك سبيلا ، او كلما اقتضت ذلك مصلحة الموحدين .

---

٣٥ - الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١٠٥

٣٦ - راجع ص ١٣ من هذا الفصل .

٣٧ - ابن العديم ، ص ٢٢١ ، الانطاكي ، ص ٢٣٩ .

ومهما يكن من امر فان المحنة استمرت حتى اواخر سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٦ م . وقد بقيت دعوة التوحيد معلقة طيلة هذه الفترة ، الى ان تسلم المقتنى ، كما سبق القول ، كتابا من الامام حمزة بن علي يأمره فيه باستئناف الدعوة . وقد لبى المقتنى امر الامام وعادت الدعوة الى سابق عهدها من النشاط[٣٨] .

ابن البربرية .

غير ان بعض الدعاة لم يكونوا بمستوى الرسالة التي انيطت بهم . فقد لعبت في بعضهم الاطماع الشخصية ، كما ان بعضهم الآخر لم يتسن لهم فهم الدعوة على حقيقتها . وقد اضطر المقتنى الى العمل على القضاء على هؤلاء المرتدين الانفصاليين ، كما فعل بابن البربرية الذي اقام في سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م في سبسطاس[٣٩] دعوة نجح فيها باكتساب بعض الاتباع ، مما اضطر المقتنى بهاء الدين الى الذهاب الى الاسكندرية حيث وجّه رسالة يشهر بها هذا المرتد عن الدعوة[٤٠] . ويبدو ان هذه الرسالة كفته مؤونة اكماله الطريق الى سبسطاس .

وقد آثر المقتنى الاستقرار في الاسكندرية الى حين ، اذ انها ليست بعيدة عن القاهرة ، كما انها اقرب الى المغرب ، والاتصال منها بالشام ليس صعبا . وهي الى ذلك ابعد عن عيون الظاهر من القاهرة ، مما يجعله قادرا على التحرك بحرية اكثر .

لم يكن القضاء على حركة ابن البربرية خاتمة المطاف فبعد خمس سنوات ونيف ظهرت حركة اخرى كانت اخطر من سابقتها . فلقد كانت دعوة التوحيد ، بما فيها من عدم اخذ بمظاهر التكاليف الاسلامية[٤١] ان جعلت بعض الذين انخرطوا في سلكها يسيئون فهم حقيقتها التوحيدية والخلقية ، ليأخذون بموقف سلبي من هذه التكاليف ، كان بعيدا عن روح دعوة التوحيد ومناقضا لها كليا . وقد قام بعض الدعاة ، وعلى رأسهم ثلاثة هم لاحق بن الشرف العباسي ، ومسعود بن سكينة الكردي المعروف بسكين ، ومصعب التيمي ، بهذا الخط المنحرف عن عقيدة

---

٣٨ ـ الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

٣٩ ـ تقع سبسطاس في مديرية الغربية في مصر ، راجع ادارة التعداد في مصر ، **قاموس جغرافي للقطر المصري** (بولاق ، المطبعة الكبرى الاميرية ، ١٨٨٩) ، ص ٣٣٠

٤٠ ـ الاصول التوحيدية ، الرسالة ٧٦ .

٤١ ـ راجع : سامي مكارم ، اضواء على مسلك التوحيد « الدرزية » بيروت ، ..!ظ ، ص ١١٢

التوحيد . ولاقى هؤلاء المرتدون الثلاثة ، لما كانوا يدعون اليه من تساهل في القيم الخلقية وصل الى حد الاباحية ، تجاوبا من كثير من الناس ، فجمعوا حولهم عددا من الاتباع الذين اساءوا الى سير الدعوة وسببوا لها كثيراً من المتاعب .

كان المقتنى قد قلد لاحق بن الشرف أمور الدعوة وجعل له الامر والنهي على سائر الدعاة ، لا احد فوقه الا المقتنى نفسه[٤٢]. ويبدو ان هذا الداعي عندما ذاق طعم السلطة ، ظهر على حقيقته وحدثته نفسه باقامة دعوة خاصة به . فتنكر لأوامر المقتنى محرفا تعاليم الدعوة . فبادر المقتنى الى عزله[٤٣] . واذ لم يكن لهذا الداعي دار هجرة يقيم فيها ، اذ كان يتنقل بحكم وظيفته في مراكز الدعوة المختلفة ، فلم يكن بالصعب على المقتنى عزله ، بخلاف ما حدث للداعي الآخر ، سكين ، الذي كان قد قلده المقتنى امور الدعوة في جزيرة الشام العليا منذ سنة ٤١٨ هـ/ ١٠٢٧ م[٤٤] . وقد بقي سكين في مركزه ذاك الى سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ - ١٠٣٥ م حين ظهر على حقيقته ، بعد ان كان قد جمع حوله كثيرا من الاتباع فقويت شوكته وتعاظم شأنه لبعده في وادي التيم عن مركز الدعوة في مصر ، ولاقامته دعوة مضللة تقوم على انتهاك المبادىء الدينية والقيم الخلقية بحجة رفض دعوة التوحيد لظاهر التكاليف . وكان من شأن حركة الردة هذه ان سببت كثيرا من المتاعب للمقتنى . فان التفاف كثير من المضللين حول سكين جعل قضاء المقتنى على حركته امرا مستصعبا ، بخاصة ان المقتنى لم يكن يستطيع التحرك بحرية خوفا من انتقاض الخليفة الظاهر عليه ، بعد ان اقام محنة على الموحدين ذهب ضحيتها الآلاف ، ودامت عدة سنوات ، الامر الذي جعل الدعوة التوحيدية لا تتحرك الا بحذر شديد .

الداعي ابو اليقظان عمار . في سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤ - ١٠٣٥ م استدعى المقتنى سكينا الى الاسكندرية في محاولة لاقناعه بالعودة الى الخط الصحيح للدعوة ، وفي الوقت ذاته ارسل احد اعوانه الثقات وهو الداعي ابو اليقظان عمار الى وادي التيم لاقناع شرذمة سكين بالشيء ذاته ، واصحبه برسالة منه اليهم يعلمهم فيها

---

٤٢ - راجع الاصول التوحيدية ، الرسالة ٤٥ .

٤٣ - المصدر ذاته ، الرسالة ٧٧ .

٤٤ - الاصول التوحيدية ، الرسالة ٤٦ .

٤٥ - يوسف العقيلي ، ص ٧٥٠ - ٧٥١

بعزله سكينا . فلما وصل الداعي عمار الى وادي التيم توجه الى قرية كوكبا[٤٦] مركز هؤلاء المرتدين ، بعد ان عرج الى قرية بكيفا حيث اودع الشيخ ابا الخير سلامة بن جندل ، وهو من الدعاة الصالحين ، سيفه تعبيرا عن مبادرته السلمية . التقى الداعي عمار شرذمة سكين في كوكبا وحاول اقناعهم بضلال معتقدهم ، وقرأ عليهم كتاب نائب الامام فتيقنوا بانه فت في عضدهم ، وقرروا المجاهرة بعدائهم للمقتنى واعلان انفصالهم عنه ووثبوا على الداعي عمار وأوسعوه ضربا واخرجوه من بلدتهم ، حتى اذا ما وصل الى ارض ابل المجاورة لحقوا به وقتلوه واخفوا جثته تحت رجمة من الحجارة وعادوا من حيث اتوا . ويبدو انهم اختاروا قتله خارج بلدتهم لكي يبعدوا عنهم تهمة القتل فلا تلاحقهم السلطة المركزية[٤٧] .

السيدة سارة : غير ان المقتنى بهاء الدين لم يلق السلاح ، بل قرر مواصلة رسالته السلمية القائمة على الاقناع بالحسنى . ومع انه فوجىء بقتل رسوله الذي حزن عليه حزنا شديدا ، فانه بادر هذه المرة الى ارسال رسول آخر عزيز عليه كرسوله السابق . فارسل في السنة ذاتها السيدة سارة ، وهي سيدة من الموحدات وابنة اخيه بالذات ، وقيل ابنة اخته[٤٨] . وكانت حجة المقتنى في ارسال السيدة سارة انها قد تستطيع بما اوتيت من حكمة وحجة اقناع ان تؤثر في اتباع سكين ، فتردهم الى الصواب ، بخاصة انها سيدة فاضلة قريبة الى المقتنى الأمر الذي قد جعل اتباع سكين يتورعون عن مسها بسوء . هذا وان وجود سيدة تدعو اهل الردة الى الرشاد من خلال مداخلتها مع النساء قد يجعل مهمتها افضل من مهمة داع رجل لا يتسنى له مخاطبة النساء بحرية . اضافة الى ذلك ، لا بد من الاشارة الى ان ارسال المقتنى بهاء الدين فتاة تتسلم مهام الدعوة في بلد دقيق كوادي التيم يدل على تطبيق المساواة التامة في دعوة التوحيد بين الرجل والمرأة عمليا . ومما تجدر الاشارة اليه ان والد سارة ـ وقيل خالها ـ وهو ابن الحسن تقي بن احمد الطائي شقيق المقتنى بهاء الدين ، كان في جملة الدعاة الذين ارسلهم المقتنى ضمن وفد السيدة سارة الى وادي التيم[٤٩] .

---

٤٦ ـ الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١٦٢ .

٤٧ ـ المصدر ذاته ، ص ١٦١ .

٤٨ ـ المصدر ذاته ، ص ١٤٩ ، ١٥٣

٤٩ ـ راجع الاصول التوحيدية الرسالة ٥٢ . عزم المقتنى بهاء الدين ان يرسل السيدة سارة مرة اخرى في مهمة خارج مصر ، الى الاحساء . غير ان ظروفا كانت صحية على الارجح حالت دون ذهابها في مهمتها تلك . راجع الاصول التوحيدية ، رسالة ٦٨ ، الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ١٥٤ .

يبدو ان السيدة سارة اصابت في مهمتها نجاحا كبيرا ، الأمر الذي جعل سكينا يغادر الاسكندرية خفية ويعود الى وادي التيم ليتدبر امر حركته بنفسه بعد ان علم بعودة عدد من اتباعه الى التوحيد . وقد لاقت السيدة سارة بعد عودة سكين محاربة جدية واكتسبت هذه الحركة بعدا آخر وذلك عندما تدخل مصعب التيمي ، حليف سكين في حركته ، في محاولة للقضاء على المقتنى بهاء الدين ذاته ، اذ سعى بالمقتنى بهاء الدين لدى الظاهر ووشى به بانه عاد الى سابق عهده في الدعوة . فما كان من الظاهر الا ان عاد الى ملاحقة القيمين على الدعوة مما اضطر ايوب بن علي ، الذي كان نائب المقتنى في القاهرة ، الى التخفي هربا من الظاهر[٥٠] . كذلك اجبر المقتنى ، وكان لا يزال في الاسكندرية ، على ستر الدعوة من جديد خوفا من ان يجدد الظاهر محنته على الموحدين[٥١] .

الامير ابو الفوارس معضاد بن يوسف : غير ان الظاهر ما لبث ان قضى نحبه في اقل من سنة ، اي في نصف شعبان ، **٤٢٧** هـ/ **١٠** حزيران ، **١٠٣٦** م . فرُفع الخطر المباشر بموته عن الموحدين وتولى المستنصر بالله عرش الخلافة الفاطمية . بيد ان المقتنى لم يؤمر باستئناف الدعوة حتى اول سنة **٤٢٩** هـ/ تشرين الاول ، **١٠٣٧** م[٥٢] عندما امن من مغبة الامور بعد تقربه من المستنصر الذي عينه استاذا في القصر وقاضيا ومفتيا[٥٣] .

عند ذلك استدعى المقتنى بهاء الدين السيدة سارة من وادي التيم بعد ان تيقن من استفحال امر سكين ، وطلب من الامير ابي الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسي ، وهو احد اعيان جبل لبنان وكان قاطنا في قرية فلجين قرب عاليه ، ان يتوجه الى وادي التيم للقضاء بالقوة على سكين وشرذمته . وهكذا كان ، فقد جرد الامير معضاد حملة عسكرية من الموحدين وتوجه الى وادي التيم حيث هاجم سكينا واعوانه في قرية يذما ليلا وانتصر عليهم في معركة قتل فيها معظم اهل الردة . وقد فاجاهم الامير معضاد بعد ان كشفت له امرهم فتاة من اهل التوحيد تدعى صالحة

---

٥٠ ـ الاصول التوحيدية ، الرسالة ٨٠ .

٥١ ـ الاصول التوحيدية ، الرسالة ٦٦ ، راجع ايضا يوسف العقيلي ص ٧٦٧ ـ ٧٦٩

٥٢ ـ يوسف الفيلي ، ص ٧٧٥ .

٥٣ ـ الاشرفاني ، ج ٣ ، ص ٢١٥ ، يوسف العقيلي ، ص ٧٥٢ .

هي ابنة احد اعوان سكين ويعرف بابي جمعة[٥٤] . غير ان سكينا استطاع ان يلوذ بالفرار ليصل في صباح تلك الليلة الى قرية عرنة حيث رأى امرأة تخبز على التنور في مشارف البلدة . وكانت من آل كبول . فاقترب منها ، وسألها ان تسقيه وتطعمه ، فلما فعلت ، وكانت قد تعرفت به ، غلبه النعاس فدفعته دفعة قوية الى التنور فمات حرقا . وكان ذلك سنة **٤٢٩** هـ/ **١٠٣٧** م[٥٥] .

اما مصعب فقد واصل لدى المستنصر سعايته ضد المقتنى مما جعل المقتنى يرسل اليه كتابا يوبخه فيه ويكشف للخليفة عن سريرته ويفتى بكفره[٥٦] . فيلقي المستنصر القبض عليه ويقتله باعماله[٥٧] . وبذلك يقضي المقتنى بهاء الدين على حركة الارتداد هذه ، ليتفرغ الى تسيير دفة الدعوة ورعاية فرقة التوحيد .

وقد بقيت فرقة التوحيد على الاجمال طيلة فترة الدعوة مرتبطة ، كما سبق القول ، بالسلطة الاسلامية السائدة في بلاد الشام ، وقد راعت ، من خلال مواقفها هذه مبدأ المحافظة على وجودها واستمرارها . وهذا ما جعل قادتها يتصرفون سياسيا وعسكريا بوحي من مصلحة هذه الجماعة والدفاع عن كيانها . ولعل ما يثبت وجود هذا المنحى السياسي لدى قادة الموحدين يومذاك ما ذكر آنفا عن احتمال كون المقتنى بهاء الدين احد قادة جيوش الخليفة الظاهر في سوريا[٥٨] . والخليفة الظاهر ، كما هو معروف ، يعد من الد اعداء دعوة التوحيد .

وبغضّ النظر عن صحة تعاون القيم على دعوة التوحيد المقتنى بهاء الدين علي بن احمد ، نائب الامام حمزة بن علي مع الخليفة الظاهر ، فان هناك امرا آخر اجمع عليه المؤرخون يدعم صحة هذا الموقف السياسي لقادة الموحدين يومذاك وتؤكده المصادر الدرزية[٥٩] . ذلك ان احد اعلام الموحدين في هذه الفترة ، وهو الامير رافع بن ابي الليل كان يعمل في صفوف الخليفة الظاهر ، كما ذكر سابقا ، للذب عن الموحدين ورفع ما امكنه من الضيم عنهم[٦٠] . ولما تسلم امارة بني كلب نراه يحارب

---

٥٤ ـ الاشرفاني ، ج **٣** ، ص **١٣٦** ـ **١٣٨** .
٥٥ ـ المصدر ذاته ، ج **٣** ، ص **٢١٢** .
٥٦ ـ الاصول التوحيدية ، الرسالة ٨٠
٥٧ ـ الاشرفاني ، ج **٣** ، ص **٢١٥** ، يوسف العقيلي ، ص **٧٥٢**
٥٨ ـ راجع ص **١٨** ـ **١٩** من هذا الفصل
٥٩ ـ الاشرفاني ، ج **٣** ، ص **١٥٧** ـ **١٥٨** .
٦٠ ـ المصدر ذاته .

على رأس قوة من اتباعه الى جانب انوشتكين الدزبري ، قائد الظاهر في بلاد الشام ، وذلك في معركة الاقحوانة على الاردن عند طبرية ، حيث انتصرت جيوش الظاهر على كل من صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب واحد مضطهدي الموحدين الالداء ، وحليفه حسان بن مفرج بن دغفل بن جرّاح الطائي امير الرملة[٦١] .

ويبدو ان الامير رافع بن ابي الليل كان يرى ان مصلحة الموحدين « الدروز » يومذاك تقضي من جهة بالتعاون مع الخليفة الظاهر ، احد اعداء الموحدين ، من اجل رفع الاضطهاد والأذى عن اهل التوحيد ، ومن جهة ثانية كانت تقضي بالتخلص من عدو آخر كان خطره في ذلك الوقت اشد الحاحا على الموحدين « الدروز » وكان ضربه اقرب منالا ، واعني به صالح بن مرداس الكلابي صاحب حلب .

صالح بن مرداس ، وحسّان بن مفرّج ابن الجرّاح ، وسنان بن عليان : كان صالح بن مرداس امير بني كلاب اميرا على حلب من قبل الخليفة الفاطمي الظاهر . ولكنه ما لبث ان انقلب على الظاهر وعقد سنة **٤١٥** هـ/ **١٠٢٥** م حلفا مع القبيلتين الكبريين الأخريين في بلاد الشام ، وهما بنو كلب ، بقيادة سنان بن عليان ، وبنو طيء ، بقيادة حسان بن مفرّج بن دغفل بن جراح امير الرملة[٦٢] . ويبدو ان القصد من هذا الحلف كان اطماعا سياسية لدى كل من صالح بن مرداس وحسان بن مفرج وسنان بن عليان بالاستقلال عن الدولة الفاطمية . وكان من اهداف هذا التحالف تقسيم بلاد الشام الى مناطق نفوذ بين القبائل العربية الثلاث ، فتكون فلسطين واعمالها لحسان بن مفرج ابن الجرح ، ودمشق وما يلحقها من البلاد لسنان بن عليان وعشيرته ، وحلب وما معها لصالح بن مرداس وبني كلاب . وقد حاول هؤلاء الأمراء الثلاثة استجلاب الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني اليهم ومساعدتهم عسكريا ، فرفض ، فاستصلحهم الظاهر الى حين . ولكنهم ما لبثوا

---

٦١ - ابن القلانسي ، ص **٧٣** ، ابن العديم ، ص **٢٣١** ، ابن الاثير ، ج **٧** ، ص **٢٦١**

٦٢ - ابن خلدون ، العبر ، ج **٤** ، ص **٥٨١ - ٥٨٢** ، راجع ايضا

H Lammens. La Syrie tome 1, tome 2, p 153 p 109

ان قاموا عليه ثانية ليسببوا له كثيرا من المتاعب والفتن[٦٣] . وقد بلغ هذا الحلف من الخطورة ما جعل الخليفة الظاهر يسيّر لقتال امراء العرب اولاً قائدا من قواده الأكفاء هو انوشتكين الدزبري ، الذي ولاه الظاهر على فلسطين . والتقى الجمعان فدارت الدائرة على انوشتكين الدزبري الذي انسحب الى عسقلان . وفتح حسان بن مفرج الرملة وانشب فيها الحرائق ونهبها وسبى عددا من النساء والصبيان[٦٤] . كما استطاع صالح مرداس بام في سنة **٤١٦ هـ/ ١٠٢٥** م ان يدخل حلب بالاضافة الى حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس ، وقد ضمّ هذه المناطق الى ما كان في يده من البلاد كالرحبة ومنبج وباليس ورفنية غربي حماة[٦٥] . اما سنان بن عليان امير بني كلب ، فقد توجه الى دمشق وحاصرها سنة **٤١٦ هـ/ ١٠٢٥** م يعاونه في ذلك صالح بن مرداس . وقد استطاع سنان ان يغير على الغوطة وينهبها ويقتل الفلاحين ويعيث فسادا في القرى ويخرب داريّا واعمالها[٦٦] . غير انه لم يستطع فتح دمشق ، فارسل اليه حسان بن مفرج نجده من نحو ثلاثة آلاف فارس . وجدّد سنان القتال على دمشق طالبا من اهلها ثلاثين الف دينار مقابل كفه عن الحصار . غير ان القاضي الشريف فخر الدولة ابا يعلى حمزة بن ابي العباس نقيب الطالبين منع الدمشقيين من اعطاء سنان هذه الاموال لتنفق في الدفاع عن المدينة وفي الجهاد ضد الاعراب . ففعل الدمشقيون ذلك وشددوا القتال ضد سنان بن عليان فقتل من الاعراب نحو مئتي فارس ، كما اصيب سنان بن عليان بسهم فاجبر على قبول الهدنة وفك الحصار[٦٧] . غير ان المعارك لم تهدأ في دمشق لمدة طويلة ، اذ سرعان ما تجدد القتال بعد ان حث حسان بن مفرج حليفه سنان بن عليان على مغادرة الحرب ووعده بالمساعدات العسكرية[٦٨] .

---

٦٣ ـ الانطاكي ، ص **٢٤٤** . يقول ابن الاثير في ذلك « فاجتمع حسان امير بني طيء ، وصالح بن مرداس امير بني كلاب ، وسنان بن عليان ، وتحالفوا واتفقوا على ان يكون من حلب الى عانة لصالح ومن الرملة الى مصر لحسان ، ودمشق لسنان » .

راجع ابن الاثير ، ص **٢٦١** ، ابن العديم ، ص **٢٢٣** .

٦٤ ـ ابن العديم ، ص **٢٢٣ ـ ٢٢٤** ، راجع ابن الاثير ، ج ٧ ، ص ٢٦١

٦٥ ـ ابن العديم ، ص **٢٣٠** .

٦٦ ـ الانطاكي ° ص **٢٤٨**

٦٧ ـ المقريزي ، **اتعاظ الحنفا** ، ص **١٥٦ ـ ١٥٧** ، ابن خلدون ، **العبر** ، ج **٤** ، ص **١٢٩** .

٦٨ ـ المقريزي ، **اتعاظ الحنفا** ، ص **١٥٧** .

هنا لا بد من التذكير بالمقام الرفيع الذي كان يحتله الشريف فخر الدولة ابو يعلى حمزة بن ابي العباس في دعوة التوحيد ، اذ اليه ارسل الامام حمزة بن علي آخر رسالة كتبها وذلك في سنة **٤١٢ هـ/ ١٠٢١ م بعد غيبته بعدة شهور**[٦٩] .

اما حسان بن مفرج ، فقد عمل على استقلال الاعمال العسكرية التي قام بها هو وحلفاؤه ضد جيوش الظاهر . فاشترط على الخليفة ، مقابل الكف عن القتال ان يقوم هو بامر فلسطين كلها ، ويقوم سنان بن عليان بامر دمشق ، وصالح بن مرداس بامر حلب ، وذلك، من قبل الظاهر ، مشترطا على نفسه الـولاء للفـاطميين[٧٠] . وربما كانت محاولة حسان التقرب من الخليفة الظاهـر ، مع الابقـاء على مكاسبـة الأصيلة ، هي تخوفه من مغبة سعي الخليفة الفاطمي لكسب مودة ثلاثة من ابنائه كان الخليفة قد خلع عليهم وقربهم منه[٧١] ، كما قرّب احد اخوة حسان واستدعاه الى مصر واكرامه وقدم له العطايا واتفق معه على الخروج مع الحملة الفاطمية المتوجهة الى الرملة[٧٢] .

هنا لا بد من الاشارة الى ان المصادر التوحيدية تذكر لنا ان اثنين من اخوة حسان بن مفرج كان لهما المقام الرفيع في دعوة التوحيد وهما زمّاخ وجابر ابنا مفرج بن دغفل ابن الجرّاح[٧٣] . بالاضافة الى ذلك كان الظاهر يسعى الى كسب مودة صالـح بن مرداس[٧٤] في محاولة لشق صفوف الحلف القبلي .

غير ان الظاهر رفض الاستجابة الى محاولات حسان بن مفرج هذه ، واعـاد الدزبري لقتال الحلف على رأس حملة عسكرية تعيد النفوذ الفاطمي الى الشام . وقد نجح ابنان من ابناء حسان بن مفرج بالهرب من مصر واللحاق بقوات ابيهما تاركين اخاهما الثالث في مصر على فراش المرض[٧٥] .

---

٦٩ ـ الاصول التوحيدية ، الرسالة .
٧٠ ـ المقريزي . **اتعاظ الحنفا** ، ص **١٥٩** .
٧١ ـ المصدر ذاته .
٧٢ ـ المصدر ذاته .
٧٢ ـ المصدر ذاته ، ص **١٥٥** ، راجع ايضا ص **١٥٢** .
٧٣ ـ الاشرفاني ، ج **٣** ، ص **١٥٦ ـ ١٥٧** .
٧٤ ـ الانطاكي ، ص **٢٤٨** .
٧٥ ـ المقريزي ، **اتعاظ الحنفا** ، ص **١٥٩** .

الامير رافع بن ابي الليل : وكان من اسباب رفض الظاهر عقد الصلح مع حسان بن سنان بن عليان ، امير بني كلب وحليف حسّان بن مفرج وصالح بن مرداس ، مات في جمادي الآخرة سنة ٤١٩[٧٦]/ حزيران او تموز ، ١٠٢٨م ، فتولى امارة الكلبيين ابن اخيه رافع بن ابي الليل بن عليان الذي كان مقربا الى الظاهر. وهكذا لم يعد الظاهر بحاجة الى صداقة حسان بن مفرج . وفي السنة التالية ، اي سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م سير الظاهر رافعا الى الشام في قوة من الجيش لتضاف الى الجيش الفاطمي بقيادة انوشتكين الدزبري . وقد استطاع امير بني كلب الجديد ان يضم اليه جماعة من العرب بالاضافة الى قبيلته[٧٧] .

هنا لا بد من التذكير بالمقام الرفيع الذي تبوأه شيخ بني كلب الجديد الامير رافع بن ابي الليل عند الموحدين . وهكذا ما ان تسلّم امارة بني كلب حتى بادر الامير رافع بن ابي الليل الى الانسحاب من الحلف القبلي . فقد وجد الفرصة سانحة للاقتصاص من صالح بن مرداس الذي لاقى الموحدون « الدروز » منه الآمرين سواء اكان ذلك ايام محنة الظاهر او فيما بعد .

معركة الأقحوانة : وفي ٢٤ ربيع الآخر من سنة ٤٢٠/١٢ايار ١٠٢٩ ، في موضع يعرف بالأقحوانة على نهر الأردن قرب طبرية، التقى الجيش الفاطمي ، بقيادة انوشتكين الدزبري ومعه الامير رافع بن ابي الليل في بني كلب وفي غيرهم من العرب ومن الجنود الذي رافقوه من مصر ، بحسّان بن مفرج ، وصالح بن مرداس ورجالهما . ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة كانت الغلبة فيها للجيش الفاطمي بقيادة انوشتكين الدزبري ولقوات الأمير رافع بن ابي الليل . ويبدو ان قوات الحلف انقسمت قسمين . فهاجم حسان بن مفرج القوات الفاطمية من جهة وهاجمها صالح بن مرداس بما فيها من جهة اخرى[٧٨] . غير ان القوات الفاطمية ظفرت برجال حسان بن مفرج وصالح بن مرداس والحقت بهم هزيمة نكراء ، و« اخذتهم السيوف وتحكمت فيهم » ، على حِد تعبير المؤرخ ابن القلانسي . وقد حاول صالح بن مرداس الفرار ، غير ان فرسه ، كما يذكر لنا ابن القلانسي ،

---

٧٦ ـ الانطاكي ص ٢٥٣

٧٧ ـ راجع المصدر ذاته .

٧٨ ـ الانطاكي ، ٢٥٣ .

« وقف به من كد الهزيمة ولم يمض به » ، فرآه رجل من فزارة يدعى طريفا فلحقه وضربه في رأسه وكان مكشوفا دون ان يعرفه ، فصاح ابن مرداس من هول الضربة ووقع على الارض ، فتركه الفزاري ، ومضى في طلب فرسه . ثم مر رجل آخر من بني زبيدة بصالح بن مرداس فعرفه واجهز عليه وقطع رأسه وعاد يرقص به ، واعطاه للامير رافع بن ابي الليل ، فمضى به الى القائد الاعلى للحملة انوشتكين الدزبري الذي انفذ الرأس الى الظاهر في مصر وانعم على الاميرعز الدولة رافع وعلى الفزاري والزبيدي . اما جثة صالح فاخذت الى صيدا حيث صلبت على بابها[٧٩] .

وما ان علم حسان بن مفرج بقتل صالح بن مرداس وتضعضع قواته ، حتى بادر وجماعته الى الفرار الى الجبال (فتعقبتهم)القوات الفاطمية وقتلت منهم جماعة . اما ابن صالح واصحابه المقيمون في بعلبك وحمص وصيدا ورفنية وحصن عكار فلما علموا بقتله وانهزام جماعته وجماعة حسان ، تخلوا عن مواقعهم للفاطميين . اما ابنا صالح ، نصر وثمال ، فقد عادا الى حلب سالمين وتمكنا منها واستوليا على اعمالها وعلى الرحبة وبالس ومنبج[٨٠] ، بعد ان استطاعا ان يفرّا من معركة الاقحوانة ، بخلاف اخيهما الاصغر الذي قتل في المعركة[٨١] .

وهكذا استعاد الفاطميون نفوذهم في بلاد الشام واستولى انوشتكين الدزبري على معظم المنطقة ونزل على دمشق[٨٢] ، معززا مكرما حائزا على رضى الخليفة الفاطمي الظاهر وتأييده[٨٣] .

هنالابدمن ذكرالدور المهم الذي قام به الاميررافع بن ابي الليل، في قيادة جماعة الموحدين « الدروز » خلال هذه الفترة الحرجة ، حين كانت سائر القوى السياسية الرئيسية في بلاد الشام آنذاك ، وهي البيزنطيون وصالح بن مرداس وحسان بن مفرج ابن الجرّاح والخليفة الفاطمي الظاهر ، تهدّد سلامة الموحدين في الشام وتعرّض مصيرهم للاخطار . فمع ان معركة الاقحوانة كانت انتصارا عسكريا

---

٧٩ - ابن القلانسي ، ص ٧٣ - ٧٤ . يقول الانطاكي ان الذي قطع رأس صالح بن مرداس هو الامير رافع بن ابي الليل (ص ٢٥٣) . اما ابن العديم فيضيف قائلا ان الامير رافعا اجهز علي صالح وقطع راسه (ص ٢٣١) .

٨٠ - الانطاكي ، ص ٢٥٣

٨١ - ابن الاثير ، ج ٧ ، ص ٢٦١ . راجع كذلك ابن تغري بردي ، **النجوم الزاهرة** ،ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

٨٢ - ابن تغري بردي ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

٨٣ - ابن القلانسي ، ص ٧٤ .

للفاطميين على المرداسيين وبني الجراح ومن قبلهما من الاعراب ، فانها جعلت قوة الفاطميين في بلاد الشام مستندة في معظمها الى امرين هما الجيش الفاطمي ، بقيادة قائدة التركي انوشتكين الدزبري ، وبنو كلب ومن حالفهم من عرب الشام من عرب الشام بقيادة الامير رافع بن ابي الليل . ذلك لان هذا الانتصار العسكري ، مع انه فتح معظم بلاد الشام بوجه الفاطميين ، فقد حرمهم بالحقيقة من تأييد قبيلتين رئيسيتين كانتا تؤلفان مع قبيلة كلب القوة العسكرية الحقيقية في بلاد الشام . وهكذا ، فبتخلي بني الجراح وبني مرداس عن دعمهم للفاطميين ، اصبح بنو كلب بقيادة الامير رافع بن ابي الليل ، ومن ورائه ايضا الموحدون ، سواء اكانوا من بني كلب ام تنوخ ام غيرهم ، القوة الرئيسية التي يمكن الفاطميين الاعتماد عليها في تثبيت مركزهم السياسي والعسكري في تلك المنطقة المتفجرة من بلاد الشام . لذلك ، فمع ان معركة الاقحوانة ظهرت وكأنها انتصار حاسم احرزه الفاطميون ، فقد كانت في الواقع انتصارا لرافع بن ابي الليل الذي اصبح هو ومن هم وراءه محور استقطاب في بلاد الشام ، لا غنى للفاطميين عنه . وقد استطاع الامير رافع ، بما اوتي من حنكة سياسية ومراس عسكري ان يستعمل موقعه ذاك القوى لدعم ابناء عقيدته التوحيدية ودرء الاخطار عنهم .

بين الامير رافع بن ابي الليل والفاطميين : بالتخلص من صالح بن مرداس الذي سام الموحدين كثيرا من الاضطهاد . ادرك الامير رافع ان الوقت قد حان للتصدي للخليفة الظاهر الذي كان خطره على الموحدين ماثلا على الدوام ، وقد سبق ان اضطهد الموحدين بمعونة صالح بن مرداس فهدر في سنة **٤١١** هـ/ **١٠٢١**م ، دماءهم واقام عليهم محنة في انحاء مملكته دامت اكثر من ست سنوات .

حيال هذا الأمر نرى الامير رافعا يتخلى عن الفاطميين كليا ، فيتبع هذه المرة ايضا خطته السياسية التي انتهجها سابقا عندما تعاون مع عدوله هو الظاهر لمحاربة عدوّين آخرين اقرب خطرا ومنالا هما صالح بن مرداس وحسان بن مفرج ابن الجراح ، ليتعاون هذه المرة مع حسان ابن الجراح بالذات لمحاربة الظاهر في محاولة لازالة نفوذه من بلاد الشام .

يبدو ان الامير رافع بن ابي الليل كان هو الذي يختار الوقت المناسب لضرب عدوه . ففي المرة الاولى لم يضرب صالح بن مرداس وحسان بن مفرج الا عندما

تيقن من ان انضمامه الى الفاطميين سيخسرهما الجولة ضد الظاهر ، فرمى بثقله ضدهما وفرض عليهما المعركة فرضا وضربهما وظفر بهما . وفي هذه المرة ايضا نراه يختار الوقت الملائم لضرب الخليفة الظاهر . فها هو ينتظر لتصبح قوة الظاهر في سوريا ، المكونة من جيش غريب عن اهل الشام يقوده قائد تركي غريب كذلك هو انوشتكين الدزبري ، معزولة عن بني الجراح وبني مرداس ، فيرمي بثقله ايضا ضد الظاهر وقائده الدزبري ويعزل جيشه الغريب عن البلاد ، فيهون عليه وتسهل ضعضعته .

ويبدو ان الفاطميين شعروا اما بازدياد قوة الامير رافع بعد معركة الاقحوانة ، واما بتحول سياسته ، واما بالامرين معا . فقرروا وضع حد لازدياد قوته ونفوذه لئلا يتفاقم امره ويصعب عليهم احتواؤه ، فيخسروا بذلك آخر دعامة لهم في بلاد الشام لتفلت من ايديهم مرة اخرى . وهكذا فإنهم« قبضوا على اكثر ما سوغوه اياه من الاقطاع ونافروه »[٨٤] ويبدو انهم قاموا بذلك دون ان يخشوا تنكر الامير رافع لهم وخروجه عن ولائه لهم ، اذ ربما ظنوا انه بعد مناصبته بني الجراح وبني مرداس العداء لم يعد له غنى عنهم . لذلك فانه سيبقى تحت نفوذهم . غير ان حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر ، فما ان بادره الفاطميون بهذه الحرب الباردة حتى اتخذ منها ذريعة فاسرع الى الاتفاق مع حسان بن مفرج بن الجراح على محاربة الفاطميين . ويبدو ان الامير رافعا لم يجد صعوبة باقناع ابن الجراح بالتعاون معه بعد العداء المستحكم بينهما ، اذ ان تعاونهم من شأنه ان يعيد الحلف القبلي الى سابق عهده ، وبذلك تستطيع القبائل الكبرى الثلاث ، اي بنوطيء ، بقيادة ابن الجراح ، وبنو كلاب بقيادة نصر بن صالح بن مرداس ، وبنو كلب ، بقيادة رافع بن ابي الليل ، استرجاع ما كان لكل منهما من مناطق نفوذ في بلاد الشام . وقد وقعت بين حسان بن مفرج ورافع بن ابي الليل من جهة ، وانوشتكين الدزبري من جهة ثانية معركة قرب بصرى في حوران كان النصر فيها سجالا بين الفريقين الى ان انتصر اخيرا الدزبري فانسحب حسان بن مفرج ورافع بن ابي الليل الى ناحية تدمر . وقد استغل الامبراطور البيزنطي هذا الخلاف المستحكم بين ابن الجراح والفاطميين ، فارسل الى ابن الجراح كتابا قوي فيه من عزيمته ، فسار ابن الجراح

---

٨٤ ـ الانطاكي ، ص ٢٦١

ورافع بن ابي الليل ببني طيء وبني كلب الى منطقة انطاكية ، وكان عددهم يزيد على عشرين الفا[٨٥] . في اثناء ذلك كان نصر وثمال ابنا صالح بن مرداس في حلب ، وقد حل ما حل بابيهما وبقبيلتهما في معركة الاقحوانة ، يتوددان الى البيزنطيين لمساعدتهما على استرجاع نمود دوله المرداسيين . وقد زاد في توددهما للبيزنطيين ما علماه من انهم ، لاستضعافهم اياهما ، ينوون احتلال امارتهما في حلب[٨٦] . وبالفعل فقد اوفد نصر وثمال ابن عمهما مقلد بن كامل بن مرداس الى البيزنطيين ، كما ارسل حسان بن مفرج وفدا يفاوض البيزنطيين لمساعدته على استرجاع امارته في الرملة في فلسطين . وقد انضم مقلد بن كامل الى وفد بني الجراح في المحادثات ، واعلن الوفد المفاوض ولاءه للبيزنطيين . حيال هذا الامر بادر الامبراطور البيزنطي رومانوس الثالث بالطلب من نصر وثمال تسليم مدينة حلب اليه لعدم تمكنهما من المحافظة عليها لصغر سنهما مقابل التعويض عليهما باكثر ما يطمحان اليه من البلاد والاموال . ولكن نصرا وثمالا اعتقلا رسول الامبراطور بانتظار نتائج المفاوضات التي كان يجريها ابن عمهما مقلد بن كامل بالاشتراك مع وفد بني الجراح . ولكن اعتقال الرسول اغضب الامبراطور فاعتقل بدوره مقلد بن كامل وجرد على ابني صالح بن مرداس حملة قادها بنفسه لتأخذ حلب عنوة . وكان ذلك سنة **٤٢١** هـ/ **١٠٣٠** م . فاقام ثمال بن صالح في قلعة حلب مدافعا عنها . وتوجه نصر لمجابهة البيزنطيين ، فاستولى على منابع الماء في منطقة يقال لها تبل مما اجبر رومانوس الثالث على النزول في موضع لا ماء فيه . ودارت بين الفريقين معركة كان النصر فيها للمرداسيين . وقد انسحب البيزنطيون بعد ان انهزموا شرّ هزيمة[٨٧] . وحدث بعد الوقعة ان نصرا وثمالا سارا لاحضار اهلهما من البرية حيث التجأوا عند قدوم البيزنطيين . وفي العودة سبق نصر اخاه الى حلب فاستولى عليها وعلى القلعة واوصد الابواب في وجه اخيه ثمال . وقد توسط مقدّموا العرب لدى صالح فيما بعد فعوّض على ثمال بالس والرحبة ومنبج واعمالها[٨٨] . اما رومانوس فقد عزم على معاودة الكرة على حلب في الشتاء القادم ، الامر الذي اقلق نصر بن

---

٨٥ ـ المصدر ذاته .

٨٦ ـ المصدر ذاته ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤

٨٧ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ ، ابن العديم ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣

٨٨ ـ الانطاكي ، ص ٢٥٧ ، ابن العديم ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٥

صالح ، اذ علم ان الفرصة لن تعاوده بالانتصار على البيزنطيين ، فالامبراطور البيزنطي سيعود في الشتاء المقبل اكثر عدة وعددا ، واشد اصرارا على القضاء عليه ، بخاصة ان التحالف القائم بين حسان بن مفرج ورافع بن ابي الليل من جهة والبيزنطيين من جهة اخرى سيحول دون مساعدة اميري طيء وكلب له . اضف الى ذلك ان تنكر نصر لاخيه ثمال سيحول دون مساعدة اخيه له ، بل ربما سيدفع بثمال الى مساندة البيزنطيين ضده . كل ذلك والفاطميون لا يزالون له بالمرصاد . ومما زاد في قلق نصر بن صالح ان نصر بن مشرف الرادوفي ، الذي كان مسيطرا على المسلمين القاطنين في جبل الرواديف وما يليه من اعمال الروم ، قد اعلن ولاءه للفاطميين وتفاقم امره ، لا سيما بعد ان بنى في جبلة حصنا منيعا واستولى على حصن آخر ببنكسرائيل وبعد ان قام بعض اتباعه كابن الكاشح وبني الاحمر وبني ابي غناج ببناء حصون اخرى وحرك الفاطميين في طرابلس فحاصر واليها مدينة مرقية[٨٩] .

وهكذا وجد نصر نفسه معزولا عن جميع القوى في المنطقة ، فلا الفاطميون معه ولا حسان بن مفرج ، ولا رافع بن ابي الليل ، ولا اخوه ثمال ، ولا نصر بن مشرف . وهؤلاء بيزنطيون يتأهبون للقضاء عليه عند حلول الشتاء بعد بضعة اشهر فقط . لذلك رأى نصر بن صالح نفسه مضطرا الى التودد الى رومانس الثالث واستعطافه وموالاته . فهو بذلك سيؤمن من استمرار دولته وسيحفظها من عاديات البيزنطيين والفاطميين واعوانهم على السواء .

وكان رومانوس الثالث قد عين على انطاكية قطبانا قديرا يدعى نقيطا فسار نحو مرقية وفك الحصار عنها وجدّد حصنها وعاد الى انطاكية بعد ان خرّب ونهب واحرق وسبى . ثم توجه لغزو اعزازا فأحرق وعاث في ناحيتها مؤدبا بذلك الفاطميين واعوانهم . وقد توسط نقيطا لنصر بن صالح لدى الامبراطور وعقدت معاهدة صلح بين ابن صالح ورومانوس الثالث . فاطلق القطبان مقلّد بن كامل رسول نصر الذي كان محتجزا في انطاكية كما اطلق نصر رسول الامبراطور المعتقل في حلب . واستقامت الامور بين ابن صالح والبيزنطيين وكان ذلك في جمادي الاولى سنة **٤٢٢** هـ/ ايار ، **١٠٣١**م . ثم عمل نقيطا قطبان انطاكية على اخضاع نصر بن مشرف فتم

---

٨٩ ـ الانطاكي ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩

له ذلك او كاد[٩٠] . وكان من جراء ذلك ان ضمن البيزنطيون معاضدة القبائل العربية له ضد الظاهر ، وعاد بنو كلاب ، بقيادة نصر بن صالح ، وبنو طيء ، بقيادة حسان بن مفرج ، وبنو كلب ، بقيادة رافع بن ابي الليل وغيرهم من العرب الى سابق عهدهم من الاتحاد ضد الفاطميين فقويت شوكتهم وتفاقم امرهم .

ومع ان نصر بن صالح لم يقطع الصلة بينه وبين الفاطميين ـ اذ سيّر الى الظاهر في مصر شيخ الدولة ابا الحسن بن الأيسر حاملا اليه هدية مما غنمه من البيزنطيين ، فوقع ذلك عند الظاهر موقعا حسنا ـ فان اتحاد القبائل العربية الكبرى الثلاث وتحالفها مع البيزنطيين ، جعل حكم الظاهر في بلاد الشام يلقى مختلف الصعوبات والعراقيل . فمع ان الجيش الفاطمي كان مسيطرا في ظاهر الامر على بلاد الشام خلا منطقة حلب ، فقد كانت القوة الحقيقية في بلاد الشام قد انتقلت ـ ولو مؤقتا ـ من يد الفاطميين الى يد البيزنطيين[٩١] . لذلك لم تعد الظروف تخدم الظاهر في مواصلة العداء للموحدين « الدروز » في مناطقهم من سوريا الجنوبية ، اي الغرب والاشواف ووادي التيم وبلاد الجليل ، اذ كان معظم همه التصدي للخطر الذي كان يجابهه في الشمال . فنعم الموحدون الدروز في تلك المناطق بقيادة بني تنوخ وبني جندل التميميين بفترة من الهدوء ، وتسنى لهم ان ينظموا صفوفهم ويصلحوا من شأنهم بعد ان كان الظاهر واعوانه قد نكلوا بهم من قبل مدة تنيف على ست سنوات (٤١١ هـ/ ١٠٢١م ـ ٤١٧ هـ/ ١٠٢٧ م) .

محنة انطاكية : غير ان الجو لم يصف كليا للموحدين . ذلك ان نصر بن صالح لم يكن اقل عداء للموحدين « الدروز » من ابيه . اذ نراه ، بعد تخلصه من الازمة التي وقع فيها حيال رفضه تسليم حلب للبيزنطيين والتي انتهت باعلان ولائه للامبراطور البيزنطي ، يعمل مع البيزنطيين على اضطهاد الموحدين « الدروز » في جبل السماق من منطقة حلب .

ذلك ان نصر بن صالح ، مع ان صلحه مع البيزنطيين جعله حليفا للاميرين رافع بن ابي الليل وحسان بن مفرج ، فقد بقي حانقا عليهما لعدم استعدادهما لنصرته في حربه ضد البيزنطيين ، فبقي يتحين الفرص للانتقام منهما . كذلك كان

---

٩٠ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٦٠ ، راجع كذلك ابن العديم ، ص ٢٤٧

٩١ ـ ابن العديم ٢٤٧ .

تقربه الى الفاطميين ان حدا به لضرب عدوّيهم اميري كلب وطيء عندما تحين الفرصة لضربهما توددا للظاهر . فلما رأى نقيطا قطبان انطاكية ضرب الموحدين « الدروز » في جبل السماق ، بادر نصر بن صالح لمساعدته انتقاما من رافع بن ابي الليل الذي كان الموحدون يعدون من انصاره . وكان الموحدون « الدروز » في جبل السماق قد اصبحوا قوة سياسية وعسكرية من شأنها ان تهدد نفوذ البيزنطيين في المنطقة ، كما تهدد غيرهم من القوى كالفاطميين والمرداسيين ، لا سيما بعد ان استجاب الى دعوة التوحيد كثير من سكان المنطقة في حلب وانضوى اليهم عدد من اخوانهم من مختلف الانحاء بورود الامير رافع الى تلك المنطقة . وقد استولوا على منطقة على العاصي تتميز بموقفها الستراتيجي وتحصيناتها الطبيعية مما زاد من قوتهم العسكرية[٩٢] . مهددين بذلك البيزنطيين واعوانهم ، الامر الذي جعل كلا البيزنطيين والمرادسيين يتوجسون خفية من احتمال توسع الموحدين الاقليمي ، في تلك الانحاء بالاستيلاء على باقي المنطقة ، كما يشير الى ذلك ابن العديم[٩٣] . هذه الاسباب مجتمعة عمد نقيطا قطبان انطاكية ونصر بن صالح بن مرداس الى ضربهم . وهكذا ففي سنة **٤٢٣** هـ/ **١٠٣٢** م ، بادر البيزنطيون ، كما يقول يحي بن سعيد الانطاكي ، « فتلطفوا في ان قبضوا على دعاتهم واماثلهم وقتلوهم » . مما جعل باقي الموحدين يفرون الى تحصيناتهم ومغاورهم في الجبال ليتعقبهم قطبان انطاكية ونصر بن صالح ورجالهما ويحاصروهم في مغاورهم ويقاتلوهم مدة اثنين وعشرين يوما ويدخنوا عليهم حتى التمس الموحدون « الدروز » الامان وخرجوا من تحصيناتهم هاربين . وقد تتبعهم البيزنطيون ونصر بن صالح وعملوا فيهم السيف . وكان ذلك في شهر ربيع الاول ، **٤٢٣**/ شباط ، **١٠٣٢**[٩٤] .

وربما كان ما ابداه الامير رافع بن ابي الليل من حنكة عسكرية وسياسية سببا آخر جعل البيزنطيين يتوجسون منه خفية ، مع انه كان في ذلك الوقت حليفا لهم ، فيعمدون ، اضعافا له ، الى ضرب اتباعه الموحدين « الدروز » ، كي لا يتمكن من

---

٩٢ ـ ابن العديم ، ص ٢٤٨ ، الانطاكي ، ص ٢٦٥ .
٩٣ ـ ابن العديم ، ص ٢٤٨ .
٩٤ ـ المصدر ذاته ، اما ابن العديم فيذكر ان البيزنطيين والمرداسيين اخرجوا الدروز بالامان ثم قبضوا على دعاتهم وقتلوهم (ص ٢٤٩) .

ترسيخ اقدامه في جبل السماق الذي يعده كل من البيزنطيين وحلفائهم المرداسيين منطقة نفوذ لهم يجب الا تكون فيها عناصر تابعة لغيرهم من شأنها ان تهدد نفوذهم وحتى وجودهم في المنطقة[٩٥] .

دور رافع بن ابي الليل : بعد اضطهاد « الدروز » في جبل السماق لم ير الامير رافع بن ابي الليل ان الوقت قد حان لضرب اعداء الموحدين . فهو لم ينته من الظاهر واعوانه بعد ، وهو ان ضرب نصر بن صالح سيضعف الحلف القبلي الذي يناوش الفاطميين بمعونة البيزنطيين مما يسهل للفاطميين اضطهاد الموحدين « الدروز » في جبل لبنان ووادي التيم وفلسطين ودمشق وما حولها . لذلك نراه يسكت على مضض ويستمر بسياسته القائمة على التحالف مع حسان بن مفرج ابن الجراح ونصر بن صالح بن مرداس وعلى مهادنة البيزنطيين ، وقد بقي الامير رافع بن ابي الليل متبعا هذه السياسة حتى نهاية عهد الظاهر .

وقد جابه الامير رافع غير مرة الفاطميين واستطاع دحرهم ، مما اجبر انوشتكين الدزبري على السعي لعقد هدنة بين الظاهر ورومانوس امبراطور البيزنطيين . ذلك ان انوشتكين الدزبري حاول ان يضرب الحلف القبلي ، فسار الى ناحية افامية وطلب من الذين كانوا يتظاهرون بالموالاة للفاطميين من بني كلاب ان يلاقوه . ثم هاجم بجيشه بيوت بني طيء ، الضاربة بين قسطون وحصن انّب واستطاع ان يستاق عددا منهم . فلحق الامير رافع بن ابي الليل بجنود الدزبري وحاربهم وانتصر عليهم وقتل وجرح منهم جماعة وخلّص الاسرى . فلما علم الدزبري بذلك عاد الى افامية . اما الكلابيون الذين كتب اليهم ليعينوه في غزواته تلك فلم يستجيبوا له ، اذ استصلحهم نصر بن صالح واجتذبهم اليه . وقد خشي الدزبري من تخلفهم

---

٩٥ ـ يطرح الدكتور كمال الصليبي سبب ضرب البيزنطيين والمرداسيين للدروز في جبل السماق سنة ٤٢٣ هـ/ ١٠٣٢م بقوله : « وربما اوعز الدزبري الى انصار الدولة الفاطمية من دروز جبل السماق ان يقوموا بثورة ضد نصر وضد الروم ، المسيطرين على انطاكية وما يليها جنوبا من وادي العاصي . فهب الدروز هناك الى الثورة علم ١٠٣٢م ، ولم يتمكن نصر من ردهم الى الطاعة الا بالتعاون مع الروم » . (كمال سليمان الصليبي ، **منطلق تاريخ لبنان** ، ص ٧٠) . غير ان هذا الافتراض لا ينسجم مع موقف احد قادة الدروز في تلك الانحاء الامير رافع بن ابي الليل الذي كان يناصب الفاطميين وقائدهم الدزبري العداء في ذلك الوقت . فكون الدروز قد تحالفوا مع الدزبري ضد المرداسيين في الوقت الذي كان الامير رافع يهاجم قوات الدزبري الفاطمية التي كانت قد توجهت لقتاله وقتال حليفه حسان بن مفرج في شمالي سوريا هو احتمال يستوجب التحقيق .

وظن انهم يدبرون مكيدة ضده مع بني طيء وكلب ، فرحل عن افامية في اليوم التالي مسرعا وتوجه الى دمشق . وعند مسيره من افامية كتب الى نقيطا انطاكية يقول له انه سار الى افامية ليصلح امورها وانه لم يتعرض لأعمال البيزنطيين ، عملا باوامر الخليفة الظاهر . وقد تواصلت المراسلات بينه وبين البيزنطيين واسفرت عن اتفاق الطرفين على ان يرسل كل من الظاهر ورومانوس وفدا الى الآخر لابرام صلح بين الفريقين[٩٦] . غير ان الدزبري ، اشترط على قطبان انطاكية ، بايعاز من نصر بن مشرف صاحب حصن بنكسرائيل الا تبدأ المحادثات الا بعد ان يتعهد البيزنطيون بعدم التعرض للحصن بسوء ، اذ ان نصر بن مشرف قد سلمه الى السلطة الفاطمية فصار بموجب ذلك من حق الفاطميين . فابى القطبان ذلك وسير بدوره حملة بقيادته لأخذ الحصن عنوة . اما الدزبري فسير بدوره حملة للدفاع عن الحصن ، وقد طلب هذه المرة ايضا من ذلك الفريق من الكلابيين الذي كان يظهر الموالاة له ان يوافيه ، فلم يجبه احد الى طلبه . وحاول الدزبري ضرب خصومه الطائيين والكلبيين في محاولة لاضعاف حملة القطبان فتصدى له الامير رافع بن ابي الليل في بني كلب وبعض بني طيء واوقع بالجيش الفاطمي هزيمة نكراء اضطر الدزبري على اثرها ان يسحب جيوشه ويعود بها الى دمشق . وسرعان ما سقط بعد هذه الموقعة حصن بنكسرائيل ببد قطبان انطاكية . وكان ذلك في **١٣** رجب سنة **٤٢٣/ ٢٥**حزيران **١٠٣٢**[٩٧] .

اثر هذه الهزيمة خشي الفاطميون من ان يعود الروم البيزنطيون الى غزو بلاد الشام ، فاظهروا عزمهم على غزو بلاد الروم واخذوا يتأهبون لذلك . وقد اصدر الظاهر سجلات قرئت في جميع انحاء دولته تدعو الى النفير العام والحض على الجهاد . حيال هذا الامر كتب نقيطا قطبان انطاكية الى الدزبري مظهرا استعداده للمضي بعقد الصلح الذي كان مزمعا عقده بين الخليفة الفاطمي والامبراطور البيزنطي . فأجابه الدزبري على ذلك . وهكذا اوفد الدزبري الرسولين اللذين كان الظاهر قد ارسلهما ، كما اوفد نقيطا رسولي رومانوس والتقى الوفدان في الموضع

---

٩٦ ـ الانطاكي ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

٩٧ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ .

المحدد ، حيث واصل وفد الظاهر سيره الى رومانوس كما واصل وفد الامبراطور سيره الى الظاهر[٩٨] .

كان من جراء الحلف الذي قام بين بني كلب وكلاب وطيء ان فشل الظاهر وقائد جيشه في سوريا انوشتكين الدزبري في السيطرة على جميع بلاد الشام . فاحتفظ هؤلاء العرب بقوتهم العسكرية واستطاعوا بمناصرتهم للروم البيزنطيين ان يشدّوا غيرهم من العرب اليهم ، كبني نمير بقيادة شعيب بن وثاب صاحب حرّان والرقة ، واهالي ديار بكر بقيادة نصر الدولة ابن مروان الكردي[٩٩] . وذلك خوفا من سطوتهم وطمعا بمكاسب سياسية ومادية لم يكن يوفرها لهم الدزبري والي الفاطميين في بلاد الشام . وهكذا كادت المجابهة في شمالي سوريا تصبح مجابهة اقليمية ضد الفاطميين يساندها البيزنطيون .

ويحدثنا يحي بن سعيد الانطاكي ان وفود الأعمال العربية والبلدان المجاورة لبلاد الروم ، كحسان بن مفرج ورافع بن ابي الليل ورسل ابن مروان الكردي وشعيب بن وثاب ونصر بن صالح كانوا في عداد الوفود التي انضمت الى الامبراطور رومانوس الثالث في القسطنطينية اثناء المفاوضات بينه وبين وفد الخليفة الظاهر ، وذلك في سنة **٤٢٣**هـ/ **١٠٣٢**م[١٠٠] .

لقد استمر حسان بن مفرج ورافع بن ابي الليل ونصر بن صالح طيلة عهد الظاهر على موقفهم العدائي منه ومن قائد جيوشه في الشام انوشتكين الدزبري يحاربونه ويحاربون من تحالف معه من القبائل .

اما في وادي التيم وجبل لبنان وفلسطين فاننا نلاحظ انه في الوقت الذي كان الصراع على اشده بين الامير رافع بن ابي الليل والدزبري ، كانت حركة الردة التي قادها منذ سنة **٤٢٦**هـ/ **١٠٣٤ ـ ١٠٣٥**م سكين ولاحق بن الشرف ومصعب التيمي ناشطة قوية . فيما كان القيم على دعوة التوحيد المقتنى بهاء الدين في مصر يحاول ان يرجع هؤلاء المنحرفين الى خط الدعوة الصحيح ، ولكن هؤلاء المرتدين ومن تبعهم كانوا يقابلون هذه المحاولة بالتمنع . وقد وصلت معارضتهم لمحاولات المقتنى احيانا

---

٩٨ ـ المصدر ذاته ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

٩٩ ـ عن انضمام شعيب بن وثاب وبن مروان الكردي للبيزنطيين راجع المصدر ذاته ص **٢٦٩ ـ ٢٧٠** .

١٠٠ ـ المصدر ذاته ، ص **٢٢٩ ـ ٢٧٠** .

الى درجة التحدي بالقوة ، كما فعلوا بالداعي ابي اليقظان عمار الذي كان قد ارسله المقتنى من مصر لرد شرذمة المرتدين الى حظيرة الدين[١٠١] .

وقد يكون تحدي المنحرفين السافر والشديد للمقتنى مرده الى دعم مادي وسياسي ، وربما عسكري ، كانت تقدمه سلطات الظاهر في بلاد الشام لهذه الشرذمة في محاولة للقضاء على الدعوة وشق صفوفها ، وفي محاولة لاضعاف الامير رافع بن ابي الليل الذي كان في شمالي سوريا قد اسفر ، كما مر معنا ، عن عدائه للظاهر وقائده الدزبري . فكما حارب البيزنطيون والمرداسيون الموحدين «الدروز» في جبل السماق اضعافا على الارجح للامير رافع بن ابي الليل ، كذلك يمكن ان يكون الفاطميون حاولوا شق صفوف الموحدين في فلسطين ووادي التيم في محاولة للقضاء على الموحدين واضعاف بني جندل في وادي التيم وبني تنوخ في جبل لبنان الذين كانوا بطبيعة الحال موالين للامير رافع بصفة كونهم من الموحدين .

هذا ، وان احتمال مساعدة الفاطميين لشرذمة سكين واعوانه قد يكون تفسيرا لعدم تمكن المقتنى من وضع حدّ نهائي لهذه الحركة الارتدادية ، التي تفاقم أمرها منذ سنة **٤٢٦** هـ/ **١٠٣٤ - ١٠٣٥**م ، الا بعد وفاة الظاهر وتوقف مختلف انواع الدعم الذي ربما كان هؤلاء المرتدون يأخذونه من الظاهر وأعوانه .

الموحدون « الدروز » في عهد المستنصر : مات الخليفة الظاهر في منتصف شعبان سنة **٤٢٧**/ **١٠** حزيران ، **١٠٣٦** م . واعتلى عرش الخلافة الفاطمية بعده ابنه ابو تميم معد ، ولقب بالمستنصر لدين الله . وكان عمره ثماني سنوات ، فقام بالامر الوزير ابو الحسن علي بن احمد الجرجرائي[١٠٢] .

حاول الحاكم الفاطمي الجديد التقرب من الحلف القبلي الذي كان يجمع القبائل العربية الكبرى الثلاث في سوريا ، وهي بنو طيء بقيادة حسان بن مفرج ابن الجراح ، وبنو كلب ، بقيادة رافع بن ابي الليل ، وبنو كلاب بقيادة نصر بن صالح بن مرداس . يدلنا على ذلك انه باعتلاء المستنصر عرش الخلافة الفاطمية ، خلع على شيخ الدولة ابي الحسن ابن الايسر (الذي كان نصر بن صالح قد اوفده الى

---

١٠١ - الاشرفاني ، ج **٣** ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

١٠٢ - ابن تعزي بردى ، ج **٤** ، ص **٢٥٤** .

الظاهر بعد هزيمته للروم سنة ٤٢١ هـ/ ١٠٣٠ م حاملا اليه هدية مما غنمه من البيزنطيين) ، وسيرّه بالخلع والهدايا الى نصر . قد يكون تقرب الحكم الفاطمي الجديد من الحلف القبلي حدث بمشورة من القيم على دعوة التوحيد المقتنى بهاء الدين الذي احتل لدى المستنصر ، كما سبق القول ، مركزا رفيعا ، اذ كان الخليفة قد عينه استاذا في القصر وقاضيا ومفتيا[١٠٣] .

هذا ، وقد اعاد المقتنى بهاء الدين في محرم ، ٤٢٩/ تشرين الأول ، ١٠٣٧ م دعوة التوحيد الى سابق نشاطها بعد ان كان قد اضطر الى اخفائها نتيجة لوشاية مصعب التيمي به وباعوانه لدى الظاهر في سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤ ـ ١٠٣٥م[١٠٤] . وقد خول المقتنى مركزه الرفيع لدى المستنصر ان يصدر فتوى ضد مصعب قضى بموجبها الخليفة على هذا المرتد[١٠٥] .

وقد كان لتغير سياسة الفاطميين في هذا العهد الجديد ان عادت دعوة التوحيد في وادي التيم وجبل لبنان وفلسطين ودمشق وجوارها الى سابق عهدها واستطاعت ان تسفر عن وجهها ، فيطلب المقتنى بهاء الدين من الامير معضاد الفوارسي احد اقطاب دعوة التوحيد في جبل لبنان ان يجرد حملة عسكرية في سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٨م ، تسفر عن هزيمة نكراء مني بها المرتدون وقتل فيها معظم شرذمتهم وانتهت بقتل سكين نفسه راس حركة الارتداد[١٠٦] .

وقد اقتضت مصلحة الموحدين ، وعلى رأسهم المقتنى بهاء الدين ، ان يوالوا الخليفة الجديد حرصا على سلامة الدعوة واملا بان تواصل مسيرتها ، بعد ان اصابها ما اصابها في عهد الخليفة الظاهر من الصعوبات والعراقيل . وقد لبى الامير رافع بن ابي الليل رغبة رؤسائه في الدعوة ، فقلب للبيزنطيين ظهر المجن وانضم الى جيش الفاطميين في الشام وقائده انوشتكين الدزبري بعد ان كان يناصبه العداء مدة تسع سنوات اثر تنكر الفاطميين له بعد معركة الاقحوانة سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩م . وكان ان سهل عليه الانضمام الى الدزبري تودد الفاطميين لاقطاب الحلف القبلي الثلاثة .

---

١٠٣ ـ راجع ص ١٩ من هذا الفصل .
١٠٤ ـ راجع ص ١٨ من هذا الفصل .
١٠٥ ـ راجع ص ٢٠ من هذا الفصل .
١٠٦ ـ ابن العديم ، ص ٢٥

وهكذا ، لم يعد امام الامير رافع من يناصب الموحدين العداء اخطر من نصر بن صالح والبيزنطيين .

وقد حان الوقت الآن للقضاء على نصر وتخليص الموحدين منه ، وابعاد خطر البيزنطيين عن اهل التوحيد . ولكن كيف السبيل الى ذلك والحلف القبلي يضم نصر بن صالح ، والفاطميون يتوددون اليه ؟

يبدو ان بعض ولاة الفاطميين ممن يجاورن نصر بن صالح كانـوا يدركون ما سيحدق بالفاطميين من اخطار ان هم تقربوا الى نصر ووثقوا به . فنصر بصفة كونه صاحب حلب المتاخمة للبيزنطيين ، ولما له من علاقات ودية تربطه بهم ، لن يتجاوب كليا مع الفاطميين . فمصلحته هي ان يبقى على صلات الود بينه وبين البيزنطيين ، واذا ما تودد اليه الفاطميون فسيتعامل معهم ومع البيزنطيين كليهما وسيكون عميلا لكلا الدولتين وفي ذلك ما فيه من خطر على كل من الفاطميين والبيزنطيين على حد سواء . وقـد يكون ذلك ما حدا بجعفـر بن كليد الكتامـي والي حمص من قبـل الفاطميين ان يسعى بنصر لدى انوشتكين الدزبري ويوغر صدره عليه[١٠٧] . الامر الذي لاقى اذنا صاغية عند الدزبري ، كما يلمح ابن العديم ، لما كان قد اختبره هذا القائد الفاطمي من مقالب قام بها كل من نصر وابيه صالـح بن مرداس من قبله[١٠٨] .

معركة تل فاس : قرر الدزبري اذا قتال نصر بن صالح واخذ حلب منه . ولكنه قبل شروعـه بذلك فاوض امبراطـور الـروم واستاذنـه في محاربة نصر فاذن له[١٠٩] . ذلك ان البيزنطيين ربما وجدوا في نصر بن صالح ما وجده الدزبري فيه . فهو يؤلف خطرا على مصالحهم في هذه المرحلة ، اذ سيكون عميلا لكلا الدولتين ، كما ورد اعلاه . ثم ان تقرب الفاطميين من الروم واستعدادهم لدفع ما كان يدفعه لهم نصر لقاء السماح لهم بالقضاء عليه[١١٠] جعلا الروم يتخلون عن حليفهم السابق

---

١٠٧ ـ ابن العديم ، ص ٢٥٠

١٠٨ ـ المصدر ذاته .

١٠٩ ـ المصدر ذاته .

١١٠ ـ المصدر ذاته ، ابن الاثير ، ج ٩ ، ص ٢٣١ .

مقابل التهاون مع الفاطميين . هذا وقد استمال الدزبري ، قبل حربه لنصر ، حسان بن مفرج ورافع بن ابي الليل ، واستطاع ان يستميل كذلك بعض الكلابيين من انسباء نصر . فامن بذلك خطر جميع القوى السياسية وضمن عزل نصر عن سائر اصدقائه . ولما تم للدزبري ذلك جرد جيشه الفاطمي بقيادة الامير رافع بن ابي الليل واجتمع اليه علان بن حسان بن مفرج وجميع العرب من الطائيين والكلبيين وحتى بعض الكلابيين[111] . اما الدزبري فتوجه في بعض جيشه الى حماه وكان قسم آخر من رجاله قد تقدم الى وادي الملوك شرقي الرستن . وهكذا قام الدزبري ورافع بن ابي الليل ومن معهما بحركة التفاف حول نصر بن صالح ورجاله الذين كانوا قد نزلوا تلا غربي سلمية . والتحم الفريقان ودارت الدائرة على نصر واصحابه . وقد استطاع الافلات مع بعض من كان معه ليستنجد بحليفه امير بني نمير ، شعيب بن وثاب الذي كان نصر قد تزوج اخته . وقد كان من جراء هذا النصر ان كشفت الطريق الى حماه امام الدزبري فتوجه اليها ودخلها واعمل فيها النهب ، ثم تجاوزها الى تل فاس غربي لطمين ، وهي كورة بحمص قرب افامية ، حيث التقى الفريقان مرة اخرى فاقتتلا قتالا شديدا ثبت فيه نصر ، في حين فر اخوه ثمال بن صالح منهزما . غير ان نصرا ما لبث ان ادركته الهزيمة ففر بدوره ليلحقه رجل من المهاجمين ويرميه في كتفه بخشت فيقع عن فرسه ، كما وقع ابوه من قبل ، ويراه احد الاتراك فيحز رأسه ويسلمه الى الامير رافع بن ابي الليل الذي ينفذ جثته الى حماه لتصلب فيها على الحصن . وقد كفنت فيما بعد في تابوت بامر من الدزبري ودفنت في المسجد لينقلها بعد عشر سنوات مقلد بن كامل بن مرداس الى قلعة حلب . اما رأس نصر فقد انفذ الى المستنصر . وقد كان مقتل نصر بن صالح في ١٥ (او ١٢) شعبان سنة ٤٢٩ هـ/ ٢٣ (او ٢٠) ايار ، ١٠٣٨ م[112] .

حلب في يد الفاطميين : بعد مقتل نصر بن صالح بن مرداس وصل اخوه ثمال وشعيب بن وثاب النميري الى حلب فارين من المعركة . فاستولى عليها ثمال اما الدزبري فقد سير في اثرهما جيشا بقيادة طغان المظفري ففر ثمال من حلب بعد ان ولى ابن عمه مقلد بن كامل على القلعة وخليفة بن جابر الكعبي على المدينة . وقد

---

١١١ ـ ابن العديم ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، ابن القلانسي ، حاشية ٧٥ .

١١٢ ـ ابن العديم ، ص ٢٥١ ، ابن القلانسي ، ص ٧٤ ، ابن الاثير ، ج ٨ .

حاول ثمال ان يستميل الناس اليه فاطلق للتجار ديون اخيه ثم اخذ اولاد اخيه ، كما اخذ شعيب بن وثاب اخته زوجة نصر ، وحملا ما استطاعا حمله من الاموال والثياب والذهب والفضة والآنية وتوجها الى الجزيرة . فوقعت اثر ذلك الفتنة في المدينة ونهبت دار السلطان واموال التجار . وما ان وصل طغان بجيشه حتى راسله خليفة بن جابر الكعبي ، وكان حليفاً في السر للفاطميين ، وسلم المدينة لطغان في ٤ رمضان سنة ٤٢٩/ ١٠ حزيران ، ١٠٣٨م . اما القلعة فبقيت مستعصية في يد مقلد بن كامل الى ان وصل الدزبري الى حلب ، وكان ذلك في رمضان/ ١٣ حزيران ، فسلم مقلد القلعة اليه ليغادر المدينة في اليوم التالي لاحقا بثمال بن صالح في الجزيرة[١١٣] .

خاتمة : اما الموحدون ، فبعد مقتل نصر بن صالح بن مرداس ، وتملك الفاطميين لحلب ، نعموا في بلاد الشام ، على ما يبدو ، بفترة من الهدوء والاستقرار . كما تبوأ بعض دعاتهم في سوريا مراكز مرموقة ، كفخر الدولة ابي يعلى حمزة بن الحسين نقيب الطالبيين الذي كان احد كبار اعوان خليفة الدزبري في ولاية الشام ، ناصر الدولة ابي محمد الحسن بن الحسين بن حمدان[١١٤] .

وقد بقيت دعوة التوحيد مستمرة ناشطة برعاية المقتنى بهاء الدين في مصر يمده بهديه الامام حمزة بن علي من معتكفه . وواصل الدعاة نشاطهم يأخذون المواثيق على المستجيبين حتى سنة ٤٣٥ هـ/ ١٠٤٣م . حين توقفت الدعوة وودع اقطابها الموحدين بعد ان اوصاهم المقتنى بهاء الدين بحفظ اصول الدين ، وحذرهم مما يحدق بهم من مخاطر ، واستودعهم ما جاء في رسائل الدعوة من تعاليم .

وهكذا ، لم يغلق باب الدعوة ويظعن الامام حمزة بن علي ونائبه المقتنى بهاء الدين وكبار الدعاة الى الحجب حتى كان الموحدون « الدروز » قد اصبحوا يؤلفون فئة تجمعها عقيدة واحدة جعلت منها جماعة اخذت تدريجيا تبني لها كيانا له سماته الاجتماعية الخاصة ، لا سيما في بلاد الشام . اما موقف الموحدين السياسي فقد ظل في الواقع ، حتى فترة لاحقة ، منسجما مع السلطة الاسلامية السائدة في سوريا ، بخاصة اذا كانت هذه السلطة لا تعتمد اضطهادهم من حيث هم جماعة دينية ذات

---

١١٣ ـ ابن العديم ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧

١١٤ ـ ابن القلانسي ، ص ٨٣ .

صفات وتقاليد بلورتها نظرتهم الدينية الخاصة بهم . ومما جعل الموحدين ينهجون هذا النهج السياسي دون الالتزام الدائم بالدولة الفاطمية انهم اصبحوا يؤلفون فرقة مميزة عن الفاطميين ، فغدت علاقتهم بالدولة الفاطمية علاقة سياسية لا صلة لها بالمعتقد .

لم يكن تثبيت الموحدين لاقدامهم في بلاد الشام بالامر السهل ، فقد جابهوا كثيرا من الصعوبات والعراقيل وتعرضوا الى محاولات افناء حاقدة ذهب ضحيتها الالوف منهم وكادت تقضي عليهم عن بكرة ابيهم . وقد استهدفت المحاولة الاولى في آخر سنة **٤١٩** هـ/ **١٠١٩**م اقطاب الدعوة ذاتهم عندما هاجم زهاء عشرين الف رجل يريدون القضاء عليهم ، ولكنها منيت بالفشل . ثم يقوم بعد مدة وجيزة امير الاكراد في الشام ابن تالشليل ، بمعونة ولي عهد المسلمين في الدولة الفاطمية عبد الرحيم بن الياس الذي كان واليا على دمشق ، فيحاولان القضاء على الموحدين في وادي التيم . وقد ذهب ضحية هذه الحملة كثير من الموحدين قتلا وسبيا وحرقا ، ليقوم بعد ذلك الخليفة الفاطمي الظاهر في سنة **٤١١** هـ/ **١٠٢١**م فيهدر دماءهم ويقيم عليهم محنة دامت نيفا وست سنوات . وقد عانى الموحدون في هذه المحنة الاهوال من قتل وحرق وسبي وجر وصلب ، بالاضافة الى ابشع انواع التعذيب والتنكيل . ولم تنته هذه المحنة التي اقامها الظاهر على الموحدين قبل ان تظافر اقطاب الحلف الثلاثي ، سنان بن عليان امير بني كلب ، وصالح بن مرداس امير بني كلاب ، وحسان بن مفرج امير بني طيء على قتال الموحدين .

فها هو سنان بن عليان في سنة **٤١٦** هـ/ **١٠٢٥**م يغير على غوطة دمشق ويعمل فيها القتل والنهب ويعيث الفساد في القرى ، ويحاصر دمشق فيتصدى له الشريف ابو يعلى حمزة بن ابي العباس احد اقطاب الموحدين ويجبره على فك الحصار . وما ان يقتل صالح بن مرداس يوم الاقحوانة حتى يقوم ابنه من بعده ليقيم هو والبيزنطيون محنة على الموحدين في جبل السماق ويعملوا فيهم السيف ويسوموهم شتى انواع الاضطهاد . ناهيك عن الحركات والمؤامرات التي كانت تقوم ضد الموحدين من الداخل فتعرقل سير الدعوة وتسبب لهم الصعوبات . فمن الدزبري الى ابن البربرية الى لاحق الى سكين الى مصعب ، كل ذلك والموحدون يواجهون هذه المصاعب بصبر واصرار وشجاعة وثبات في العقيدة ، ويجتازون هذه المحن

والمؤامرات والعراقيل بفضل ما تميز به قادتهم من حكمة وروية ، وبما عرفوا به من تجرد عن مصالحهم الخاصة ، ومن انضباط وتنسيق فيما بينهم . من مصر حيث كان حمزة بن علي يدير في البدء دفة الدعوة قبل ان يسلمها للمقتنى بهاء الدين الذي كان لا يصدر الا بتوجيهات امامه ، الى بلاد الشام حيث كان الامير رافع بن ابي الليل يتنقل من فلسطين الى حوران الى انطاكية ، يضرب بسيفه طورا ويفاوض بدهاء تارة اخرى منسقا مع امراء تنوخ في الغرب وبني جندل في وادي التيم وابي يعلى في دمشق ، حتى تسنى للموحدين ان يصبحوا قوة سياسية وعسكرية كان لها ان تقوم في بلاد الشام بدور مهم اخذ يتبلور ويتعاظم وزناً وفعالية على مر العصور .

الفصل الرابع
الموحدون الدروز في عهد الامارة التنوخية

« ان الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين اقتصر على الدول السنية المتعاقبة على بلاد الشام وعلى حلفائهم من الباطنية في وادي التيم وعلى الدروز في جبل بيروت » .

كمال سليمان الصليبي ـ منطلق تاريخ لبنان

لم يكد الموحدون الدروز يصبحون جماعة مميزة في العقيدة عن غيرها من الفرق الاسلامية خلال القرن الخامس للهجرة (القرن الحادى عشر للميلاد) حتى اخذ المشرق الاسلامي يتعرض للحملات الصليبية . كان العالم الاسلامي آنذاك يمر في مرحلة خطيرة من التفكك السياسي والضعف العسكري ، فالخلافة العباسية كانت معدومة الشخصية مسلوبة الارادة رازحة تحت وصاية الاتراك السلاجقة لاهية عما يجري حولها من احداث جسام . والخلافة الفاطمية كان نجمها قد اخذ بالافول وتنافست في الوقت ذاته مع السلاجقة للسيطرة على مدن الساحل في بلاد الشام . اما دولة الاسلام في الاندلس فقد انقسمت الى دويلات متخذة موقع الدفاع عن نفسها ازاء الهجوم الاسباني المضاد .

وعلى الرغم من ذلك الوضع السيء الذى كان يعيش فيه العالم الاسلامي انذاك ، فان الموحدين الدروز حافظوا على موقعهم التقليدي الموالي للسلطة الاسلامية في بلاد الشام . وعملوا ما بوسعهم للتصدي لاعداء الاسلام التقليديين - بيزنطيين وفرنجة - محافظين بذلك على سلامة المناطق الستراتيجية التي قطنوها ، لا بل تحملوا اثناء تصديهم للغزو الصليبي عبئا في القتال اكبر من طاقاتهم العسكرية . ولكن الخلاف داخل العالم الاسلامي قبيل مجيء الصليبيين بين السلاجقة والفاطميين وقيام امارات اسلامية مستقلة في بعض مدن الساحل وما خلفه هذا الخلاف من ضعف عسكري في الجانب الاسلامي جعل الموحدين الدروز بزعامة الامراء التنوخيين كسائر القوى الاسلامية يتخذون موقف الدفاع لا الهجوم من الغزو الصليبي . اذ عند مرور القوات الصليبية الاولى في ساحل بيروت (٤٩٣

هـ / ١٠٩٩ م) لم يعترض سبيلها احد ، لا الحكام الفاطميون ولا الامراء التنوخيون[١] .

غير ان تلكؤ الحكام الفاطميين عن مقاومة الصليبيين لم يدفع الموحدين الدروز الى اليأس والاستسلام ، بل لجأوا في العام التالي الى عرقلة مسيرة التقدم الصليبي عند حدود الامارة التنوخية . ووقفوا بقيادة اميرهم عضد الدولة التنوخي الى جانب شمس الملك دقاق السلجوقي حاكم دمشق عندما حاول الاخير اعتراض طريق تقدم بدوان (بلدوين الفرنجي) عام (٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م) عند نهر الكلب . لكن بدوان تمكن من اختراق الحاجز واكمل طريقه الى القدس[٢] .

غير ان الدروز بقيادة الامير عضد الدولة لم يتوانوا عن التصدي للتقدم الصليبي بانفسهم مرة ثانية وذلك على الرغم من قلة عددهم مقارنة بالقوات الصليبية الزاحفة . وتقدم الامير التنوخي على رأس قوة جديدة لقطع الطريق على جيش ريموند دوتولوز الصليبي عند نهر الكلب . غير ان خطة الامير التنوخي فشلت بسبب صغر حجم قواته امام القوات الصليبية الزاحفة ، خصوصا ان القائد الصليبي ريموند هذا كان قد استنجد بزميله بدوان فأجبرا الامير عضد الدولة ومن كان معه من الدروز على التراجع الى بيروت والتحصن فيها . غير ان شجاعة الدروز بقيادة عضد الدولة في تحدي الصليبيين نالت اعجاب شمس الملك دقاق وتقديره فكافأ الامير واضاف الى ولايته في بيروت والغرب امارة صيدا ، وطلب منه تحصين المدينتين تحسبا للمستقبل[٣] .

نكبة الامراء التنوخيين :

ولكن احتلال مدن الساحل بقي هدفا رئيسيا للصليبيين من اجل تأمين بقائهم

1- William of Tyre, A *History of The Deeds Beyond The Sea*
(Colombia University Press, 1943)
Vol, PP. 331- 332

2- Ibid, pp. 422- 423

كذلك حيدر الشهابي ، الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان ، نشر نعوم مغبغب (القاهرة ، مطبعة السلام ، ١٩٠٠)
ج ١ ص ٢١٧-٢١٨ .

٣ ـ ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ - ١٣٩ كذلك راجع : السجل الارسلاني ص ١٩٩ وراجع ايضا :
S. Runciman, *A History of-The Crusades*
(Colombia, University Press, 1951)
Vol 1 . PP 323- 324

في الشرق الاسلامي . وما ان اطل عام (٥٠٤ هـ / ١١١٠ م) حتى رجع الصليبيون لاحتلال بيروت فحاصروها برا وبحرا . وصمد الدروز بقيادة عضد الدولة التنوخي في وجه الحصار . وتعذر على بدوان ملك الفرنجة اقتحامها خاصة بعدما وصل الاسطول الفاطمي لنجدتها[٤] . ولم يكن من السهل على القوات الصليبية الغازية ان تضرب حصارا فعالا على المدينة من التلال المجاورة التي تقع في قلب مقاطعة الدروز الا بعدما استنجد بدوان بقوات صليبية من الشمال وقوات صليبية اخرى من الجنوب وداهموا معا وفي وقت واحد مقاطعة الغرب المحاذية لبيروت .
وكان اكتساح القوات الصليبية هذه لمقاطعة الغرب مفاجأة لسكانها حيث احرق الفرنجة قرى الغرب بعد نهبها وقتلوا واسروا من وجدوه من الناس ، ولم ينج بحسب احدى الروايات المتأخرة سوى الغائبين والمختبئين[٥] . وتقدمت اذ ذاك جيوش الفرنجة الى بيروت وضيقت عليها الحصار بمساندة المراكب الجنوبية ، ثم اقتحمتها بعد حوالي شهرين من الحصار فنكلت بالاهالي وقتلت واسرت عددا من الامراء التنوخيين ضربت اعناقهم وبينهم الامير عضد الدولة نفسه[٦] . وبعد سقوط بيروت بيد الفرنجة تقدمت القوات الصليبية الزاحفة نحو مدينة صيدا وضربت حولها حصارا بريا وبحريا بمساعدة الاسطول النروجي . ولما كانت امثولة القتال في بيروت وفظائع الفرنجة فيها ما زالت ماثلة في اعين الناس ، وبما ان الاسطول الفاطمي المرابط في صور تخلف عن نجدة صيدا ، ارتأى اعيانها طلب الامان من

---

٤ ـ ابن القلانسي ، المصدر السابق ،ص ١٦٧ ـ ١٦٨

٥ ـ الشهابي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣١٧ ـ ٣١٨ ، كذلك الشدياق ، المرجع السابق ، ج ٢ . ص ٢٩٤ .

٦ ـ ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ ـ ١٧١ كذلك William of Tyre, *op.cit.*, PP 485-486 وقد ورد في السجل الارسلاني اسماء الامراء الذين استشهدوا في قتال الافرنج ابان حصار بيروت وهم : الامير عضد الدولة علي امير صيدا وبيروت وجبليهما ، الامير سالم بن الامير ثابت بن الامير معروف ، الامير عبد الحليم بن الامير علي وولده الامير مساعد واخوه الامير عبد الرحيم بن الامير علي ، واسر الامير خضر وولده الامير الحسين ، واسر الامير صدقة بن الامير طلحة ، والامير علي بن الامير طعمة . وفي اليوم التالي قتلوا مع الاسرى المأسورين في وقائع الغرب وهم الامير ثابت بن الامير معروف ، وحفيده الامير عبد الرحمن بن الامير فراس بن الامير ثابت ، اما الامراء المقتولون في وقائع الغرب منهم : الامير موسى بن الامير ابراهيم واولاده الصغار والامير القاسم بن الامير هشام وولده الامير ادريس ، والامير مودود بن الامير سعيد وولداه ، والامير مالك بن الامير مصطفى بن الامير عون ، والامير عبيد بن الامير معضاد بن الامير حسام ، والامير يحي ، والامير يوسف ولدا الامير الخضر بن الامير الحسين . وقتل الامير بن الامير حليم بن الامير يوسف بن الامير فوارس الفوارسي واولاده واخوته وبنوعمه فانقطعت بهم سلالة بني فوارس . راجع السجل الارسلاني في (الروض الشقيق)ص . ١٨٦ ـ ١٨٧ .

الفرنجة مقابل مبلغ من المال . فوافق الفرنجة على مبلغ عشرين الف دينار مقابل ذلك . ودخلوا المدينة بعد ان فرّ منها قسم من الاهالي وعلى رأسهم حاكمها الامير مجد الدولة الذي كان من آل عبد الله الدروز فرجع بدوره الى منطقة الغرب[٧] . الا ان مقاطعة الغرب الدرزية هذه كانت قد دفعت ثمنا غاليا في حربها ضد الصليبيين واصبحت على حد ما نقله الشدياق في تاريخه اخبار الاعيان « قاعا صفصفا لا يسمع فيها الا البكاء والعويل[٨] » .

وبسقوط بيروت واستيلاء الصليبيين على المناطق الساحلية انقسمت المناطق الدرزية بين المملكة الصليبية اللاتينية في القدس ومملكة الاتابكة الاسلامية في دمشق . فالمناطق المجاورة لصيدا من الشوف اصبحت تابعة لمملكة الصليبيين في القدس ، اما منطقة الغرب التي تخلى عنها الصليبيون بعد اجتياحها فقد كانت مع المتن ووادى التيم تابعة لدولة الاتابكة . ويبدو ان الموحدين الدروز كانوا منقسمين في هذه الفترة الى فريقين ، فريق ظل مواليا للفاطميين بزعامة بني جندل في وادى التيم ، وفريق ثان بزعامة التنوخيين . وتذكر بعض المصادر ان زعامة التنوخيين كانت في بيت آل عبد الله الذين كانوا موالين للاتابكة معتبرة ان آل عبد الله هم من الامراء التنوخيين وينتسبون الى ابي اسحق ابراهيم بن ابي عبد الله الذى ارسلت له بعض رسائل الدعوة التوحيدية في جبل لبنان[٩] . ومع ان آل عبد الله هو اسم جامع اطلق على جميع من تقبلوا دعوة التوحيد الدرزية في جبل لبنان[١٠] ، فان نسبة آل عبد الله هذه الى ابراهيم بن ابي عبد الله المذكور لا تؤيدها المصادر التاريخية المعروفة لهذه الفترة . فصالح بن يحيى التنوخي يذكر في تاريخه ان ابا اسحق ابراهيم بن ابي عبد الله : « كان اميرا بالبيرة سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م وأما النسبة الى آل عبد الله فليس هي آل عبد الله هذا وانما هي نسبة قديمة متقدمة على سنة ٤١٨ هـ . سنين كثيرة ومن الدليل ان الآل هي الفروع تنسب الى اصل واحد وعبد الله هذا لم يكن له في ذلك الوقت فروع»[١١] . والواضح من كلام صالح بني يحيى ان آل عبد الله لا

---

٧ ـ السجل الاسلاني ، ص ١٨٧ كذلك Willian of Tyre , *op. cit*, PP. 486- 488

٨ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٥ .

٩ ـ كمال الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان (بيروت ، ١٩٧٩) ، ص ، ٩٧

١٠ ـ راجع الاشرفاني ، عمدة العارفين

١١ ـ صالح بن يحي ، تاريخ بيروت ، نشر الاب شيخو اليسوعي (بيروت ، ١٩٢٧) ص ٤٦ ـ ٤٧ .

ينتسبون الى عبد الله التنوخي ولكن صالح بن يحي لا ينفي في الوقت ذاته علاقة بني عبد الله هؤلاء بالتنوخيين ، انما يذكرهم في اكثر من مكان في تاريخه كبيت منفصل عن البحتريين التنوخيين ،ويبدو ان آل عبد الله هؤلاء هم كبني فوارس من العشائر التي كانت متحالفة مع التنوخيين ان لم تجمعها بها صلة النسب[١٢] .

بنو جندل في وادي التيم :

اما بنو جندل فلم يصلنا من اخبارهم سوى القليل ، والمعروف ان بني جندل ينتسبون الى بني تميم ، ويعود تاريخهم الدرزي الى عهد الدعوة التوحيدية زمن الخليفة الفاطمي الظاهر (**٤١٢ - ٤٢٨** هـ / **١٠٢١ - ١٠٣٦** م) حيث استقبل احد زعمائهم الشيخ ابو الخير سلامة ، الداعي عمارا ثم السيدة سارة في مهمتين ارسلهما بهما المقتنى بهاء الدين محاولا بذلك اعادة اتباع سكين الى خط الدعوة السليم[١٣] . وكانَ بنو جندل ما يزالون ابان العهد الصليبي اصحاب الزعامة في وادي التيم ويسيطرون في الوقت ذاته على جزء من الشوف متخذين من قلعة شقيف تيرون قرب نيحا الشوف قاعدة لهم[١٤] .

وما زالت احدى القرى في الشوف وهي حارة الجنادلة القريبة من بلدة المختارة تحمل اسمهم حتى اليوم . وتذكر احدى المصادر ان بني جندل الموالين للفاطميين خاصموا الاتابكة في دمشق ، حتى ان الاتابك شمس الملوك اسماعيل حمل على بني جندل سنة **٥٢٨** هـ / **١١٢٣** م وانتزع منهم شقيف تيرون او قلعة نيحا . وتضاءلت سطوة الجنادلة فيما بعد ، ربما مع تضعضع الحكم الفاطمي في مصر مما سهل على الاتابكة تولية آل شهاب السنة على وادي التيم[١٥] .

بنو عبد الله في الغرب :

اما في منطقة الغرب من لبنان ، فعلى الرغم من هول النكبة التي نزلت بالامارة

---

١٢ - يذكر الامير شكيب ارسلان في معرض تعليقه على السجل الارسلاني ونقلا عن كتاب في الانساب غير منشور ولم نعثر عليه ، ان بني عبد الله من القبائل الاثنتي عشرة التي قدمت من حلب الى لبنان ، راجع ص **١٩٩** من السجل الارسلاني .

١٣ - راجع : Sami Makarem, *The Druze Faith*, PP. 32-37

١٤ - ابن القلانسي ، المصدر السابق ، ص **١٤٢**

١٥ - المصدر نفسه ، ص **٣٠٣**

التنوخية اثناء حصار الصليبيين لبيروت وسائر المدن الساحلية ، استطاع التنوخيون النهوض بامارتهم من جديد . وكان الامير مجد الدولة وهو من سلالة آل عبد الله هو الذي تسلم زمام السلطة في الامارة التنوخية على اثر استشهاد الامير عضد الدولة في القتال . وشرع الأمير مجد الدولة بترميم ما تهدم في المنطقة المنكوبة[١٦] . ثم ان ظهير الدين أتابك دمشق (٤٩٧ ـ ٥٢٢ هـ / ١١٠٣ ـ ١١٢٨ م) أقر الأمير مجد الدولة حاكماً على منطقة الغرب وعزز مركزه العسكري من أجل الصمود في وجه الخطر الصليبي . وتعزو المصادر المتأخرة إلى هذه الفترة قدوم الأمير معن ـ جد الأمراء المعنيين ـ بعشيرته إلى جبال لبنان المشرفة على الساحل من أجل هذه الغاية فنزل في الشوف[١٧] .

وتحالف آل معن مع التنوخيين للقيام بهذه المهمة وتصاهروا ، وانضم الى هذا الحلف عائلات درزية برزت اسماؤها فيما بعد كآل نكد وآل تلحوق فاشتد بهم ساعد الامير مجد الدولة اخذ يشن الغارات على معاقل الصليبيين من جديد الى ان استشهد اثناء القتال في ...ص البرج (برج البراجنة) .

موقعة عين التينة :

وثبت التنوخيون وحلفاؤهم في مواقعهم الجديدة ضد الصليبيين خلال فترة النزاع الاتابكي الزنكي على بلاد الشام (٥٢١ ـ ٥٤٩ هـ / ١١٢٧ ـ ١١٥٤ م) . ولم يثن عزيمتهم ذلك النزاع الذي جعل دمشق تحت رحمة الصليبيين ردحا من الزمن عن التصدي للفرنجة ضمن حدود ولايتهم والقيام بغزوات جديدة ضدهم . وكان الامير بحتر بن (عضد الدولة) الملقب بناهض الدين ابي العشائر قد استأنف هذه الغزوات فعلا بتأييد مجير الدين آبق حاكم دمشق ودعمه . وجرت بينه وبين امير الفرنجة غي دوبريت موقعة عين التينة الشهيرة عند نهر الغدير جنوب بيروت سنة (٥٤٩ هـ / ١١٥١ م) . وانتصر الامير بحتر على الفرنجة في هذه المعركة ، وقتل عدد كبير من الصليبيين فيما انهزم الباقون الى بيروت[١٨] .

---

١٦ ـ كان الامير مجد الدولة حاكما على صيدا من قبل الامير عضد الدولة التنوخي ، اما نسبة مجد الدولة الى آل عبد الله فقد وردت في السجل الارسلاني (راجع السجل ص ١٩٩) .

١٧ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، كذلك

Kamal Salibi, « The Buhturids of The *Garb*, Medieval Lords of Beirut And Southern Lebanon » *Arabica*, Vol, VIII (Jan, 1961) P. 80

١٨ ـ السجل الارسلاني ، ص ١٨٧ ، والشدياق ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

وبعد سقوط امارة الرها التي اقامها الصليبيون في الشمال ، بيد عماد الدين زنكي اتابك الموصل سنة (٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) ، عمل الصليبيون على تجريد حملة جديدة على المشرق الاسلامي من اجل الاستيلاء على دمشق نفسها . ولما كانت الامارة التنوخية المدخل الستراتيجي الذي يفصل بين بلاد الشام الداخلية وحدود الدولة الصليبية على الساحل عمل اتابكة دمشق على توطيد علاقاتهم بالامراء التنوخيين الذين اظهروا كفاءة عسكرية في تصديهم للفرنجة عند حدود بيروت . وأصدر اتابك دمشق السلجوقي مجير الدين آبق منشورا باسم الامير بحتر التنوخي[١٩] ، يقره بموجبه على الامارة في مقاطعة الغرب ويقطعه عددا من القرى[٢٠] ، هذا نصه :

« كتب هذا المثال الشريف للامير الاجل ناهض الدولة ابي العشائر بحتر بن علي ابراهيم بن ابي عبد الله ادام الله تأييده وتسديده وتمهيده باجرائه على رسومه المستمرة وقاعدته المستقرة من الضياع المنسوبة الى رسمه المعروفة باسم والده واسمه وان يتناول ما يخص الخاص السعيد منها بحيث يصرفه في مصالحة ويتقوى به من الخدمة واجرى (ويجرى) على معهوده من الامارة بالغرب من جبل بيروت وهو معروف منعوت لما عرف من نهضته وكفايته وحسن سيرته وامانته . والواجب على الرؤساء والفلاحين اعزهم الله تعالى سماع كلمته والدخول تحت طاعته فيما يتلمسه منهم من استخراج الحقوق السلطانية وموافقته على ما يطرأ من الخدم الديوانية وليحذروا من الخلاف فيعود عليهم الحيف والاجحاف وسبيله ادام الله تأييده الذبَّ عنهم وايصال شكاويهم الى النواب والمتصرفين والاصحاب بحيث يجرون على عادتهم من غير تحديد رسم ولا حادث لحيف اسما . والواجب على الولاة والنواب المستحدين (المستجدّين والأصحاب اجراء الأمير المقدم ذكره على ما رسمناه والمعتمد على العلامة الكريمة في أعلاه ان شاء الله »[٢١] .

وفي الوقت الذي نجح فيه التنوخيون بالمحافظة على حدود امارتهم ضد الخطر

---

١٩ ـ راجع نص المنشور ، يحي ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

٢٠ ـ كان الاقطاعي في عهد السلاجقة يمنح حق جباية الاموال الاميرية من مناطق معينة مقابل خدماته العسكرية ، اذ كان صاحب الاقطاع يدفع من هذه الاموال رواتب جنوده ويحتفظ بالباقي لنفسه راجع : ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى (القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٨ ، ص ١٩٤ .

٢١ ـ يحي ، المصدر السابق ، ص٤٥

الصليبي ، كان حليفهم مجير الدين اتابك دمشق يعمل جاهدا للتصدي لهجمات الفرنجة على بقية انحاء مملكته ولكنه حقق نجاحا محدودا واضطر على ما يبدو لمهادنتهم الى أن انتزع نور الدين زنكي منه مدينة دمشق وتوحدت بلاد الشام تحت سلطانه ولقب بالملك العادل نور الدين .

وما ان استأنف الملك العادل جهاده ضد الفرنجة حتى انضم اليه الدروز بقيادة الامير زهر الدولة كرامة بن بحتر التنوخي فأقره الاتابك نور الدين زنكي على امارة الغرب واقطعه قرى جديدة في البقاع ووادي التيم واقليم الخروب وذلك بموجب منشور يعود لسنة (**٥٥٦ هـ / ١١٦١ م**) هذا نصه [٢٢] :

« لما هاجر الامير زهر الدولة شجاع الملك جمال الامر ابو العزّ كرامة بن بحتر التنوخي ادام عزهّ الى الباب (بابنا) زيد علاه ولاد (ولاذ) بالخدمة وتقرّب اليها وقصد الدولة العادلة والتمس الخدمة بين يديها تقبّل سعيه واجيب الى ملتمسه ورسم له انشاء هذا المنشور مودعا ذكر ما تأثل له من الارعاع (الارعاء) والاحترام والاعزاز والاكرام يوضح ذكر من ديوان الاستيفاء المحروس حماه الله . والعدّة أربعين (اربعون) فارسا وما امكنه وقت المهمات الشريفة . وجهاته غالب قرايا (قرى) الغرب . ومن غير الغرب القنيطرة من البقاع . طهر (ظهر) حمار من وادي ثعلبايا من البقاع ايضا . برجة من صيداء ، والمعاصير ومنها المعاصر الفوقاء . والدامور وشارون . ومجد لبعنا وكفرعمية . التاريخ سابع شهر رجب سنة ستة (ست) وخمسين وخمسماية (**١١٦١ م**) » .

يتضح من هذا المنشور أن أتابك دمشق خصص للأمير كرامة التنوخي معاشاً من « ديوان الاستيفاء » فضلاً عما يجبيه من الأموال الأميرية من اقطاعه وذلك مقابل تجهيز حامية لا تقل عن أربعين فارساً وما أمكنه « للمهمات الشريفة » . وقد تحصن الأمير التنوخي في سرحمول وأخذ يشن الغارات على مقاطعة بيروت الصليبية ، فأقلق مضجع حكامها الفرنجة حتى أن بعض هؤلاء فضل آخر الأمر ارجاع بيروت لملك أورشليم الصليبي على أن يبقى مهدداً من قبل التنوخيين[٢٣] .

---

٢٢ ـ المصدر ذاته ،ص ٤٩

٢٣ ـ الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ،ص ١٠٤

حاكم بيروت الصليبي يغدر بالامراء التنوخيين :

ازاء مضايقة التنوخيين للصليبيين في بيروت وجوارها ، حاول حكام الفرنجة النيل منهم دون جدوى ولجأوا اخيرا الى سياسة المصانعة والغدر وانتظروا حتى وفاة الامير كرامة (**٥٧٠ هـ / ١١٧٤** م) لتنفيذ هذه السياسة . وتروى المصادر ان حاكم بيروت الفرنجي اخذ يتودد لاولاد بحتر ويلاطفهم حتى انسوا به فدعاهم الى وليمة عرس ابنه في بيروت . فلما حضروا الى المدينة غدر بهم والقى القبض عليهم وقتلهم جميعا . وارسل في الوقت ذاته حملة صليبية الى معاقلهم في منطقة الغرب فهدمت حصن سرحمول مقر الامراء التنوخيين والذي يبدو انه كان ساعتئذ خاليا من المقاتلين واحرقت بعض قرى الغرب قبل ان يتمكن الاميرعلي بن بحتر من رد الصليبيين على اعقابهم .

ولم ينجو من هذه المكيدة من ابناء الامير كرامة التنوخي سوى الامير حجى الذي تخلف عن حضور الوليمة بسبب صغر سنه[٢٤] .

السلطان صلاح الدين الايوبي والدروز :

غير ان ضربة الصليبيين الغادرة لمعاقل الدروز في الغرب لم تحقق اي نجاح استراتيجي على الصعيد العسكري ، فسرعان ما عاد الدروز الى هذه المنطقة وعمروها ثانية ، وقد ظلوا في مواقعهم الدفاعية ضد الصليبيين الى ان ظهر صلاح الدين الايوبي على مسرح الاحداث في المشرق الاسلامي فانتقلوا معه الى موقع الهجوم . وكان صلاح الدين وعمه شيركوه قد ارسلهما الاتابك نور الدين زنكي لمساعدة الخليفة الفاطمي في مصر العاضد (**٥٥٦ - ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١ م**) وذلك اثر تهديد الصليبيين للدولة الفاطمية . وتمكن صلاح الدين من الوصول الى منصب الوزارة سنة (**٥٦٥ هـ / ١١٦٩** م) واستطاع ان يسيطر على مقدرات الدولة الفاطمية ومن ثم القضاء على الخلافة الفاطمية الاسماعيلية سنة (**٥٦٧ هـ / ١١٧١** م). وبعد ان نجح صلاح الدين في ترسيخ سلطته في مصر وقضى على المذهب الاسماعيلي الشيعي فيها ، وجه اهتمامه الى بلاد الشام وانتزع السلطة من يد الملك

---

٢٤ - يحي ، المصدر السابق ، ص ٥١

الصالح اسماعيل الذي خلف والده نور الدين في حكم دولة الاتابكة في دمشق سنة (**٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م**)[٢٥] .

اتخذ صلاح الدين من دمشق عاصمة لدولته وقاعدة للانطلاق في جهاده ضد الصليبيين واستطاع ان يوقع بهم هزيمة كبرى في حطين سنة (**٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م**) ادت الى انهيار مملكة الفرنجة في القدس . واسترجع المسلمون سائر المعاقل الصليبية التابعة لها ما عدا صور . ولما تقدم السلطان صلاح الدين لاحتلال مدينة بـيروت لاقاه الامير جمال الدين حجى التنوخي على رأس وفد من الدروز الى خلدة مرحبا بقدومه وسار معه لحصار المدينة[٢٦] . ويذكر المؤرخ التنوخي صالح بن يحي انه لما فتح السلطان صلاح الدين مدينة بيروت ، لمس بيده رأس حجى وقال له : « ها قد اخذنا ثأرك من الفرنج فطيب قلبك وانت مستمر مكان ابيك واخوتك »[٢٧] . ثم كرس السلطان ولاية الامير حجى بموجب منشور يقضي :

« باجراء الامير جمال الدولة حجى ابن كرامة على ما بيده من جبل بيروت من اعمال الدامور لما وصل الى الخدمة السلطانية ، وتحققنا ما جرى عليه من جانب الكفار خذلهم الله وهو ملكه وارثه عن ابيه وجده وهي سرحمور ، عين كسور ، رمطون الدوير طردلا ، عند رافيل (عين دارفيل) ومزارعهم وذلك حسباً منا عليه واحتساباً إليه لمناصحته وخدمته ونهضته في العدو المثاغر له »[٢٨] .

وتجدر الاشارة في هذا المجال إلى مسألة الولاية في الامارة التنوخية وانتقالها من الارسلانيين إلى البحتريين . فالمعروف أن ذرية ارسلان بن مالك التنوخية استأثرت بالولاية في الامارة التنوخية لفترة طويلة من الزمن .

---

٢٥ ـ راجع لمزيد من التفاصيل ، عبد المنعم ماجد ، **ظهور خلافة الفـاطميين وسقوطهـا في مصر** (القاهـرة : دار المعارف ، **١٩٦٨**) ص **٤٦٢ ـ ٤٩٦** .

Andrew S. Ehrenkreutz, *Saladin* (New *York* State, University of New York 1922) PP. 60- 112

٢٦ ـ لايذكر صالح بن يحي في تاريخ بيروت ان الامير حجى هذا قد اشترك عمليا في الحصار العسكري اذ كان الامير لا يزال صغير السن .

٢٧ ـ يحي ، المصدر السابق ، ص **٥١**

٢٨ ـ المصدر ذاته ، ص **٥٢** ، وتقع هذه القرى في منطقة الغرب وبعضها خراب اليوم .

ومن هذه الذرية بحسب السجل الارسلاني الامير عضد الدولة علي الذى كما سبق وذكرنا في بداية هذا الفصل كان اميرا على بيروت وصيدا وجبليهما ابان الغزو الصليبي للمشرق الاسلامي . وقد استشهد الامير عضد الدولة اثناء فتح الصليبيين لبيروت سنة (**٥٠٤** هـ / **١١١٠** م) فآلت الولاية من بعده للامير مجد الدولة من آل عبد الله الذي استشهد بدوره خلال احدى هجماته على معاقل الصليبيين في برج البراجنة سنة (**٥٣٢** هـ / **١١٣٧** م) . ولكن الولاية بحسب السجل الارسلانى آلت بعد ذلك للأمير ناهض الدين أبي العشائر بحتر بن عضد الدولة علي[٢٩] . غير أن صالح بن يحي لا يشير إلى ذلك ويبدأ تاريخه بذكر الأمير ناهض الدولة أبي العشائر بحتر بن شرف الدولة علي . وتختلف سلسلة نسب جدود بحتر هذا عند صالح بن يحي عن سلسلة نسب بحتر الواردة في السجل الارسلاني ولكنها تلتقي عند المنذر بن ماء السماء اللخمي[٣٠] . فإذا كان الأمير بحتر بن عضد الدولة علي الوارد في السجل الارسلاني هو نفسه الأمير بحتر بن شرف الدولة علي الوارد اسمه في تاريخ صالح بن يحي فهذا قد يعني أن حكم الفرع الارسلاني لم ينتـه مع سقـوط بـيروت بيد الصليبيين كما ذكر بعض المؤرخين . والواضح من شجرة نسب بني تنوخ الواردة في تاريخ صالح بن يحيى ومن بعض ما ورد في متن تاريخه وحواشيه أنـه كان للأمـير ناهض الدولة بحتر ولدان هما : زهر الدولة كرامة وشرف الدولة علي[٣٢] . ويبدو أن زهر الدولة كرامة قد استظهر على أخيه قبل وفاة والدهما بحتر ، وربـما كان ذلك بسبب ميله إلى الملك العادل نور الدين على حد قول صالح بن يحيى نفسه[٣٣] . فلما انتزع نور الدين زنكي ولاية دمشق من مجير الدين آبق أصدر منشوراً سنة (**٥٥٢** هـ / **١١٥٧** م) باسم زهر الدولة كرامة يوليه فيه على مقاطعة الغرب . وربما كان سبب تولية زهر الدولة كرامة بدلاً من أخيه شرف الدولة علي بسبب تقدم كرامة على أخيه في السن . ولكن الأمير عليا استطاع على ما يبدو الحصول على الولاية بعد وفاة أخيه

---

٢٩ ـ راجع السجل الارسلاني ، ص ١٨٥ ـ ١٩٧

٣٠ ـ راجع في ذلك ، يحي ، المصدر السابق ، ص ٤٠

٣١ ـ راجع السجل الارسلاني ، ص ١٨٧

٣٢ ـ يقول صالح بن يحي في تاريخه المذكور ص ٥٠ « ولا عجب من تحصن كرامة في حصن سرحمور واما اخوه شرف الدولة علي بن بحتر فهو والد زين الدين بن علي . »

٣٣ ـ يحي ، المصدر السابق ، ص ٤٢

٣٤ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج **٢** ، ص ٢٩٦

كرامة وذلك على أثر مقتل أبناء كرامة الثلاثة في بيروت . وينفرد الشدياق بالقول أن الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين زنكي أعطى الأمير عليا ولاية الغرب[٣٤] . إلا أن الأمير عليا لم يستطع البقاء في منصبه هذا بعد أن انتزع السلطان صلاح الدين الايوبي دمشق من الملك الصالح ، إذ ولى صلاح الدين الأمير جمال الدين حجى مكانه وذلك أثر فتحه لمدينة بيروت كما رأينا . ولا تذكر المصادر التي بين أيدينا سبب تولية صلاح الدين لحجى مكان عمه علي ، ولكننا نعتقد أن موالاة علي هذا لصالح بن نور الدين أثرت في ميل صلاح الدين لحجى . غير أن اختيار صلاح الدين هذا كان سبباً لوقوع الخلاف بين الأمير علي وابن أخيه الأمير حجى على الولاية[٣٥] . ولكن الأمير شرف الدولة علي أصر على ما يبدو على حقه في الولاية مكرساً هذا الشقاق ضمن الاسرة التنوخية باتخاذه لقب ارسلان . وأصبح يعرف بالسجل الارسلاني باسم عرف الدولة قوام الدين علي الملقب بأرسلان[٣٦] . وربما بسبب هذه الحادثة اعتبر الأمير علي المؤسس الفعلي للامارة الارسلانية التقليدية . اما الأمراء من سلالة كرامة بن بحتر فقد عرفوا فيما بعد بالامراء البحتريين[٣٧] .

لقد آلت الزعامة الدرزية في لبنان ايام السلطان صلاح الدين الايوبي للامير جمال الدين حجى بن كرامة بن بحتر التنوخي . ولكن السلطان صلاح الدين لم يجعل ولاية الامير حجى هذه تشمل مدينة بيروت جريا على عادة من سبقه من حكام المسلمين ، وربما كان مرد ذلك صغر سن الامير حجى من جهة وأهمية موقع بيروت من جهة ثانية بخاصة ان صلاح الدين كان قد خرب اسوار صيدا وجبيل لدى سماعه بقدوم الحملة الصليبية الثالثة عام (٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م) ونقل مسلمي هاتين المدينتين الى بيروت وامر بتحصينها وولى عليها احد اعوانه من غير الدروز واسمه عز الدين اسامة[٣٨] . وقد يكون مرد ذلك كون الامير حجى بن كرامة لا يزال شابا لا يزيد عمره عن العشرين سنة الا قليلا ، خصوصا وان خلافه مع عمه الامير علي

---

٣٥ ـ المرجع ذاته ، ص ٢٩٦

٣٦ ـ راجع :لسجل الارسلاني ، ص ١٨٣

٣٧ ـ ينتسب البحتريون والارسلانيون الى اصل واحد ، فالبحتريون ينتسبون الى تميم بن النعمان بن المنذر الثالث بن ماء السماء اللخمي (٥١٤ ـ ٥٦٣ م) ، اما الارسلانيون فينتسبون بدورهم الى المنذر الخامس الملقب بالمغرور وهو ابن النعمان ابن المنذر الثالث بن ماء السماء اللخمي ايضا .

٣٨ ـ عز الدين اسامة بن منقذ هذا هو غير مؤيد الدولة ابو المظفر اسامة ابن منقذ الكناني صاحب كتاب الاعتبار والذي توفي سنة ٥٨٤ هـ ١١٨٨ م اي قبل استرجاع الفرنجة لبيروت .

بن بحتر وطمع الاخير بالحكم ربما جعل صلاح الدين يتردد في اسناد امارة بيروت يومذاك الى هذا الشاب الذي لم يكن قد وطد ركن حكمه بعد . ولا بدّ من الاشارة هنا الى ان بيروت في ذلك الوقت كانت ذات اهمية عسكرية كبيرة تحتاج الى قائد عسكري مجرب لا ينازعه على منصبه هذا أحد فاختار لها صلاح الدين احد امرائه الكبار وهو عز الدين اسامة .

الموحدون الدروز والحملة الصليبية الثالثة :

ادى نجاح السلطان صلاح الدين في استرجاع مدينة القدس ومعظم ما كان بيد الصليبيين من مدن الساحل الى ردة فعل عنيفة في اوروبا فجردوا حملة صليبية ثالثة تعتبر من اهم الحملات الصليبية بالنسبة لعدد المحاربين ولاشتراك عدد من ملوك اوروبا فيها كامبراطور المانيا وملك انكلترا وملك فرنسا . ودارت الحروب بين الصليبيين بقيادة ريكاردوس قلب الاسد ملك انكلترا والمسلمين بقيادة صلاح الدين . وتمكن الصليبيون من احتلال مدينة عكا ولكنهم عجزوا عن احتلال القدس . وجرت مفاوضات بين الفريقين انتهت بالاتفاق على هدنة مدتها ثلاث سنوات على ان يكون الساحل فيما عدا صيدا وبيروت وجبيل للفرنجة بينما تبقى البلاد الجبلية للمسلمين . ولكن صلاح الدين توفي في العام التالي فانقسمت المملكة الايوبية بين ابنائه واستأثر اخوه الملك العادل (**٦١٥ هـ / ١٢١٨** م) بمصر .

ورافق انقسام الدولة الايوبية نزاع على السلطة مما أدى الى تضعضع قوة المسلمين ، فاستغل الفرنجة الصليبيون الفرصة واستعادوا معظم ما خسروه من مدن الساحل بما فيها بيروت .

وتذكر المصادر ان اسامة الذي سبق ان ولاه صلاح الدين على بيروت سلم المدينة للفرنجة بدون قتال فور سماعه بسقوط مدينة صيدا بيد الصليبيين فلامه الناس واستحق لعنة المسلمين على تخاذله هذا وقال فيه احد الشعراء[٣٩] :

« ان بيع الحصون من غير حرب   سنّة سنّها ببيروت سامة
لعن الله كل من باع ذا البيع   وأخزى بخزيه من سامة »

---

٣٩ - يحي ، المصدر السابق ، ص ٢٥

ولكن استيلاء الصليبيين من جديد على بيروت اثر بشكل واضح في وضع الامارة التنوخية ، ولم يعد بوسع الدروز التصدي وحدهم للاحتلال الصليبي في لبنان في الوقت الذي كان فيه الايوبيون يتلهون بالصراعات الداخلية ويسعون الى مهادنة الفرنجة . واخذ حكام مدينتي صيدا وبيروت الصليبيين يعملون على تحدي الامراء التنوخيين ويحاولون مد نفوذهم الى المناطق الدرزية مما جعل الامراء يشعرون على ما يبدو بالضيق ازاء هذا الوضع القائم . حتى ان حاكم الامارة التنوخية انذاك الامير جمال الدين حجى كتب مرة الى الملك العزيز عماد الدين عثمان (٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م)ابن الملك العادل يشكو فيه الوضع القائم وتجاوزات الفرنجة ، فطيب العزيز قلبه واوعز للفرنجة بعدم التعرض له[٤٠] .

ويبدو ان عدم تدخل زعماء الدروز في شؤون النزاع على الحكم الذي كان قائما بين حكام الاسرة الايوبية جعلهم يكسبون ثقة الايوبيين . بل ان الايوبيين تنافسوا فيما بينهم احيانا على كسب ولاء الامراء التنوخيين . ذلك ان تنافس الايوبيين على حكم ولاية دمشق جعلهم على ما يظهر يعملون على كسب ولاء زعماء المناطق التابعة لها ومنهم التنوخيين[٤١] . وكان الحكام الايوبيون يقرون الامراء التنوخيين حكاما في مناطقهم . غير ان الصراع الداخلي بين حكام الاسرة الايوبية كان قد أنتهى بموت الملك الصالح ايوب (٦٣٨ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) الذي قضى نحبه في المعركة التي جرت بين القوات الصليبية وقوات المسلمين في دمياط (مصر) سنة (٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) . ذلك ان مماليك الصالح الايوبي استطاعوا بقيادة عز الدين ايبك ان يتسلموا السلطة اثر مقتل ابن الصالح طوران شاه وان يؤسسوا دولة المماليك في مصر سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م).اما بلاد الشام فقد بقيت خلال هذه الفترة بيد الحكام الايوبيين اذ قام الملك الناصر يوسف الايوبي (٦٤٨ - ٦٦٠ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٦١ م) باحتلال دمشق فور تسلم المماليك الحكم في القاهرة وهدد باحتلال مصر

---

٤٠ - المصدر ذاته ض ٥٣

٤١ - الصليبي ، المرجع السابق ، ص ١١٠ ، ويذكر قصة النزاع بين الملك الافضل الايوبي وبين عمه الملك العادل سيف الدين على ولاية دمشق ، والذي انتهى بخلع الملك الافضل عن كرسي الحكم اذ عمل الاخير على كسب دعم الامير حجى التنوخي في محاولته لاسترجاع الولاية ، راجع بحي ، المصدر السابق ، ص ٥٢ - ٥٣ كذلك ، راجع : محمد علي مكي ، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني (بيروت ، دار النهار ١٩٧٧) ص ١٧٠ - ١٧١

نفسها . واذا بالصراع الداخلي يتجدد بين القوى الاسلامية اي بين الحكام الايوبيين في الشام وحكام المماليك في مصر وكان لا بد لهذا الصراع من ان يترك اثارة السلبية على الامارة التنوخية التي كانت في موقع تجاذب بين قطبي الصراع هذا .

موقعة عيتات (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) :

واخذ كل من قطبي الصراع ؛ الايوبيون والمماليك يعمل على استمالة البحتريين امراء الدروز في لبنان الى جانبه . وكانت زعامة الدروز في هذه الحقبة قد آلت الى جمال الدين حجى الثاني وسعد الدين خضر ابناء الامير نجم الدين محمد وقريبهما الامير زين الدين صالح بن علي بن بحتر من الامراء التنوخيين . ولم يستطع هؤلاء الزعماء على ما يبدو الوقوف على الحياد ازاء الصراع الاسلامي الداخلي وذلك على غرار سياسة اسلافهم من قبل . بل ربما كان وجود غير زعيم في الامارة التنوخية جعل حياد الدروز امرا مشكوكا فيه من قبل طرفي الصراع . وفي كلتا الحالتين يبدو انه كان هنالك تنافس بين الملك الناصر الايوبي وسلطان المماليك عز الدين ايبك على كسب ولاء الامراء التنوخيين لهما . وكان جمال الدين حجى الثاني قد تسلم منشورا من الملك الناصر سنة (٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م) يقطعه بموجبه قرى معينة في منطقة الغرب[٤٢] . وفي المقابل كان اخوه سعد الدين خضر قد تسلم في فترة لاحقةمنشوراً من السلطان ايبك يقطعه بموجبه قرى معينة في الشوف ووادي التيم واقليم الخروب . وعلى الرغم من الاتفاق الذي جرى بين المماليك والايوبيين خلال هذه الحقبة والذي قضى باعطاء بلاد الشام الى الملك الناصر واعطاء مصر للمماليك ، فان محاولة سلطان المماليك الاتصال ببعض الامراء التنوخيين ادى الى استياء الملك الناصر في دمشق فعزم على الاقتصاص من دروز الغرب . وارسل لهذا الغرض حملة عسكرية حشر في عدادها عشائر البقاع وبلاد بعلبك ، فالتقى الدروز هذه القوات في قرية عيتات من قرى الغرب وانتصروا عليها واجبروها على التراجع . وكان الامير زين الدين صالح بن علي التنوخي الذي يكنى بابي الجيش والمنتسب الى الفرع الارسلاني ممن قادوا هذه المعركة الظافرة[٤٣] .

---

٤٢ - راجع نص المنشور ، يحي ، المصدر السابق ، ص ٥٥-٥٦

٤٣ - المصدر ذاته ، ص ٦٤ والشدياق ، ج ١ ص ٢٧٠

اظهرت معركة عيتات هذه سنة (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) ان الصراع ظل محتدما بين دولتي الايوبيين والمماليك الاسلاميتين في بلاد الشام . ولكن محاولة الناصر فرض ارادته على الدروز دلت من خلال معركة عيتات انها محاولة فاشلة . وذلك ان موقف الدروز الحيادي ابان هذا الصراع ربما كان نابعا من مصلحتهم الخاصة ، ولكنه كان منسجما في الوقت ذاته مع المصلحة الاسلامية التي كانت تقضي برص الصفوف ضد الخطر الصليبي وليس بتجاهل هذا الخطر واشغال القوى الاسلامية بمعارك جانبية كما فعل الناصر الايوبي من خلال حملته العسكرية على دروز الغرب .

الدروز والزحف المغولي على الشام :

ومع ادراك الامراء التنوخيين لمساوىء سياسة المحاور هذه بين القوى الاسلامية ، فانهم كانوا غير قادرين على رأب الخلافات القائمة بين هذه القوى اذ ظل الوضع مضطربا في بلاد الشام خلال فترة الحكم الايوبي . غير ان ظهور الخطر المغولي من الشرق وتدمير الجحافل المغولية لعاصمة الخلافة بغداد سنة (٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م) واقتراب هذا الخطر من دمشق دفعت امراء الدروز للتحرك باتجاه جديد . وتأرجح وضع الدروز في الامارة التنوخية خلال هذه المرحلة الحرجة وهم محاطون باربع قوى رئيسية . منها قوتان عدوتان ؛ الصليبيون على الساحل والمغول في شمال سوريا ، وقوتان اسلاميتان هما الايوبيون في الداخل والمماليك في مصر وقد كانتا كما ذكرنا في نزاع مستمر . ولم يكن بوسع امراء الدروز الوقوف على الحياد ازاء الخطر المغولي على بلاد الشام ، بل كان عليهم دعم الجانب الاسلامي رغم عجزهم عن رأب الصدع الذي اصاب الجبهة الاسلامية . غير انهم ادركوا في الوقت ذاته ان انحيازهم الى جانب اسلامي واحد كان فيه الكثير من المجازفة . ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا تجاهل الملك الايوبي في دمشق خاصة وان مسايرة بعضهم في السابق لسلطان المماليك عز الدين ايبك ادت الى تجريد حملة انتقامية ضدهم من قبل الملك الايوبي صدوها في عيتات . ولهذا قصد الامير جمال الدين حجى الثاني دمشق ليعلن تأييده للايوبيين فلم يصلها الا بعد ان سقطت بيد المغول وتسلمها كتبغا قائد هولاكو[٤٤] . فأذعن الامير جمال الدين للامر الواقع بعد ان سارع بعض الامراء

---

٤٤ - يحي ، المصدر السابق ، ص ٥٦

الايوبيين للاستسلام وبعضهم الاخر لمهادنة المغول . واجتمع الامير التنوخي بالقائد المغولي مستهدفا بذلك انقاذ امارته من الاجتياح المغولي . ونجح بهذه المهمة اذ اقره القائد المغولي اميرا على مقاطعة الغرب بموجب منشور تاريخه (**٦٥٨ هـ / ١٢٦٠** م)[٤٥] . غير ان موقف سائر الامراء التنوخيين ظل على تحفظه تجاه الحكم الجديد في دمشق . خاصة وان مصير بلاد الشام كان لم يتقرر بعد بشكل نهائي ، ولكن عندما قرر المماليك في مصر التصدي للزحف المغولي في بلاد الشام اصبح من الضروري اعادة النظر في موقفهم هذا . وما ان وصل المماليك الى فلسطين حتى كان الامير زين الدين صالح بن علي بن بحتر قد لحق بقريبه الامير جمال الدين الى دمشق قاصدا التشاور معه بشأن الموقف الذي يمكن اتخاذه لانقاذ بلادهم . فالحياد ازاء الفريقين لم يكن ممكنا اما الانحياز الى احدى القوتين فكان يعني المجازفة بمصيرهم فيما لو خسر الجانب الذي قد ينضمون اليه . وهنا ارتأى الاميران التنوخيان ان يبقى احدهم وهو الامير جمال الدين بجانب كتبغا فيما ينضم الاخر اى الامير زين الدين الى جانب المماليك بحيث يكون على حد قول صالح بن يحيى : « اى من انتصر من الفريقين كان احدهما معه فيسد خلّة رفيقه وخلّة البلاد قصدا بذلك اصلاح الحال[٤٦] » .

وسار الامير زين الدين فعلا الى سلطان المماليك واشترك معه في موقعة عين جالوت الشهيرة (**٦٥٨ هـ / ١٢٦٠** م) ضد المغول . وبرز الامير زين الدين في المعركة واعجب المماليك برميه فأخذوا « يقدمون له النشاب من تراكيشهم » (جعبهم) . وانجلت المعركة بانتصار ساحق للمماليك على المغول فاستولوا على بلاد الشام دون ان يتعرضوا لمناطق الدروز بسوء . وبعد انتصار المماليك على التتر (المغول) وسيطرتهم على المناطق الداخلية من بلاد الشام وجهوا اهتمامهم لاحتلال المناطق الساحلية التي كانت لا تزال بيد الصليبيين . ومرة اخرى برز موقع الدروز في منطقة الغرب خلال الصراع الاسلامي ـ الصليبي . فكلف الامراء التنوخيون من جديد مراقبة الفرنجة عند ثغور بيروت وصيدا . ولكن موقف سلطان المماليك الظاهر بيبرس (**٦٥٩ ـ ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧** م) ما لبث ان تبدل ازاء امراء الدروز التنوخيين وغدا مليئا بالشك والحذر ربما بسبب مجاورة الامارة التنوخية

---

٤٥ ـ راجع نص المنشور ، المصدر ذاته ، ص **٥٧**
٤٦ ـ المصدر ذاته ، ص **٦٥**

للمناطق الصليبية . وعززت المنافسات المحلية هذه الشكوك بعدما بلغت وشاية خصوم هؤلاء الامراء آذان السلطان بيبرس ، واتهم هؤلاء الوشاة بعض الامراء التنوخيين بانهم كانوا على اتصال بوالي طرابلس الفرنجي ، فأمر السلطان بسجن كل من الامراء جمال الدين حجى الثاني واخيه سعد الدين خضر ونسيبهما الامير زين الدين صالح . ويبدو ان هذا كان تدبيرا احتياطيا من قبل المماليك الى ان يتسنى للسلطان بيبرس احتلال المدن الساحلية التي كانت بيد الصليبيين[٤٧] . ولكن بيبرس توفي سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) قبل ان يسترجع تلك المدن الساحلية ولم يطلق سراح الامراء الثلاثة . ويبدو ان روح النقمة والفوضى اخذت تسود المناطق الدرزية خلال هذه الفترة نتيجة لسجن الامراء . وابرز الحوادث التي وقعت انذاك حادثة اغتيال قطب الدين السعدي في قرية كفرعمية من قرى الغرب . والسعدي هذا كان على الارجح احد امراء المماليك الذي استقطع قرية كفرعمية . وقد ادى مقتله الى تجريد حملة تأديبية على منطقة الغرب سنة (٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) . واشترك في تلك الحملة عساكر المماليك من نيابتي بعلبك والبقاع وولايتي بيروت وصيدا ، فانتقموا من سكان منطقة الغرب الامنيين وهدموا المنازل ونهبوها وسبوا الاولاد والنساء . غير ان خليفة الظاهر بيبرس امر باطلاق سراح الامراء التنوخيين ربما لانه تأكد ان التهم التي الصقت بهؤلاء كانت محض افتراء خاصة وان السلطان السابق كان قد عقد صلحا مع الفرنجة في طرطوس[٤٨] . ولعل الفوضى التي استشرت في الامارة التنوخية خلال هذه الفترة من جهة والظلم الذي اوقعه رجال الحملة المملوكية بسكانها كانت من الاسباب التي دعت ابن بيبرس السلطان بركة خان (٦٧٦ - ٦٧٨ هـ / ١٢٧٧ - ١٢٧٩ م) الى الافراج عن الامراء المسجونين والى رد ما سلب ونهب من منطقة الغرب الى اصحابها[٤٩] .

وفي عهد السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) تابع المماليك سياسة الجهاد ضد الصليبيين ولكن قبل ان يستأنف السلطان القتال اتخذ بعض

---

٤٧ - يذكر صالح بن يحي في تاريخه ، انه عندما حاول احد الامراء التوسط لدى السلطان بشأن هؤلاء المسجونين رد السلطان طلبه بقوله انه « :ما افرج عنهم ولا أوذيهم حتى افتح طراباس وصيدا وبيروت » .

٤٨ - راجع فيليب حتي ، تاريخ العرب (مطول) (بيروت ، ١٩٧٤) ص ٧٤٧ .

٤٩ - يحي ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

الاجراءات التي من شأنها تقوية سلطة الدولة المركزية في بلاد الشام موجها اهتمامه نحو استرجاع كونتية طرابلس تاركا المدن الساحلية الاخرى التي كانت بيد الصليبيين لفترة لاحقة[50] . واقتضت هذه السياسة بتجريد امراء الجبال من اقطاعاتهم ومنهم الامراء التنوخيين لتوزع على امراء « حلقة » طرابلس مقابل مساهمتهم في حماية المدينة بعد استرجاعها من الفرنجة .

وجند الحلقة في مفهوم التنظيم العسكري عند المماليك هم « قلب الجيش المملوكي والاصل في التوزيع الاقطاعي » ويظهر انهم كانوا من الفرسان الاحرار تسجل اسماؤهم بديوان الجيش . وكان امراء الحلقة يمنحون الاقطاعات من هذا الديوان لقاء خدماتهم العسكرية للسلطان[51] . وسقطت طرابلس ثم جبيل بيد السلطان قلاوون ولكنه توفي قبل ان يسترجع جميع المدن الساحلية من الصليبيين تاركا هذه المهمة لابنه الملك اشرف خليل (**٦٨٩ - ٦٩٣** هـ / **١٢٩٠ - ١٢٩٣** م) .

الدروز وحملات المماليك على كسروان :

وفي عام (**٦٩١** هـ / **١٢٩١** م) تمكن سلطان المماليك اشرف خليل من طرد الصليبيين نهائيا من المشرق الاسلامي ولكن الفضل في ذلك يعود على حد قول احد المؤرخين المعاصرين « للدول السنّية المتعاقبة على بلاد الشام وعلى حلفائهم من الباطنية في وادي التيم والدروز في جبل بيروت[52] » .

ويبدو ان منطقة كسروان التي كان يقطنها يومذاك اغلبية من الشيعة الامامية لم تساهم في عملية الجهاد ضد الصليبيين ولم تعلن في الوقت ذاته ولاءها للحكم السني في دمشق . ولعل موقف الشيعة هذا من حكم المماليك كان السبب المباشر لتجريد السلطان اشرف خليل بن قلاوون حملته الشهيرة على منطقة كسروان سنة (**٦٩١** هـ / **١٢٩١** م) وقد فشلت تلك الحملة في اخضاع الكسروانيين[53] . اما

---

٥٠ - وكان السلطان قلاوون قد عقد معاهدة صلح مع اميرة صور التي كانت تهيمن على بيروت ايضا لكي يتسنى له الهجوم على قومية طرابلس .

٥١ - طرخان المرجع السابق ، ص ١٤٨ وص ١٧٦

٥٢ - الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص ١٢٣

٥٣ - مكي ، المرجع السابق ، ص ٢١٨ - ٢١٩

زعماء الدروز من البحتريين فقد تعاونوا مع الحكم المملوكي (الاسلامي السني) في دمشق ، فأعاد لهم السلطان الاشرف خليل مكانتهم السابقة التي فقدوها زمن ابيه السلطان قلاوون[٥٤] . وحدث في هذه الفترة ان هاجم التتار (المغول) المنطقة الشمالية من بلاد الشام وانتصروا في بادىء الامر على جيش السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م) بالقرب من حمص . وفيما كانت فلول الجيش المملوكي المنهزم تتراجع الى جبال لبنان اعترض سبيلها اهالي كسروان وجزين والحقوا بها اشد الاذى حتى ان الكسروانيين قبضوا على عدد من هؤلاء الجنود . اما التنوخيون فقد ساعدوا هؤلاء الجنود ومثلهم فعل امراء البقاع من آل صبح[٥٥] . فلما طرد المماليك التتار من بلاد الشام كافأ السلطان المملوكي زعيم الدروز في الغرب الامير ناهض الدين البحتري التنوخي وجعله امير طبلخاناه[٥٦] .

ولم يلبث المماليك ان جردوا حملة تأديبية على منطقة كسروان بقيادة نائب السلطنة على دمشق الامير جمال الدين اقوش الافرم سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م) ويذكر المقريزي (٧٦٦ - ٨٤٦ هـ / ١٣٦٤ - ١٤٤٢ م) وهو احد المؤرخين المصريين المعاصرين لهذه الاحداث بان اهالي كسروان تصدوا للحملة الجديدة ولكنهم هُزموا امام قوات المماليك واجبروا على اعادة ما سبق ان غنموه من جيش المماليك اضافة الى مبلغ من المال ادوه غرامة لنائب السلطنة في دمشق[٥٧] . وتجدر الاشارة هنا الى ان المقريزي يخطىء في روايته عندما يذكر بان الذين تصدوا لحملة المماليك هم على حد قوله من : « الدرزية اهل جبال كسروان » اذ على الرغم من وجود بعض الموحدين الدروز يومذاك في بعض قرى « الرافضة » اي الشيعة في كسروان فان المناطق الدرزية الرئيسية بقيت خارج نطاق الحملة . بيد ان حملة المماليك هذه لم تخضع الكسروانيين بشكل نهائي لسلطة المماليك واضطر نائب السلطة الامير جمال الدين اقوش الافرم الى تجريد حملة جديدة لاخضاعهم سنة (٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م) فلقيهم

---

٥٤ - يحي ، المصدر السابق ، ص ٥٨

٥٥ - المصدر ذاته ، ص ٧٤

٥٦ - امير طبلخاناه ، اي ان يكون بامرته اربعون فارسا على الاقل ، راجع : المصدر ذاته ، ص ٨٤ - ٨٥ كذلك مكي ، المرجع السابق ، ص ٢٢٤

٥٧ - تقي الدين احمد المقريزى ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٩) ج ١ قسم ٣ ، ص ٩٠٢-٩٠٣

اولا في عين صوفر وانتصر عليهم . ثم تقدم الى قلب مناطقهم فمزق شملهم وخرب ضياعهم(٥٨) . ونزح بعض سكان هذه القرى من الشيعة الى مناطق اخرى كالبقاع وجزين . ويذكر صالح بن يحيى ان دروز منطقة الغرب اشتركوا بزعامة الامير ناصر الدين الحسين التنوخي وغيره من الامراء البحتريين في حملة كسروان الى جانب المماليك وقتل من الامراء البحتريين آنذاك الاميران نجم الدين محمد واخوه شهاب الدين في قرية نبيبة في كسروان كما قتل ثلاثة وعشرون نفرا من اتباعهم(٥٩) .

ولم يقطع المماليك منطقة كسروان للامراء البحتريين مكافأة لهم لاشتراكهم في الحملة ، ولا يبدو انهم اشتركوا فيها من اجل هذا الغرض كما ظن بعض الباحثين ، اذ ان المماليك ما لبثوا ان جردوا الامراء البحتريين من اقطاعاتهم التقليدية عندما قاموا بمسح جديد للاراضي السلطانية في بلاد الشام (الروك)(٦٠) (**٧١٣ هـ / ١٣١٣ م**) اي في عهد الناصر وعوضوا عليهم مناطق جديدة ، مما ادى الى استياء امراء الدروز . غير ان زعيم آل بحتر في ذلك الحين الامير ناصر الدين الحسين استطاع ان يقنع نائب السلطة في دمشق بضرورة ابقاء الاقطاعات القديمة في ايديهم والتي توارثوها عن اجدادهم فوافق السلطان على ذلك واستثنى امراء الدروز من التغيرات الجديدة مما عزز مكانة هؤلاء في بلاد الشام(٦١) . وكان المماليك قد عملوا على ملء الفراغ العسكري في منطقة الازواق في جوار نهر الكلب للمحافظة عليها من التعديات فاستقدموا عشائر من التركمان اسكنوها في تلك المنطقة . ونافس هؤلاء التركمان ، الدروز في مهمة الدفاع عن الثغور الساحلية اذ اشتركوا في التدابير العسكرية التي اتخذها المماليك لحماية ثغرى بيروت وصيدا من غارات الفرنجة(٦٢) .

وبموجب هذه التدابير العسكرية اسند الى « حلقة » بعلبك مهمة المحافظة على ثغر بيروت من تلك الغارات . فكانت تتناوب على الحراسة « ابدالا » واشترك الدروز في نظام الابدال هذا بتسعين فارسا . ويبدو ان عشائر التركمان استظهروا

---

٥٨ ـ المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ١٥١٤

٥٩ ـ يحي ، المصدر السابق ، ص ١٠٠

٦٠ ـ « الروك » اصطلاح عرف بالقرون الوسطى لعملية مسح الاراضي لتقسيمها ودراسة مواردها من اجل فرض الضرائب المناسبة عليها من قبل الدولة .

٦١ ـ يحي ، المصدر السابق ، ص ٩١ ـ ٩٢

٦٢ ـ المصدر ذاته ، ص ٣٤ ـ ٣٥

فيما بعد عدة وعددا على دروز منطقة الغرب وبخاصة بعد موت الامير ناصر الدين الحسين (٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) وتوالي غارات الفرنجة على مدن الساحل ، اذ حاول التركمان مدّ نفوذهم الى المناطق الدرزية . ويذكر صالح بن يحيى في تاريخه انه بعد غارة ملك الفرنجة في قبرص على الاسكندرية (٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م) امر المماليك بتشديد الحراسة على السواحل وحمل امراء الدروز من آل بحتر العبء الاكبر في ذلك « فازداد تعب امراء الغرب وكثرت كلفتهم على العساكر وكابدوا الامور بمشقة زائدة وعناء »[٦٣] .

واستغل تركمان كسروان الفرصة فقدموا لنائب السلطنة الامير سيف الدين بيدمر الخوارزمي في (٧٦٢ ـ ٧٨٨ هـ / ١٣٦٠ ـ ١٣٨٦ م) عرضا بتقديم الف رجل مساهمة منهم في الحملة التي كان يعدها لغزو قبرص وذلك مقابل تحويل اقطاعات البحتريين لهم . قبل بيدمر هذا العرض وجرد البحتريين من اقطاعاتهم واعطاها الى امراء التركمان . غير ان الامراء البحتريين لم يقفوا مكتوفي الايدي امام تصرف بيدمر هذا بل خفّ اميران منهم الى القاهرة ـ هما الامير سعد الدين خضر والامير سيف الدين يحيى بن زين الدين ـ وطلبا من القاضي علاء الدين بن فضل الله العمري (٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م) وهو كاتب السر في الدولة التوسط في الامر لدى السلطان .

ومن الكلام المؤثر الذي قاله القاضي بشأن امراء دروز الغرب امام ممثل السلطان :

« ان هؤلاء من غرس الملوك الاوائل ان كان فيهم نفع فقد استحقوا به اقطاعهم وان لم يكن فيهم نفع فحاشا الله ان يكون معروفا اسدوه الملوك الاوايل يبطل في ايام الامير الكبير[٦٤] » . نجحت وساطة القاضي بشأن امراء الدروز في الغرب فاستعادوا اقطاعهم واستمروا فيه حتى (٧٨٢ هـ / ١٣٨٢ م) اي بعد ان اعتلى سدة الحكم الملك الظاهر برقوق اول سلاطين دولة المماليك البرجية .

الدروز في عهد المماليك البرجية :

لم يكن عهد السلطان برقوق اول سلاطين المماليك البرجية الشركسة عهد

---

٦٣ ـ المصدر ذاته ، ص ١٦٨

٦٤ ـ المصدر ذاته ، ص ١٦٨

استقرار وازدهار في بلاد الشام . بل جابه منذ بداية حكمه معارضة قوية من المماليك الاتراك في سائر انحاء دولته . غير ان السلطان حظي بتأييد نائب الشام بيدمر الخوارزمي ودعمه كما ايده زعماء الدروز من الامراء التنوخيين في لبنان . اما تركمان كسروان ومماليك طرابلس فقد انضموا الى معارضي السلطان برقوق . وفي محاولة لتثبيت سلطته على سائر انحاء بلاد الشام عمل السلطان برقوق على عزل بعض امراء المماليك في بلاد الشام فجابه تمردا من المماليك الاتراك بقيادة يلبغا الناصري وتمربغا المعروف بمنطاش وسمي اتباعهم بالمنطاشية . وفي عام (٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م) تمكن الثائرون الاتراك من خلع السلطان برقوق الامر الذي احرج وضع الدروز بسبب تأييدهم للسلطان . وزاد في حراجه موقفهم هذا ان المنطاشيين ولوا على بيروت حاكما من قبلهم لقب بأرغون المنطاشي فحاول بنو الاعمى زعماء تركمان كسروان بدعم من هؤلاء النيل من المناطق الدرزية دون ان ينجحوا في بداية الامر[٦٥] . ولكن الوضع السياسي ما لبث ان تبدل لصالح الدروز بعدما استطاع السلطان برقوق الانتصار على خصومه في موقعة شقحب بالقرب من دمشق خلال سنة من تخليه عن السلطة . وكان برقوق قد استدعى اليه امراء الدروز التنوخيين اثناء حصاره لمدينة دمشق ، فتوجه الى الشام خمسة من هؤلاء مع اتباعهم واشتركوا في القتال الى جانبه في موقعة شقحب سنة (٧٩٣ هـ / ١٣٩٠ م) . غير ان تركمان كسروان بزعامة علي بن الاعمى استغلوا فرصة غياب الامراء التنوخيين في الشام وهاجموا منطقة الغرب الدرزية قرب الساحل وقتلوا تسعين نفرا من سكانها كما نهبوا ممتلكات التنوخيين في بيروت . ثم استغلوا مرة أخرى فرصة ذهاب الامراء التنوخيين في السنة نفسها الى مصر لمقابلة السلطان برقوق وهاجموا قرى الغرب وقتلوا اربعين نفرا ونهبوا قرى عيناب وعين عنوب وشملان وعيتات وغيرها من القرى[٦٦] . بيد ان هذه المصاعب التي واجهها دروز منطقة الغرب انتهت بعد استعادة السلطان برقوق لكرسي حكمه . وعمل السلطان مذ رجوعه الى مصر على

---

٦٥ ـ المصدر ذاته ، ص ١٩٧

٦٦ ـ ومن امراء بني ابي الجيش الذين قتلوا في تلك المعركة ، الامير نور الدين صالح بن الامير سيف الدين مفرج والامير عز الدين حمدان ابن الامير تقي الدين نجا والامير جمال الدين عبد الله بن الامير نور الدين عثمان وقتل ولده الامير شجاع الدين عمار ، راجع السجل الارسلاني ، ص ١٦٨ كذلك الشدياق ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠ ومكي ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧

الاقتصاص من معارضيه في بلاد الشام فوجه حملة تأديبية ضد تركمان كسروان واشترك في هذه الحملة عشائر البقاع والامراء التنوخيون فهاجموا معا « ازواق » التركمان وقتلوا زعيمهم علي بن الاعمى ثم مسكوا آخاه عمر ولكنهم افرجوا عنه[٦٧] .

وصفا الجو السياسي في المناطق الدرزية بعد استقرار الحكم الظاهري (الظاهر برقوق) في بلاد الشام وكوفىء زعماء الدروز البحتريون على موقفهم المؤيد للسلطان . وبعضهم كالامير عز الدين صدقة ابن الامير شرف الدين عيسى (ت ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م) تقدم في منزلته السياسية على سائر الحكام المحليين في بلاد الشام فشمل حكمه على حد قول المؤرخ ابن اسباط المنطقة الممتدة من حدود طرابلس في الشمال الى حدود صفد في فلسطين جنوبا[٦٨] .

واستمر الدروز في عهد سلاطين الدولة البرجية يقومون بمهمتهم التقليدية اي المحافظة على ولاية بيروت واحيانا على ولاية صيدا ضد غزوات الفرنجة واعمال القرصنة . ومن اشهر مواقعهم مع الفرنجة في هذه الفترة ، موقعة بيروت (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م) اذ نزل القراصنة الجنويون الى البر وكادوا يسيطرون على المدينة فتصدى لهم الدروز بقيادة الامير سيف الدين يحي التنوخي واجبروهم على الانسحاب[٦٩] . ثم كان لهم موقعة اخرى مع الفرنجة في الدامور سنة (٨١٦ هـ / ١٤١٣ م)[٧٠] .

ولم تقتصر مهمة الدروز العسكرية خلال هذه الفترة على حماية مناطقهم ضد غزوات الفرنجة بل تعدتها للمساهمة في الاعمال العسكرية التي قام بها سلاطين المماليك البرجية في الخارج فاشتركوا في حرب المماليك ضد تيمورلنك (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م) كما شاركوا المماليك في حملتهم الشهيرة على جزيرة قبرص سنة (٨٢٩ هـ /

---

٦٧ - يحي ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

٦٨ - ابن اسباط ، تاريخ ابن اسباط (مخطوط مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت) ورقة رقم ١٦٥ .

٦٩ - يحي ، المصدر السابق ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

٧٠ - السجل الارسلاني ، ص ١٧٠ - ١٧١ والشدياق ، ج ٢ ، ص ٣٠١ - ٣٠٢ . والجدير بالذكر ان المؤرخ صالح بن يحي لا يشير في تاريخه الى وقوع هذه المعركة ، ويرجع الامير شكيب ارسلان اغفال هذه الحادثة في التاريخ المذكور لميل صالح بن يحي لاظهار امجاد اقاربه من الامراء البحتريين والنيل من مكانة الامراء الارسلانيين ، راجع السجل الارسلاني ، ص ١٧١ .

١٤٢٥ م) والتي انتهت باحتلالها[٧١] .

وهكذا استطاع الدروز من خلال مساهمتهم العسكرية هذه وبفضل حنكة زعمائهم السياسية في عهد دولة المماليك ان يكسبوا رعاية وتقدير السلاطين . ونعم الدروز عامة خلال القرن الخامس عشر للميلاد بقسط وافر من الاستقرار والطمأنينة . وتجلى استقرار المناطق الدرزية بتلك النهضة الدينية التي تزعمها الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي (٨٢٠ - ٨٨٤ هـ / ١٤١٧ - ١٤٧٩ م)[٧٢] ، وتلاميذه . وبظهور بعض المؤرخين الدروز كصالح بن يحيى التنوخي صاحب « تاريخ بيروت واخبار البحتريين من بني الغرب » وحمزة ابن الفقيه شهاب الدين احمد بن اسباط صاحب التاريخ المنسوب اليه (تاريخ ابن اسباط) .

اما الامير السيد جمال الدين عبد الله فيعود له الفضل الاكبر في شرح عقيدة التوحيد الدرزية وتنقيتها مما كان قد علق في اذهان بعض الناس من عقائد مخالفة لها . ويقال ان عدد العقائد المخالفة التي ابطلها السيد عبد الله بلغ سبعا واربعين عقيدة . ونظم الامير السيد امور الدروز الشرعية من زواج وطلاق ووصية وما شابه ذلك كما كان له الفضل الاكبر في تنظيم المسلك التوحيدي . وكان من نتيجة هذا العمل ان اصبح الدروز واعين لتراثهم العقائدي الامر الذي قوى تماسكهم الاجتماعي وبالتالي ساهم في توحيد كلمتهم على الصعيد السياسي . ومن الملاحظ ان شروح الامير السيد وتعاليمه اصبحت منذ ذلك الحين المرجع الاساسي الذي يرجع اليه لفهم الرسائل التوحيدية . فالشيخ الفاضل احد كبار الموحدين الدروز ورؤسائهم في القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) يقول بعد مضي اكثر من قرن على وفاة الامير السيد ما يلي : « شروحات الامير السيد امامنا وهي اول ما يحاسبنا الله فيه يوم القيامة لانها واضحة موضحة ما تركتنا في شبهة ولا ابقتنا في حيرة . وفيها كفايتنا وما نريده علما وعملا »[٧٣] .

---

٧١ - راجع في تفاصيل هذه الحملة ما ذكره صالح بن يحي الذي اشترك هو بنفسه في الحملة في تاريخه ، ص ٢١٩ - ٢٣٠ كذلك ابن اسباط ، تاريخ ابن اسباط (مخطوط ، مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت) الورقة رقم ١٦٤ وص ١٧٦

٧٢ - للتفصيل في سيرة كل من الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي وصالح بن يحي وابن اسباط . راجع . عجاج نويهض ، التنوخي الامير جمال الدين عبد الله والشيخ محمد ابو الهلال المعروف بالشيخ الفاضل (بيروت ، دار الصحافة ، ط٢ ، ١٩٦٣) .

٧٣ - راجع . ابراهيم يزبك ، ولي من لبنان ، سيرة العارف بالله الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي قدس الله سره (بيروت ، منشورات اوراق لبنانية ، ١٩٦٠)

وهكذا اصبح الامير السيد صاحب مدرسة دينية عند الموحدين الدروز وقد سار على نهجها الدروز وما يزالون .

واذا كانت الامارة التنوخية قد يسرت للدروز حياة زاهرة ومستقرة في عهد البحتريين فقد كان للتنوخيين منافسون وحلفاء واتباع عند الدروز . ومع ان المصادر المعروفة لهذه الحقبة لا تذكر الا القليل النادر عن هؤلاء فانها تشير الى بعض الاسماء البارزة كبنى عبد الله في الغرب[٧٤] ، وآل ابي الجيش في عرمون الغرب[٧٥] ، وبني غلاب في رمطون[٧٦] ، وبنوا الشويزاني (وربما هم بنو شويزان الذين ينتسب اليهم آل عبد الملك)[٧٧] . وابرز هؤلاء بنو معن في الشوف .

وبانتهاء العهد المملوكي وبداية العهد العثماني (**٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م**) اضطر البحتريون للتخلي عن زعامة الدروز للامراء المعنيين فبلغ الدروز في عهدهم ذروة مجدهم السياسي .

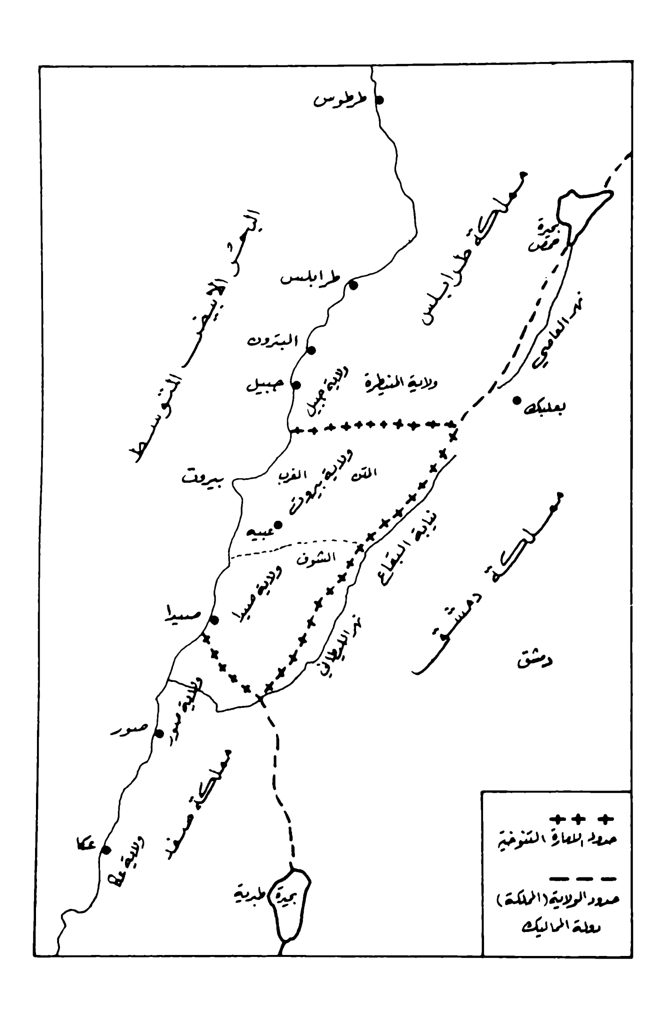
---

٧٤ ـ ورد ذكر بني عبد الله اكثر من مرة في تاريخ بيروت لصالح بن يحي وقد اشرنا في معرض هذا الفصل الى بعض امرائهم والى نسبهم .

٧٥ ـ وقد ورد ذكر امراء بني ابي الجيش في كثير من صفحات تاريخ بيروت ايضا ، ولكن صالح بن يحي يشير اليهم كعائلة منافسة للامراء البحتريين ، اما السجل الارسلاني فيعتبر امراء بني ابي الجيش من الامراء الارسلانيين ، راجع السجل ، ص ١٨٠ وص ١٦٨ .

٧٦ ـ راجع ابن اسباط ، المصدر السابق ، ورقة رقم ١٨١ و ١٨٢ واشهرهم في العصر المملوكي الامير علم الدين الرمطوني .

٧٧ ـ وكان بنو شويزان وبنو العدس قد تسلموا مهمة حراسة الدامور في عهد المماليك بحسب ما ورد في تاريخ بيروت المذكور . ويعلل بعض الباحثين تسمية الشوف السويجاني اي المنطقة التي تشمل بعقلين وقرى عينبال وغريفة والجديدة والخريبة والمزرعة والكحلونية والسمقانية وبيت الدين ، نسبة الى بني شويزان . راجع الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص ١٥٠ ولكنه يخطىء في تسمية القرى التي ذكرها اذ تسمى بالشوف الحيطي وقاعدته المختارة . راجع الشدياق ، ج ١ ، ص ٢٨ .



طرطوس
طرابلس
البترون
جبيل
بيروت
عبيه
صيدا
صور
عكا
بعلبك
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
مملكة طرابلس
مملكة دمشق
مملكة صفد
ولاية المنيطرة
ولاية جبيل
ولاية بيروت
الغرب
المتن
الشوف
ولاية صيدا
ولاية صور
ولاية عكا
نيابة البقاع
نهر العاصي
نهر الليطاني
بحيرة حمص
بحيرة طبرية
حدود الامارة التنوخية
حدود الولاية (المملكة) دولة المماليك

اعيان الامراء البحتريين التنوخيين*

ناهض الدولة ابو العشائر بحتر
توفي بعد ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م

زهر الدولة كرامة
توفي بعد ١١٦١ م / ٥٥٦ هـ

جمال الدين حجي (الاول)
توفي بعد ١٢٢٢ م / ٦١٩ هـ

نجم الدين محمد (الاول)
توفي ١٢٤٢ م / ٦٤٠ هـ

شرف الدين علي
توفي ١٢٤٢ م / ٦٤٠ هـ

شرف الدولة علي ٦٢٧ هـ

زين الدين صالح
توفي ١٢٩٦ م / ٦٩٥ هـ

ناهض الدين بحتر
توفي ١٣٠١ م / ٧٠٠ هـ

شمس الدين كرامة
توفي ١٣٠٧ / ٧٠٧ هـ

جمال الدين حجي (الثاني)
توفي ١٢٩٨ م / ٦٩٧ هـ

نجم الدين محمد (الثاني)
توفي ١٣٠٥ م / ٦٩٧ هـ

سعد الدين خضر
توفي ١٣١٤ م / ٧١٤ هـ

صلاح الدين يوسف
توفي ١٢٩٧ م / ٦٩٧ هـ

ناصر الدين الحسين
توفي ١٣٥٠ م / ٧٥١ هـ

بدر الدين محمد
توفي ١٣٧٧ م / ٧٧٩ هـ

علم الدين سليمان
ولد ١٣٤٠ م / ٧٤١ هـ

جمال الدين عبدالله
(السيد عبدالله)
١٤١٧ - ١٤٧٩ م
(٨٢٠ - ٨٨٤ ه)

زين الدين صالح

شهاب الدين احمد
توفي ١٣٨١ م / ٧٨٣ هـ

سيف الدين يحي
توفي ١٣٨٨
/٩٧١ هـ

صالح (صاحب التاريخ)
توفي بعد بعد
١٤٣٧ م / ٨٤١ هـ

شرف الدين عيسى

سيف الدين ابو بكر

عز الدين صدقة
توفي ١٤٤٤ م / ٨٤٨ هـ

شرف الدين موسى

شرف الدين يحيى
توفي قبل ١٥٢٣ م / ٩٣٠ هـ

جمال الدين حجي (الثالث)
المدعو (المتاخر)
توفـ ١٥١ م / ٩٢٥ هـ

* راجع الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص ١٣٩ .

الفصل الخامس

الموحدون الدروز في عهد الامارة المعنية

وأي ملك يستحق لقب « الكبير »
كفخر الدين ؟ اربعون سنة من الفتوحات
والانتصارات . . . والتقدم .

بيجيه ده سان بيير .

رأينا في الفصل السابق ان الموحدين الدروز نعموا بفترة من الاستقرار النسبي في ظل الامارة التنوخية في لبنان . وكثيرا ما عكر صفو هذا الاستقرار تلك الاحداث الكبرى التي شهدها المشرق العربي الاسلامي خلال العهود السلجوقية والايوبية والمملوكية ، فاذا تلك الاحداث تترك آثارها السلبية في المناطق الدرزية . بيد ان سياسة الامراء التنوخيين المرنة والحكيمة جعلت مناطقهم اقل تعرضا للخطر احيانا من سائر المناطق في بلاد الشام . واستطاع الدروز بفضل هذه المرونة ان يتكيفوا مع الظروف المستجدة وان يحافظوا على مواقعهم التقليدية كقوة ذات شأن ، سعى لخطب ودها الكثيرون من حكام بلاد الشام . وهكذا بقي وضع الدروز في مطلع القرن السادس عشر للميلاد(العاشر للهجرة) عندما ظهر العثمانيون كقوة رئيسية في العالم الاسلامي وسيطروا على بلاد الشام بكاملها .

لقد انقضى خلال هذه الحقبة عهد دولة المماليك وانتهى معها عهد الامارة البحترية التنوخية . ولكن الموحدين الدروز ما لبثوا ان برزوا ثانية على مسرح الاحداث السياسية والعسكرية في ظل الامارة المعنية .

كانت الامارة في هذه الفترة قد اتخذت شكلا من اشكال السلطة السياسية وفق تقاليد وأعراف عربيةواسلامية مرتبطةبنظام اقطاع الأرض والالتزام الذي كان سائداً في الدولة الاسلامية . ولم تقم الامارة دائما على اساس حدود جغرافية مرسومة وثابتة على الرغم انها احتفظت في اقصى حالات ضعفها بالمناطق الوسطى من لبنان ، بل ان حدود هذه الامارة كانت تتسع باتساع سلطة الامير وتمتد بفضل الامير الدرزي على سائر القوى المحلية والمجاورة . اي ان رقعة الولاية كانت تتسع بمقدار ما يستطيع الامير أن يضم الى نفوذه من عائلات اقطاعية تدخل مقاطعاتها في فلك

التزامه وجبايته للضرائب السلطانية . وكان السلطان يكرس هذه السلطة بفرمان سلطاني يضفي عليها الشرعية وفق نظام الاقطاع وصيغة الالتزام والجباية في الدولة العثمانية[1] . وبموجب نظام الاقطاع هذا كان السلطان يمنح حكام الولايات والجنود اراضي زراعية على شكل اقطاعات . وكان يطلب من صاحب الاقطاع هذا المحافظة على الامن والنظام في مقاطعته وتجهيز عدد من الخيالة والمشاة يتناسب دخله معه استعدادا للحرب . والى جانب هذا النوع من الاقطاع العسكري عرفت بلاد الشام اقطاعا مدنيا قوامه المشايخ والامراء . وكان هؤلاء المشايخ في جبل لبنان ينتمون الى عائلات كبيرة ذات عصبيات قوية ويقومون بمسؤولية جباية الضرائب للدولة على مساحة معينة من الارض سميت « مقاطعة » ، اما هم فكانوا يسمون « مقاطعجيون » نسبة الى مقاطعة .

كان المقاطعجي يدير شؤون مقاطعته ويلتزم بدفع الضرائب المترتبة عنيه للامير . اما السلطة العليا في الجبل فقد كانت بيد الامير الحاكم الذي كان بدوره يلتزم بدفع الضرائب المستحقة للدولة على المقاطعات التي يحكمها بنفسه او بواسطة اتباعه من المقاطعجيين[2] .

آل معن يساهمون في القتال ضد الصليبيين :

كانت الامارة المعنية الدرزية نموذجا لهذا النظام السائد في بلاد الشام خلال الحكم العثماني . ولكن تاريخ آل معن في لبنان لا يقتصر على فترة الحكم العثماني بل يرجع الى اوائل القرن السادس للهجرة (القرن الثاني عشر للميلاد) عندما قدموا الى منطقة الشوف من اجل المساهمة في اعباء القتال ضد الصليبيين (الفرنجة) . وتذكر بعض المصادر ان المعنيين كانوا قبل قدومهم الى لبنان يسكنون منطقة الجبل الاعلى في جوار حلب فيما كان قسم من التنوخيين يقيم في معرة النعمان[3] . وتحالفت هاتان القبيلتان عن طريق المصاهرة قبل قدومهما الى لبنان ، فاقترن الامير معن الايوبي الذي ينتسب اليه المعنيون بابنة الامير النعمان التنوخي وتوطدت العلاقات

---

١ - راجع محمد عبد العزيز عوض ، **الادارة العثمانية في ولاية سورية** (القاهرة ، ١٩٦٩) ص ٢٢٣ .

٢ - المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ .

٣ - محمد مالك الاشرفاني « عمدة العارفين » مخطوط ص ١٣٥ - ١٣٦ كذلك Makarem, *The Druze Faith*, P.16 .

بين الفريقين[٤] . وقد اثبت مؤرخون معاصرون للحكم المعني اعتناق المعنيين للمذهب الدرزي كالمحبي والدويهي . واكد درزيتهم مؤرخون متأخرون كفليب حتي وبولس قرألي وكمال الصليبي[٥] .

وخلال فترة الغزو الصليبي للعالم الاسلامي (٤٩٣ - ٦٩١ هـ/ ١٠٩٩ - ١٢٩١م) حارب الامير معن الى الجانب الاسلامي ضد الفرنجة ولكنه انهزم في احدى معاركه مع بلدوين ملك الفرنجة بالقرب من انطاكية[٦] . وبعد سقوط بيروت بيد الصليبيين سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠م ونكبة الموحدين الدروز في منطقة الغرب على يد الصليبيين ، ارتأى طغتكين حاكم دمشق ارسال بعض القبائل العربية الجديدة لملء ذلك الفراغ العسكري في لبنان[٧] . وطلب طغتكين من الامير معن ان ينزل بعشيرته في مشارف جبل لبنان الاوسط المطل على الثغور البحرية ليشن الغارات على الصليبيين[٨] . فنهض الامير معن مع قومه الذين كانوا قد اقاموا في البقاع بطلب من طغتكين نفسه ونزلوا في منطقة الشوف الجبلية الخالية من السكان واتخذوا في تلك المنطقة مواقع عسكرية مساندة لدروز منطقة الغرب[٩] . وكان ممن قدموا الى لبنان خلال هذه الفترة وللغاية نفسها بعض العائلات الدرزية العريقة كآل نكد ، وآل تلحوق الذين كانوا حلفاء المعنيين والتنوخيين فشكلوا مجتمعين « حلفا مقدساً » ضد

---

٤ - الشيخ احمد بن محمد الخالدي الصفدي ، لبنان في عهد الامير فخر الدين المعني الثاني (بيروت . منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٩) ص ٢٥١ .

٥ - محمد الامين بن فضل الله المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (القاهرة . المطبعة الوهبية . ١٢٨٤ هـ) ج ٣ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ . راجع حتي ، لبنان في التاريخ ص ٤٦٥ .

٦ - عيسى اسكندر المعلوف ، تاريخ فخر الدين المعني الثاني ، حاكم لبنان من سنة ١٥٩٠ الى سنة ١٦٣٥ م (جونية . مطبعة الرسالة اللبنانية ، ١٩٣٤) ص ٢٦ - ٢٧ .

٧ - راجع في اخبار سقوط بيروت في ايدي الصليبيين . ابن القلانسي ، « ذيل تاريخ دمشق » . ص ١٦٩ - ١٧١ كذلك . William of Tyre, *op.cit.* Vol. P 485- 486

٨ - طنوس الشدياق ، اخبار الاعيان ، ج ١ . ص ٢٨٩ . كذلك .

Kamal Salibi, «The Buhturids of The Garb, Medieval Lords of Beirut and Southern Lebanon» *Arabica*, vol III. (Jan. 1961)P. 80

٩ - المحبي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧ - ٣٠ .

المصدر السابق ج ٣ ، ص ٢٦٦ . كذلك المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٢٧ - ٣٠ . ويذكر كل من الشدياق والمعلوف وحتي في تواريخهم ان منطقة الشوف كانت آنذاك خالية من السكان بينما شك غيرهم في ذلك ومنهم الدكتور الصليبي .

الصليبيين في لبنان[١٠] . واشتد ساعد هذا الحلف بقدوم الشهابيين الى وادي التيم في القرن السادس للهجرة او في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للميلاد . وكان الامير منقذ الشهابي قد ابلى بلاءً حسناً في القتال ضد الصليبيين في وادي التيم (**٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م**) واستطاع ان يوقع الهزيمة في صفوف الفرنجة وان يطردهم من تلك النواحي[١١] . وتذكر بعض المصادر ان الامير يونس المعني سر لنصر الشهابيين هذا وبعث يهنىء الامير منقذا ويدعوه لزيارته . ولبّى الامير الشهابي الدعوة فزار برفقة ابنه محمد حلفاءه المعنيين في الشوف وتمت خلال تلك الزيارة اول مصاهرة بين العائلتين[١٢] .

ولم تكن تلك المصاهرة الا دليلا على الحلف الذي ظل قائما بين العائلتين لمدة طويلة . والف ذلك الحلف جزءا من تلك القوات العربية في لبنان التي تصدت للغزو الصليبي في المشرق الاسلامي . وكثيرا ما استنجد الشهابيون بالمعنيين لدرء خطر الفرنجة عن وادي التيم . وتذكر بعض المصادر انه في سنة **٦٣٦** هـ/ **١٢٣٨**م استنجد الامير عامر الشهابي بالامير عبد الله بن سيف الدين المعني في قتاله للفرنجة في موقعة برج الخيام في جنوب لبنان وكان النصر حليف الشهابيين[١٣] . وكان المعنيون في الوقت ذاته ينجدون انسباءهم التنوخيين في حروبهم ضد الصليبيين . ومن المعارك الشهيرة التي اشتركوا فيها الى جانبهم وبمساعدة داود الجركسي معركة الدامور حيث تغلبوا على الفرنجة[١٤] .

المعنيون والفتح العثماني :

وقبيل الفتح العثماني لبلاد الشام كانت السيادة على ما يسمى اليوم بالاراضي اللبنانية يتقاسمها عدة فرقاء في ظل حكم المماليك . فالتنوخيون والمعنيون كانوا في وسط لبنان ، في حين كان الشهابيون في وادي التيم والحرافشة في مقاطعة بعلبك . اما آل سيفا الاكراد فكانوا يتولون مقاطعة طرابلس وعكار في شمال

---

١٠ ـ راجع الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٦ ـ ١٩٥ .

١١ ـ احد الامراء الشهابيين ، تاريخ الامراء الشهابيين بقلم احد امرائهم من وادي التيم ، تحقيق سليم حسن هشي (بيروت . منشورات المديرية العامة للآثار ، **١٩٧١**) ص **٢٩** ـ **٣٠** .

١٢ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ . كذلك المعلوف ، المرجع السابق ، ص **٣٢** ـ **٣٣** .

١٣ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

١٤ ـ المرجع نفسه ، ص **٢٩٢** .

لبنان ، بينما كان منافسوهم آل عساف التركمان يحكمون في كسروان[١٥] .

وعند الفتح العثماني **٩٩٢ هـ/ ١٥١٦م** كان الامير فخر الدين الاول المعني امير مقاطعة الشوف بين الذين انضموا الى جانب السلطان سليم العثماني اثناء القتال في موقعة مرج دابق الشهيرة . وتذكر بعض المصادر ان جان برد الغزالي والي دمشق زمن حكم المماليك كان قد طلب من فخر الدين الاول ان يأتي بعساكره الى مرج دابق لقتال السلطان سليم . ولما اشتد القتال امر سلطان المماليك قانصوه الغوري نائبيه الغزالي وخيري بك ان يتقدما جيشه ليقتلا بعد ان اتهمهما بالخيانة ، ولكنهما فرا الى عساكر السلطان سليم العثماني ، وكان الامير فخر الدين المعني الاول ممن فروا معهما[١٦] . اما الامراء التنوخيون القيسيو النزعة فقد انحازوا الى جانب المماليك . فكان انتصار العثمانيين في القتال بداية زوال امارة التنوخيين وبروز امارة المعنيين على المسرح السياسي .وكافأ السلطان سليم فخر الدين الأول واقره على ولايته في الشوف[١٧] .

الحملة العثمانية على الدروز :

توفي فخر الدين الاول المعنى **٩٥١ هـ/ ١٥٤٤م** فخلفه في الحكم ابنه الامير قرقماس . واشتد في عهده النزاع بين القيسية واليمنية كما اشتد الخلاف بين آل عساف وآل سيفا في الشمال . غير ان هذه الاحداث الداخلية لم تؤثر على استقرار الامارة المعنية في لبنان خلال هذه الفترة لو لم تقع حادثة سلب الاموال السلطانية في جون عكار سنة **٩٢٢ هـ/ ١٥٨٤م** ، ففي تلك السنة تعرض قطاع الطرق لفرقة من جنود الانكشارية كانت تنقل الاموال السلطانية الى استنبول وسلبوها تلك الاموال في مقاطعة ابن سيفا[١٨] . ولم يلق ابن سيفا القبض على اولئك اللصوص بل اتهم خصمه الامير قرقماس المعني بضلوعه في تلك الحادثة . ولكن السلطان العثماني استغل هذه الحادثة لتلقين رعاياه درسا قاسيا في الخضوع والولاء للباب العالي . لقد

---

١٥ ـ المحبي المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣ . كذلك . حتي ، المرجع السابق ، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ .
١٦ ـ احمد بن ابي الحسن علي بن احمد ، واقعة السلطان سليم خان في فتوح مصر مع السلطان الغوري وطومان باي (مخطوط ، مكتبة الجامعة الاميركية ، نسخ ١٧٠١ م)
١٧ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .
١٨ ـ اسطفانوس الدويهي ، « تاريخ الازمنة » (بيروت ، المشرق م ٤٤ ، ١٩٥٠) ص ٢٨٤ .

كان من حق الامير المعني ان لا يتحمل مسؤولية ذلك الحادث الذي وقع خارج حدود امارته . ولكن وشاية خصمه ابن سيفا ضده جعلت السلطان لا يكتفي بأمر حاكم طرابلس لتجريد حملة تأديبية على حكام عكار من آل سيفا بل طلب ايضا من ابراهيم باشا والي مصر تجريد حملة مماثلة على الامارة المعنية[١٩] .

ولما وصلت تلك الحملة بقيادة ابراهيم باشا الى البقاع بعث قائدها يطلب من الامير المعني تسليم سالبي الاموال السلطانية ملصقا التهمة بامراء لبنان . ثم ضربت القوات العثمانية حصارا على الامارة المعنية من البر والبحر . ولم يكن بوسع الامير المعني كما يبدو معرفة الجناة لتسليمهم الى والي مصر . وليس في المصادر التي بين ايدينا اية اشارة الى ان الامير قرقماس كان يعرف فعلا مرتكبي تلك الحادثة التي وقعت خارج حدود ولايته . ولكن اصرار الباشا على الصاق تلك التهمة بالامير المعني زورا وبهتانا جعل الدروز يدفعون ثمنا باهظا لسياسة السلطان التعسفية . وعندما تأكد الامير قرقماس ان لاحيلة له باقناع الباشا بعدم مسؤوليته في تلك الحادثة وان لا قدرة له على مجابهة القوات العثمانية لجأ مع عياله إلى مغارة شقيف تيرون وحاصر فيها[٢٠] .

وعبثا حاول اعيان البلاد استرضاء قائد القوات العثمانية وصرفه عن تلك المسألة . بل لجأ الوزير العثماني الى سياسة المكر والخداع للايقاع بالدروز ، اذ تذكر بعض المصادر ان الباشا اذاع في المناطق الدرزية بيانا يدعو فيه السكان للاجتماع به معلنين الطاعة للسلطان . فجاءت الوفود الدرزية العزلاء من السلاح لمقابلته في عين صوفر ، فلما خيم الظلام اطبق جنود ابراهيم باشا على المجتمعين وقتلوا غدرا نحو ستماية رجل من عقال الدروز . كما اعتقل من زعماء الدروز الامير محمد جمال الدين الارسلاني والامير منذرا التنوخي[٢١] . اما الامير قرقماس فقد لقي حتفه اثر تلك الحادثة في مغارة الشقيف تاركا ولدين قاصرين هما يونس وفخر الدين . واستطاعت والدتهما الاميرة نسب التنوخية ان تبعد ولديها عن خطر السلطان فخبأتهما بحسب رواية متأخرة وغير اكيدة في قرية بلّونة في كسروان عند آل

١٩ ـ المصدر نفسه ص ٢٨٤ .

٢٠ ـ المعلوف ، المرجع السابق ص ٤٢ ، كذلك قابل الدويهي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .

٢١ ـ الدويهي ، المصدر السابق ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

الخازن[٢٢] . وبعد ان تولى الامير منذر التنوخي شؤون الامارة المعنية واستقرت الاوضاع في المنطقة عاد الاميران المعنيان الى بلدة عبيه وترعرعا في كنف خالهما الامير سيف الدين التنوخي حتى بلغا سن الرشد . واستطاع الاخير بفضل حكمته ومساعدة شقيقته السيدة نسب ان يستعيد ولاية المعنيين للامير فخر الدين الثاني بتأييد من اهل البلاد[٢٣] .

الدروز في عهد الامير فخر الدين الثاني الكبير :

اظهر الامير فخر الدين الثاني منذ تسلمه الولاية في الشوف كفاءة عالية في تسيير دفة الحكم ، وفاقت شهرته خلال فترة قصيرة كل من سبقه من حكام في بلاد الشام خلال العهد العثماني . ولم ينس الامير الشاب ما قاساه مواطنوه من جور الولاة العثمانيين وغدرهم لا بل ان جده ووالده كانا ضحية تلك السياسة الظالمة . ولهذا لم تكن سياسة الامير الرامية الى التحرر من الحكم العثماني امرا عابرا بل هدفا رئيسيا سعى اليه بكل قواه . وكان الامير قد اتخذ له هدفا آخرا لا يقل اهمية عن هدفه الاول وهو بناء دولة حديثة مزدهرة ومستقلة انطلاقا من لبنان وترتكز على وحدة وطنية سليمة .

بناء الوحدة الوطنية :

شرع اولا بتحقيق وحدة الشعب ، فاتخذ حلفاءه من جميع الطوائف ومن الحزبين القيسي واليمني . ولم يميز بينهم كما يبدو على اساس مذهبي او حزبي بل عمل على التقرب من الحزب اليمني رغم كونه قيسيا[٢٤] . وصاهر الامراء الارسلانيين اذ اقترن بابنة الامير جمال الدين الارسلاني اليمني .

واسترجع فخر الدين مدينة بيروت التي كانت بيد خصم ابيه ، يوسف سيفا

---

٢٢ ـ المعلوف ، المصدر السابق ص ٢٧ . ولكن المؤرخ كمال الصليبي يرى ان لا صحة لرواية اختباء الامير فخر الدين عند آل الخازن اذ لم يأت على ذكر هذه القصة اي مؤرخ معاصر لعهد فخر الدين وانما هي من وضع آل الخازن في القرن التاسع عشر ، راجع الصليبي ، « فخر الدين » ص ٩٠ ـ ٩٥ .

٢٣ ـ بولس قرألي ، فخر الدين المعني الثاني امير لبنان ، ادارته وسياسته (١٥٩٠ ـ ١٦٣٥) (حريصا ، ١٩٣٧) ج ١ ، ص ١٣ .

٢٤ ـ كان المعنيون فيما سبق يمنيين ثم اصبحوا قيسيين اثر نزاعهم مع الارسلانيين على الحكم زمن فخر الدين الاول . راجع المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

وذلك اثر هزيمة الاخير في موقعة نهر الكلب (١٠٠٧ هـ/ ١٥٩٨م ، وتوسط الامير محمد الارسلاني بين فخر الدين وابن سيفا فترك الامير المدينة للاخير .

غير ان ابن سيفا حنث بالعهد وانتقم من انصار الامير في البقاع وكسروان فاضطر فخر الدين ان يحاربه من جديد سنة ١٠١٤ هـ/ ١٦٠٥م ، وانتصر عليه في جونية وانتزع منه بيروت وكسروان نهائيا[٢٥] .

ومضى الأمير قدما في تحقيق هدفه الاول اي التحرر من الحكم العثماني ، غير انه لم يكن قادرا على اعلان الثورة ضد العثمانيين اعلانا صريحا ، اذ لم يكن لدى فخر الدين قوة عسكرية تمكنه من تحدي الدولة العثمانية التي كانت لا تزال احدى القوى الكبرى في العالم . وكان بحكم دهائه وواقعيته يعرف ان تحدي السلطان مباشرة ليس الا سياسة انتحارية ترمي به الى الهلاك . ولهذا اتخذت سياسة تحرره من العثمانيين اسلوب المداورة والدهاء السياسي عن طريق حروبه المحلية لبسط نفوذه على سائر انحاء بلاد الشام دون ان يتعرض مباشرة للسلطان . واغتنم الامير فرصة انشغال السلطان احمد الاول (١٠١٢ - ١٠٢٦ هـ/ ١٦٠٣ - ١٦١٧م) بمحاربة شاه العجم وملك المجر لتوسيع رقعة ولايته . وبعد ان ضم بيروت والبقاع الى ولايته استولى على صيدا وصفد وعجلون وبانياس . غير ان الظروف لم تبق مؤاتية لفخر الدين اذ ان والي دمشق احمد باشا الحافظ كان ينظر بعين الحسد والريبة لانجازات الامير . وسرعان ما وقع الخلاف بين الحافظ والامير عندما حاول والي الشام القضاء على حكم الشهابيين والحرافشة وهم من حلفاء الامير المعني فوقف للحافظ بالمرصاد . وامام عداء ابن سيفا من جهة والحافظ من جهة اخرى لجأ الامير الى التحالف مع علي باشا جانبلاط والي مقاطعة حلب وكلس والخصم الاخر لابن سيفا[٢٦] . وعندما قرر ابن سيفا قتال خصمه بمساعدة القوات السلطانية استطاع الحليفان الجنبلاطي والمعني ايقاع الهزيمة بوالي عكار في موقعة دمشق سنة ١٠١٦ هـ/ ١٦٠٧م .

---

٢٥ - جرجي افندي يني ، « تاريخ آل معن » المقتطف ، مجلد ٢٦ (آذار ، ١٩٠١) ص ٢١٣ . كذلك انظر المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٧٧ - ٨٣ .

٢٦ - قرألي ، المرجع السابق ، ص ١٤ .

ردة فعل السلطان العثماني :

وبلغت اخبار حصار دمشق هذا الباب العالي فقرر السلطان وضع حد لقوة الحلف المعني الجنبلاطي . وارسل في غضون تلك السنة جيشا كبيرا بقيادة وزيره مراد باشا الى بلاد الشام فنكبت تلك القوات الزعيم الجنبلاطي بمساعدة خصمه ابن سيفا واحمد باشا الحافظ[٢٧] . وكاد فخر الدين ان يواجه المصير نفسه لو لم يبادر الى تبرير موقفه امام الوزير العثماني ويسترضيه بالمال والهدايا . وبقي الامير المعني حذرا من خصومه فعمل على بسط سلطته جنوبا حتى بلغ عكا وصفد والناصرة وعمل في الوقت نفسه على تحصين مواقعه العسكرية[٢٨] . ولكن سياسة فخر الدين هذه جعلت خصومه في الداخل يوجسون منه خوفا ، بيد ان تحركه على الصعيد الخارجي عززت تلك المخاوف واثارت شكوك الباب العالي في ولاء الامير للعثمانيين . ومع هذا لم يتراجع فخر الدين عن سياسته الرامية الى الاستقلال عن الدولة العثمانية . بل ان سياسته هذه بدأت تتخذ طريقا واضحا عندما عقد الامير مع دوق توسكانا معاهدة تجارية تضمنت بنودا سرية عسكرية ضد الدولة العثمانية[٢٩] . فقرر السلطان عند ذاك التخلص من الامير المعني مغتنما فرصة وفاة صديق الامير الوزير مراد باشا وتولي نصوح باشا عدوه منصب الصدارة العظمى . واستطاع والي الشام هذا ان يوغر صدر نصوح باشا على الامير المعني فجرد عليه حملة قوية برا وبحرا سنة **١٠٢٢** هـ/ **١٦١٣**م . ولم يشأ الامير مقاومة جيوش السلطان قبل ان يضمن مساعدة الدولة الاوروبية له . وبعد ان سعى الى الصلح مع الحافظ والي الشام من اجل كسب الوقت دون جدوى ، قرر الذهاب الى اوروبة . وغادر ميناء صيدا مع حاشيته على متن سفينتين احداهما فرنسية واخرى هولندية تاركا الحكم بعهدة اخيه الامير يونس[٣٠] .

وبعد ان ضرب الاسطول العثماني الحصار على الشاطىء اللبناني تقدم الحافظ بالقوات البرية لمداهمة منطقة الشوف وحاصر في طريقه قلعة الشقيف ولكنها

---

٢٧ - للاوفر من التفاصيل عن ثورة علي باشا جنبلاط ضد الدولة العثمانية ونكبته في حلب،راجع الخوري بولس قرألي ، علي باشا جنبلاط والي حلب ١٦٠٥ - ١٦١١ . (بيروت ، ١٩٣٩) ص ١٩ - ٣٤ وص ٥٥ - ٨٥ .

٢٨ - حتي ، المرجع السابق ، ص ٤٥٥ . وكذلك المعلوف ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

٢٩ - قرألي ، المرجع السابق ، ص ١٧ - ١٧٥ .

٣٠ - الخالدي ، المصدر السابق ، ص ١٧ - ١٩ .

صمدت في وجه القوات العثمانية . اما بقية القوات فقد صعدت الى قرية غريفة الشوف لاحراقها فتصدى لها الشوفيون واوقفوا زحفها[٣١] . ولكن رجال الامير المعني المحاصرين في قلعة الشقيف كانوا قد سئموا القتال ضد قوات تفوقهم عدة وعددا فطلبوا من الامير يونس المعني ان يرسل والدته الاميرة نسب التنوخية للتوسط مع الحافظ بشأن القتال . واستطاعت السيدة نسب ان تقابل الباشا برفقة وفد من رجال الدين الدروز وقدمت له هدية مع مبلغ من المال . فقبل والي الشام الهدية ولكنه طلب مبلغا اكبر مقابل تراجعه عن منطقة الشوف فرضيت والدة الامير بذلك وتوقفت رحى الحرب قبل حلول الشتاء[٣٢] .

الامير فخر الدين في اوروبا :

اما الامير فخر الدين فقد وصل بدوره الى توسكانا في اواخر سنة **١٠٢٢** هـ/ **١٦١٣**م واستقبله حاكمها قوزما الثاني بحفاوة بالغة . وسعى الامير جاهدا للحصول على مساعدات عسكرية من دول اسبانيا وفرنسا والفاتيكان ضد الدولة العثمانية . وقبل ان يتخذ دوق توسكانا مثل هذا القرار المهم ارسل بعثة فنية لتدرس الاوضاع العسكرية والاقتصادية في البلاد[٣٣] .

ولم تمض سنتان على رحيل فخر الدين حتى تغير الوضع في الاستانة لصالح الامير فتغير الصدر الاعظم واستبدل والي الشام ونال فخر الدين العفو من الباب العالي . ولكن الامير المعني كان قد انتقل الى صقلية بدعوة من دوق مسينا نائب ملك اسبانيا . ويروى كاتب سيرة الامير احمد الخالدي ان ملك اسبانيا عرض على فخر الدين ولاية تضاهي ولايته في بلاد الشام شرط ان يعتنق المسيحية فكان جواب الامير : « ما جئنا الى هذه البلاد لاكرامة دين ولاكرامة حكم ولا حكومة بل لما جاء علينا عسكر ثقيل جينا احتمينا عندكم واحميتوا رأسه وراعيتوه ولكم بذلك الفضل والجميل والمنة ان اردتم هو قاعدة عندكم بتوابعه على حاله وان ارسلتوه الى بلاده فهو المراد لان له أهل وتوابع وبلاد »[٣٤] .

---

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص ٣١ .
٣٢ ـ المصدر نفسه ، ص **٢٣** ـ **٢٥** .
٣٣ ـ قرألي ، المرجع السابق ، ص **١٥** . وراجع نص تقارير هؤلاء الخبراء في المرجع نفسه ، ص **٢٣** ـ **٢٥** .
٣٣ ـ قرألي ، المرجع السابق ، ص **١٥** . وراجع نص تقارير هؤلاء الخبراء في المرجع نفسه ج **٢**، ص **١٩٤** ـ **٢١٦** .
٣٤ ـ الخالدي ، المصدر السابق ، ص **٢٣٦** .

عودة الامير الى لبنان :

قام الامير فخر الدين خلال هذه الفترة بزيارة سرية الى لبنان ثم عاد نهائيا الى بلاده سنة **١٠٢٧** هـ/ **١٦١٨**م . ولكنه كان قد فشل في محاولته للحصول على نجدة عسكرية اوروبية ضد الدولة العثمانية[٣٥] . وسرعان ما تأكد للامير ان طلب مثل هذه النجدة لم يكن الا ضربا من الاستجداء وان عليه ان يعتمد على نفسه لتحقيق امنيته في بناء الدولة المستقلة والمزدهرة[٣٦] . وشرع بعد رجوعه باستعادة ما فقده من المقاطعات . فاقتص اولا من ابن سيفا الذي كان قد استغل فترة غياب الامير لتخريب بيوت الامراء المعنيين في عاصمتهم دير القمر فاستولى الامير فخر الدين على جبة بشري وعكار والبقاع وطرابلس .

موقعة عنجر :

لما قويت سطوة الامير الدرزي في بلاد الشام اقطعه السلطان سنة **١٠٣٢** هـ/ **١٦١٨**م سنجقي نابلس وعجلون اللذين كانا تحت سلطة والي الشام مصطفى باشا . واذ رفض الاخير تسليمها لفخر الدين التقاه الامير المعني في عنجر واوقع فيه الهزيمة واجبره على تسليمها . اما السلطان فقد اقر الامر الواقع واصدر فرمانا اعتبر بموجبه فخر الدين حاكما على عربستان من حلب الى حدود مصر كما منحه لقب سلطان البر[٣٧] .

ولكن هذه الانتصارات السياسية والعسكرية الباهرة التي حققها الامير لم تكن ذات قيمة حقيقية طالما ان الامير لا يزال واليا تحت سلطة الباب العالي . ذلك ان فخر الدين لم يتخل عن هدفه الاساسي وهو الاستقلال التام عن الدولة العثمانية . بيد انه يعرف تماما ان تحقيق هدفه هذا يحتاج الى مساعدة دولة حليفة لكي يستطيع التصدي لقوات السلطان العثماني . وسعيا وراء هذا الهدف جدد اتصالاته مع دولة توسكانا واقام علاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية معها . غير ان علاقات الامير فخر الدين بالاوروبيين ظلت كما أظهرت الاحداث فيما بعد قليلة الشأن من الناحية

---

٣٥ - حتي ، المرجع السابق ، ص ٤٦٢ .

٣٦ - انيس النصولي ، رسائل الامير فخر الدين من توسكانا (بيروت ١٩٤٦) ص ١٦ - ١٧ .

٣٧ - المحبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٦ وكذلك الخالدي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

العسكرية ، ذلك ان الامير المعني كان يخشى على ما يبدو سيطرة الدول الاوروبية على بلاده . وربما حذر الامير هذا جعل تحالفه العسكري مع توسكانا وغيرها من الدول الاوروبية محدود الاثر فاقتصر على مساعدة عسكرية فنية . وتمثلت تلك المساعدة الاوروبية بمجيء عدد من الخبراء والمهندسين لتدريب جيشه وتحصين قلاعه واعداد رجاله للقتال[٣٨] .

غضب السلطان : نهاية الامير الكبير :

غير ان ولاة الدولة العثمانية في بلاد الشام كانوا يراقبون بعين الحسد والحذر تحركات الامير الخطيرة وسعوا للقضاء عليه عند أول فرصة لدى السلطان . وجددوا شكاويهم ضده واتهموه بالخروج عن الدين الاسلامي وبأنه يساعد المسيحيين على المسلمين . وفوق هذا كله استغلوا علاقاته الحسنة مع توسكانا لاتهام الامير بالسعي لتأسيس دولة مستقلة عن الباب العالي . ودنت نهاية الامير عندما استطاع احمد كجك باشا والي الشام اقناع السلطان مراد الرابع بان دولة فخر الدين هذه ستشكل في نهاية المطاف خطرا على الدولة العثمانية[٣٩] . وصدرت في عام **١٠٤٣ هـ/١٦٣٣م** الاوامر السلطانية الى باشاوات بلاد الشام ومصر للزحف على الامير فخر الدين والقضاء عليه . ورافقت القوات البرية الاسطول العثماني لمحاصرة مدن الشاطىء بقيادة جعفر باشا . وداهمت تلك القوات بلاد الامير قبل ان يكمل استعداداته العسكرية وقبل ان تحضر اية قوات اوروبية حليفة لمساعدته[٤٠] . ولكنه حاول أن يصمد وأن يؤخر المجابهة ريثما يتمكن من الحصول على مساعدة عسكرية ما من حلفائه الاوروبيين . وانتظارا لتلك المساعدة واكتسابا للوقت فاوض الكجك على تسليم قلعتي صيدا وبيروت وأرفق عرضه هذا بمبلغ من المال . وقبل الوزير العثماني ذلك ولكنه لم يصدر امرا بوقف القتال بل ضيق الخناق على حلفاء فخر الدين في وادي التيم . وتلكأ في الوقت ذاته حلفاؤه الاوروبيون عن تقديم اية مساعدة ربما بسبب انشغالهم بحرب الثلاثين سنة . أما حلفاء فخر الدين في الداخل فقد تخلوا عنه عند قدوم والي الشام ومن بينهم الحرافشة ـ زعماء البقاع ـ واليمنيون . ولم يبق الى جانبه سوى حلفائه الشهابيين ورجال الشوف . وازاء تفوق عدد القوات

---

٣٨ ـ المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١

٣٩ ـ راجع في ترجمة احمد الكجك ، المحبي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨٥ .

٤٠ ـ المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

العثمانية على جيش الامير اضعافا ، رأى الامير فخر الدين انه من الحكمة ان لا يجابه تلك الجيوش الغازية في موقعة حاسمة ، بل نصح ابنه الامير علي اثناء توجه الاخير لقتال قوات والي دمشق العثماني في وادي التيم ، أن يلجأ الى المناوشات من أجل استنزاف القوات العثمانية الزاحفة . غير ان حماسة الامير علي وشجاعته دفعته للقتال بتهور لا مثيل له فاقتحم صفوف الوالي العثماني وشتت شملها موقعا فيها الوف القتلى . غير أن الامير علياً كان قد خسر في تلك الموقعة الرهيبة عدة الاف من رجاله ولم يبق لديه سوى خمسة آلاف جندي لمجابهة بقية القوات العثمانية المتألبة على قوات الامير . وعلى الرغم من ذلك رفض الامير علي التوقف عن القتال بل انقض ببسالة على القوات العثمانية موقعاً في صفوفها نحوا من تسعة آلاف قتيل ولكنه خسر في الوقت نفسه النسم المتبقي من رجاله . إذ رفض الاستسلام وظل يناتل حتى استشهد في المعركة . وتقدم القائد العثماني لقتال ما تبقى من قوات الامير فخر الدين والتي كانت بأمرة ولديه الاميرين يونس وحسن . ولم يكن حظ الامير في هذه الموقعة أفضل من سابقتها اذ استشهد الامير يونس في المعركة ووقع أخوه في الاسر . وبالرغم من هذه الخسائر الجسيمة فقد حاول الامير فخر الدين انقاذ ما تبقى من رجاله فأرسل ابنه الامير منصور الى قائد الأسطول العثماني يطلب منه وقف القتال ، وأرفق طلبه بمبلغ من المال كهدية . ولكن القائد العثماني اخذ المال كما أخذ الامير منصور رهينة دون أن يتوقف عن القتال . واضطر الامير فخر الدين بعد استشهاد معظم رجاله بما فيهم ولديه علي ويونس أن ينكفىء الى جبل الشوف ولجأ الى قلعة شقيف تيرون بالقرب من نيحا وتحصن فيها . ولكن أحمد كجك باشا والي الشام استطاع ان يحاصر تلك القلعة الحصينة وأن يهتدي الى مصدر مياهها فلوثها بدماء الذبائح حتى انتنت فلجأ الامير المعني مع خاصته الى مغارة منيعة في باطن الأرض بالقرب من شلال جزين واختبأ فيها . غير أن والي الشام تمكن من اكتشاف مخبأ الامير ، عندما وقع بين يديه احد مماليك المعني فسار الى تلك المغارة وضرب حولها الحصار[٤١] . وتروى بعض المصادر ان الكجك أمر بتفتيت الصخور للوصول الى مخبأ الامير . واستعملوا الخل في عملية تفتيت الصخر الكلسي حتى وصل النقابون الى مكان الامير في المغارة وانذروه بنسف الموضع بالبارود فاضطر فخر الدين لتسليم

---

٤١ - المرجع نفسه ص ٢٦١ - ٢٦٨ .

نفسه . فأخذه احمد باشا الكجك مخفورا مع اولاده الى الشام ونقل الى الاستانة . واستطاع الامير المعني ان يدافع عن نفسه دفاعا بليغا امام السلطان العثماني حتى اقنعه ببراءته وكاد يعيده الى منصبه . ولكن انتفاضة ابن اخيه الامير ملحم المعني ضد والي الشام اغضبت السلطان على فخر الدين من جديد فحكم عليه بالاعدام سنة ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥ م[٤٢] .

مآثر الامير فخر الدين الكبير :

بموت فخر الدين المعني الثاني تقلص نفوذ الامراء المعنيين الدروز في لبنان وسائر انحاء بلاد الشام . وتوقفت خلال حقبة طويلة من التاريخ العثماني في بلاد الشام اية محاولة جدية للتحرر من الحكم العثماني .

العمران :

ولكن ارث فخر الدين المعني لم يقتصر على محاولاته المستمرة للاستقلال عن العثمانيين بل تعداه لاول مرة الى بناء وطن ودولة تضاهي في تقدمها ما وصلت اليه البلدان المتقدمة في زمانه . ذلك ان فخر الدين لم يكن بهذا المعنى مجرد وال ثائر في وجه العثمانيين ولا مجرد رجل اقطاعي يتنعم باموال الفلاحين في اقطاعه مقابل تأدية الاموال الاميرية للسلطان ، بل كان رجل دولة بالمعنى الحديث اهتم بعمران بلده وبرفع المستوى الاقتصادي لشعبه ، واستطاع خلال فترة حكمه الطويلة ان يقوم بعدد من المنجزات الاساسية في هذا المجال . واستفاد من رحلته الى ايطاليا (١٠٢٢ - ١٠٢٨ هـ/ ١٦١٣ - ١٦١٨م) لينقل الى بلده بعض ما حققته النهضة الاوروبية في حقل العمران والبناء . واثار المعني البنائية لا تزال منتشرة في انحاء عديدة من لبنان ، فقد رمم كثيرا من القلاع وبنى الجسور على الانهر وشيد الخانات للتجار[٤٣] . واستقدم من البلدان الاوروبية خبراء وفنيين لتحسين المرافق الاقتصادية الاساسية كالزراعة والصناعة والتجارة . ففي حقل الزراعة اهتم بتنشيط زراعة قصب السكر وشجر التوت والزيتون وبقية الاشجار المثمرة المعروفة في

---

٤٢ - المعلوف ، المرجع نفسه ، ص ٢٧٢ - ٢٧٥ .

٤٣ - لمعرفة ما انجزه الامير المعني في حقل البناء راجع. المعلوف، المصدر السابق ، ص ٣٣٢ - ٣٥٥ . كذلك قرألي . المرجع السابق ج ١ ، ص ٥٤ - ٦٢ .

السواحل . وشجع زراعة القمح والحبوب على انواعها . وكان احيانا يصدرها الى اوروبا عن طريق مرافىء صيدا وصور وعكا[٤٤] . وعمل على الاستفادة من الخبرة الاوروبية في الري وتحسين تربية المواشي . وازدهرت المصنوعات الزراعية بفضل ذلك كصناعة المنسوجات الحريرية والقطنية وكذلك صناعة الزيت والصابون . اما التجارة فقد نشطت في الداخل بفضل اتساع رقعة ولاية الامير ونشره للامن . وساعدت علاقاته السياسية الحسنة مع الدول الاوروبية على جعل المدن الساحلية من اهم المراكز التجارية في البحر المتوسط . وتشجيعا للتجار الاوروبيين عمل الامير على حمايتهم من اعمال القرصنة ومنحهم بعض التسهيلات في التنقل والاقامة كما بنى لهم خان الافرنج في صيدا فاذا بالمدن اللبنانية تستعيد لاول مرة مجدها الغابر في التجارة البحرية[٤٥] .

العدالة الاجتماعية :

ولكن عظمة فخر الدين المعني برأي عدد من المؤرخين تكمن بالدرجة الاولى في سياسته الاجتماعية الرامية الى تحقيق العدل والمساواة بين جميع رعاياه قبل ان تتحقق مثل هذه الشعارات في بلدان اوروبا او في الشرق الاسلامي . ومما فعله فخر الدين انه ساوى بين رعاياه من مختلف الطوائف واطلق لهم جميعا حرية المعتقد الديني بشكل خالص[٤٦] . ولم يحاب فئة على حساب الفئات الاخرى بهذا المقياس ، بل ان شعوره الوطني المبكر جعله يتجاوز الفوارق الطائفية والمذهبية . ورغم كونه درزي المذهب فكان يشارك جميع الطوائف الدينية اعيادها ويعطف على المسيحيين واليهود[٤٧] . كما كان في الوقت ذاته يحضر صلاة الاعياد في المساجد ويسمح لاسرته بصيام رمضان ويحافظ على قوافل الحج كما يقول كاتب سيرته احمد بن محمد الخالدي الصفدي[٤٨] . ولعله اول حاكم مسلم في لبنان والشرق يساوي بين المسيحيين واليهود والمسلمين في الحقوق الدينية والمدنية متجاوزا بذلك التقاليد السياسية والاجتماعية والقوانين المعروفة التي كانت تميز بين المسلمين واهل الذمة ، مما يدل

---

٤٤ ـ المرجع نفسه ، ص ٥٠ .
٤٥ ـ الخالدي ، المصدر السابق ، ص ٤٦ ـ ٤٨ وكذلك قرألي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٤ ـ ٦٢ .
٤٦ ـ المرجع نفسه ، ص ٣٣ .
٤٧ ـ المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .
٤٨ ـ الخالدي ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

على رؤية سياسية واجتماعية منفتحة ونظرة حديثة للدولة ليست قائمة على التعصب الديني والمذهبي[٤٩] .

التسامح الديني : الهجرة المسيحية الى المناطق الدرزية :

وبحكم علاقاته الوطيدة مع دول اوروبا فقد كان فخر الدين يعطف على الارساليات الاوروبية ويسمح بانشاء مراكز لها في لبنان وفلسطين . وفضلا عن حمايته للرعايا الاوروبيين تجارا وارساليات وقناصل فقد بسط يد الحماية لجميع المسيحيين في بلاد الشام حتى اصبح الاوروبيون يدعونه « حامي النصارى في الشرق »[٥٠] . وجاء في بعض المصادر ان الامير المعني شجع الروم الملكيين على الهجرة الى لبنان الجنوبي وحافظ على بطريركهم اغناطيوس عطية من نقمة ابن سيفا كما جنّد قسما من هؤلاء في جيشه[٥١] . وكان عطف الامير على الموارنة وتحالفه معهم من ابرز ميزات سياسته الداخلية في هذا المجال . وقد شهد له بذلك مؤرخون موارنة معاصرون امثال البطريرك اسطفان الدويهي ومتأخرون كالاب بولس قرألي والدكتور فيليب حتي . اما الاب قرألي فيقول في كتابه عن فخر الدين انه بعد ان كان الموارنة « منحصرين في شمال لبنان ، اي في بعض وسط البترون وجبيل القاحلة وفي جبة بشري التي كان يتولاها مقدم من طائفتهم يضمن مالهم الاميري ويورده الى والي طرابلس وكيل السلطان . . . . في تلك الانحاء وقد ضاقت بهم الارض لقلتها وكثرتهم وضاقت بهم سبل العيش لجور الولاة ، خاصة يوسف باشا سيفا . ولما كانوا مزارعين نشيطين ورعايا هادئين ساعدهم آل عساف على النزوح الى كسروان والفتوح ومكنهم الـ أبي اللمع وتنوخ ومعن (الدروز) من المهاجرة إلى المتن والغرب والشوف »[٥٢] .

ويبدو ان تحالف فخر الدين مع الموارنة كان يهدف الى بناء جبهة داخلية متماسكة قادرة على التصدي لعدوين مشتركين انذاك هما آل سيفا والباب العالي . وشكل

---

٤٩ - قرألي ، المرجع السابق ص ٣٤ كذلك بولس قرألي « فخر الدين المعني الثاني ودولة توسكانا ، رد وايضاح » المشرق م٣٥ (ت ١ - ك ١ ، ١٩٣٧) ص ٥٣١ .
٥٠ - قرألي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٢ .
٥١ - المرجع نفسه ، ص ٣٥ .
٥٢ - المرجع نفسه ، ص ٣٦ .

الموارنة جزءا من جيشه وحاربوا الى جانبه ضد ابن سيفا في موقعة نهر الكلب ١٠٠٧ هـ/ ١٥٩٨م . كما استعان ببعض زعمائهم كآل الخازن في تدبير شؤون البلاد السياسية والعسكرية حتى ان الاب فيتالي يقول في تقرير له : « ان الموارنة هم الوحيدون بين مسيحي الشرق الذين يحملون السلاح ويستعملونه مرارا ضد العثمانيين تحت قيادة الامير ولوائه[٥٣] . فسياسة الامير المنفتحة هذه تجاه الموارنة كان لها مغزاها المهم اذ اتاحت لاهل الذمة المشاركة في حمل السلاح وهو امر كان متصورا عادة على المسلمين . وقد استفاد الامير المعني بدوره من تلك العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بين الكنيسة المارونية وبعض البلدان الاوروبية الكاثوليكية . وساهم اساقفة الموارنة في تدعيم علاقات الامير السياسية والاقتصادية بتلك البلدان[٥٤] .

واستفاد الموارنة بدورهم من سياسة فخر الدين هذه ، فساواهم بالرعايا المسلمين كما رأينا اعلاه ، وقوى مركزهم السياسي واستطاعوا بمساعدته الانتشار في اكثر من ثلثي لبنان الحالي اي في مناطق كالمتن والغرب والشوف وفي المدن الساحلية كصيدا وصور وعكا وفي السهول كالبقاع وعكار ومرجعيون[٥٥] . ولعل اصدق من عبّر عن هذه الحقائق الدويهي في تاريخه اذ قال : « وفي ايام فخر الدين ارتفعت رؤوس النصارى وعمروا الكنائس وركبوا الخيل ولفّوا شاشات بيضاء[٥٦] . وكرورا[٥٧] ، ولبسوا طومين[٥٨] وزنانير مسقطة وحملوا القسي والبنادق المجوهرة »[٥٩] . اما الدكتور حتي فيقول في « تاريخ لبنان » عن تسامح الامير فخر الدين : « كانت سياسة التسامح الديني (في عهد فخر الدين) عاملا في هجرة الموارنة من شماله الى جنوبه الذي كان

---

٥٣ ـ المرجع نفسه ، ص ٣٨ .

٥٤ ـ راجع المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٣٦٢ . ان الكثير من الاتصالات التي تمت بين الامير فخر الدين وبلدان اوروبا كانت عن طريق هؤلاء الاساقفة ومن هذه البعثات على سبيل المثال ، بعثة المطران جرجس مارون رئيس اساقفة قبرص الماروني .

٥٥ ـ يذكر الاب قرألي ان عددا من القرى المارونية في الجنوب اللبناني كان قد انشأها الامير فخر الدين لرد غزوات البدو عن تخوم ولايته ، ومن هذه القرى جديدة مرجعيون . والقليعة . واصل سكان هذه الاخيرة من العاقورة . راجع قرألي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٠ .

٥٦ ـ اي عمائم وكان لا يسمح للنصارى بلبسها بيضاء .

٥٧ ـ مناديل شاش .

٥٨ ـ لفظة تركية معناها سراويل واسعة .

٥٩ ـ راجع الدويهي ، المرجع السابق ، ص ٤٥٨ .

منطقة درزية صرفة . وكانت هذه المرة الاولى التي تجتمع فيها الطائفتان في منطقة واحدة وتعيشان بصفاء ومودة »[٦٠] .

اخلاص الامير ومحبته للعلم :

وليس التسامح الديني والعدل ومحبته للحرية والبناء الصفات الوحيدة لشخصية الامير فخر الدين بل اجمع المؤرخون على انه كان طموحا مقداما كريما مخلصا لحلفائه وعلى حد ما جاء في « تاريخ فخر الدين » لعيسى المعلوف : « كان - الامير - يبذل المال الكثير في سبيل تأييد مبدأه او تنفيذ امر له او لحلفائه غير مبال بما يعترضه من العوائق لجرأته الكبيرة وحصافة عقله وطموحه الى العلياء وشغفه بوطنه[٦١] » .

وذكر مؤرخون آخرون انه كان في الوقت نفسه محبا للعلم والعلماء في عصر اتصف حكامه بالامية والجهل خاصة الشرقيين منهم . ودخل في بطانته عدد من الشعراء والكتاب والقضاة ، وقيل انه شجع احد الاباء الكبوشيين على انشاء مدرسة علمانية وتأسيس مطبعة تنشر كتبا باللغات الشرقية ، لكن وفاة الامير حالت دون تحقيق ذلك المشروع[٦٢] .

النهضة الدرزية :

هذه المنجزات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عمل على تحقيقها الامير المعني الكبير جعلته على الصعيد اللبناني في مصافي الحكام العظام واعتبره بعض المؤرخين اول من وضع حجر الاساس لكيان لبنان الحديث[٦٣] . وما يلفت الانتباه حقا في سياسة فخر الدين الداخلية والخارجية سعيه الدائم لبناء جبهة داخلية قادرة على الوقوف في وجه اي خطر خارجي . فسياسة التسامح والتحالف التي اتبعها في الداخل ساعدته على تحقيق تلك الوحدة الوطنية من غير ظلم او محاباة . وبدل ان

---

٦٠ - حتي - المرجع السابق ص ٤٥٨ .

٦١ - المعلوف ، المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .

٦٢ - المرجع نفسه ، ص ٣١٠ .

٦٣ - كمال الصليبي ، « فخر الدين الثاني والفكرة اللبنانية ، » في ابعاد القومية اللبنانية محاضرات الكسليك (الكسليك ، جونية ١٩٧٠) ص ١١٠ - ١١١ . كذلك . قرألي ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .

يفسح المجال امام الولاة العثمانيين للتلاعب بمصير بلده وبعثرة قواه الداخلية كما فعل الامير بشير الشهابي الثاني فيما بعد ، نرى الامير فخر الدين الثاني قادرا على الوقوف بحزم في وجه الولاة العثمانيين لا بل استطاع في بعض الاحيان ان يخضعهم لنفوذه السياسي . وليس في تاريخ فخر الدين ما يظهر انه كان يعمل على استبدال سلطة العثمانيين بسلطة اجنبية اوربية او غير اوربية كما حاول ان يظهر ذلك بعض المؤرخين من ذوي الميول العثمانية ، بل ان الوقائع تظهر ان تحالفاته الخارجية كانت تهدف لتعزيز قدرته السياسية والعسكرية من اجل الوقوف في وجه اعداء وطنه في الخارج .

اما على الصعيد الدرزي فقد مثل عهد الامير فخر الدين الثاني ذروة مجدهم السياسي والعسكري خلال فترة الحكم العثماني . وبلغت شهرة الدروز السياسية والعسكرية مختلف البلدان الاوروبية فضلا عن الباب العالي . واصبح يعرف جبل لبنان باسمهم « اي بلاد الدروز » كما كان امراء الجبل من المعنيين ثم من الشهابيين يعرفون رسميا بامراء الدروز[٦٤] .

الا ان الدروز لم يستغلوا تفوقهم السياسي هذا لبناء كيان سياسي خاص بهم ولا لاستغلال الفئات التي انضوت تحت لواء اميرهم ، بل كان عهد فخر الدين كما رأينا قدوة في التسامح والمساواة بين مختلف الفئات والطوائف في لبنان . وقد نعمت سائر المناطق اللبنانية خلال هذه الفترة بالطمأنينة والاستقرار والازدهار . وشهد الدروز بدورهم نهضة فكرية دينية تمثلت بظهور عدد من المؤلفين والفقهاء نذكر منهم الشيخ زين الدين عبد الغفار تقي الدين (ت : ٩٦٥ هـ/ ١٥٥٧م) ثم الشيخ محمد ابي هلال المعروف بالشيخ الفاضل (ت : ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠م) والشيخ محمد بن مالك الاشرفاني صاحب « عمدة العارفين » . وكما كان أثر الامير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي على الموحدين الدروز في عهد الامارة التنوخية كان اثر الشيخ الفاضل ابو هلال محمد في عهد الامارة المعنية . فقد أحيا الشيخ الفاضل طريقة الامير السيد في نظام السياسة الدينية وذلك بما خلفه من شروح وتفاسير .

---

٦٤ ـ راجع مثلا رسالة البابا بولس الخامس الى الامير فخر الدين المعني الثاني في كتاب عبد العزيز نوار ، وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث (جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٤) ص ٤٥ ـ ٤٧ كذلك نص الفرمان السلطاني لتعيين بشير الشهابي الثالث ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .

وباقتداء رجال الدين به اصبح الشيخ الفاضل مدرسة اخلاقية في الدين جعل الدروز يلتفون حوله ويرجعون الى فتاويه وتوضيحاته وتعاليمه . وبذلك ساهم الشيخ الفاضل بجمع كلمة الدروز في سائر انحاء بلاد الشام. وتعدى اثره الناحية الدينية الى الناحيتين السياسية والاجتماعية . ومما يدل على مكانة الشيخ الفاضل السياسية ، سعي والي دمشق احمد كجك باشا بعد هزيمة الامير فخر الدين الثاني سنة ١٠٤٣ هـ/ ١٦٣٣ م لاخذ الشيخ رهينة ظنا منه ان الدروز سيعملون على افتدائه فيستطيع الوالي اذ ذاك املاء شروطه على الدروز وابتزاز اموالهم . غير ان الشيخ الفاضل وقف في وجه هذه المحاولة وحرم على الدروز ان حدث ذلك ان يحاولوا افتداءه بشيء الامر الذي جعل الوالي ينصرف عن هذه المحاولة[٦٥] .

نهاية الحكم المعني :

وبعد وفاة الامير فخر الدين الثاني الكبير شهد جبل لبنان فترة من النزاع السياسي . واحتدم الصراع على الحكم بين الامير ملحم المعني وبين الامير علي علم الدين اليمني . وينتسب الامير علي علم الدين بدوره الى التنوخيين الا ان الامير علم الدين الرمطوني تبرأ من التنوخيين القيسيين سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١م واصبح منذ ذلك الحين زعيم الحزب اليمني[٦٦] .

ويبدو ان الصراع على الحكم بين امراء الدروز قد اتخذ منذ ذلك الحين طابعا حزبيا بسبب النزاع المستمر بين القيسيين واليمنيين . ولعل الدروز قد ورثوا هذا الانقسام الحزبي القديم بين عرب الشمال (القيسيين) وعرب الجنوب (اليمنيين) منذ ان توطن اسلافهم بلاد الشام وذلك على الرغم من كون العائلات الدرزية العريقة تنتسب في معظمها الى عرب الجنوب اليمنيين[٦٧] .

وظهر هذا الانقسام الحزبي بين الدروز واضحا منذ بداية الحكم المعني في

٦٥ - لمزيد من التفاصيل عنهما ، راجع ، عجاج نويهض ، الامير جمال الدين عبد الله التنوخي والشيخ محمد ابو هلال المعروف بالشيخ الفاضل ، ص ٢٣٩ - ٢٩٦ .
كذلك سامي مكارم ، « ابو هلال محمد » ، « الشيخ الفاضل » دائرة المعارف الحديثة .
٦٦ - امين ال ناصر الدين ، « الامراء ال تنوخ » اوراق لبنانية ، ص ٣٧٠ ، كذلك الشدياق ، ج ١ ، ص ١٢٩ .
٦٧ - راجع مقال الامير شكيب ارسلان « عروبة آل معروف » مجلة المجمع العلمي العربي ، م ١١ (تموز - آب ١٩٣١) ص ٤٤٩ - ٤٦٣ .

لبنان . ففي الوقت الذي كان فيه الامراء المعنيون في سدة الحكم ويمثلون الحزب القيسي ، كان الامـراء التنـوخيون من آل علـم الـدين اليمنيين يقفـون في صف المعارضة . وغدا هذا التعصب الحزبي (قيسي او يمني) اقوى من الروابط الاخرى التي تجمع بين الدروز سياسيا . وشمل هذا الانقسام الحزبي سائـر الطـوائف في لبنان . وكثيرا ما كان هذا الصراع الحزبي يؤدي الى نوع من النزاع الداخلي ، خاصة عندما كان زعيم كل حزب يستنجد باحد الولاة العثمانيين ، فقد ينقلب النزاع عند ذاك إلى حرب أهلية توقع الكثير من الخراب والدمار .

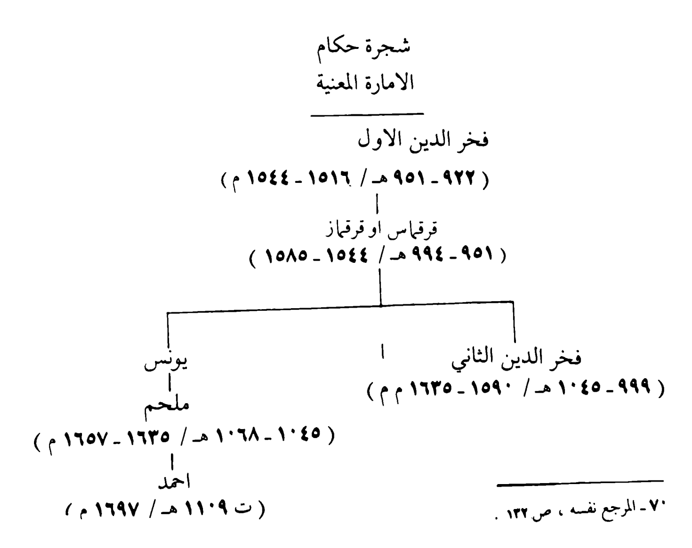
وظل الصراع قائماً بين الحزبيين حتى أوائل القرن الثاني عشر للهجرة أو الثامن عشر للميلاد اذ حسم هذا الصراع لصالح الحزب القيسي في موقعة عين دارا الشهيرة سنة (**١١٢٢** هـ/ **١٧١٠**م) .وسبق هذه المعركة الحاسمة عدة مواقع بين الحزب القيسي بزعامة الامير ملحم ثم الامير احمد المعني وبين الامير علي علم الدين زعيم الحزب اليمني . وكانت اولى هذه المعارك معركة ارض القيراط بالقرب من مجدل المعوش سنة **١٠٤٥**هـ/ **١٦٣٥**م حيث اضطر الامـير علي علـم الـدين الى التخلي عن ولاية الشوف[٦٨] . وحاول الامير علي الرجوع الى ولاية الشوف ولكن الامير ملحم وقف له بالمرصاد ، واستنجد الامير اليمني ببشير باشا والي دمشق لاسترجاع تلك الولاية واصحبه بالعساكر الا ان الامـير ملحماً تصـدى له بمساعـدة حلفائـه من الامـراء الشهابيين في وادي القرن واجبر الامير علي علم الدين على الانكفاء الى دمشق[٦٩] .

ولم يتوقف ذلك الصراع السياسي بين الحزبـين القيسي واليمنـي حتـى نهـاية الحكم المعني في لبنان . غير ان كفة الصراع كانت تميل بشكل عام لصالح الحزب القيسي حتى ان الحزب اليمني لم يستطع الوصول الى الحكم الا لفترات قصيرة ، منها سنة **١٠٧٣** هـ/ **١٦٦٢**م وذلك عندما ولى محمد باشا والي صيدا الامير محمد بن علي علم الدين مع الشيخ ابي علوان على ولاية الشوف وتوابعها . ولكن الامير احمد المعني ابن الامير ملحم لم يبق بعيدا عن السلطة لمدة طويلة ، فما ان عزل محمد باشا عن اياله صيدا سنة **١٠٧٥** هـ/ **١٦٦٤**م حتى ثار ضد الامير اليمني واستنهض الحزب

٦٨ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ص ٣٧٢ .
٦٩ ـ المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

القيسي في قتال دام نحو سنتين كان النصر فيه حليف الامير القيسْي . واشهر المعارك في حرب السنتين هذه كانت موقعة الغلغول عند برج بيروت التي انهزم فيها الحزب اليمني واضطر زعماؤه من آل علم الدين للفرار الى دمشق[٧٠] . وبفضل هذه القوة السياسية التي ابداها الحزب القيسي في لبنان لم يستطع الامير موسى علم الدين اليمني البقاء في السلطة الا بمساعدة احد الولاة العثمانيين من الخارج ، وما ان يتخلى الوالي العثماني (والي دمشق او صيدا عادة) عن دعم الامير اليمني الحاكم حتى يضطر الاخير الى ترك السلطة بسبب الضغط السياسي الذي كان يمارسه الحزب القيسي في الداخل .

غير ان هذا الانقسام الحزبي الذي بلغ ذروته في اواخر الحكم المعني كان قد انهك الامارة المعنية وتركها عرضة لتدخل الولاة العثمانيين . اما على صعيد الدروز فقد بلغ تعصب القيسيين منهم حدا تخلوا فيه عن تأييد الامير موسى علم الدين التنوخي اليمني مما ساعد على انتقال الحكم من المعنيين الدروز الى الشهابيين كما سنرى في الفصل التالي .



٧٠ - المرجع نفسه ، ص ١٣٢ .

الفصل السادس
الموحدون الدروز في عهد الامارة الشهابية

انتقال الحكم من المعنيين الدروز الى الشهابيين :

توفي الامير احمد المعني سنة ١١٠٩ هـ / ١٦٩٧ م بلا عقب فانقطعت به سلالة الامراء المعنيين الدروز* . وتذكر بعض المصادر ان اعيان الامارة اللبنانية اجتمعوا في مرج السمقانية قرب بعقلين للنظر في من سيخلف الامير احمد المعني ، فاختاروا الامير بشير شهاب خلفا له . الا ان الباب العالي وباشارة من الامير حسين المعني المنفي في الاستانة اصرّ على اسناد هذا المنصب للامير حيدر شهاب ابن بنت الامير احمد والذي كان لا يزال قاصرا . لذلك جرى الاتفاق كما هو معروف ، على ابقاء الامير بشير حاكما بالنيابة الى ان يبلغ الامير حيدر سن الرشد .[١]

ولا تذكر المصادر المعروفة اسماء الذين انتخبوا الامير الشهابي من اعيان الدروز ولكن هذه المصادر تذكر ان اتباع الحزب اليمني عارضوا هذا الاتفاق فيما ايده القيسيون الدروز[٢] . وهكذا انتقل الحكم في لبنان من الامراء المعنيين الدروز الى حلفائهم الامراء الشهابيين بتأييد من زعماء الدروز القيسيين . والواقع ان الانقسام الحزبي ـ القيسي واليمني ـ تجاوز يومذاك الحدود المذهبية والعشائرية بين مختلف الطوائف في لبنان . ولعله يمكن القول انه بزوال الامارة المعنية خسر الدروز عن طريق الانقسام الحزبي المنصب الاول في حكم الامارة اللبنانية بعد ان استأثروا به اكثر من سبعة قرون متواصلة . ويبدو ان انتقال الحكم في لبنان من الامراء المعنيين الدروز الى الامراء الشهابيين الذين كانوا في معظمهم على مذهب السنة . وبتأييد

* هنالك من يرى عكس ذلك ، راجع الحاشية رقم ٨٠ في آخر الفصل .

١ ـ حيدر شهاب : تاريخ الامراء الشهابيين ، ص : ٣ ـ ٤ . كان الامير حسين اصغر اولاد الامير فخر الدين الثاني ، قد نجا من القتل وخدم في الباب العالي كحاجب ثم اصبح سفيرا للدولة العثمانية في الهند .

٢ ـ الشدياق : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥

من مختلف زعماء الدروز القيسيين ، لم يلق اعتراضا من الدروز على اساس مذهبي اذ ليس في المصادر المتوفرة ما يشير الى ذلك . بل يبدو ان قبول الدروز بامير شهابي غير درزي ينسجم مع موقفهم التقليدي يومذاك والمؤيد لسياسة الدولة العثمانية وقد كان الباب العالي لا يعترف عادة الا بحاكم مسلم في منصب الولاية دون الالتفات الى مذهبه . ويستنتج من موقف الدروز السياسي هذا انهم قلما تقيدوا بالاعتبارات المذهبية الطائفية بل ان موقفهم هذا نابع من مفهوم سياسي متأصل في التراث العربي وهو الانقسام التقليدي بين العرب الى قيسيين ويمنيين . ولعل هذا الانقسام التقليدي الى حزبين قيسي ويمني كان اشد اثرا من الانتماء المذهبي عند الدروز . ولهذا فضل الدروز القيسيون اميرا قيسيا غير درزي على ان يحكمهم امير درزي يمني . وقد يكون هذا هو السبب في تفضيلهم الامراء الشهابيين القيسي النزعة على امراء آل علم الدين اليمني الغرض . وظل التنافس قائما بين الحزبين القيسي بزعامة الامراء الشهابيين واليمني بزعامة امراء آل علم الدين حتى موقعة عين دارا الفاصلة سنة **١١٢٢ هـ / ١٧١٠** م . وهذا يعني ان تصنيف العائلات الدرزية وغير الدرزية على اساس حزبي اي قيسي ويمني بقي طوال هذه الفترة من غير تعديل او تبديل . بل ان بعض العائلات كانت تنحاز تارة الى هذا الحزب وطورا الى ذاك تبعا لمصالحها السياسية خاصة عندما كان احد الولاة العثمانيين يتدخل لصالح هذا الحزب او ذاك حسب مصالحه الشخصية . وهذا ما حدث في عهد الامير حيدر الشهابي مثلا بسبب تدخل والي صيدا .

محمود ابو هرموش يحاول استرجاع المنصب الاول للدروز :

وكان تدخل الولاة العثمانيين المباشر بشؤون الامارة الشهابية قد اصبح امرا مألوفا في هذه الفترة ففي بداية حكم الامير حيدر سلخ بشير باشا والي صيدا المقاطعات الجنوبية عن الامارة الشهابية . ومما شجعه على ذلك ان اصحاب تلك المقاطعات من آل علي الصغير وآل منكر وآل صعب الشيعه كانوا من اتباع الحزب اليمني ومن خصوم الامير حيدر[٣] . غير ان الامير حيدراً لم يعدم وسيلة الا واتخذها لاسترجاع ذلك الاقليم ونجح في اعادة مقاطعة بلاد بشارة بعد ان نقد والي صيدا

---

٣ ـ المرجع نفسه : ص ١٨

مبلغا من المال مقابل ذلك . وتذكر المصادر ان الامير حيدرا عين الشيخ محمود ابي هرموش ، وهو من اعيان الدروز نائبا له على تلك المقاطعة . ولكننا لا نعلم هل كان الشيخ ابو هرموش ينتمي انذاك للحزب القيسي أم للحزب اليمني ، بيد ان الشيخ ابا هرموش كان على ما يبدو يطمح لاستعادة المنصب الاول في الامارة اللبنانية للحزب اليمني بزعامة الدروز . وما العلاقات الوثيقة التي اقامها الشيخ ابو هرموش مع والي صيدا إلا احد الادلة على وجود مثل هذه النية لدى الشيخ المذكور . وتنبّه الامير حيدر الشهابي لهذا الخطر الجديد الذي قد يهدّد حكم الشهابيين بالزوال ، فعمل للتخلص من الشيخ ابي هرموش في الحال متهما اياه بالظلم والاستغلال في مقاطعته . ولكن الشيخ ابا هرموش لجأ الى حماية صديقه والي صيدا وطلب منه بالاضافة الى ذلك منحه لقب الباشويه للوقوف في وجه الامير حيدر وللاستقلال عنه في مقاطعته . وتجدر الاشارة في هذا المجال الى السكوت الذي تتعمده المصادر التي بين ايدينا عن ذكر اية خطوات اتخذها الحزب اليمني لاستعادة المنصب الاول في الامارة اللبنانية . ذلك ان هذه المصادر يحدوها ميل خفي واحيانا ظاهر للحزب القيسي أو للحكم الشهابي ، فلم تنصف الحزب اليمني لا من حيث وفرة المعلومات عن هذا الحدث ولا من حيث حيادها . ولا يستطيع المحقق في هذا الموضوع ان يتجاهل حقيقة كون الحزب اليمني كان لا يزال قوة سياسية كبرى تنافس الحزب القيسي على السلطة . وبالتالي فان نجاح هذا الحزب في الوصول الى حكم البلاد من جديد سنة **١١٢٢** هـ / **١٧١٠** م يدل على ان الحكم الشهابي لم يكن يحظى فعلا بتأييد جميع الدروز كما درج على الاخذ به مؤرخو الامارة الشهابية .[٤]

بيد ان نجاح الحزب اليمني في الوصول الى الحكم أي بعد ان عين والي صيدا الامير يوسف ارسلان اليمني ثم الامير يوسف علم الدين حاكما على ولاية بلاد الدروز (الامارة اللبنانية) يعني ان الدروز استطاعوا استرجاع المنصب الاول في لبنان بعد ان تنازلوا عنه اثر وفاة الامير احمد المعني عام **١١٠٩** هـ / **١٦٩٧**م[٥] .وقام محمود باشا ابو هرموش بدور اساسي في هذا الانقلاب السياسي ضد الشهابيين

---

٤ ـ ونذكر من هذا النبيل ، تاريخ الامير حيدر شهاب ، الغرد الحسان ، وسائر المؤرخين الذين اخذوا عنه كطنوس الشدياق .

٥ ـ الشدياق : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٨

وعمل جاهدا لتثبيت سلطة الحاكم اليمني الجديد مستعينا بقوات والي صيدا . ولكن الحزب القيسي لم يقبل بهذا الانقلاب الجديد الا مؤقتا واستعد لأخذ الثأر فكان له ما اراد بعد انتصاره في موقعة عين دارا الشهيرة **١١٢٢** هـ / **١٧١٠** م فكانت تلك الحادثة سببا في اضعاف قوة الدروز السياسية وخسارتهم للمنصب الاول في الامارة اللبنانية .

موقعة عين دارا (١١٢٢هـ / ١٧١٠ م) :

وبلغ الامير حيدر الشهابي قدوم الحاكم اليمني لتسلم الحكم في دير القمر فاضطر الى الانسحاب منها ومعه ولداه أحمد وملحم وجماعة من رجال الاقطاع الدروز المؤيدين له كالشيخ قبلان القاضي (التنوخي) والشيخ علي نكد والشيخ جنبلاط عبد الملك والشيخ محمد تلحوق وولده الشيخ شاهين فيما بقي بعض الموالين له في الشوف . ولما وصل محمود باشا ابي هرموش مع هذه القوات الى دير القمر وعرف بفرار الامير حيدر الى غزير بعث يستدعي من تبقى من امراء آل علم الدين في دمشق ووجه تلك القوات الى نواحي غزير لمطاردة الامير حيدر من مقاطعة كسروان . وبعد قتال عنيف في غزير اضطر الامير حيدر ومن كانوا برفقته للفرار الى الهرمل حيث اختبأوا في مغارة فاطمة بينما دخلت قوات الباشا بلدة غزير في اليوم التالي وهدمت بيوتها .[٦]

وتذكر بعض المصادر ان الامير حيدراً بقي متخفيا في تلك المغارة ما يقارب سنة ولكنه بقي على اتصال باعوانه من القيسيين يتحين الفرص للانقضاض على خصمه السياسي محمود باشا ابي هرموش . ويبدو ان الحاكم الجديد محمود ابي هرموش لم ينجح في استمالة بعض اعيان القيسية لدعمه في الحكم الى جانب الحزب بل ان بعض المصادر تتهم الحاكم المذكور بانه اتبع سياسة ظالمة ضد زعماء القيسيين مما دفع هؤلاء الاخيرين لاستدعاء الامير حيدر الشهابي للرجوع الى الولاية .[٧] واستغل الامير حيدر هذه الفرصة للرجوع الى المتن ونزل عند المقدم حسين ابي اللمع في قرية

---

٦ ـ شهاب : المصدر السابق ، ص ١٠ ـ ١١

٧ ـ اذا كان ما تروبه هذه المصادر صحيحا فاننا لا نعلم هل ان ظلم محمود باشا للقيسيين كان نتيجة لعدم دعمهم اياه في الحكم ام كان سببا لذلك .

الراس واستدعي من هناك اعوانه القيسيين فحضر بعضهم اليه . وكان من بين الذين حضروا اليه من اعيان الدروز القيسيين ، المقدم عبد الله ابو اللمع والشيخان سيد احمد وسرحال العماد . وارتاب محمود باشا ابي هرموش من تحرك خصمه الامير حيدر وقرر التصدي له بالقوة . واستدعى لهذه الغاية امراء آل علم الدين اليمنيين السبعة الذين كانوا يقيمون في الشام واستنفر باقي رجالهم واعوانهم اليمنيين . كما طلب من بشيرباشاوالي صيدانجدةعسكريةومن نصوح باشاوالي الشام جيشامساندا لقواته . ولبّى هؤلاء جميعا طلب محمود باشا ، فتقدم والي صيدا على رأس قواته الى حرش بيروت فيما رابطت العساكر التي جاء بها والي الشام في قب الياس . أما **محمود** باشا وحلفاؤه الامراء آل علم الدين فقد تقدموا مع رجالهم اليمنيين الى قرية **عين دارا**. وكانت الخطة العسكرية تقضي بتقدم هذه القوات للقضاء على رجال الامير حيدر في يوم واحد . [٨] ودقت ساعة الحسم العسكري بعدما التف القيسيون حول الامير حيدر وقرروا مفاجأة رجال الحزب اليمني قبل ان تصل جنود والي صيدا ووالي دمشق لتنفيذ الخطة العسكرية المذكورة . وداهم القيسيون بقيادة الامير حيدر اليمنيين في قرية عين دارا اثناء الليل وجرت معركة طاحنة بين الفريقين كان النصر فيها حليف القيسيين وذلك في حدود سنة **١٢٢** هـ / **١٧١٠** م . واذ بلغ كل من نصوح باشا والي دمشق وبشير باشا والي صيدا بنتيجة المعركة في عين دارا تراجعا الى مقريهما تاركين زعماء اليمنية اسرى في قبضة القيسيين . وكان قد سقط بين القتلى ثلاثة من امراء آل علم الدين وقبض الامير حيدر على الباقي منهم وهم اربعة كما وقع **محمود باشا ابو هرموش نفسه في الاسر . ولم يلق هؤلاء الاسرى اية رحمة من حيدر الشهابي بل امر بقطع رؤوس الامراء الاربعة الباقين من آل علم الدين فانقطعت بهم سلالتهم[٩] . أما محمود باشا ابي هرموش حاكم الولاية فلم يلق المصير نفسه بل اكتفى بقطع لسانه وابهاميه وذلك احتراما لمركزه السابق كوال على البلاد من قبل**

---

٨ ـ الشدياق : المرجع السابق ، ج ٢ص ٢٠ وشهاب ، المصدر السابق . ص ١٢ .

٩ ـ هنالك خلاف واضح بين المؤرخين حول ما آل اليه آل علم الدين بعد معركة عين داره ، فمن المؤرخين من يذكر ان ذريتهم انقطعت بهؤلاء الامراء الاربعة ، ومنهم من يزعم ان قسما من آل علم الدين نجا من القتل وفر الى مكان بعيد هربا من نقمة الامير حيدر فاستقر بعضهم في بلدة الخيام وعرفوا هناك باسرة آل عبد الله وهي اسرة شيعية كبيرة لا تزال حتى يومنا هذا . راجع ، الامراء آل تنوخ ، **مجلة اوراق لبنانية** (ايلول ١٩٥٧) م ٣ ، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .

الدولة العثمانية وجريا على عادة الولاة انذاك التي لا تسمح باصدار حكم الاعدام على الامير الحاكم [١٠] .

كانت معركة عين دارا التي وقعت بين القيسية واليمنية معركة فاصلة سواء على المستوى العسكري أم على المستوى السياسي . فعلى المستوى العسكري حسم الصراع نهائيا لصالح الحزب القيسي ، اما على الصعيد السياسي فقد استأثر الحزب القيسي بالسلطة دون منازع في لبنان لمدة طويلة . واستقر الحكم نهائيا في ايدي الشهابيين السنة ولم يستطع منذ ذالك الحين احد من زعماء الدروز الوصول الى قمة السلطة في لبنان . وكان الامير حيدر قد كافأ حلفاءه في المعركة وجلهم من اعيان الحزب القيسي الدروز ووزع الاقطاع عليهم من جديد بحيث نال اللمعيون الدروز حصة الاسد تقديرا لجهودهم في القتال . وكان من بين الذين كوفئوا من اعيان الدروز الشيخ قبلان القاضي اذ اقطع اقليم جزين والشيخ علي النكدي الذي اقطع المناصف ، والشيخ جنبلاط عبد الملك الذي اقطع منطقة الجرد . أما الشيخان محمد تلحوق واخوه بشير فقد اقطعا منطقة الغرب الاعلى بعد ان سلخت هذه المقاطعة عن اقطاع الامير يوسف الارسلاني أحد زعماء الحزب اليمني[١١] . ذلك ان الامير ارسلان مع ميله لمحمود ابي هرموش فقد وقف على الحياد ابان القتال في المعركة مما حدا بالامير حيدر الى اضعاف سطوته دون القضاء عليه كسائر زعماء الحزب اليمني[١٢] .

الا ان القضاء على الحزب اليمني في موقعة عين دارا ترك الدروز اضعف سياسيا مما كانوا عليه قبل المعركة [١٣] . وفوق هذا كله اجبر عدد كبير من اتباع الحزب اليمني الدروز على الرحيل والهجرة الى جبل حوران ليبدأوا هناك حياة جديدة ويكتبوا صفحة مميزة في تاريخ تلك المنطقة كما سنرى فيما بعد .

عهد الامير ملحم الشهابي :

استقرت الاوضاع في عهد الامير حيدر اثر معركة عين دارا الشهيرة . ولم يقع

---

١٠ ـ الشدياق : ج ٢ ، ص ٣١

١١ ـ المرجع نفسه : ص ٢١

١٢ ـ حيدر ، المصدر السابق ، ص ١٤

١٣ ـ راجع كمال الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث (دار النهار للنشر ، ١٩٧٨) ص ٣٦

بعد تلك المعركة اية حادثة من شأنها ان تهدد سلطان الحزب القيسي او حق الامراء الشهابيين بالولاية في جبل لبنان . وتذكر مختلف المصادر ان الامير حيدراً كان عادلا في حكمه مما افقد حجةمعارضيه في السلطة ولكنه كان حريصا على استدراك اي خطر يهدد حكمه قبل وقوعه[١٤] . وقبل وفاته بقليل تسلم مقاليد الحكم الامير ملحم ، فاتبع الامير الجديد سياسة حازمة في الداخل والخارج . واشتهر امر الامير ملحم في القتال ضد بعض اعيان الشيعة في جبل عامل خلال هذه الفترة . وكان جبل عامل منذ الفتح العثماني تابعا في اكثر الاحيان للامارة المعنية . وكان العامليون من حلفاء الامير فخر الدين الكبير ووقفوا الى جانبه في عدة مواقع ضد آل سيفا كما اشتركوا معه في موقعة عنجر الشهيرة . وبعد انشاء ولاية صيدا (١٠٧١ هـ / ١٦٦٠ م) اصبح جبل عامل تابعا لهذه الولاية . غير ان اعيان الشيعة حاولوا الاستقلال بمناطقهم في نهاية الحكم المعني وخلال العهد الشهابي . وكثيرا ما ثار الشيعة في جبل عامل ضد والي صيدا مما حدا بالوالي للاستعانة بالامراء الشهابيين لاخضاعهم . وبسبب رغبة الامراء الشهابيين بضم جبل عامل لولايتهم لبوا طلب الوالي لقتال الشيعة في الجنوب . وكان الامير حيدر الشهابي قد نجح بالسيطرة على هذه المنطقة بعد انتصاره على الشيعة سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م . وفي عهد الامير ملحم تجدّد النزاع بين والي صيدا وزعماء جبل عامل من آل علي الصغير والمناكرة فاوعز والي صيدا للامير ملحم الشهابي بقتالهم . فانتصر عليهم في موقعة انصار سنة ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م واسر اربعة من مشايخ آل منكر . الا ان الشيخ علي جنبلاط توسط لدى الامير ملحم لاطلاق سراح هؤلاء فاطلق سراحهم[١٥] . واستطاع الامير ملحم فيما بعد ان يضم مقاطعة جبل عامل الى ولايته . واستولى الاقطاعيون الدروز على اقليم التفاح واستقدموا لتعمير ذلك الاقليم فلاحين من الطوائف المسيحية اخذوا يستثمرون تلك الاراضي مقابل حصة من غلتها[١٦] . ثم تجدد النزاع بين الشيعة في منطقة جزين ودروز القرى المجاورة اثر مقتل رجلين من اتباع الشيخ علي جنبلاط سنة ١١٦٥ هـ /

---

١٤ - حيدر ، المصدر السابق ، ص ١٧ - ١٨

١٥ - المصدر نفسه ، ص ٣١ - ٣٢

١٦ - راجع اسماء الذين تملكوا اراضي اقليم التفاح :
يوسف ابو شقرا ، الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية (تحقيق عارف ابو شقرا ، بيروت ، ١٩٥٢) . ص ١٥٧ - ١٥٩ .

١٧٥٠ م الامر الذي دفع الامير ملحم الشهابي لتجريد حملة تأديبية على بلدة جباع الحلاوي[١٧] .

اليزبكية والجنبلاطية :

ومن الاحداث السياسية البارزة التي جرت على الصعيد الدرزي خلال هذه الفترة ، انقسام الدروز الى حزبين جديدين هما الفئة اليزبكية والفئة الجنبلاطية . كان زعماء الحزب اليزبكي من بني عماد . اما زعماء الحزب الجنبلاطي فكانوا من آل جنبلاط[١٨] .

ويلاحظ هنا ان زعماء الحزبين كانوا من الدروز . ذلك ان هذا الانقسام بدأ في صفوف الدروز ثم شمل فيما بعد سائر رجال الاقطاع على اختلاف درجاتهم ومذاهبهم باستثناء مشايخ النكدية الدروز . ولا ندري ما هي الاسباب الحقيقية وراء هذا الانقسام السياسي الجديد بين الدروز وسائر الطوائف في لبنان الا ان بعض المصادر تذكر ان هذا الانقسام وقع اثر مناظرة (مشا-حنة) كلامية جرت بين الشيخين عبد السلام العماد وعلي جنبلاط وكلاهما كانا من ابرز زعماء الدروز في القرن الثامن عشر للميلاد[١٩] . فعائلة الشيخ عبد السلام العماد قدمت من الجبل الاعلى بجوار حلب الى منطقة العرقوب في العهد المعني . واشتهر امر الشيخ سرحال العماد في القرن السابع عشر للميلاد اوالحادي عشر للهجرة اذ تولى مقاطعة الشوف بدل الامير احمد المعني واخيه الامير قرقماز سنة ١٠٧١ هـ/ ١٦٦٠ م وظل واليا حتى عام ١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٤ م اي الى ان استعاد الامير احمد المعني كرسي حكمه[٢٠] . كما اشتهر امر الشيخ سيد احمد ابو عذرا في موقعة عين دارا .

اما الشيخ علي جنبلاط فهو سليل عائلة درزية اخرى مثلت دورا مهما في تاريخ ولاية حلب قبل قدوم بعض افرادها الى لبنان . وقد تعاقب على حكم ولاية حلب في

١٧ ـ الشدياق ، ج ٢ ، ص ٢٩

١٨ ـ يختلف المؤرخون حول اصل تسمية يزبكي ، ومنهم من يردها الى يزبك زعيم آل عماد الذي قتله الشيخ علي جنبلاط عندما كانا في خدمة الامير فخر الدين في صيدا سنة ١٦١٢ (راجع فيليب حتي ، **لبنان في التاريخ** ، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ ، وكذلك فيليب وفريد الخازن ، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ١٨١٠ ـ ١٨٤٠ (مطبعة الصبر ١٩١٠ ـ) ج ١ ، ص ١١٢ .

١٩ ـ شهاب ، المصدر السابق ، ص ٤٩ ـ ٥٠ والشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

٢٠ ـ المرجع نفسه ، ص ١٧٦

القرن السادس عشر للميلاد عدد من زعماء آل جنبلاط منهم حسين الذي لقب بامير الامراء ثم ابن اخيه علي باشا جنبلاط الذي تحالف مع الامير فخر الدين المعني ضد يوسف باشا سيفا(٢١) . وقد تجسد هذا التحالف المعني الجنبلاطي ايضاً بموقفهما المتشابه تجاه السلطان العثماني، فكلاهما (فخر الدين وعلي باشا جنبلاط) كان يعمل على استقلال بلاد الشام عن الدولة العثمانية . وأقام كلاهما علاقات سياسية وعسكرية مع بعض الدول المعادية انذاك للعثمانيين ٢٢ . ولكن السلطان العثماني عمد الى القضاء على الزعيمين واضطر علي باشا جنبلاط للتخلي عن ولاية حلب امام ضغط القوات العثمانية سنة ١٠١٦ هـ / ١٦٠٧م .وتشتتت شمل الجنبلاطيين بعد هذه النكبة وحضر احدهم جنبلاط وولده رباح الى لبنان لما كان بينه وبين المعنيين من تحالف ومودة٢٣ . وتذكر المصادر ان الامير فخر الدين دعا جنبلاط وولده للاقامة في الشوف فنزل في مزرعة الشوف . وكان الامير فخر الدين يعتمد عليه ويكلفه ببعض المهمات القتالية . أما حفيده الشيخ علي جنبلاط فيعتبر المؤسس الحقيقي للزعامة الجنبلاطية في لبنان . وكان الشيخ علي قد اقترن بابنه الشيخ قبلان القاضي التنوخي كبير مشايخ الشوف مما يدل على علو مقام الشيخ الجنبلاطي . ولما توفي الشيخ قبلان القاضي سنة ١١٢٤ هـ / ١٧١٢ م ولم يترك عقباً ؛ اتفق اعيان الشوف على توليه الشيخ علي جنبلاط مكانه فولاه الامير حيدر الشهابي على تلك المقاطعات مقابل مبلغ من المال . وتجمع مختلف المصادر على ان الشيخ عليا اتبع سياسة الرحمة والعدل والتسامح تجاه رعاياه من مختلف الطوائف . وهو الذي وهب رئيس رهبان الروم الكاثوليك ارضا من املاكه في اقليم الخروب لبناء دير المخلص كما انعم على رهبانه بعدة عقارات لتأمين معيشتهم٢٤ . وقوى شأن الشيخ علي جنبلاط والتف الناس حوله من جميع الطوائف على حد قول المؤرخ طنوس الشدياق ولهذا لم يكن من المستغرب ان يتحزب له الناس ويصبح في اواسط (القرن الثامن عشر للميلاد) زعيم فئة كبيرة في لبنان هي الفئة الجنبلاطية مقابل الفئة اليزبكية . ويبقى السؤال واردا عن السبب

٢١ - راجع محمد الامين بن فضل المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (القاهرة ، المطبعة الوهبية ، ١٢٨٤ هـ) ج ٢ ، ص ٨٤ - ٨٧ وج ٣ ص ١٣٥ - ١٤٠ .

٢٢ - بولس قرأ لي « علي باشا جنبلاط والي حلب » المجلة البطريركية (كانون ٢ ١٩٣٦) ص ٨٩ .

٢٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٠ - ٢٣

٢٤ - الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥١

الحقيقي لانشقاق الحزب القيسي الحاكم الى هاتين الفئتين . والواقع ان الانشقاق السياسي في الحزب الحاكم كثيرا ما كان يحدث بشكل تلقائي عندما يقع خلاف حول بعض القضايا بين الامير الحاكم والاعيان ، خاصة اذا ظهر بين هؤلاء الاعيان زعماء اقوياء كالشيخ علي جنبلاط وعبد السلام عماد مما يهدد سلطة الامير الحاكم ويؤدى الى ظهور قوى سياسية منافسة له . والواقع ان وجود هاتين الفئتين اي اليزبكية والجنبلاطية لا يعني بالضرورة اضعافا للامير الشهابي الحاكم اذ كثيرا ما كان يلجأ الحاكم في مثل هذه الحالة الى سياسة ضرب هاتين الفئتين بعضهما ببعض بقصد اضعافهما سياسيا وبالتالي تقوية لمركزه . ويبدو ان سياسة الامير ملحم تجاه الحزبين اليزبكي والجنبلاطي لم تكن بعيدة عن هذا الاتجاه اذ كان في بعض الاحيان يؤيد فئة ضد اخرى او يقف على الحياد تبعا لمصلحته الشخصية لتبقى بيده السلطة العليا في الحكم . وما جاء في بعض المصادر التاريخية يؤيد هذا الاستنتاج وقد وصف المؤرخ حيدر شهاب الامير ملحم انه « كان عادلا وقاتلا لا يصفح عن ذنب احد بغير قصاص بقدر الذنب . . (وانه) رمى الفتن بين مشايخ البلاد »[٢٥] .

ومع كون هذا الانقسام السياسي لم يقتصر على طائفة الدروز بل تعداه الى سائر الطوائف في امارة الجبل فان الانقسام الى جنبلاطي ويزبكي كثيرا ما اضعف موقف الدروز السياسي تجاه الامير الحاكم . ومما يسترعي الانتباه حقا رسوخ هذا الانقسام التقليدي بين الدروز حتى اليوم وذلك على الرغم من استغلاله في معظم الاحيان لاضعاف مركز الدروز السياسي . وبالفعل اخذ مركز الدروز يضعف تدريجيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي لصالح الموارنة . ومن اسباب ذلك تسرب عدد من الموارنة الى المناطق الدرزية ونزوح الكثيرين من الروم الكاثوليك من داخل بلاد الشام الى لبنان حيث كان هؤلاء يستوطنون في القرى الدرزية بحرية ويلقون تسامحا كبيرا . وكان ازدياد عدد النصارى هذا في المناطق الدرزية ان عدل الوضع السياسي لغير صالح الدروز . وبرز هذا التغيير واضحا عندما اخذ بعض الامراء الشهابيين يعتنقون المسيحية على المذهب الماروني تماشيا مع هذا التغيير السياسي . ويذهب بعض المؤرخين المعاصرين كالدكتور كمال صليبي الى اعتبار حادث تنصر ابناء الامير ملحم سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦ م وتولى الامارة ابنه الامير يوسف شهاب

---

٢٥ - شهاب ، المصدر السابق ، ص ٢٨

الماروني ١١٨٤ هـ - ١٧٧٠ م بداية لأفول نجم الدروز السياسي في لبنان[٣٦] .

الا ان هذا الخلل في الميزان السياسي الماروني الدرزي لم يلغ الدور الاساسي الذي كان يمثله الدروز من خلال الاحزاب الثلاثة اليزبكية والجنبلاطية والنكدية في تسيير دفة الحكم . حتى ان الامير الحاكم لم يستطع في غالب الاحيان الاستمرار في مركزه ما لم يعتمد على تأييد احدى هذه الفئات الحزبية له . وكان يكفي عادة ان يقف الحزبان الرئيسيان اي (اليزبكي والجنبلاطي) ضد الامير الشهابي الحاكم لاجباره على التخلي عن السلطة او للرضوخ الى مطالب زعماء الحزبين . الا ان الامير الحاكم كثيرا ماكان يلجأ الى التفرقة بين الحزبين من اجل دعم مركزه السياسي في البلاد وان لم يستطع ذلك فقد يلجأ الى دعم خارجي من والي صيدا او والي دمشق عادة . وهذا ما حدث فعلا بعد انقضاء عهد الامير ملحم الذي تخلى سنة ١١٦٨ هـ / ١٧٥٤ م عن كرسي الحكم لاخويه احمد ومنصور بسبب المرض فانحاز الامير احمد للحزب اليزبكي والامير منصور الى الحزب الجنبلاطي . ولما تنازع الاخوان على الولاية سنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م واستنجد الامير منصور بوالي صيدا اضطر الحزب اليزبكي للتخلي عن دعم الامير احمد خوفا من الوالي فترك الامير منصور لوحده في الحكم . ولكن الامير منصورا لم يستطع الاستمرار في الحكم عندما تخلى عن تأييده الحزب الجنبلاطي الذي اتخذ موقعا مشابها للحزب اليزبكي في معارضته للامير منصور . ويبدو ان سبب تخلي الحزب الجنبلاطي عن دعم الامير منصور كان بسبب اختلاف موقف كل منهما تجاه ثورة محمد ابي الذهب ضد الدولة العثمانية ، ففي حين بادر الامير منصور لتأييد حركة ابي الذهب سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م فان الحزب الجنبلاطي وسائر الاعيان وقفوا الى جانب الوالي العثماني . وكان رأي الفريق الثاني ان ثورة ابي الذهب ضد السلطان العثماني لن تنجح في النهاية وانه لا بد للدولة العثمانية من الانتقام من مؤيدي تلك الثورة . وصدق حدس هؤلاء اذ فشلت تلك الثورة واضطر الامير منصور ان يدفع وحده ثمن موقفه المناهض للدولة العثمانية وذلك عبر تنازله عن كرسي الحكم للامير يوسف[٢٧] .

---

٢٦ - الصليبي ، المرجع السابق ، ص ٤٣

٢٧ - شهاب ، المصدر السابق ، ص ٥٩

الدروز في عهد الامير يوسف الشهابي :

كان الامير يوسف حاكما على مقاطعة جبيل اثناء حكم عمه الامير منصور ، ولكن الامير يوسف كان يعمل في الوقت ذاته للوصول الى منصب عمه . وخلال ثورة ابي الذهب وقف الامير يوسف الى جانب والي الشام المؤيد للدولة العثمانية اي اتخذ موقفا مناقضا لموقف عمه الامير منصور . ولما انجلى الوضع في بلاد الشام عن تراجع ابي الذهب انعم عليه والي الشام عثمان باشا الصادق الكرجي بحكم الامارة الشهابية مجبرا بذلك عمه على التنازل عن كرسي الحكم[٢٨] . اما في الداخل فقد مالت اليه الفئات السياسية الثلاث اي اليزبكية والجنبلاطية والنكدية بسبب موقفه المؤيد للدولة العثمانية وشكلت هذه الفئات مجتمعة قاعدة صلبة لسياسة الامير يوسف في بداية حكمه . ولكن بوادر الخلاف ما لبثت ان ظهرت بين هذه الفئات السياسية تجاه سياسة الامير الحاكم . اما اسباب هذا الخلاف فانها ترجع على الارجح لتلك المنافسة التقليدية على النفوذ والسلطة بين مختلف هذه الفئات وبين الامراء الشهابيين انفسهم .

وهكذا فان الحزب الجنبلاطي غدا في اكثر الاحيان على خلاف مع الحزب اليزبكي . وما ان يميل الامير يوسف لاحد الفريقين بغية تأمين مصلحته حتى يقف في وجهه الفريق الاخر . واما فئة النكدية فكانت عندما تميل الى احد الطرفين بغية تأمين مصالحها ترجح عادة كفة الفريق الذي تميل اليه[٢٩] . غير ان مشايخ النكدية وقفوا خلال هذه المرحلة الى جانب الامير يوسف . وفي المواقع التي جرت بين الامير يوسف والحمادية (مشايخ آل حمادة) الشيعة في منطقة جبيل سنة ١١٨٥ هـ / ١٧٧١ م ساهم مشايخ النكدية في القتال الى جانب الامير يوسف الشهابي كما اشتركوا معه في معركة النبطية ضد شيعة الجنوب في العام نفسه . وكان هؤلاء الشيعة قد اوقعوا الهزيمة برجال الامير يوسف بعد ان رفض الشيخ علي جنبلاط ورجاله قتال بني منكر الشيعة بسبب ميل هؤلاء الاخيرين للفئة الجنبلاطية . الا ان الشيخ كليبا النكدي

---

٢٨ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٣ ـ ٨٨

٢٩ ـ راجع ، ناصيف اليازجي ، **رسالة تاريخية في احوال لبنان في عهده الاقطاعي** (حريصا ، مطبعة القديس بولس ، . لا . ت) ص ١٩ ـ ٢٠

استطاع بفضل كفاءته وثباته في ساحة القتال من وضع حد لانتصار الشيعة على الامير يوسف الشهابي .

وظل مشايخ النكدية السند الاساسي للامير يوسف في كثير من الظروف الحرجة حتى انه وقع اختياره عليهم سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م لقطع الطريق على احمد باشا الجزار في السعديات . وملخص هذه الحادثة ان الامير يوسف كان قد حقد على الجزار بسبب استيلاء الاخير على بيروت وضبطه لاملاك الشهابيين فيها . واستنجد الامير يوسف بقائد الاسطول العثماني حسن باشا (قبوذان باشا) (اي امير البحر) لطرد الجزار من بيروت . واضطر حسن باشا للرجوع الى بيروت وامر الجزار بالخروج منها . وعلم الامير يوسف بخروج الجزار من بيروت الى صيدا فقرر نصب كمين له واغتياله في الطريق لينقذ البلاد من شروره ومكائده[٣٠] .

وكلّف الامير يوسف مشايخ النكدية مع عدد من رجالهم بتنفيذ هذه المهمة . الا ان الجزار لم يعبر تلك الطريق برا بل بعث بعساكره عن طريق السعديات فيما هو سار بحرا الى صيدا . وما ان وصلت عساكر الجزار الى الكمين حتى انقضت عليها مشايخ النكدية ولكنهم اندحروا امام قوات الجزار وقتل منهم الشيخ ابو فاعور النكدي ووقع ولدا الشيخ كليب محمد وواكد في الاسر كما جرح الشيخ بشير في المعركة[٣١] .

كانت هذه الحادثة سببا لخلاف النكديين مع الامير يوسف بعد ان تلكأ الاخير عن فدية الشيخين النكديين محمد وواكد من اجل اطلاق سراحهما . وانضم النكديون الى معارضي الامير يوسف من الحزبين الجنبلاطي واليزبكي واجبرا الامير يوسف على التخلي عن كرسي الحكم لاخويه سيد احمد وافندي .

الشيخ علي جنبلاط والامير يوسف :

بيد ان معارضة الحزبين اليزبكي والجنبلاطي جاءت نتيجة تحدي الامير يوسف للحزبين في مناسبات عدة . ويبدو ان الامير يوسف كان يخشى من تعاظم نفوذ كل

---

٣٠ - لمزيد من التفاصيل عن مظالم احمد الجزار ، راجع ، ادوار لوكروى ، احمد الجزار ، ترجمة جورج مسرة (سان باولو ، ١٩٢٤) ص ٢٠٨ - ٢١٤ .

٣١ - شهاب ، المصدر السابق ، ص ١١٧

من الشيخ علي جنبلاط والشيخ عبد السلام العماد في البلاد خاصة ان قوة الشيخ علي جنبلاط كانت قد تجاوزت في بعض الاحيان قوة الامير يوسف نفسه . ذلك ان الشيخ علي جنبلاط كان شيخ عقل اي زعيما دينيا عند الدروز فضلا عن زعامته المدنية. وكان مقبولا لدى جميع الاعيان بحيث انه توسط في عدة مشكلات وقعت بين الامير يوسف وغيره من الامراء الشهابيين كما توسط من قبل بين الامراء الارسلانيين والامير منصور . وذاع صيت الشيخ علي جنبلاط في كل مكان حتى ان البابا كلمنت الثالث وجّه له رسالة لطيفة (١٧٦٥ م / ١١٧٩ هـ) متمنيا عليه شمل بطريرك الروم الكاثوليك في لبنان بعطفه . ولم يكن مركز الشيخ الجنبلاطي لدى عامة الناس اقل تأثيرا على الوضع العام في البلاد . فقد جاء في بعض المصادر انه لما فرض الامير يوسف ضرائب جديدة على رعاياه سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م واعلن هؤلاء رفضهم لها طلبوا من الشيخ علي جنبلاط ان يلتمس من الامير الشهابي ابطالها . فلما رفض الامير يوسف الغاء تلك الضريبة تقدم الشيخ الجنبلاطي بدفعها من ماله الخاص ورفعها عن كاهل الرعية مما ادى الى ازدياد نفوذه وسطوته في البلاد[٣٢] . وتذكر المصادر نفسها ان الامير يوسف خشي من ازدياد نفوذ الزعيم الجنبلاطي فاوقع الفتنة بينه وبين زعيم اليزبكيّة علّه في ذلك يضعف الفريقين معا . واذا عرف الشيخ عبد السلام العماد بخطة الامير حضر الى مقر الشيخ علي جنبلاط في بعذران ليلا طالبا الصلح فوافق الشيخ علي على ذلك . ولكن بدل ان يجري هذا الصلح خفية عن الامير يوسف ، قرر الشيخ علي اجراؤه في قصر الامير نفسه . وكأنه قصد من وراء ذلك اثبات حسن نواياه تجاه الامير مظهرا للناس ترفعه عن الصغائر مما زاد من مكانة الاثنين معا في نظر الناس[٣٣] .

وبعد وفاة الشيخ علي جنبلاط سنة ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م آلت زعامة الحزب الجنبلاطي الى احد ابنائه الشيخ قاسم جنبلاط . واستطاع الامير يوسف خلال هذه الفترة استرجاع كرسي حكمه بعد ان دفع للجزار مبلغا كبيرا من المال . ولما رجع الى دير القمر مصحوبا بعساكر الوالي العثماني عمد الى الانتقام من النكديين وعلى رأسهم الشيخ كليب النكدي بسبب تأييده للامير سيد احمد . واضطر الشيخ النكدي

٣٢ ـ ابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ٧٩ ـ ٨٣

٣٣ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٣

الى اللجوء الى جبل عامل والاقامة عند احد اصدقائه الشيخ ناصيف النصار مدة من الزمن ، ولم يستطع الشيخ كليب الرجوع الى منطقة المناصف الا بعد طلبه العفو عن طريق مدبر الامير يوسف الشيخ سعد الخوري[٣٤] .

ولكن اخوي الامير يوسف شهاب ، سيد احمد وافندي بقيا يتربصان الفرصة للرجوع الى الحكم بمساندة الحزب الجنبلاطي . وتذكر بعض المصادر ان الاخوين دبرا مؤامرة لخلع اخيهما الامير يوسف عن كرسي الحكم والتخلص من كاخيته الشيخ سعدالخوري. فتقربامن الشيخ كليب النكدي من اجل ترك الاميريوسف وحيدا . ولكن الشيخ كليبا اسرّ للامير خطة اخويه للقضاء عليه مما اعاد علاقة الأمير يوسف بالنكديين الى سابق عهدها من الود والتحالف . واحتاط الامير يوسف لتلك الخطة . وبعث بطائفة من الجنود ليمكنوا لاخوية في الطريق قبل تنفيذ المؤامرة . ووثب هؤلاء الجنود على الاميرين الشهابيين اثناء عبورهما لتلك الطريق وقبضوا على الامير افندي وادخلوه الى الامير يوسف فقتله بيده[٣٥] . اما الامير سيد احمد فقد نجا من الكمين بمساعدة احد غلمانه وفر الى المختارة ملتجئا الى منزل زعيم الحزب الجنبلاطي . واستغل زعماء الحزبين الجنبلاطي واليزبكي فعلة الامير يوسف هذه لخلعه عن كرسي الحكم وتنصيب الامير سيد احمد مكانه . وبلغ الامير يوسف خبر تحالف الحزبين القويين ضده فخاف عاقبة الامر واستنجد بوالي عكا احمد باشا الجزار الذي قدّم له مساعدة عسكرية تصدى بواسطتها لقوات اخيه الامير سيد احمد ومن معه من رجال الحزبين اليزبكي والجنبلاطي في قرية علمان . وكان النصر حليف الامير يوسف بعد ان تخلى رجال اليزبكية عن اخيه الذي كان اكثر انحيازاً للحزب الجنبلاطي . وتقدم الامير يوسف بعد نصره هذا الى الشوف لينتقم من الجنبلاطيين حلفاء اخيه ، وارسل احد قادة عساكر الجزار الى قرى المختارة وبطمة وبعذران لينتقم من مشايخ الجنبلاطية فغرّمهم وهدم منازلهم ووضع يده على املاكهم كما غرّم بدوره الامراء اللمعيين لاستقبالهم الجنبلاطيين في بيوتهم[٣٦] .

الا ان سياسة القسوة والانتقام التي طبّقها الامير يوسف بشكل خاص ضد

---

٣٤ - المرجع نفسه ، ص ١٨٨

٣٥ - شهاب ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ - ١٢٨

٣٦ - المصدر نفسه ، ص ١٣٠ - ١٣١

مشايخ آل جنبلاط جعلت هؤلاء الاخرين يقفون بشكل ثابت الى جانب اخيه الامير سيد احمد . ولكن معارضة الجنبلاطيين للامير يوسف غدت محدودة التأثير بسبب تدخل والٍ طموح قوي هو احمد باشا الجزار خاصة ان الجزار كان قد وجد في النزاع المستمر على السلطة بين الامراء الشهابيين وسيلة لابتزاز المال من اي جهة أتى . لا بل ان الجزار نفسه كان يسعى بنفسه لخلق مثل هذا النزاع بغية الحصول على اكبر مبلغ ممكن من المال[٣٧] .

ضريبة الشاشية : الدروز يردّون على التحدي .

وكثيرا ما كان طلب الجزار المستمر للمال يدفع الامير يوسف لتغريم خصومه السياسيين في الداخل او لفرض ضرائب جديدة على الرعية . وفي سنة **١١٩٨** هـ / **١٧٨٣** م فرض الامير يوسف ضريبة جديدة على لابسي العمائم لم يعهدها الدروز من قبل دعيت بضريبة الشاشية . وبما ان هذه الضريبة تطال عقال الدروز بالدرجة الاولى ولم يسبق لاى حاكم ان فرضها عليهم من قبل اعتبر مشايخ الدروز هذه الضريبة امتهانا لكرامتهم . وقد حاولوا اقناع الامير يوسف بالتخلي عن قراره . وتروي احدى المصادر ان الشيخ يوسف ابو شقرا شيخ مشايخ العقال ذهب الى دير القمر ليفاوض الامير يوسف بشأن رفع تلك الضريبة . غير ان الامير يوسف ومدبره الشيخ غندور الخوري تحديا الشيخ ابو شقرا مهددين متوعّدين . عندها لجأ عقّال الدروز لاتخاذ خطوة سلبية ضد الامير يوسف . وبعث الشيخ يوسف ابو شقرا شيخ العقال برسل الى جميع المناطق يدعو العقال للحضور الى مرج بعقلين بكامل اسلحتهم . وفي الموعد المعين اجتمع في المكان المذكور اكثر من سبعة آلاف مقاتل من العقال . وقرر هؤلاء الهجوم على سراي الامير في دير القمر واجباره على التخلي عن كرسي الحكم اذا لم يلغ تلك الضريبة ، ولكنهم انذروا الامير قبل تقدمهم الى دير القمر . وبعد تدخل الوسطاء ومن بينهم مشايخ آل نكد اذعن الامير يوسف

---

٣٧ ـ قسطنطين فولني ، سوريا ولبنان في القرن الثامن عشر كما وصفها احد مشاهير الغربيين،ترجمة حبيب السيوفي (صيدا ، مطبعة دير المخلص ، ١٩٤٨) ج ١ ، ص ٥٣ . . .

لطلب العقال والغى تلك الضريبة[38] .

واذا انتهت الازمة بين الامير يوسف وعقال الدروز بسلام عمد الامير للانتقام من زعيم اليزبكية الشيخ عبد السلام عماد متهما اياه بتحريض الناس على الامتناع عن دفع تلك الضريبة وغرّم الشيخ عماد بمبلغ كبير من المال وقتل مدبره الشيخ احمد دبوس . غير ان سياسة الامير يوسف الانتقامية هذه ادت الى مزيد من التذمر والنقمة من قبل جميع الفئات السياسية في لبنان ضد هذه السياسة . واتخذ كبار اعيان الدروز موقفا معارضا لسياسته . واذ وقف الحزب اليزبكي ضده منذ بداية عهده تقريبا فان الحزب الجنبلاطي تخلى بدوره عن تأييد الامير يوسف . ولم يبق الى جانب الامير في هذه المرحلة سوى مشايخ النكدية ولكن هؤلاء وحدهم لم يستطعوا تأمين قوة سياسية كافية بين الاعيان لبقائه في الحكم . وفوق هذا كله لم يستطع الامير يوسف اشباع نهم الجزار لمزيد من المال . ذلك ان نفور معظم القوى السياسية من الامير يوسف جعله في موقف صعب لم يستطع معه فرض ضرائب جديدة على الرعية . وساعد هذا الوضع الحزبين اليزبكي والجنبلاطي على اعداد خصم جديد للامير يوسف هو الامير بشير قاسم الشهابي الذي تمكن من الوصول الى سدة الحكم سنة **١٢٠٤** هـ / **١٧٨٩** م بمساعدة الجزار ومساندة الحزبين اليزبكي والجنبلاطي .

الدروز في عهد الامير بشير قاسم الشهابي (بشير الثاني) :

وكان الجزار قد نقم بدوره على الامير يوسف بعد ان شجع الاخير الانتفاضة التي قام بها المماليك ضد سيدهم الجزار سنة **١٢٠٤** هـ / **١٧٨٩** م . فاضطر الامير يوسف للتنازل عن كرسي الحكم للامير بشير الثاني نتيجة للضغط السياسي والعسكري الذي مارسه الجزار من الخارج والحزبان الجنبلاطي واليزبكي في الداخل . ولكن دعم الجزار للامير بشير بقي مرهونا بالاموال التي يمكن ان يؤديها

---

٣٨ - شهاب ، المصدر السابق ، ص **١٣٤** - **١٣٥** كذلك ابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ١٦٦ - ١٦٨ . وقد ورد في هذا المصدر المتأخر عن هذه الحادثة انّ الشيخ يوسف ابو شقرا جاء الى سراي دير القمر ليفاوض الامير يوسف بشأن رفع تلك الضريبة ولكنه لقي تهديدا سافرا من الامير يوسف فدعا الشيخ العقال للحضور الى مرج بعقلين بكامل اسلحتهم فحضر نحو سبعة الاف مقاتل في الموعد المحدد وانذروا الامير يوسف بوجوب التخلي عن هذه الضريبة فاذعن لطلبهم .

الامير الشهابي لوالي عكا . اما مصدر تلك الاموال فلم يكن الا ضرائب تعسفية جديدة كان لا بد من فرضها على الرعية . وعبثا حاول بعض الاعيان التمنع عن دفع تلك الضرائب او على وضع حد لتنافس كل من الامير يوسف والامير بشير لاسترضاء الجزار مقابل بقائهما في سدة الحكم . فالجزار كعادته كان يسعى لاستغلال ذلك التنافس على السلطة بين الامراء الشهابيين من اجل ابتزاز المزيد من الاموال فيما ظل بعض الامراء الشهابيين يسعون للحكم مهما كان الثمن . وتحمل الدروز الكثير من مساوىء سياسة التعسف والاستغلال هذه ارضاء لشهوة الامير الحاكم للسلطة . وذلك لان اعيان الدروز كانوا لا يزالون يملكون معظم الاراضي ضمن الامارة اللبنانية فكان من الطبيعي ان يتحمل هؤلاء العبء الاكبر في تأدية الاموال المفروضة .

ولم يستنكف الامير الشهابي الحاكم عن الاستعانة احيانا بقوات الدولة العثمانية النظامية لقمع اي تمرد او انتفاضة تقوم في وجه حكمه نتيجة لسياسة الظلم والاستغلال .

ومما زاد الوضع سوءا ان زعماء الدروز كانوا منقسمين بين مؤيد ومعارض تجاه هذا الامير او ذاك . وكثيرا ما كان الامير الغالب يقتص من الزعماء المغلوبين واذا ما تغيرت الظروف السياسية تنقلب عادة الادوار ويثأر المغلوب من خصمه . وهكذا تميزت المرحلة الاولى من حكم الامير بشير الشهابي حتى وفاة الجزار سنة **١٢١٩** هـ / **١٨٠٤** م بكثير من التناحر والاقتتال بين مختلف الفئات السياسية في الداخل . الا ان الصراع الاساسي على السلطة كان قائما خلال هذه الفترة بين الامير بشير وبين اولاد الامير يوسف الشهابي . وكان البيت الجنبلاطي بزعامة الشيخ بشير جنبلاط هو السند الدرزي الاساسي للامير بشير ، فيما كان مشايخ النكدية من اكبر معارضيه ومن مؤيدي الامير يوسف واولاده من بعده . وكثيرا ما ساند الحزب اليزبكي بزعامة آل عماد موقف الامير بشير[٣٩] .

وبسبب هذا الانقسام الداخلي في الامارة اللبنانية لم يستطع الدروز توحيد

---

٣٩ ـ شهاب ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ ـ ١٨٥

صفوفهم للوقوف في وجه سياسة القسوة والظلم التي اتبعها والي عكا وغيره من الولاة والحكام . كما ان هذا الانقسام لم يساعدهم على اتخاذ موقف موحد تجاه بعض القضايا الخارجية المهمة ومنها ، الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام .

الدروز وحملة نابليون بونابرت على عكا :

لا يتسع المجال في هذا البحث لتفصيل حوادث الحملة الفرنسية على مصر سنة **١٢١٣** هـ/ ١٧٩٨م،وانما الذي يهمنا من هذا الموضوع هو معرفة موقف الدروز اثناء تقدم تلك الحملة عن طريق البحر لاحتلال بلاد الشام وتوقفها امام اسوار عكا في فلسطين . ومن المعروف ان هدف الحملة الاساسي كان قطع طريق الهند الرئيسي على بريطانيا . اذ ان الصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا كان قد بلغ ذروته في هذه المرحلة . ورأت حكومة المديرين في فرنسا بان تجريد حملة عسكرية لاحتلال مصر من شأنها ان تكون ضربة قاصمة لاقتصاد عدوتها بريطانيا وتجارتها في بلاد الهند التي كانت من اهم مستعمراتها في الشرق .

ورأت ايضا ان احتلال مصر وبلاد الشام سيعيد التجارة الفرنسية في الشرق الى ازدهارها السابق . كما اعتقد نابليون بان احتلال هذا الجزء من الدولة العثمانية يمكن ان يصبح قاعدة لتقدم القوات الفرنسية شرقا ومن شأنه ان يهدد المستعمرات البريطانية نفسها . وتوافقت اهداف الحملة الفرنسية هذه مع طموحات نابليون الشخصية على الرغم من معرفته ان مثل هذه الحملة ستهدد علاقات فرنسا الودية يومذاك مع الدولة العثمانية [٤١] . وتنفيذا للخطة الفرنسية المرسومة لاحتلال مصر وصلت قوات نابليون الى ساحل الاسكندرية ونجحت باحتلال القاهرة نفسها في بداية سنة **١٢١٣** هـ (تموز سنة **١٧٩٨** م) . ولكن انتصار الفرنسيين الحاسم في البر المصري على قوات مراد باشا اضعف من اهميته انتصار الاسطول البريطاني على الاسطول الفرنسي في ميناء ابي قير[٤٢] .

(٤٠) لمزيد من التفاصيل عن اسباب الحملة الفرنسية راجع : Charles Roux,Les origines de l'expedition
Charles Roux, *Les Origines de L'expedition Française en Egypte* (Paris, 1903) 2 Vols.

(٤١) Somerset de Chair, *Napoleon's Memoirs* (New York, 1948), p. 50. PP. 350-355.

Zouis A. Thiers, *Expedition de Bonnparte en Egypte* (New York, 1894), p. 40 et 45-60.

A. T Mahan, *The Influence Of The Sea Power Upon The French Revolution And Empire;* 1793 - 1812, Vol. 1, PP. 262-273.

غير ان هذا الانتصار البريطاني شجع الدولة العثمانية على اعلان الحرب على فرنسا خلال شهرين من تلك السنة . وعلى الرغم من محاولات فرنسا تحييد الدولة العثمانية عن الصراع القائم بينها وبين بريطانيا في الشرق ، فان السلطان لم ينظر بعين الارتياح الى رؤية القوات الفرنسية تحتل جزءا مهما من مقاطعات الدولة العثمانية[٤٣] . وتلاقت عند ذاك مصالح السلطان العثماني مع اهداف كل من بريطانيا وروسيا بشأن التصدي للغزو الفرنسي . وقام تحالف ثلاثي بين هذه الدول من اجل طرد الفرنسيين من مصر . وسارعت بريطانيا بعد ان عقدت معاهدة تحالف مع الباب العالي في اوائل عام **١٢١٤** هـ / **١٧٩٩** م الى تعزيز قواتها في البحر المتوسط واحتلت مواقع جديدة لها في البحر الاحمر بغية تأمين طريقها الى الهند وقطع طريق الامدادات على القوات الفرنسية .' وشرع السلطان العثماني في الوقت نفسه بتأليب رعاياه في مصر وولاته في بلاد الشام ضد الفرنسيين . وحاول نابليون ازاء تلك الاستعدادات العسكرية البريطانية ضده تثبيت اقدامه في مصر اولا ، فاتصل بوالي عكا احمد باشا الجزار من اجل عقد تحالف معه ضد الباب العالي ، ولكن الجزار رفض العرض الفرنسي .

وامام الخطر الذي اخذ يحدق بالفرنسيين من جميع الجهات قرر بونابرت ضرب خصومه قبل ان يستكملوا استعداداتهم العسكرية كما قرر شن هجوم مفاجىء على بلاد الشام لاحتلالها وللقضاء على القوات العثمانية التي كانت تتجمع للزحف ضده . وعبرت القوات الفرنسية صحراء سيناء باتجاه فلسطين شمالا واحتلت مدن العريش وغزة والرملة ويافا دون ان تلقى مقاومة ضارية وواصلت زحفها حتى اسوار مدينة عكا مقر الجزار[٤٤] . ولكن الجزار الذي رفض مرارا طلب بونابرت للتحالف معه وفتح اسوار عكا امامه ، وقف بوجه الحملة الفرنسية معتمدا على دعم الاسطول البريطاني من البحر . وبرزت عند ذاك اهمية موقف ولاة الشام ازاء هذا الصراع . فالدولة العثمانية اعلنت حربها ضد الفرنسيين كاعداء للاسلام ، والجزار اتخذ موقف المدافع عن سلطان الباب العالي ضد الغزو الفرنسي ، فماذا كان موقف الدروز في لبنان ؟ . .

---

(٤٣) A. Fournier, *Napoleon I, A Biography* (London, 1914) vol. t. pp 159-161

(٤٤) C. Herold, *Bonaparte In Egypt* (London, 1962) pp. 265-273

موقف الدروز من الحملة :

لا تذكر المصادر الدرزية شيئا عن موقف الدروز ازاء الحملة الفرنسية على بلاد الشام ، بيد ان ما ورد في المصادر غير الدرزية ، وهي الوحيدة المتوفرة لنا ، تدل على ان موقف معظم الدروز ازاء حملة نابليون كان بشكل عام موقف المعارض الحذر . ويذكر حيدر شهاب - (وهو مؤرخ معاصر لهذه الحقبة) - بان : « دروز الجبل العقال خافوا من تملك الافرنج (الفرنسيين) في عرب ستان (اي بلاد العرب) »[45] . بينما يضيف المؤرخ طنوس الشدياق على ذلك بقوله ان الدروز اجتمعوا في مقام السيد عبد الله في عبيه للتشاور في مسألة الحملة الفرنسية وقر رأيهم على « مقاومة الفرنسيين والامير بشير ، الا ان الشيخ عبد الله القاضي عارض ذلك[46] » . والواقع ان موقف الدروز هذا يبدو لاول وهلة امرا طبيعيا وينسجم مع نظرة الدروز التقليدية للفرنجة ومنهم الفرنسيين . وتاريخ الدروز الحربي خلال القرون الوسطى كما رأينا في الفصول السابقة حافل بالمعارك التي خاضوها ضد الصليبيين الذين قدموا الى الشرق في اواخر القرن الحادي عشر للميلاد . وتذكر المصادر التي بين ايدينا ان آل عماد كانوا يميلون الى معسكر الجزار واوقفوا (المكارية) الذين كانوا يحملون الخمر والمؤن الى المعسكر الفرنسي كدليل على عدائهم للحملة الفرنسية مما اغضب الامراء اللمعيين .كذلك يذكر الكولونيل تشرشل في تاريخه ان مشايخ آل تلحوق الذين كانوا يراقبون معابر نهر الدامور الى صيدا اوقفوا بدورهم رجلا مارونيا يقود بغله المحمل ذخيرة الى الفرنسيين وسلموه الى والي بيروت[47] . وفيما خلا هاتين الحادثتين لا تذكر المصادر ان الدروز قاموا باي عمل عدائي ضد الفرنسيين اثناء حصارهم لعكا ولا ذكر انهم تطوعوا مثلا للقتال في معسكر الجزار . اما النصارى وخاصة الموارنة منهم فقد اظهروا ابتهاجهم منذ البدء بقدوم الفرنسيين الى بلاد الشام . وتذكر بعض المصادر المتأخرة ان البطريرك الماروني يوسف التيان كان قد ارسل وفدا من قبله لمقابلة بونابرت مؤكدا على ولاء الموارنة

---

٤٥ - شهاب ، المصدر السابق ، ص ١٩٢

٤٦ - الشدياق ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٨

٤٧ - Sidey Smith , *Memoires of Sideny Smith*, Vol.1, P.184

وتشرشل مجلد ٣ ، ص ٨٨

للفرنسيين كما اعرب عن استعداده لارسال المتطوعين لنجدة الجيش الفرنسي[٤٨] .
ولعل هذا الانقسام الداخلي بين رعايا الامير بشير تجاه الحملة الفرنسية كان احد الاسباب التي جعلته يتخذ موقفا محايدا اثناء حصار عكا . وكان الجزار قد طلب من الامير بشير مساعدته عسكريا ضد الفرنسيين ، فرد طلبه معتذرا ومبررا موقفه هذا بضعف مركزه السياسي في الداخل نتيجة لتأييد الجزار لخصومه اولاد الامير يوسف[٤٩] .

بونابرت يحاول استمالة الدروز :

حاول بونابرت استمالة الدروز الى جانبه اثناء حصاره لعكا ، فارسل للامير بشير هدية وكتابا جاء فيه : « بعد ان تم استيلائي على القطر المصري بكامله قطعت الصحراء ودخلت الاراضي السورية ففتحت العريش واخضعت غزة ويافا واحتلت حصونها التي كانت بيد الجزار . وقد هزمت جيوشه ودمرتها بكاملها واجبرته على الاعتزال في عكاوانصرفت منذامس الأول الى احكام تطويقه فيها. وقداسرعت لاطلاعك على ما تقدم لعلمي بما فيه لك من دواعي السرور والارتياح . فان انتصاراتي هذه قد قضت على طغيان رجل وحشي كان شرا على الجنس البشري وعلى الامة الدرزية الشجاعة . وفي نيتي ان احقق استقلال الامة الدرزية ، واخفف عنها الجزية المفروضة عليها ، واعيد اليها مرفأ بيروت والمدن الاخرى التي هي بحاجة اليها لتؤمن حرية تجارتها واتساعها . واني ارغب في أن تحضر شخصيا في اقرب وقت ممكن او ان ترسل من ينوب عنك للاجتماع بي هنا ، امام عكا ، ووضع التدابير اللازمة لانقاذك من عدونا المشترك »[٥٠] .

يلاحظ في هذه الرسالة ان بونابرت خاطب الامير بشيرا كامير على الدروز واطلق على رعاياه تسمية « الامة الدرزية » . والواقع ان هذه التسمية قديمة تعود الى القرن السادس عشر الميلادي حيث عرف القسم الاوسط من لبنان بما فيه الساحل والغرب والمتن والشوف ببلاد الدروز واحيانا بجبل الدروز او جبل آل معن . واصبحت هذه التسمية شائعة لدى الاوروبيين منذ القرن السابع عشر للميلاد في

---

٤٨ - بطرس صفير ، الامير بشير الشهابي (بيروت ، دار الطباعة والنشر لا . ت) ص ٤٤
٤٩ - الشدياق ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٨
٥٠ - عادل اسماعيل ، السياسة الدولية : ج ١ ، ص ١٢٢

عهد الامير فخر الدين المعني الثاني . وقد ورد في رسالة بونابرت هذه وعد بتحقيق استقلال « بلاد الدروز » واعادة سلطان الدروز على بيروت والمدن الاخرى . ولا ندري اذا كان الامير بشير قد اطلع يومذاك اعيان الدروز على مضمون هذه الرسالة في ذلك الظرف الخطير . ولا نستبعد ان يكون بعضهم قد اطلع عليها فعلا اي بعض المقربين انذاك من الامير الشهابي كالشيخ بشير جنبلاط والشيخ حسون ورد ابن شيخ العقل الذي كان معتمدا لدى الامير في كثير من المهمات السياسية[٥١] .

ولكن وعود بونابرت بالاستقلال لم تغير كما يظهر موقف الدروز ازاء الحملة الفرنسية . فقد كان معظم الدروز يميلون الى معارضة الفرنسيين ، ذلك لانهم كانوا يرون على ما يبدو ان نتيجة حملة بونابرت لن تكون لصالحه ، اذ ان احمد باشا الجزار كان بادي القوة نتيجة تصميم الدولة العثمانية على مقاومة بونابرت ولمساندة الدولة البريطانية لها في ذلك . وقد يكون موقف الدروز السلبي هذا ناتج عن تخوفهم بان انتصار الفرنسيين قد يؤدي الى جعل ميزان القوى في جبل لبنان يميل لصالح الموارنة الذين كانوا قد اسفروا عن تأييدهم لبونابرت .

وهكذا فان موقف الدروز السلبي من حملة بونابرت قد يكون عاملا مهما في تردد الامير بشير عن مساعدة الفرنسيين . ولا شك ان الدروز كانوا كغيرهم من سكان لبنان يمنون النفس بالتخلص من مظالم الولاة العثمانيين خاصة الجزار الذي تصدوا لقواته غير مرة . ولكنهم امام هذا الصراع الدولي بحيث لا يعرف من سيكون الغالب ولا المغلوب يبدو انهم فضلوا الوقوف على الحياد ما دام ذلك ممكنا والا فان المحافظة على وضعهم التقليدي في ظل الدولة العثمانية كان افضل من الاعتماد على الوعود الفرنسية . اما الامير بشير الذي كان يدرك حقيقة الوضع الداخلي وابعاد الصراع الخارجي فقد اتخذ موقف الحياد والحذر[٥٢] . ولا شك ان هذا الموقف كان حكيما وسليما اذ ان الانحياز التام الى احد المعسكرين كان بحد ذاته مغامرة لا تعرف نتائجها . وماذا يمكن ان يكون مصيره لو انحاز الى احد المعسكرين وكان النصر حليف المعسكر الاخر . وفي كلا الحالتين فان الجزار طاغية لا يؤمن شره ، اما بونابرت فمغامر شديد البأس لا يقبل الا بالخضوع لارادته .

---

٥١ - شهاب ، المصدر السابق ، ص ١٩٤

٥٢ - ميخائيل مشاقة ، الجواب على اقتراح الاحباب (بيروت ، ١٩٥٥) ص ٣٠

الجزار ينتقم من الامير بشير :

وسرعان ما انجلى الوضع السياسي ازاء الصراع القائم بين بونابرت والجزار فتراجع بونابرت عن حصاره لعكا وانسحبت قواته الى مصر . وحاول الامير بشير الحاق نفسه بمعسكر الدولة العثمانية المنتصر قبل (فوات الاوان) وذلك خشية انتقام الجزار الذي سبق وطلب مساعدته فأجرى اتصالات مع قائد الاسطول الانكليزي سدني سمث بشأن التوسط له مع الجزار . وصدف قدوم الصدر الاعظم بالجيوش العثمانية لقتال الفرنسيين فارسل له الامير بشير كتابا وبعض الهدايا طالبا منه رفع سلطة الجزار عن امارته ، فانعم عليه الوزير العثماني بخلع الولاية على « جبل الدروز ووادي التيم وبعلبك وبلاد المتاولة والبقاع وبلاد جبيل » ورفع يد الجزار عن ولايته[٥٣] . ولكن الجزار لم يرضخ للامر الواقع وكعادته حرّض خصوم الامير بشير من آل عماد واولاد الامير يوسف الشهابي ضد الامير بشير وامدهم بالعساكر وخلع الولاية لطرد الامير الحاكم . ومرة اخرى انقسم اعيان الدروز بين مؤيد للامير بشير ومعارض له بسبب تدخل الجزار ورجحت كفة خصوم الامير واضطر لترك الحكم من جديد ولم يبق الى جانبه سوى الحزب الجنبلاطي وبعض الامراء الشهابيين[٥٤] . ولكن القائد الانكليزي سدني سمث حاول ان يتوسط للامير لدى الجزار دون جدوى . وسافر الامير بشير الى مصر من اجل مقابلة الصدر الاعظم بشأن ولايته فوعده الوزير العثماني خيرا بعد رجوعه من الحرب الدائرة ضد الفرنسيين . واستقر اولاد الامير يوسف في الحكم مقابل مبالغ جديدة يؤدونها للجزار . وتذكر المصادر ان اولاد الامير يوسف اوقعوا الظلم بالناس من اجل جمع الاموال المطلوبة دون ان يكفي ما جمعوه نهم الجزار . ونقم الناس على اولاد الامير يوسف وقرروا رفع الظلم عنهم بالطلب للامير بشير الرجوع الى الحكم مع ما في ذلك من تحد للجزار . واتفق اعيان الدروز على دعم الامير بشير بما فيهم خصومه السابقين من آل عماد والنكدية . وكان الشيخ حسين ماضي شيخ العقل قد اقنع آل عماد خصوم الامير بشير بالامس بوجوب توحيد موقفهم مع سائر الاعيان في سبيل

---

٥٣ ـ شهاب ، المصدر السابق ، ص ١٩٥

٥٤ ـ المصدر نفسه ، ص ١٩٨

مصلحة البلاد . ورجع الامير بشير الى الشوف بعد ان التف حوله جميع الاعيان ، الا ان جرجس باز مدبر اولاد الامير يوسف لم يرضخ لهذا الاجماع بل استعان بقوات الجزار للوقوف في وجه الامير بشير . وعمل آل عماد للتوسط بين جرجس باز والامير وذلك عن طريق سحب قوات الجزار من دير القمر وارضاء اولاد يوسف بحكم ولاية جبيل[٥٥] . ولكن جرجس باز الذي قبل في البداية هذه الوساطة وخرج من دير القمر سرعان ما غير رأيه مصرا على اخذ الولاية لاسياده بقوة سيف الجزار . وطلب فعلا تلك القوات من صيدا ؛واضطر اعيان الدروز ان يجابهوا تلك القوات في بعقلين والشويفات وعاريا والكحالة . واشتهر في تلك المواقع الشيخ بشير جنبلاط ومشايخ ال تلحوق ومشايخ النكدية . واستطاع اهالي البلاد ان يوقعوا اكثر من هزيمة بقوات الجزار ولكنهم كانوا يتعرضون في الوقت ذاته لكثير من الخسائر في المال والارواح . وامام عناد الجزار من جهة واصرار جرجس باز واولاده الامير يوسف على البقاء في الحكم باي ثمن متحدين بذلك مشاعر سائر الناس ، دفعت مناطق الدروز ثمنا باهظا من قتلى وخراب ودمار . ولم ينته هذا الوضع المضطرب الا بعد ان عاد جرجس باز وصحبه الى الصواب وتحققوا ان هذه السياسة لا تجدي الا الخراب والدمار ، فعزم على الصلح ورضي باعطاء ولاية جبيل لاولاد الامير يوسف مقابل بقاء الامير بشير في الحكم[٥٦] .

لقد كسب الامير بشير الجولة هذه ضد الجزار وذلك بفضل توحد كلمة اهل البلاد بمن فيهم اعيان الدروز . وكان موقفهم هذا دليلا ساطعا على ان وحدة البلاد الداخلية هي الدرع الواقي لاي تدخل خارجي . ولكن هيهات ان يقتنع الطامحون بالسلطة من امراء واعيان ماداموا يفضلون مصالحهم الفردية على المصلحة العامة لبلادهم . ولم يستقر الامير بشير في السلطة اكثر من سنة (**١٢١٥ ـ ١٢١٦ هـ / ١٨٠٠ ـ ١٨٠١ م**) حتى رجعت الخلافات على الحكم من جديد بتحريض من الجزار نفسه . ولم تنخفض حدة تلك الخلافات والاضطرابات الا بعد وفاة احمد الجزار سنة **١٢١٩ هـ / ١٨٠٤ م** .

---

٥٥ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٠٨

٥٦ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ص ١١١

الامير بشير ينتقم من معارضيه :

ولكن موت الجزار لم ينه جميع المنازعات الداخلية في الامارة اللبنانية ، اذ بقي الصراع السياسي قائما بين الامير بشير وبعض زعماء الاقطاع الدروز . غير ان الامير بشيرا استطاع في هذه المرحلة ان يستغل تلك الخلافات لتصفية هؤلاء الزعماء الواحد تلو الاخر دعماً لسلطته ؛ والواقع ان هذا الصراع السياسي كان خفيا بين اعيان الدروز من جهة والامير الشهابي الحاكم من جهة ثانية منذ منتصف القرن الثامن عشر ميلادي على الاقل . فالدروز حتى هذه المرحلة كانوا اصحاب السلطة والنفوذ الفعلي في الامارة اللبنانية اذ كانوا يملكون معظم الاراضي ويمسكون بزمام السلطة في مختلف المقاطعات في جبل لبنان . ولم يكن للامراء الشهابيين بعد من الاراضي والثروة في جبل لبنان ما كان لبعض زعماء الدروز . فالامراء الشهابيون ورثوا الحكم عن الامراء المعنيين ، ولكن المقاطعات التي وزعت على زعماء القيسيين بعد موقعة عين دارا كانت في غالبيتها للدروز . وهذا ما كان يثير الغيرة والحسد عند الكثيرين من الامراء الشهابيين خصوصا وان اصحاب هذه المقاطعات شكلوا مع الزمن القوى السياسية الاساسية في البلاد . وكان لا بدّ للامير الشهابي الحاكم من مراعاة هذه القوى داخل الامارة . اما عندما كان الامير الشهابي يريد الاستئثار بالسلطة دون موافقة اكثرية هؤلاء الاعيان كان لا بد له من الصدام معهم او تأليب بعضهم على بعض . غير ان هذا الصدام لم يحدث في عهد الامير حيدر الشهابي ، ربما لان جذوة انتصار الحزب القيسي على الحزب اليمني حالت دون قيام مثل هذا الصراع السياسي بين الامير الشهابي واعيان الدروز بخاصة ان الامير حيدرا كان بحاجة الى معاونة هؤلاء الاعيان ودعمهم .

اما الامير ملحم الشهابي فقد استطاع ان يبقي هذا الصراع بين الدروز انفسهم بعد ان انقسم الحزب القيسي الى فئتين اليزبكية والجنبلاطية . وربما يكون للامير ملحم في هذا الامر يد اذ بذلك يتلهى زعماء الدروز في صراعاتهم الداخلية مما يساعده على الاستمرار في السلطة . وقد يكون تطلع الامير ملحم الشهابي الى خلق قوة جديدة غير درزية يستطيع الاعتماد عليها في السلطة من اسباب تنصر اولاده . ولعل هذا الواقع هو الذي اوصل الصراع السياسي فيما بعد بين الامير يوسف المتنصر واعيان الدروز الى مرحلة من الحدة والعنف .

اما الامير بشير الثاني فقد وصل الى السلطة بتأييد من معظم اعيان الدروز بعد ان كان فقيرا منسيا . ولم يكن بوسعه الاستمرار في الحكم امام جشع الجزار من غير دعمهم السياسي والمادي . ولكن هذا الدعم كان يعني بلغة الحكم آنذاك البقاء تحت نفوذ هؤلاء الاعيان والرجوع الى موافقتهم عند اتخاذه للقرارات السياسية المهمة . وامام منافسة اولاد الامير يوسف من جهة وطلب احمد باشا الجزار لمزيد من المال كان لا بدّ للامير بشير من التحالف مع هؤلاء الاعيان . غير ان موت الجزار جعل الامير بشيرا في وضع افضل للتخلص من مناوئيه السياسيين اولا ومن ثم التخلص من هيمنة زعماء الاقطاع الدروز على الحكم ثانيا .

لقد كانت ثروة زعماء الدروز ونفوذهم السياسي في البلاد مدعاة لقلق الامير على منصبه فعمد الى اضعافهم تدريجيا ومن ثم القضاء عليهم الواحد تلو الآخر . واتبع في ذلك اسلوب ضرب هذه الزعامات بعضها ببعض احيانا والبطش بها احيانا آخر . واتخذ من اثارة الدسائس وتغذية الخصومات التقليدية بين اعيان الدروز وسيلة لتنفيذ هذه السياسة . وتمكن في نهاية المطاف من تنفيذ مخططه الرامي الى تحطيم الزعامة الدرزية من جهة وخلق قوة بديلة جلها من النصارى تكون تحت سلطته ونفوذه من جهة ثانية .

وكان الامير قد نفّذ جزءا من هذه الخطة عام **١٢١٢** هـ / **١٧٩٧** م ، عندما حرض زعماء الحزبين اليزبكي والجنبلاطي على قتل اولاد الشيخين النكديين كليب وبشير .

وقد عُرف النكديون بمعارضتهم للامير بشير وبتأييدهم لخصومه اولاد الامير يوسف الشهابي[٥٧] . وبعد تصفية مشايخ النكدية والاستيلاء على املاكهم اتخذ الامير بشير خطوة ثانية للقضاء على مناوئيه فاقتص من اولاد الامير يوسف وانصارهم وابعدهم نهائيا عن السلطة . ثم عمل على اضعاف العماديين مستغلا التنافس التقليدي بينهم وبين الجنبلاطيين حتى افقرهم واجبرهم على النزوح الى حوران وعكا ومصر[٥٨] .

---

٥٧ - المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٠

٥٨ - المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ١٨١

ولم يترك الامير بشير اية فرصة تمر لاضعاف باقي زعماء الاسر الاقطاعية خاصة الدرزية منها الا وانتهزها ، فبعد اضعاف العماديين شدد الخناق على باقي زعماء الحزب اليزبكي من تلاحقة وملكيين . ورفع سنة **١٢٣٤** هـ / **١٨١٨** م يد المشايخ الملكيين الدروز عن قرى الجرد كما رفع في السنة التالية يد مشايخ التلاحقة عن قرى الغرب . واضطر بعضهم لترك البلاد بسبب اضطهاد الامير . وعبثا حاول الشيخ بشير جنبلاط التوسط لهؤلاء لدى الامير بشير بل اصرّ الامير على مناوأة خصومه من زعماء الاقطاع الدروز حتى انه لم يبق له بينهم سوى الشيخ الجنبلاطي[٥٩] .

والواقع ان تحالف البشيرين هذا وفّر للامير بشير الحاكم الدعم الاساسي في الداخل لاستمراره في الحكم . وكان لهذا التحالف اهميته على الصعيد الخارجي ، ذلك ان زعامة الشيخ بشير لم تقتصر على الدروز بل شملت بفضل غناه واتساع رقعة اقطاعه طوائف اخرى في لبنان . وكان للشيخ بشير علاقات ذات شأن مع حكام الولايات المجاورة بحيث ان هذا التحالف ساعد الامير بشيرا على القيام بدور مهم خارج حدودولايته ، واهمها مساهمته في القتال ضد الحركة الوهابية سنة **١٢٢٥** هـ / **١٨١٠** م[٦٠] . واعطى هذا التحالف نتائج اخرى على الصعيد الداخلي فأصبح لبنان ملجأ للمضطهدين في الولايات المجاورة . وقد تعرض نصارى بلاد الشام ومثلهم الدروز في منطقة حلب للاضطهاد بتأثير من الحركة الوهابية فنزح عدد غفير من النصارى الى لبنان . اما دروز منطقة حلب فقد استغاثوا بالشيخ بشير جنبلاط وبالامير بشير ، فأرسل كل من فارس الشدياق وحسون ورد وحسن ابو شقرا لدراسة الوضع . وتفاهم الشيخ بشير مع الامير بشير على وجوب نقلهم الى لبنان . وتم في سنة **١٢٢٦** هـ / **١٨١١** م نقل اكثر من اربعماية عائلة درزية من هؤلاء على نفقة البشيرين ، وزعوا على مختلف القرى الدرزية في لبنان وبعضهم سكن في بيوت الذين نزحوا الى حوران[٦١] .

---

٥٩ ـ شهاب ، المصدر السابق ، ص ٦٤١ ـ ٦٤٢ وص ٦٥١ ـ ٦٥٥

٦٠ ـ المصدر نفسه ، ص ٥٦١ ، وكذلك ، اسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز ١٨٠٤ ـ ١٨٤١ . (بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٥٦ ـ ٥٧) ج ١ ، ص ٢٦ ـ ٢٩

٦١ ـ راجع شهاب ، المصدر السابق ، ص ٥٧٢ وكذلك :

G. Bell D. Hogarth, *Encyclopaedia Britannica*, 11 th edt. p 606

وظل هذا التحالف بين البشيرين قائماً في اصعب الظروف التي عاشها الامير بشير حتى ان الشيخ بشير جنبلاط رافق حليفه الشهابي الى حوران بعدما اضطر الامير لترك الحكم بسبب غضب والي صيدا عليه .

واستطاع انذاك الحزب اليزبكي التقاط انفاسه وساند الاميرين الشهابيين حسن علي وسلمان احمد للوصول الى الحكم . ولكن اقصاء البشيرين عن السلطة لم يدم طويلا اذ سرعان ما رضي والي صيدا على الامير بشير وحليفه فرجعا الى البلاد . فخاف زعماء الحزب اليزبكي من انتقام الامير بشير منهم . ولكن مشايخ العقل الدروز عملوا على اصلاح ذات البين بين مختلف الفرقاء ووفقوا الى عقد صلح بين الامير بشير ومعارضيه السابقين ، زعماء الحزب اليزبكي ، واتفقوا على اعادة الامير بشير الى الحكم سنة **١٢٣٦** هـ / **١٨٢٠** م .[٦٢] واستطاع الامير بشير بفضل اجماع زعماء الاقطاع الدروز على تأييده ان يتصدى « لعامية الحفد » في السنة التالية .

الدروز وعامية لحفد :

كانت عامية لحفد في الواقع احدى حركات التمرد والعصيان التي كان يقوم بها عامة الناس من وقت لاخر ضد سياسة الحاكم الضرائبية . وقد سبق وذكرنا وقوع مثل هذه الحركة في عهد الامير يوسف ومنها الاحتجاج على ضريبة « الشاشية » . وفي قرية لحفد في منطقة جبيل تمرد عامة الناس على الامير بشير ورفضوا اداء الاموال الاميرية التي فرضها الامير عليهم سنة **١٢٢٧** هـ / **١٨٢١** م وكان ذلك بتشجيع من بعض الامراء الشهابيين الطامعين في السلطة . ولكن الامير بشيرا اخضع المتمردين بالقوة بعد ان استنجد بزعماء الاقطاع الدروز فانجدوه برجالهم وكان على رأس هؤلاء الشيخ بشير جنبلاط والشيخ حمود ابو نكد والشيخ علي العماد وبعض المشايخ من آل تلحوق وعبد الملك[٦٣] .

النزاع بين الامير بشير والشيخ بشير جنبلاط :

ولكن هذا الاجماع على تأييد الامير بشير لم يدم طويلا اذ سرعان ما بددته سياسة الامير بشير في الداخل والخارج . ففي الداخل كان الاتفاق بين الحزبين

---

٦٢ ـ شهاب ، المصدر السابق ، ص ٦٦٠ ـ ٦٦٢ وص ٦٧٦

٦٣ ـ المصدر نفسه ، ص ٦٨٥ ـ ٦٩٠ .

الجنبلاطي واليزبكي امرا عابرا فرضته الظروف . ولم تكن مصلحة الامير بشير تقضي بانهاء الخلافات بين هاتين الفئتين على كل حال ، وقد استغل ذلك النزاع في السابق لتقوية مركزه ونفوذه . وبعد ان قضى على نفوذ زعماء الفئة النكدية ثم الفئة اليزبكية وجد فرصة جديدة للقضاء على الفئة الجنبلاطية بزعيمها الشيخ بشير جنبلاط . وجاءت تلك الفرصة عندما انحاز الامير بشير الى جانب عبد الله باشا والي عكا ضد درويش باشا والي الشام . وقد بلغ الصراع بين هذين الواليين اشده سنة ١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م واندلع القتال بينهما . وسارع الامير بشير لنجدة حليفه عبد الله واوقع الهزيمة في صفوف درويش باشا في معركة المزة تلك السنة . وكان في عداد[٦٤] قوات الامير زعيمان درزيان هما الشيخ علي جنبلاط والشيخ حمود النكدي مع رجالهما. ذلك لان بعض رجال الاقطاع الدروز كانوا كما يبدو يستجيبون لمخططات الامير بشير خدمة لمصالحهم الشخصية حتى ولو كانت تلك المخططات تؤدى احيانا ومن غير أن يدروا لضرب بعضهم ببعض . الا ان انتصار الامير بشير في المزة ادى الى تدخل الباب العالي الى جانب والي الشام ، فأجبر الامير بشير على التنازل عن كرسي الحكم لنسيبه الامير عباس الشهابي وللسفر الى مصر . وتذكر بعض المصادر ان الامير بشيرا وافق على تولية الامير عباس شهاب وأخذ العهد عليه بعدم خيانته ، ووافق الشيخ بشير جنبلاط على ذلك . وكان والي الشام يميل الى تولية الاميرين الشهابيين حسن وسلمان بدلا منه ، الا ان الامير عباسا كان اقرب للامير بشير سياسيا ومحسوبا على الحزب الجنبلاطي . وقام الشيخ بشير بدور اساسي في تولية الامير عباس الشهابي وذلك عن طريق تأدية مبلغ من المال لدرويش باشا والي الشام[٦٥] . وتعاون الشيخ بشير جنبلاط مع والي الشام خلال فترة غياب الامير بشير وعمل على دعم مركز الامير عباس ضد رغبة الامير بشير مما أدى الى حنق الاخير عليه . والواقع ان موقف الشيخ بشير الجديد من الصراع الذي نشب بين عبد الله باشا صديق الامير بشير ودرويش باشا خصمه كان منسجما مع موقف اكثرية زعماء البلاد انذاك وخاصة الدروز منهم . وهو موقف اتصف بمسايرة الوالي الذي يؤيده الباب العالي ، لا سيما ان هؤلاء الزعماء كان يخشون غضب السلطان . وبما ان

---

٦٤ ـ رستم باز ، مذكرات رستم باز (بيروت ، منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٥٥) ص ١٩ ـ ٢٠ ويذكر ان عدد رجال النكدي بلغ حوالي الف رجل .

٦٥ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ كذلك رستم ، المرجع المذكور ج ١ ، ص ٣٦

الدولة العثمانية كانت تساند والي الشام في هذا الصراع فلم يكن باستطاعة الشيخ بشير ان يتصدى منفردا لولاة الشام وهم متحدون . فكان لا بد اذن من تأييد سياسة الباب العالي المساندة لولاة الشام . الا ان مسايرة الشيخ بشير جنبلاط لدرويش باشا اصبحت وبالا عليه بعدما انقلبت الادوار ورضي الباب العالي على كل من عبد الله باشا فأبقاه واليا على عكا ، وعلى الامير بشير فرجع الى سدة الحكم . وكان محمد علي باشا والي مصر قد توسط للاثنين لدى الباب العالي فابقيا في منصبيهما .

ولكن الامير بشيرا شعر بعد عودته من مصر وتحالفه مع واليها القوي محمد علي انه اصبح من القوة بحيث يستطيع تصفية باقي خصومه ومنافسيه السياسيين . وقرر التخلص من حليفه السابق الشيخ بشير جنبلاط متهما اياه بالتآمر مع الامير عباس الشهابي ليحولا دون رجوعه الى سدة الحكم . غير ان معظم الباحثين لا يرون في هذه التهمة سببا كافيا لانتقام الامير بشير من حليفه السابق بل يرون في سعي الامير بشير الدائب « لتحطيم الرؤوس الكبيرة » على حد قول المؤرخ اسد رستم من اجل دعم سلطته المركزية السبب الرئيسي لذلك الخلاف بين البشيرين [٦٦] .

الاميرة حبوس الارسلانية :

ولم تكن المرة الاولى التي يتنكر فيها الامير بشير لحلفائه اذ سبق ان غدر بحليفته الاميرة حبوس الارسلانية ، فقتلت في كمين أعده لها في احدى الطرق . ولم يعرف سبب حنق الامير بشير على الاميرة ، انما تعزوه بعض المصادر لخلاف نشب بينها وبين الامير بشير على احدى المزارع في الغرب* . ومهما يكن من أمر فان مقتل الاميرة حبوس اعتبر على الصعيد الدرزي احد الاعمال الشائنة التي ارتكبها الامير بشير بحق الدروز . ذلك ان الاميرة الارسلانية كانت ابرز نساء عصرها في بلاد الشام وقد تولت السلطة في منطقة الغرب بعد وفاة زوجها الامير عباس الارسلاني **١٢٢٤** هـ / **١٨٠٩** م وأظهرت مقدرة فائقة في السياسة وعرفت بالحنكة وسداد الرأي وقوة الشخصية . وهكذا فبعد القضاء على الاميرة الارسلانية بعث

---

* - راجع بشأن الاميرة حبوس، محمود صعب ، قصص ومشاهد من جبل لبنان (بيروت ، المجلس الدرزي للبحوث والانماء ، ١٩٨٠) . ص ٣٥ - ٤٥

٦٦ - باز ، المصدر السابق ، ص ٢٢ ، ورستم ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧

الامير بشير وهو في طريق العودة من عكا يطلب من الشيخ بشير مبلغا كبيرا من المال ارضاء لحليفه عبد الله باشا فلبى الشيخ الجنبلاطي طلبه . ولما وصل الامير بشير الى صيدا ، خف الشيخ بشير مع سائر الاعيان للترحيب بالامير مظهرا حسن نواياه . ورافق الشيخ بشير موكب الامير الى الجبل ولكنه اضطر ان يفترق عن ذلك الموكب في مرج بعقلين بعد ان سمع من الامير كلمة قاسية اظهرت حنق الامير عليه[٦٧] . واتضحت نوايا الامير تجاه حليفه السابق عندما طلب من الشيخ بشير مبلغا آخر من المال . واذ تحقق الشيخ الجنبلاطي من نية الانتقام لدى الامير بشير عزم على الرحيل مع بعض الامراء الارسلانيين الى حوران . ولكن الامير بشيرا وضع يده على املاك الشيخ بشير وغرّم الذين رافقوه ومن بينهم الامراء الارسلانيون وبعض الامراء اللمعيين ومقدموا حمّانا[٦٨] .

وتمادى الامير الشهابي في تحديه للشيخ الجنبلاطي مدعوما من حليفه عبد الله باشا والي عكا ومحمد علي عزيز مصر . ولكن الشيخ بشيرا عزم على التصدي لتلك السياسة وقرر القيام بثورة ضد الامير وألّب حوله جميع معارضي الامير من الشهابيين ومن بينهم الامراء سلمان وفارس وحسن وبعض الامراء اللمعيين ، وعمل في الوقت نفسه على عقد تحالف مع الحزب اليزبكي بزعامة الشيخ علي عماد . وانضم الى هذا الحلف الشيخ اسعد النكدي فضلا عن الامراء الارسلانيين وسائر الذين رافقوه الى حوران[٦٩] . واستعد الفريقان للمجابهة العسكرية فاستنفر الامير بشير محازبيه ، وعلى رأسهم مشايخ النكدية (باستثناء الشيخ اسعد) ومن يتبعهم من اهالي دير القمر ومنطقتي المناصف والشحار ، ومشايخ التلاحقة وأتباعهم . وكان في عداد قوات الامير آل حماده من بعقلين وآل عبد الصمد من عماطور وجميع هؤلاء من الحزب اليزبكي المناوىء تقليديا للشيخ الجنبلاطي . في حين كان زعماء الحزب اليزبكي التقليديون من آل عماد يقفون الى جانب الشيخ بشير جنبلاط . وكانت الاكثرية الساحقة من المقاتلين لدى الفريقين مؤلفة من الدروز والاقلية من النصارى ، الا ان هؤلاء الاخيرين كانوا اكثر عددا في فريق الامير بشير منهم في

---

٦٧ ـ يذكر رستم باز في مذكراته ص ٢٤ ، « انه لما وصل موكب الامير الى مرج بعقلين نده (نادى) : يا شيخ بشير درب بيتك من هون . . . ففل (ذهب) الشيخ بشير الى المختارة حزين » .

٦٨ ـ شهاب ، المصدر السابق ، ص ٧٥٠ و ٧٥٦

٦٩ ـ الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ص ١٨٧

فريق الحزب الجنبلاطي[70] . وبالاضافة الى محازبيه استنجد الامير بشير بحليفيه عبد الله باشا ومحمد علي ، فارسل له عبد الله باشا قوة عسكرية تجاوز عددها ثلاثة آلاف جندي من الارناؤوط والانكشارية .

المعركة الفاصلة : نهاية الشيخ بشير :

وحاول بعض المصلحين التوسط بين البشيرين دون جدوى ، الا ان الامير بشيرا عمل على تأجيل المجابهة العسكرية متظاهرا بميله للصلح الى ان وصلت قوات عبد الله باشا لنجدته . اما رجال الشيخ بشير وحلفاؤه فقد اظهروا تفوقهم على رجال الامير ووصلوا الى مقاصف بيت الدين . غير ان القوات العثمانية التي ارسلها عبد الله باشا لمساعدة الامير بشير قلبت ميزان القوى لصالح الامير ومكنته من تحقيق الانتصار على قوات الفريق الجنبلاطي في بقعاتا الشوف . وجرح في تلك المعركة افضل قائدين عسكريين لدى الفريق الجنبلاطي وهما الشيخ علي جنبلاط والشيخ علي عماد فتراجعا الى المختاره . ولعبت سياسة الترهيب والترغيب من قبل الامير بشير دورا حاسما في تضعضع فريق الشيخ بشير . وكان الامير بشير قد بعث ثلاثة من عقال الدروز الى المختارة بينهم الشيخ خطار تلحوق في محاولة لاقناع سائر العقال للتخلي عن مساندة الشيخ بشير . ويصف احد المؤرخين المعاصرين لهذه الحادثة دور الشيخ تلحوق كما يلي نصه :

« وكان البعض من عقال البلاد يراسلوا اوليك (اولئك) وينذروهم وهم لا يقبلون كلامهم . وكان المجدّ والمعتني بالمراسلة والصرف الشيخ خطار تلحوق لانه كان حسن التدبير وذو فطنة وعقل ثاقب يود الصلاح ، ولم يكن يناسب اولئك العقال على رأيهم بل كان يبكتهم على ذلك الخروج . وتبعته جميع عقال الغرب الفوقاني والعقال الذين تبعوا المشايخ بيت ابو نكد . وكان في كل يوم يترامى على اقدام الامير ليأذن له في التشويق والتخويف الى اولئك من عواقب الامور . وكان المذكور كل يوم يسير الى عين السمقانية ويجتمع مع بيت عبد الملك العقال الذين كانوا في المختارة ويشوفهم عواقب هذه العصاوة (العصيان) ويخوفهم من سطوة عبد الله باشا وامداد عساكره وزخايره (ذخائره) الى الامير بشير وان والي الشام

٧٠- ابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ١٣

ايضا موجه عساكر الى اعانة عبد الله باشا ولا بد ان يظفر الامير في اخصامه وينتقم من كل من خرج على طاعته »[71] .

ويمكننا ان نستنتج من هذا الكلام ان هؤلاء العقال ربما كانوا يعتقدون بان الدروز لن يقووا وحدهم على مقاومة جيوش الدولة العثمانية وان موقف الشيخ بشير السابق من عبد الله باشا هو الذي دفعه الى هذا المأزق ، وليس من مصلحة الدروز اذن ان يدفعوا ثمن تقلب الولاة العثمانيين من الشيخ بشير وحلفائه . اما الذين رأوا ان الشيخ بشيرا كان محقا في موقفه فقد تخلوا عنه بعد ان تحققوا من عدم جدوى مواصلة القتال خاصة بعد تخلي سائر حلفاء الشيخ بشير عنه واضطر امام ضغط تلك القوى للفرار مع من بقي معه من حلفائه من المختاره الى جزين فحوران . وما ان عرف الامير بشير بفرارهم حتى ارسل ابنه الامير خليلا ونسيبه الامير ملحم لتعقبهم . ولكن الشيخ بشيرا وحلفائه جدّوا في مسيرهم الى حوران عن طريق اقليم البلان . وقبل أن يبلغوا ذلك المكان بعث الامير بشير لحليفه عبد الله باشا بكتاب يلتمس فيه القبض على الشيخ بشير فطلب عبد الله باشا بدوره من والي الشام القيام بهذه المهمة . ولبى والي الشام الطلب وارسل فرقة من جنوده تتعقب النازحين في طريقهم . واستطاع قائد تلك الفرقة ان يخادع الشيخ علي العماد ويقبض عليه كما قبض على الشيخ بشير وبعض مرافقيه من البيت الجنبلاطي . وسار بهم الى مركز الوالي في دمشق حيث امر بقتل الشيخ علي العماد وسجن الباقين . وتعاقب حلفاء الامير بشير على معاقبة الشيخ بشير فطلب عبد الله باشا من نده والي الشام تسليم السجناء فارسلوا الى عكا وامر بسجنهم . وبلغ الامير بشيراً خبر سجن الشيخ في عكا فطلب من واليها ان يحكم على الشيخ الجنبلاطي بالاعدام . ولكن عبد الله باشا تردد في الامر علّه يستحصل على بعض الاموال من الشيخ الثري مما اوقع الخشية في نفس الامير بشير . الا ان الامير بشيرا بعث الى صديقه محمد علي في مصر يلتمس منه الطلب الى عبد الله باشا باعدام الشيخ بشير ، والشيخ امين العماد . فنفذ والي عكا طلب محمد علي باشا واعدم الشيخان شنقا في عكا سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م .

---

٧١ - شهاب ، المصدر السابق ، ص ٧٦٤ وقابل الشدياق ، ج ١ ص ١٩١

٧٢ - المرجع نفسه ، ص ١٩٥ - ١٩٨

النتائج السياسية لمقتل الشيخ بشير :

وخلا الجو السياسي للامير بشير بعد القضاء على كبير منافسيه الشيخ بشير جنبلاط ، الا ان هذه الحادثة تركت اثارا بعيدة المدى على الصعيد الدرزي . فالشيخ بشير لم يكن زعيم الفريق الجنبلاطي وحسب بل كان اقوى زعماء الدروز في زمانه واكثرهم غنى وابعدهم نفوذا وجاها . ويبدو ان الامير بشيرا كان يراقب تعاظم قوة حليفه السابق بحذر قبل هذه الحادثة بزمن طويل . ولا شك انه كان يشعر بثقل الشيخ بشير السياسي والمعنوي داخل حدود امارته وخارجها[٧٣] . وقد رأينا من خلال هذا البحث كيف كان الامير بشير يعتمد بشكل اساسي في مطلع عهده على دعم الحزب الجنبلاطي . وعندما شرع الامير بتصفية زعماء الاقطاع الدروز ، كان الشيخ بشير وحزبه يشكلان غطاء سياسيا له بين الدروز . ولم تكن تلك السياسة التي طبقها الامير بشير لتثير مشاعر الدروز عامة طالما ان القضاء على نفوذ بعض زعماء الاقطاع الدروز كان يزيد من قوة الحليفين الجنبلاطي والشهابي . لا بل ان الشيخ بشيرا كان في نظر العديد من الدروز انذاك يعمل على اعادة السلطة الاساسية في حكم لبنان للدروز . وهي السلطة التي فقدوها منذ نهاية الحكم المعني وبداية الحكم الشهابي . وقد ورد في بعض المصادر المنحازة للزعيم الجنبلاطي اشارة الى مخطط وضعه الشيخ بشير يقضي بجمع الدروز في منطقة واحدة تمتد من البحر غربا حتى حوران شرقا وتكون تحت سلطته ونفوذه[٧٤] . ومما قد يؤيد صحة هذا الرأي مسعى الشيخ بشير لضم اقليم البلان (القسم الشرقي من جبل الشيخ) الى جبل لبنان وبنائه لجامع المختارة حوالي سنة **١٢٣٣** هـ / **١٨١٧** م . ولعل اعتقاد الامير بشير بوجود مثل هذا المخطط لدى الشيخ بشير جعله ينقلب على حليفه السابق ويعمل على القضاء عليه نهائيا . ويذكر المؤرخ طنوس الشدياق - (وهو مؤرخ معاصر للامير بشير) - ان الامير بشيرا اغتاظ من الشيخ بشير لانه بنى ذلك الجامع في المختارة واستصوب تقوية الحزب اليزبكي من جديد[٧٥] . والثابت تاريخيا ان نزعة

---

٧٣ - حتى ان البابا بيوس السابع بعث الى الشيخ بشير جنبلاط رسالة تقدير لما تحلّى به من عطف على الموارنة ويطلب منه الاهتمام بالموارنة ، راجع نص هذه الرسالة مترجمة في **اوراق لبنانية** ، م٢ (ايلول ١٩٥٦) ، ص ٣٨٧ ورد الشيخ بشير ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

٧٤ - ابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ١٥

٧٥ - الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٩

الامير للبطش بخصومه خوفا على منصبه من المناوئين والمنافسين كان هاجسا حقيقيا لازم الامير بشيراً لفترة طويلة من حكمه . وكان عهده كعهد سلفه الامير يوسف الشهابي قد شهد الكثير من الدسائس والمؤامرات وحفل بالكثير من حوادث البطش والانتقام . وليست حادثة اعدام الشيخ بشير من هذا القبيل الا تتويجا لتلك السياسة الانتقامية التي طبقها الامير على جميع خصومه السياسيين من مختلف الطوائف[٧٦] . ولكن انتقام الامير بشير هذا اصاب زعماء الاقطاع الدروز اكثر مما اصاب بقية الطوائف وبلغ ذروته بمقتل الشيخ الجنبلاطي مما خلف اثرا سيئا في نفوس الدروز عامة . ذلك لان الشيخ بشيراً كان يمثل مع حزبه ما تبقى من القوة السياسية للدروز . وهي القوة التي شرع الامير بشير باضعافها تدريجيا ، ابتداء من تصفية زعماء النكديين مرورا بالارسلانيين والعماديين والتلاحقة والملكيين وانتهاء بالاسرة الجنبلاطية .

ولم يكتف الامير بشير باعدام حليفه الجنبلاطي بل اجلى جميع افراد الاسرة الجنبلاطية من الشوف وهدم ابنيتهم ومنها الجامع الذي شيده الشيخ بشير في المختارة . اما املاك الجنبلاطيين الواسعة الغنية فقد ضمّها الامير بشير الى املاكه . وامعانا باضعاف زعماء الاقطاع الدروز سياسيا واقتصاديا وضع الامير يده على جميع المقاطعات التي كانت تابعة لاقطاع الجنبلاطيين وسلمها لابنه الامير خليل . وكانت هذه المقاطعات تشمل الشوفين الحيطي والسويجاني مع بعقلين واقليم الخروب واقليم التفاح وجبل الريحان ومقاطعة جزين والبقاع الغربي . وباستثناء اقليم الخروب الذي سلمه للشيخ حسين حمادة فقد عينّ وكلاء على هذه المقاطعات من النصارى مما اثار حفيظة الدروز الذين كانوا سابقا يتولون شؤون تلك المقاطعات من قبل البيت الجنبلاطي[٧٧] .

وما اصاب البيت الجنبلاطي من نكبات على يد الامير بشير اصاب حلفاءه ومؤيديه من مناصب واعيان ، فبالاضافة الى سمل عيون الامراء الذين وقعوا في قبضة الامير فقد ضيق الخناق على من تبقى منهم في البلاد وغرمهم بمبالغ كبيرة لم

---

٧٦ - راجع في ذلك ، « لانهم معارضون » مجلة اوراق لبنانية (كانون اول ١٩٥٦) ص ٥٢٩ - ٥٣١ .

٧٧ - ابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ١٦ ، وقد سلم الشوف الحيطي لغنطوس القهوجي والشوف السويجاني لشاهين رزق ، واقليم جزين لآل ناصيف .

يستطع بعضهم دفعها . وكان الذي يعجز عن الدفع يجبره الامير على التخلي عن عقاراته لاحد اتباعه ـ اتباع الامير ـ حتى ضاقت الحال بعدد كبير من هؤلاء الدروز واضطروا للنزوح الى جبل حوران[٧٨] .

وهكذا استطاع الامير بشير ان يقضي على مكانة الدروز السياسية في لبنان بالدسائس احيانا وباستخدام القوى الخارجية لاضعافهم احيانا اخرى . ولا شك ان نجاحه في تحطيم الزعامة الدرزية قد ساهم في القضاء على تفوق الدروز السياسي والاقتصادي في جبل لبنان وافسح بالمقابل المجال اما القوى الاخرى خاصة المارونية منها لتحل مكان الدروز . ولكن تلك القوى الجديدة لم تكن في موقع المنافس له بقدر ما كانت في موقع الخضوع له حتى اصبح صاحب الكلمة المطلقة في الامارة اللبنانية . بيد أن تضعضع سائر القوى الداخلية واضعافها ترك الجبهة الداخلية في عهد الامير بشير ضعيفة عاجزة عن الوقوف في وجه التدخل الخارجي . وهذا يعني ان سياسة الامير بشير الداخلية كانت عكس ما درج على وصفها بعض المؤرخين اللبنانيين « بالسياسة الناجحة » وبأن عهده شبيه بعهد فخر الدين المعني الكبير . فقد رأينا في الفصل السابق ان سياسة فخر الدين المعني ارتكزت بالدرجة الاولى على توحيد مختلف القوى السياسية داخل البلاد وذلك عن طريق ازالة الخلافات والتناقضات وتصدير تلك الخلافات والتناقضات الى خارج البلاد . وقد نجح فخر الدين ببناء جبهة داخلية وطنية متماسكة قادرة ليس على حماية البلاد وحسب بل على قهر الولاة العثمانيين وتحدي السلطان نفسه في زمن كانت فيه الدولة العثمانية من اقوى دول زمانها في الشرق والغرب . اما عهد الامير بشير فقد حفل بشتى انواع التفرقة السياسية في الداخل ، بحيث لم تعد البلاد قادرة على منع التدخل الخارجي في شؤونها الداخلية . واصبح الامير اسير تحالفه الخارجي فمزق بذلك وحدة بلاده الوطنية وتركها عرضة لمزيد من التجزئة الطائفية بعد دخول قوات محمد علي الى لبنان وخضوع الامير بشير لسلطته ممهدا بذلك للحرب الاهلية التي وقعت بين الدروز والنصارى .

اما على الصعيد الدرزي فان حادثة تصفية زعماء الحزبين اليزبكي والجنبلاطي الدروز في عهد الامير بشير تمثل نقطة تحول في مرحلة من التراجع والتردي في تاريخ

---

٧٨ ـ المصدر نفسه ، ص ١٥ وفابل ، شهاب ، المصدر المذكور ، ص ٧٧٧

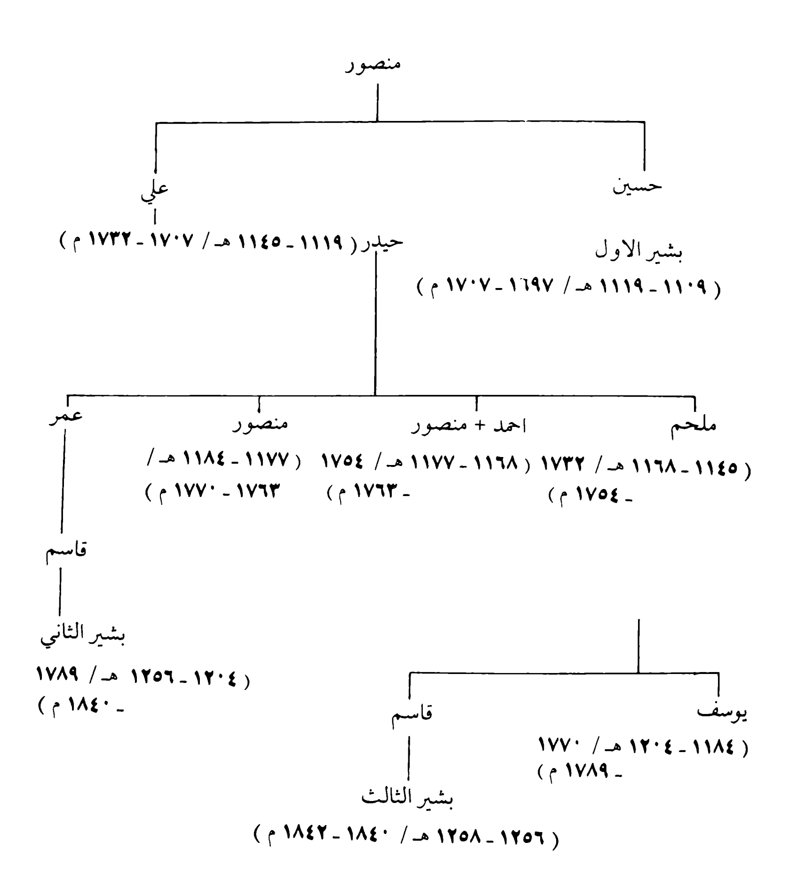
الدروز السياسي . وكان هذا التردى في قوة الدروز السياسية قد بدأ بشكل تدريجي منذ تسلم الشهابيين للحكم في لبنان . الا ان الامير بشيرا سدّد على حد تعبير المؤرخ كمال الصليبي « ضربة قاضية لمكانة الدروز في البلاد[79] » . ويبدو ان معظم زعماء الدروز شعروا لاول مرة - اثر هذه الحادثة - بان الامير بشيرا استهدف القضاء عليهم سياسيا ، فلم يغفروا له ، بل شكلوا منذ ذلك الحين معارضة قوية لحكمه وانتظروا فرصة مناسبة للاخذ بالثأر . وبدت طلائع تلك الفرصة تظهر في الحقبة الاخيرة من عهد الامير بشير . وهي الحقبة التي دخلت فيها بلاد الشام تحت الحكم المصري بحيث وجد الامير بشير نفسه اسير سياسة انحيازه في الخارج لمحمد علي باشا وفي الداخل امام معارضة درزية تأججت في نفوس زعمائها روح الثورة ضد تدخل والي مصر للقضاء على ما تبقى من قوة الدروز السياسية . ولكن رياح هذه الثورة لم تهب هذه المرة من بلاد الدروز في لبنان بل من جبل الدروز في حوران حيث كان المنفى الذي استقر فيه زعماء الدروز المعارضين للامير بشير ، فلنلق نظرة على وضع الدروز هناك .

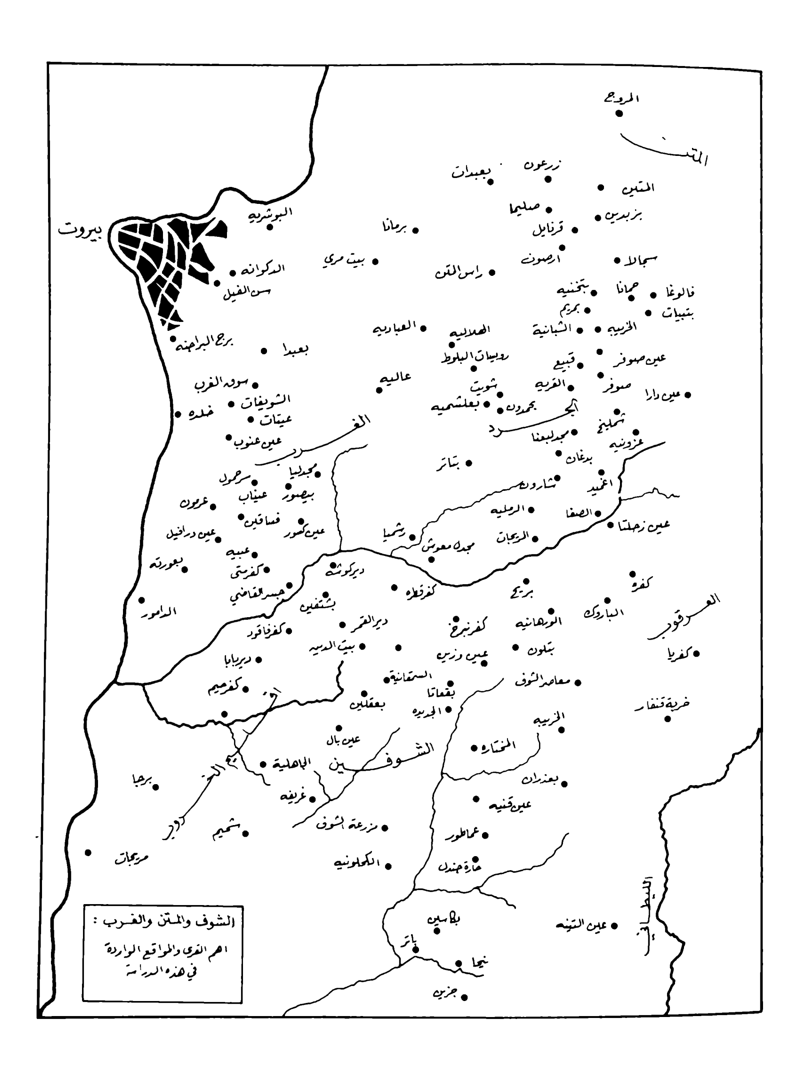
---

٧٩ - صليبي ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

٨٠ - هنالك رواية حديثة نقلا عن بعض العنعنات اللبنانية تقول ان المعنيين لم ينقرضوا بوفاة الامير احمد المعني كما هو معروف ، بل بقي من سلالة المعنيين الامير علم الدين الذي كان بحسب هذه الرواية قد التجأ اثر احد المعارك في سوق الخان الى قرية ابل السقي واختبأ عند دروز تلك القرية . وقيل انه ترك لقب الامارة كي لا يلفت انتباه العثمانيين وانقطع الى التعبّد في خلوة بنيت له في تلك القرية . ولم يفطن اليه احد يومذاك . ومن سلالته اميران هما سليم وعلم الدين وأميرة اسمها شيخة . وقد توفي هؤلاء بلا عقب منذ فترة يسيرة . وقد جاء في هذه الرواية ان احد احفاد الامير علم الدين كان يحتفظ بوثيقة تثبت عائلته المعنية دون ان يشير فيما نعلم الى هذه الوثيقة احد من المؤرخين . راجع عن هذه الرواية : سلام الراسي « قطعة اثرية من آل معن » .
جريدة النهار ١٣ ايلول ١٩٧٩ ، العدد (١٣ . ١٤) .

شجرة حكام
الامارة الشهابية





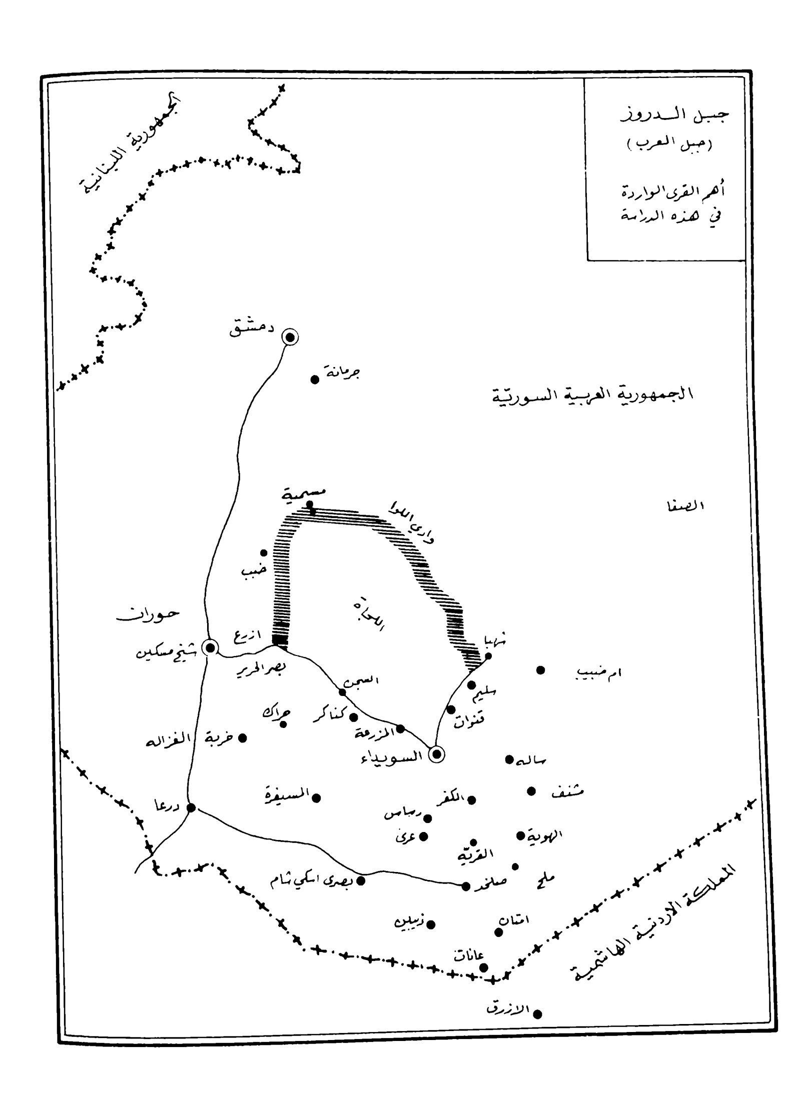
الشوف والمتن والغرب :
اهم القرى والمواقع الواردة
في هذه الدراسة
بيروت
المروج
المتن
زرعون
بعبدات
المتين
صليما
بزبدين
قرنايل
البوشرية
برمانا
ارصون
سجالا
بيت مري
راس المتن
الدكوانه
حس الفيل
فالوغا
حمانا
بتخنيه
بمريم
بتبيات
الخريبه
الشبانية
العبادية
الحلاليه
برج البراجنه
بعبدا
رويسات البلوط
قبيع
عين صوفر
صوفر
عاليه
شويت
القريه
عين دارا
سوق الغرب
الشويفات
بعلشميه
بحمدون
الجرد
خلده
عيتات
شمليخ
مجدلبعنا
عزونيه
عين عنوب
الغرب
بتاتر
بوغان
مجدليا
سرحمول
بيصور
عيناب
شارون
اغميد
عرمون
فساقين
عين كسور
الرمليه
الصفا
عين زحلتا
عين درافيل
رشميا
مجدل معوش
الريحان
عبيه
كفرمتى
بعورته
ديركوشه
كفرقطره
بريح
كفرنيس
جسر القاضي
الدامور
بشتفين
دير القمر
كفرنبرخ
الوهابنيه
الباروك
العرقوب
كفرحيم
بيت الدين
بتلون
عين وزين
كفرفاقود
دير بابا
كفريا
كفرحيم
بقعاتا
السمقانية
معاصر الشوف
بعقلين
الجديده
خربة قنفار
الخريبه
عين بال
الشوف
المختاره
الجاهلية
برجا
بعذران
غريفه
عين قنيه
مزرعة الشوف
شحيم
عماطور
مرجبات
الكحلونيه
حارة جندل
بطمين
عين التينه
باتر
نيحا
جزين

الفصل السابع

الموحدون الـدروز في جبـل حوران ؛ الثـورة ضد ابراهيم باشا

« وبـرج الغضـب جانـا ابـراهيم باشنا بالارنـاؤوط التـرك والبلغار
ونصـبّ عراضي الجيش في ديار اللجا وضيق علينـا الظالـم القهار
وستـين كون نقابلـوا ما منهابو ونـكسر جيوشـه بقـوة المختار
فهـذي قلعتنـا وهـذه لجاتنا وتربـة عدانـا ومـن دخلهـا حار
وكم ليث منـا باع روحـه بلا ثمن بسـوق المنـايا في الوغـى كرار »

ابو علي الحناوي
شاعر الثورة


جبل الـدروز
(جبل العرب)
أهم القرى الواردة
في هذه الدراسة
الجمهورية اللبنانية
دمشق
جرمانة
الجمهورية العربية السورية
مسمية
وادي اللوا
الصفا
خبب
اللجاة
حوران
ازرع
شيخ مسكين
بصر الحرير
شهبا
ام ضبيب
السجن
سليم
قنوات
جراك
كناكر
المزرعة
خربة الغزاله
السويداء
سالة
شنف
درعا
السيفرة
الكفر
ريماس
عري
الهوية
القرية
ملح
صلخد
بصرى اسكي شام
زبيري
امتان
عانات
الازرق
المملكة الاردنية الهاشمية

مقدمة :

ليس تاريخ الدروز السياسي في جبل حوران مستقلا تمام الاستقلال عن تاريخهم في سائر المناطق الا ان هذا التاريخ جله حديث يمتد الى فترة لا تزيد عن ثلاثة قرون من الزمن . ويبدو ان هذا التاريخ يبدأ في النصف الثاني من القرن السابع عشر للميلاد حيث استوطنت اول جماعة درزية في جبل حوران ولحق بها جماعات اخرى خلال فترات متقطعة تمتد نحو قرنين . وتجدر الاشارة في هذا البحث الى الصعوبات التي يواجهها الباحث في تقصي اخبار تلك الجماعات الدرزية التي استقرت في جبل حوران خلال القرن الثامن عشر . فالمصادر المتوفرة عن تلك الحقبة قليلة جدا . ومعظم ما ورد فيها دوّن في فترة متأخرة اي في القرن التاسع عشر وما بعد . ومعظم الرحالة الغربيين الذين زاروا منطقة حوران واشاروا في مؤلفاتهم الى تلك الجاليات الدرزية هناك يرجعون الى هذا القرن ايضا . ونوّد التنويه في هذا المجال بتلك الجهود التي بذلها المؤرخ سليمان ابو عز الدين لجمع بعض الاخبار المهمة عن هذا الموضوع وتدوينها . وقد نشر بعضها في مجلة الكلية ، وما نشره كان مصدرنا الاساسي لهذه الحقبة .

ويستدل من هذه الاخبار المنقولة شفاها على الاغلب ، ان اول من سكن جبل حوران من الدروز هو حمدان الحمدان واخوه ، وهما اصلا من قرية كفرا الواقعة بالقرب من عيناب ـ الغرب . وقد هاجر الاخوان قريتهما بسبب المنازعات وربما بسبب الحزبية اي النزاع القيسي ـ اليمني بين الدروز . والمشهود ان بني الحمدان كانوا ينتمون الى الحزب اليمني وان القيسيين احرقوا قريتهم (كفرا) اثر انتصارهم على الحزب اليمني في موقعة عين دارا سنة ١١٢٢ هـ ١٧١٠ م . ومع ان تختلف

المصادر تجمع على ان ال حمدان كانوا اول من استقر في جبل حوران فانها لا تتفق على تحديد العام ..ي هاجروا خلاله الى تلك المنطقة . فبعض المصادر تشير الى ان هجرة آل الحمدان الى جبل حوران تمت قبل موقعه عين دارا في اواخر العهد المعني وبعضها الاخر يجعلها بعد موقعة عين دارا الشهيرة ١١٢٢ هـ ١٧١٠. وتجدر الاشارة الى ان استقرار آل الحمدان في الشمال الغربي من جبل حوران لم يكن بحسب بعض الروايات بسبب النزاع القيسي اليمني بين الدروز في لبنان ، بل ربما كان لهدف عسكري ، اي لاقامة قاعدة عسكرية من اجل توسع دولة المعنيين شرقا . وكان الامير علم الدين بن معن قد هاجم سنة ١٠٩٧ هـ/ ١٦٨٥ م بعض قرى جبل حوران التي كان معظمها منتجعا للبدو فاحتل خمسة قرى منها وولى عليها وكيله حمدان الحمدان قبل رجوعه الى لبنان[٢] . ولكن معظم الباحثين يجمعون تقريبا على ان القسم الاكبر من دروز حوران جاء الى ذلك الاقليم بعد انتصار الحزب القيسي على الحزب اليمني في موقعة عين دارا الشهيرة حيث اضطر قسم كبير من الحزب اليمني الى النزوح الى منطقة حوران[٣] . واستوطنت الجالية الاولى من الدروز بحسب بعض الروايات في مطحنة الدنيفات وموقعها غربي ازرع . ثم انتقلوا الى قرية تبنه الواقعة في منطقة اللجاه الوعرة . وبعد ان عملوا في الزراعة مدة سنتين لحق بهم عدد من المهاجرين الجدد ونزلوا في قريتي المجدل وريمة اللحف جنوبي اللجاه[٤] . وكانت منطقة حوران لا تزال في ذلك الحين معرضة لغزوات البدو من الصحراء . وكان القسم الاكبر من جبل حوران مليئا بالقرى المهجورة منذ عدة قرون بسبب الحياة غير المستقرة فيه ونتيجة للاضطرابات والجفاف ومختلف النزاعات . وظل قسم من تلك القرى مهجورا حتى اواسط القرن التاسع عشر في المنطقة الواقعة الى الجنوب والشرق من السويداء[٥] . ولكنها كانت منتجعا للعرب الرحل يقصدونها في فصل الصيف . أما سهل حوران الخصب فقد كان يقطنه

---

١ - حنا أبو راشد ، جبل الدروز ، ط٢ ، ص ٤٨ .
٢ - المصدر نفسه ونفس الصفحة .
٣ -
David Mcdowall, the Druze Revolt, 1925- 1927 And Its Back Ground In The LateOttoman Period (unpubliched B. Litt. Theses, Oxford Univ. 1972) P. VIII.
٤ - سليمان ابو عزالدين « توطن الدروز في حوران » الكلية (ايار ١٩٢٦) ، ص ٣١٤
٥ -
J. L. Porter, Five *Years In Damascus*,(London, 1855) V. I, P. 61.

مزارعون من النصارى والسنّة . وكثيراً ما كان هؤلاء يتعرضون لاعتداءات البدو من جهة الجنوب والشرق . وكانت سلطة الدولة العثمانية ضعيفة جداً في ذلك الاقليم مما جعل ظروف العيش فيه صعبة ومشوبة بكثير من الاضطراب والقلق .

قصد الدروز النازحون ذلك الاقليم طلبا للحرية وهربا من ظلم الحكام في مناطقهم فنزلوا في جبل حوران وتكاثر عددهم مع الزمن . ولما رأت قبائل العربان شدة بأسهم وازدياد عددهم عزمت على اخراجهم من تلك المنطقة بقوة السلاح . وتألبت مختلف القبائل المعادية وهي قبائل : زبيد والسردية والفحيلية لقتالهم . ومع ان عدد الدروز لم يكن انذاك يتجاوز المئة والخمسين مقاتلا فقد استبسلوا في الدفاع عن بقائهم واستطاعوا ان يوقعوا الهزيمة باعدائهم رغم كثرة عددهم. وقد انجدتهم في تلك الموقعة قبيلة المخمس ربما لنزاعات سابقة بينها وبين غيرها من القبائل فكان لنجدتها اثر حاسم في تحقيق ذلك النصر[٦]

وتعتبر هذه الموقعة على حد قول احد المؤرخين من « اعظم مواقع الدروز الحورانيين اهمية » لانها كانت نقطة البداية في تاريخهم النضالي في ذلك الاقليم . اذ لو قدر لقبائل العربان ان تنتصر على تلك الجالية الاولى من الدروز لكان من الممكن ان تتوقف الهجرة الدرزية الى جبل حوران ، وبقي ذلك الجبل مهجوراً خاليا الا من قبائل البدو الرحل. بيد ان انتصار الدروز هذا على العربان ثبت اقدامهم في ذلك الاقليم وشجع دروزا آخرين على اللحاق بهم فعمرت بهم تلك المناطق المهجورة في جبل حوران . واخذ استيطان الدروز هناك يمتد مع الزمن من الشمال الغربي في الجبل باتجاه الجنوب الشرقي. وكان هذا الاستيطان يخضع لعوامل عديدة واستمر بشكل تدريجي حتى ان صلخد بقيت غير مأهولة حتى فترة متأخرة كما يقول بركهاردت الذي زار المنطقة في اوائل القرن التاسع عشر للميلاد[٧] .

عاش الدروز في جبل حوران حياة قاسية فيها الكثير من شظف العيش والخشونة وعدم الاستقرار . الا ان هذه الحياة القاسية لم تمنع لجوء عائلات درزية جديدة الى الجبل هربا من الظلم وطمعا بالحرية خاصة بعد ذلك الانتصار الذي حققه الدروز على قبائل العربان هناك . ونذكر من هذه العائلات : اسرة قاسم ابي

---

٦ - ابو عزالدين ، « توطن الدروز » ص ٣١٥ .

٧ - Porter, II, P. 187 ، كذلك :

Burckhardt, John L., *Travels In Syria And The Holly Land* (London , 1922) P. 99- 100

فخر التي يعود اصلها الى قرية بريح من منطقة العرقوب في جبل لبنان ، فاستقرت هذه الاسرة في نجران وريمة الفخور (ريمة اللحف) وكفر اللحى . وتذهب احدى الروايات الى ان المهاجرين الاوائل ارسلوا من قبلهم اناسا يطوفون منطقة حوران لاستكشاف المناطق المناسبة للنزول فيها ، فوصل هؤلاء إلى السويداء وأعجبوا بموقعها ومياهها فعادوا إلى اخوانهم يرغبونهم بسكن ذلك المكان . وكان أول من نزل في السويداء من الدروز حمدان الحمدان وأقرباؤه . أما اسرة قاسم أبي فخر فقد سكنت ريمة اللحف (ريمة الفخور)[٨] . واستمر تدفق المهاجرين الدروز إلى منطقة السويداء ، فكان حمدان الحمدان زعيم الدروز هناك يختار مكاناً مناسباً لكل جماعة قادمة ، في احدى القرى المجاورة وكان يقيم على كل قرية شيخاً من أتباعه حتى عمرت تلك القرى بجوار السويداء ومنها قرى الرحى وعتيل وقنوات ومصادر وغيرها .

ومن العائلات الدرزية المعروفة التي استقرت في جبل حوران خلال الحقبة الاولى هذه آل الاطرش[٩] وقد تسلموا زعامة الدروز في ذلك الاقليم بعد آل الحمدان كما سنرى . ونذكر من هذه الاسر المعروفة ايضا آل درويش[١٠] ، وآل شرف[١١] ، وآل عساف[١٢] ، وآل عزام[١٣] وآل القلعاني[١٤] ، وآل هنيدي[١٥] . ولا

---

٨ - ابو عزالدين ، « توطن الدروز » ، ص ٣١٦

٩ - يعود اصل هذه الاسرة الى قرية في الجبل الاعلى في منطقة حلب واول من هاجر منهم الى حوران رجل يدعى طرودى ، الا ان شهرة هذه العائلة تعود الى اسماعيل بن محمد الاطرش الذي اشتهر بشجاعته وكرمه ، وهو الجد الاعلى لسلطان باشا الاطرش . لمزيد من التفاصيل انظر الفصول التالية .

١٠ - يروى ان اصل آل درويش من بتخنية - المتن . ويقال ان اول من ذهب الى حوران ابو حمزة درويش ، وقد انجبت هذه العائلة عدة ابطال منهم حسن درويش الذي اشتهر امره في الثورة ضد ابراهيم باشا وحمزة الدرويش الذي اشتهر في الثورة ضد الفرنسيين .

١١ - آل شرف يرجعون اصلهم الى باب المصلى في الشام .

١٢ - آل عساف اصلهم كما يقال من نيحا الشوف ومنها انتقلوا الى الكفير من منطقة حاصبيا ومنها انتقلوا الى حوران .

١٣ - آل عزام اصلهم من معاصر الشوف ، اول من ذهب منهم الى حوران طرودي عزام وولده اسعد اشتهر منهم حسين عزام في الثورة الدرزية ضد ابراهيم باشا .

١٤ - آل القلعاني ، اصلهم كما يقال من قلعة جندل - وادي التيم . واشتهر منهم قاسم ومحمد القلعاني في الحرب ضد ابراهيم باشا .

١٥ - آل هنيدي ينتسبون الى عائلة آل المصري في لبنان واشتهر منهم محمود هزيمة الهنيدي في الحرب ضد ابراهيم باشا .

ملاحظة : (هذه المعلومات مأخوذة عن مقال المؤرخ ابو عزالدين في مجلة (الكلية) .

نعرف جميع الاسباب التي حملت هذه العائلات للنزوح الى حوران ، الا ان الاسباب السياسية لعبت دوراً مهما في ذلك ، فالعوامرة مثلا (آل عامر) نزحوا الى حوران بعد ان شنّ العثمانيون سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥م على قريتهم في حرمون حملة ابادة ، اجبرتهم على النزوح الى حوران فنزلوا في قرية شهبا وجوارها . واستطاعوا ان يسيطروا على القسم الجنوبي من وادي اللوا حتى اصبحوا فيما بعد يعتبرون العشيرة الثانية في الجبل[١٦] . ولم يكن العوامرة هم الوحيدان الذين هاجروا الى حوران لاسباب سياسية في القرن التاسع عشر ، بل ان آل الحلبي واصلهم من الديار الحلبية اضطروا بدورهم للنزوح الى حوران بعد ان تعرضوا للاضطهاد من احد الولاة العثمانيين في حلب .

ومع تكاثر عدد الدروز في جبل حوران كثر في المقابل خصومهم من قبائل العربان . ذلك ان قبائل العرب الرحالة كانت تقصد مع ماشيتها مراعي الجبل لتمضية فصل الصيف فيه . فلم يكن من السهل على هؤلاء العربان القبول بسيطرة الدروز على جبل حوران ولهذا جرت بين هؤلاء خاصة عرب الرولة منهم وبين الدروز هناك عدة مواقع ، تمكن الدروز خلالها من اقصاء تلك القبائل البدوية الواحدة تلو الاخرى . ولم يلق الدروز ترحيبا من سكان سهل حوران ، ولا تأييداً من الدولة العثمانية ، فكان عليهم امام هذا الواقع ان يعتمدوا على انفسهم ويدافعوا عنها بقوة السلاح وكثيرا ما اضطروا للقتال على عدة جبهات دفعة واحدة . ولا شك ان قساوة الحياة في ذلك الاقليم مع ما لاقاه الدروز هناك من عداء البدو الرحل من جهة وسكان سهل حوران من جهة ثانية جعلهم يتمرسون في فنون الحرب ، حتى انه قلما نجد رحالة في ذلك العصر زار منطقة حوران دون ان ينوه ببطولاتهم النادرة وشجاعتهم في القتال[١٧] .

غير أن تمكن الدروز من رد غزوات البدو عن تلك المنطقة ترك اثرا طيبا في قلوب سكان حوران خاصة المسيحيين منهم . فسكن هؤلاء الاخرين مع الدروز في

---

١٦ - ابو راشد ، الجبل ، ص ٥٩ - ٦٢ ، كذلك

Burckhardt, *op.cit.,p.70*

١٧ -

John Murray, *A Hand Book for Travallers in Syria And Palestine* (London, 1868) vol. 2, P. 500

بعض القرى ورحبوا بهم كحلفاء وحماة للديار[١٨] . لا بل ان بعض القرى المسيحية القديمة كنجران مثلا كانت تعترف بزعامة آل ابي فخر الدروز على الرغم من اكثريتهم المسيحية ، وما ذلك الا بسبب الحماية والتسامح الذي كان يلقاه المسيحيون على يد الدروز كما يقول بركهاردت[١٩] .

ولما كان ولاة دمشق وحوران العثمانيون غير قادرين على حماية تلك المنطقة من اعتداءات البدو ، التمسوا من زعماء الدروز القيام بهذه المهمة ، واعترف العثمانيون بالمقابل بسلطة الدروز في جبل حوران بزعامة آل الحمدان كأمر واقع . وقام الدروز في جبل حوران بأعباء الدفاع عن ذلك الاقليم خاصة عند تخومه الشرقية والجنوبية ضد غزوات البدو حتى اصبح جبل حوران يعرف باسمهم اي « جبل الدروز »[*] . الا ان اعباء الدفاع التي تحملها الدروز في جبل حوران من غير اية مساعدة من السلطة العثمانية كانت تعرضهم للكثير من الاخطار وتكلفهم الكثير من التضحيات حتى غدا السلاح[٢٠] ، رفيقهم الدائم او على حد قول أحد شعرائهم العاميين« إياك سيفك أن يفارق وسادتك » ، « وما النا صديق يا رفاقي سوى السيف »[٢١] . ولم يكن ممكنا امام الاخطار التي كانت محدقة بالدروز في جبل حوران ـ ان يتخلوا عن سلاحهم او التطوع في الجيش العثماني خارج منطقتهم . غير ان ابراهيم باشا المصري رفض هذا المنطق ولم يتفهم وضع هؤلاء الدروز الخاص هناك وانهم دخلوا منطقة حوران والسيف بيد والمحراث باليد الاخرى ، فاذا به يستفز مشاعرهم ويدفعهم الى الثورة ضده .

١ ـ ثورة الدروز في عهد حكم محمد علي باشا في بلاد الشام

لم تكن ثورة الدروز عام **١٢٥٣** هـ / **١٨٣٧** م ضد حكم محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا كغيرها من الثورات والانتفاضات العادية التي كانت تقوم في بلاد الشام

---

١٨ ـ Porter, op. cit., II, P. 133

١٩ ـ Burckhardt, op. cit., P. 19

* يقصد بـ « جبل الدروز » في هذه الدراسة « جبل حوران » وكثيراً ما يرد في هذه الدراسة باسم « جبل الدروز في حوران » وذلك تميزاً له عن « جبل الدروز » في لبنان وهو الاسم الذي كان شائعاً لجبل لبنان خلال العهد العثماني كما مر معنا. وتجدر الاشارة هنا إلى أن اسم جبل الدروز في حوران أصبح يعرف بعد الثورة الدرزية لعام **١٩٢٥** باسم « جبل العرب » .

٢٠ ـ من قصيدة لشبلي الاطرش (ت . ١٩٠٤)

٢١ ـ من قصيدة لعلي عبيد ، احد شعراء الثورة الدرزية لعام **١٩٢٥** .

من وقت لآخر بسبب التدخل والدعم الاجنبيين او خدمة لاهداف خارجية ، بل كانت ثورة الدروز هذه احدى الانتفاضات التي زخر بها تاريخهم ضد اي حكم مستبد ظالم حاول النيل من حقهم الطبيعي في حياة حرة كريمة . ولا غلو في هذا الكلام طالما ان العديد من الباحثين يرى بأن موقف الدروز هذا ينبع من تقاليد اصيلة في تراثهم الاجتماعي والمذهبي والاخلاقي فهم لا يقبلون عادة بالظلم ولا يرضخون للعدوان بسهولة ولا ينامون على الضيم ولا يقبلون بالتحدي ولا بعيشة الامتهان والذل[٢٢] . وقياسا على هذه الصفات الاجتماعية التقليدية عند جمهور الدروز قد يستطيع الباحث ان يرى بوضوح كيف ان الثورة الدرزية التي نحن بصددها والتي قامت في وجه ابراهيم باشا المصري ، جاءت نتيجة لسياسة ، التحدي والقهر وامتهان الحقوق ، التي حاول تطبيقها ابراهيم باشا على دروز حوران . ولكن ثورة الدروز هذه كما نرى من خلال هذا البحث لم تكن معزولة عما كان يجري آنذاك في محيطها الطبيعي ، بل عكست الى حد بعيد موقف الرافضين لاجراءات محمد علي وابنه ابراهيم باشا ، التعسفية هذه في جميع انحاء بلاد الشام . فكانت الثورة الدرزية بهذا المعنى انبعاثاً لتلك الثورات والانتفاضات التي سبق وقامت لاسباب مماثلة ضد الحكم المصري في كل من فلسطين وطرابلس وعكار وجبل العلويين وحلب وانطاكية سنة **١٢٥٠** هـ / **١٨٣٤** م والتي تمكن ابراهيم باشا من اخمادها بالقوة . بيد ان الثورة الدرزية جسدت بدورها اهداف تلك الثورات واستطاعت في النهاية ان تمهد الطريق لانهاء حكم محمد علي باشا في بلاد الشام .

الدروز في ظل علاقة الامير بشير بمحمد علي باشا :

وقصة محمد علي باشا مع الدروز تبدأ في لبنان قبل حملته الشهيرة على بلاد الشام عام **١٢٤٧** هـ / **١٨٣١** م بفترة من الزمن . وكان محمد علي قد دأب منذ سنة **١٢٢٦** هـ / **١٨١١** م يتحين الفرص لمد نفوذه خارج حدود ولايته شمالا الى بلاد الشام .

واخذ يتدخل في شؤون ولايتي صيدا ودمشق كلما سنحت له الفرصة بذلك واقام علاقات طيبة مع عبدالله باشا والي صيدا والامير بشير الثاني حاكم جبل لبنان او كما كان يسمى « حاكم بلاد الدروز »[٢٣] . وعندما وقع النزاع بين درويش باشا

---

٢٢ - فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، ص ٣٢٠ .

٢٣ - لمزيد من التفاصيل راجع : اسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز (بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية : ١٩٥٦) ج ٢ ، ص ٣٢ - ٤١ .

والي الشام وعبدالله باشا والي صيدا على الولاية منذ سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م انحاز الامير بشير الى جانب عبدالله باشا مما أغضب الدولة العثمانية عليه واجبره على اللجوء الى مصر والاقامة عند واليها محمد علي . وعلى الرغم من موقف والي مصر المؤيد سياسيا لعبدالله باشا فقد امتنع عن التدخل عسكريا في ذلك النزاع خوفا من غضب ، الباب العالي . ولكن محمد علي توسط لكل من عبدالله باشا والامير بشير الشهابي لدى السلطان فصدر امر العفو عنهما من الباب العالي واعيد الاثنان الى منصبيهما .

وتوطدت العلاقات بين الامير الشهابي ومحمد علي باشا منذ ذلك الحين واصبحا حليفين مستعدين لنجدة بعضهما بعضا . وما ان عزم الامير الشهابي على الاقتصاص من الشيخ بشير جنبلاط كبير زعماء الدروز لاسباب عدة منها انحيازه الى درويش باشا والي الشام وخصم الامير ، حتى ابدى محمد علي تأيده للامير بشير . وكتب لعبدالله باشا يعلمه باستعداده لمساعدة الامير بشير على خصمه الشيخ بشير . وانه ، « أمر بتجهيز ستة الاف من الفرسان والمشاة بقيادة طوسون يكن بك لهذه الغاية »[٢٥] .

ولكن الامير بشيراً استطاع ان يسيطر على الموقف دون حاجة الى نجدة محمد علي العسكرية واجبر الشيخ بشير جنبلاط وبعض اعيان الدروز من حلفاء الشيخ الجنبلاطي على اللجوء الى حوران . غير ان مصطفى باشا والي الشام بعث بايعاز من عبدالله باشا مبعوثا خاصا الى مكان لجوئهم يبلغهم عن استعداده للعفو عنهم شرط ان يستسلموا .

وعندما استسلموا لوالي الشام أمر بالقبض عليهم كما أمر بقتل الشيخ علي العماد الذي كان من اكثر زعماء الدروز معارضة لحكم الامير بشير.اما الشيخ بشير جنبلاط فقد أرسل مخفوراً الى عكا بطلب من عبدالله باشا نفسه حيث لقي معاملة حسنة على يد واليها في بادىء الامر . ولكن الامير بشيراً خشي من اقامة علاقة ودية بين الشيخ بشير وعبدالله باشا فبعث أحد اخصائه الى محمد علي ، (عزيز مصر)

---

٢٤ - اسد رستم ، المحفوظات الملكية المصرية (بيروت : الجامعة الاميركية ١٩٤٠-١٩٤٣) ج ١ ، ص ٤٥ .
٢٥ - راجع رسالة محمد علي الى عبدالله باشا ٢٥ كانون الثاني ١٨٢٥ ، المحفوظات ج ١ ، ص ٦٤ كذلك : طنوس الشدياق ، اخبار الاعيان ج ٢ ، ص ١٩١ .

يلتمس منه كتابا لعبدالله باشا يدعوه فيه لقتل الشيخ الجنبلاطي . وهكذا كان ، فقد استجاب كل من عزيز مصر ووالي عكا لطلب الأمير بشير وأمر بقتل الشيخ بشير جنبلاط ومعه الشيخ أمين العماد من أعيان الدروز كما ذكرنا(٢٦) .

تركت هذه الحادثة عند الاكثرية من اعيان الدروز ومحازبي هؤلاء الزعماء استياء شديدا من الامير بشير ومحمد علي ونفوراً منهما . ذلك ان تحالف الشيخين العماديين علي وامين وهما من زعماء اليزبكية مع الشيخ بشير جنبلاط زعيم الحزب الجنبلاطي ، جعل اكثرية الدروز يعارضون الامير بشيراً . ولكن الامير بشيرا تخلص بمساعدة حليفيه محمد علي وعبدالله باشا من كبار معارضيه فاصبح بذلك مدينا لنفوذ خارجي هو نفوذ محمد علي مما مهد السبيل فيما بعد لهيمنة والي مصر على لبنان .

الحملة المصرية على بلاد الشام :

وأخذ محمد علي يراقب التطورات السياسيةفي بلاد الشام ويتدخل في كل مناسبة من شأنها أن تقوي نفوذه فيها. وكان يرمي من وراء ذلك إلى السيطرة على بلاد الشام وذلك لأهميةموقعها الستراتيجي وغناها وبالتالي لاحكام سيطرته على الجزيرة العربية . ولكن السلطان محمود الثاني أخذ في الوقت ذاته يتحسب لازدياد نفوذ محمد علي وابنه ابراهيم وبدأ يفكر بالتخلص منه قبل ان يستفحل خطره على الدولة العثمانية . وحاول اولا الايقاع بين محمد علي وابنه ابراهيم باشا دون جدوى . ولم يكن بعد باستطاعته ان يلجأ الى القوة لوضع حد لعزيز مصر ، ذلك ان الدولة العثمانية كانت انذاك تواجه مشاكل جسيمة في الداخل والخارج ولهذا لم يعبأ محمد علي بموقف السلطان منه عندما قرر عزيز مصر ارسال حملته الاولى الى فلسطين عام **١٢٤٧ هـ / ١٨٣١**م. بيد ان طموح محمد علي للسيطرة على بلاد الشام اصطدم بمطامع حليفه السابق عبدالله باشا في ولاية دمشق . وكان لا بد من حسم المسألة لصالح احد الفريقين . فاتخذ محمد علي من رفض والي عكا عبدالله باشا ، اعادة عدد من اللاجئين المصريين في فلسطين الى مصر ذريعة لغزو عكا وسائر بلاد الشام . فجهز حملة عسكرية لهذا الغرض مؤلفة من نحو ثلاثين الفا من الجنود مجهزة بالمدافع

---

٢٦ - المصدر نفسه ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

يساندها اسطول بحري . وتولى قيادة هذه الحملة ابـراهيم باشـا يعاونـه في ذلك سليمان باشا الفرنساوي[٢٧] . وبلغت القوات المصرية مدينة حيفا في خريف ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م واستولت عليها دون اية مقاومة واتخذها قاعدة للانطلاق نحو عكا . وقبل ان يبدأ ابراهيم باشا بمحاصرة مدينة عكا كتب الى حليف ابيه الامير بشير الثاني يطلب منه الانضمام الى صفوفه في القتال . ولكن الامير بشيراً تردد في بادىء الامر رغم ميله الواضح لمحمد علي مما أغضب عزيز مصر عليه عند علمه بذلك ، فكتب بدوره إلى الأمير بشير منذراً إياه بوجوب الانضمام إلى قواته والا تعرضت ولاية الجبل للخراب والدمار[٢٨] . ولم يتوان الأمير عند ذلك عن الرضوخ لتهديد محمد علي ، خاصة أن وضعه الداخلي بعد تخلصه من الزعماء الدروز الرئيسيين حرمه من مساندة قوة رئيسية له في الجبل ، فاضطر عنـد ذلك للذهـاب إلى عكا يرافقـه مئة فارس واستقبله ابراهيم باشا مرحباً . واستطاع ابراهيم باشا أن يسيطر على فلسطين وان يرسل قسماً من قوته للسيطرة على المدن الساحلية اللبنانية . وساهمت قوات الأمير بشير في احتلال مدينة طرابلس إلى جانب القوات المصرية وبقي في المدينة حامية من ثلاثة آلاف رجل نصفها من جنود الأمير بشير والنصف الثاني من قوات ابـراهيم باشا .

موقف الدولة العثمانية من الحملة المصرية :

حاولت الدولة العثمانية في بادىء الامر ان تتدارك خطر القتال مع عزيز مصر عن طريق المفاوضات السياسية ، فارسلت موظفيها الى محمد علي تطلب منه التوقف عن القتال . ولكن العزيز لم يابه لطلب الباب العالي بل استمـر في تنفيذ خطتـه العسكرية معلنا انه عازم على فتح بلاد الشام والبقاء فيها[٢٩] .

ولكن السلطان لم يقف مكتوف الايدي امـام فشـل المفاوضـات مع العـزيز

---

٢٧ - راجع بشأن التاريخ العسكري لحملة ابراهيم باشا على بلاد الشام ١٨٣١ :

عبد الرحمن زكي ، التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير (دار المعارف ، مصر : ١٩٥٠) ص ٣٧١ - ٤٥٠ .

٢٨ - المحفوظات ، ج ١ ، ص ١٣٥ .

٢٩ -

James St. John , *Egypt And Mohammad Ali, or Travels In The Valley of The Nile* (London, (843) vol 2, P. 486.

فاضطر للتصدي بما لديه من قوة لحملة ابراهيم باشا هذه . وعينّ محمد باشا والي الرقة ، واليا على حلب وسردار سواحل بلاد العرب كما عين عثمان باشا واليا على طرابلس وامرهما بالاستعداد لمجابهة الحملة المصرية . وادرك كل من محمد باشا وعثمان باشا اهمية الموقف اللبناني ازاء هذه الحالة فحاول استمالة الامير بشير الى الجانب العثماني . ولكن وجود القوات المصرية في المناطق الساحلية قريبا من عاصمة الامارة الشهابية جعل الامير بشيراً مضطراً للبقاء في الجانب الثاني المصري . وعمل خلال الحرب على تأمين طرق المواصلات لجيش محمد علي في بلاد الشام[٣٠] .

موقف اللبنانيين من الحملة المصرية :

اما اللبنانيون فقد انقسموا ازاء الحملة المصرية على بلاد الشام الى فريقين : فريق يؤيد الامير بشيراً الشهابي في تحالفه مع محمد علي وفريق معارض . وكان في عداد الفريق الاول بعض اعيان الدروز منهم الشيخ حمود النكدي والشيخ حسين تلحوق والشيخ يوسف عبدالملك والامير امين ومحمد قاسم الارسلانيان . وكان هؤلاء قد انضموا مع الف من رجالهم الى قوات الامير خليل ابن الامير بشير التي سارت الى طرابلس من اجل المحافظة عليها . اما الفريق المعارض للحملة المصرية فقد تألف من معارضي الامير بشير وجلهم من الدروز الحاقدين على الامير وحليفه العزيز اللذين كانا السبب في مقتل زعمائهم كما اشرنا الى ذلك من قبل . وضم الفريق المعارض بعض مشايخ النكدية والعمادية بالاضافة الى الحزب الجنبلاطي بكامله وبعض الامراء الشهابيين. ولم يظهر هؤلاء الطاعة لمحمد علي بل حاولوا الالتحاق بمعسكر الدولة العثمانية . وفيما اضطر بعضهم للرضوخ للحكم المصري الجديد ، غادر الاخرون جبل الشوف الى دمشق فحمص وانضموا الى صفوف والي حلب العثماني . ولكن ابراهيم باشا انتقم حالا من هؤلاء اذ امر بهدم دورهم في كل من قرى دير القمر وكفرنبرخ والمختارة[٣٢] .

---

٣٠ - المحفوظات ، ج ١ ، ص ١٩١ - ١٩٤ .
٣١ - الشدياق ، المصوّر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ - ٢١٢ .
٣٢ - المصدر نفسه ، ص ٢١١ .

اما الفريق الموالي للامير بشير الثاني فقد ساهم في ما تبقى من فتوحات لإبراهيم باشا في سوريا ، ومنها معركة حمص حيث كان النصر حليف الجيش المصري . وبفضل حسن تنظيم جيش محمد علي وخبرته في القتال بالاضافة الى ضعف القوات العثمانية التي استطاع ابنه ابراهيم باشا بعد موقعة بيلان أن يلاحق تلك القوات خارج حدود سوريا الى الشمال . وتوغل القائد المصري في بلاد الاناضول حتى وصل الى كوتاهية فاحتلها دون مقاومة (١٢٤٨ هـ / ١٨٣٣م)[٣٣]. ولكن محمد علي اضطر الى وقف القتال بسبب تدخل الدول الاوروبية التي هالها خطر انتصار والي مصر على الدولة العثمانية . وبموجب اتفاق كوتاهية أقرّ السلطان العثماني محمد علي حاكما على مصر وسائر ايالات بر الشام[٣٤] . وانسحبت جيوشه من الاناضول بعد هذا الاتفاق واصبح الحاكم الفعلي لمصر وبلاد الشام . اما من الناحية القانونية فقد ظل محمد علي والياً من ولاة الدولة العثمانية يوجه اليه تقرير الولاية من قبل السلطان سنة فسنة ولكنه كان في قوته ونفوذه يضاهي قوة السلطان نفسها . وابقى محمد علي التقسيمات الادارية القديمة في بلاد الشام ولكنه استبدل كلمة ايالة بمديرية فقسم بلاد الشام الى مديريات هي حلب ودمشق وطرابلس وصيدا . وجعل لكل مدينة مجلسا استشارياً مؤلفاً من الأعيان وأبناء البيوت والتجار وآغاوات الحارات. وساوى بين النصارى والمسلمين في مبدأ التمثيل في هذه المجالس الادارية وعلى سبيل المثال فقد عين اثنين من النصارى أعضاء في مجلس الشورى في دمشق . اما في بيروت فقد جعل نصف اعضاء مجلس ادارتها من النصارى والنصف الاخر من المسلمين ناحياً في هذه المساواة منحى الامير فخر الدين المعني حاكم لبنان في القرن السابع عشر . غير ان ذلك ادى الى استياء بعض المسلمين في بلاد الشام من سياسة محمد علي هذه[٣٥] .

٣٣- رستم ، بشير ، ج ١ ص ١٣٢ ، كذلك : بشير ، ج ١ ، ص ٩٣-٩٦ .

٣٤- رستم ، المحفوظات ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، كذلك : بشير ، ج ١ ، ص ٩٣-٩٦ .

٣٥- مؤرخ مجهول ، حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والاناضول . نشر رستم وقرالي (مصر الجديدة : المطبعة السورية : لا . ت) ص ٣٧ ، كذلك :
نوفل ، كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام في اقليمي مصر والشام (مخطوط) (الجامعة الاميركية) ص ٤٩٧ .
ورستم ، بشير ، ج ١ . ص ١٠٣ .

الامارة اللبنانية في ظل الحكم المصري :

أصبحت الامارة اللبنانية تابعة لمحمد علي باشا . ولكن عزيز مصر ابقى لجبل لبنان استقلاله الذاتي وجعل سلطة الامير الشهابي تشمل في بادىء الامر مدن بيروت وصيدا وصور . فعين الامير بشير نسيبه الامير محلم حيدر متسلما لبيروت ، والامير بشير قاسم حاكما على صيدا والامير حسن الاسعد حاكما على صور . وجعل ادارة شؤون هذه المقاطعات مرتبطة رأساً بحكومة العزيز في مصر . ولكن هذه المدن لم تبق بحوزة الامير الشهابي الا مؤقتا وسرعان ما فصلها ابراهيم باشا عن دائرة نفوذ الامير وجعل عليها حكاما من قبله . اما ولاية الجبل فقد ظلت مستقلة في شؤونها الداخلية عن المديريات الثلاث المحيطة بها وحافظت على امتيازاتها التقليدية واصبح الامير الشهابي تابعا لعزيز مصر مباشرة[٣٦] . وبدت سياسة ابراهيم باشا عند بداية حكمه محققة للامال التي عقدها الناس على حكم جديد ينقذهم من مساوىء الحكم العثماني . فاذا بابراهيم باشا بعد تنظيمه لشؤون الادارة يعمل على تطبيق القوانين بحزم ويحارب الرشوة وينشر الامن ويساوي بين رعاياه في انحاء بلاد الشام[٣٧] . ولكن ابراهيم باشا ما لبث ان اتخذ اجراءات جديدة لم تألفها بعض المقاطعات الشامية من قبل ، وهي اجراءات مشابهة للسياسة العسكرية والاقتصادية التي نفذها والده في مصر . وبدت تلك السياسة عنواناً للظلم والاستبداد في اعين رعاياه في سائر انحاء بلاد الشام وأدت بالتالي الى قيام عدة ثورات واضطرابات ضد حكم ابراهيم باشا . وكان كلما امعن في ظلمه وتحديه لهؤلاء الرعايا توسعت دائرة التمرد والثورة حتى انتهت بجلاء ابراهيم باشا عن بلاد الشام ورجوع الحكم العثماني السابق رغم مساوئه العديدة .

اسباب عامة للثورة :

اما الاسباب الرئيسية لقيام تلك الثورات والاضطرابات ضد الحكم المصري فقد تمثلت بعدة اجراءات حاول تنفيذها ابراهيم باشا في بلاد الشام ضد رغبة معظم السلطات ولكنها كانت في نظر محمد علي ضرورية لمجابهة اي خطر خارجي يهدد ولايته . واول هذه الاجراءات كان التجنيد الاجباري الذي طبقه محمد علي على

---

٣٦ - الشدياق ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ . كذلك رستم ، بشير ١ ، ص ١٠٥ .
٣٧ - المحفوظات ج ٢ ، ص ٦٩ ٨ ٧٠ ، كذلك : نوفل ، المصدر السابق ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

اهل الشام بشكل لم يألفه الناس من قبل . فالحرب التي تعود ان يشترك فيها السكان كانت تلك التي تقع داخل البلاد ، وكان المحارب يتطوع اختياريا ولا يتغيب عن اهله وبيته الا لايام معدودة ويكون برفقة اقربائه وتحت قيادة زعيم يخلص له . اما امر التجنيد الذي فرضه ابراهيم باشا على السكان فقد كان خاليا من هذه المزايا واعتباطيا في اكثر الاحيان وسبب ضيقا ماديا لدى بعض العائلات التي كانت بحاجة الى من يعيلها . فلقي نظام التجنيد هذا تذمرا من جميع الناس وقد انتقده بعض المؤرخين ومنهم نوفل حيث يقول بهذا الصدد[٣٨] :

« واين هذا من نصاب جمع الانفار للعسكرية فان ذلك لم يكن له وقت معين ولا نظام مخصوص ولا على اصول القرعة الشرعية بل في اي وقت صدرت به الارادة تدور العسكر في المدن والقرى للقبض على اي من وجدوه .واذا وشي باحد انه مختبىء في احد البيوت تهجم العسكر وتدخل الى ذلك البيت فجأة للبحث عنه فتصبح اسواق المدن ودكاكينها خاوية خالية وتتعطل حوانيت البيع والشراء وتهرب الشباب منها وتمتنع الفلاحين واهل القرى عن المجيء إليها .وكثيرون من الناس كانوا يقطعون السبابة وهو الاصبع الذي يلي الباهم من الكف اليمين او يقلعون العين الشمال ليتخلصوا من الدخول في هذه الخدمة » .

ومع ما في هذا الكلام من مبالغة ظاهرة فانه يدل على مدى تذمر الناس واستيائهم . ولم يكتف ابراهيم باشا بالتجنيد بل لجأ الى تجريد الناس من سلاحهم كي يأمن من شر قيام ثورات ضده . ومن اجراءات ابراهيم باشا الاقتصادية انه فرض قيودا شديدة على تجارة بعض المواد الاساسية واحتكر الحرير .!واسوأ من هذا كله انه اثقل كاهل الاهلين بالضرائب وفرض ضرائب جديدة كضريبة الفردة وقد فرضت على كل فرد بالغ فتركت اثرا سيئاً بشكل خاص في نفوس المسلمين لانهم لم يتعودوا دفع مثلها على الرؤوس[٣٩] . وكثيرا ما كان يجبر الاهالي على دفع هذه الضريبة عن الغائبين والاموات كما كانت تُجبى في بعض الاحيان بكثير من القساوة . وبالاضافة الى ضريبة الميري التي كانت مفروضة على الارض ، امر شريف بك الامير بشيراً بأن يرسل من يحصي عدد الرجال في جبل لبنان من اجل احداث ضريبة جديدة سماها

---

٣٨ - المصدر نفسه ، ص ٤٩٥ .

٣٩ - مؤرخ مجهول : مذكرات تاريخية (نشر قسطنطين الباشا ، حريصا لبنان ، لات) ص ٩٠-٩٢ .

اعانة . وبموجبها كان يترتب على كل رجل حسب قدرته دفع ضريبة تتراوح قيمتها من مئة قرش الى خمسة عشر قرشاً في السنة[٤٠] . وصدر امر آخر بفرض ضريبة على الطواحين تقدر قيمتها بخمسة واربعين غرشاً ، كما فرضت ضريبة اخرى تسمى الشونة وكانت تدفع غلالا من الحنطة والشعير والسمن للجنود المصريين . ومن الاجراءات التي تذمر منها الناس بشكل خاص اعمال السخرة حيث كان يفرض على الاهالي العمل في الاشغال الاميرية دون مقابل . واسوأ من هذا كله ان جنود الولايات المتجولين كانوا أحياناً يجبرون الأهالي في المدن على اخلاء منازلهم وبعض الأماكن العامة من اجل سكنهم[٤١] .

اندلاع الثورات في وجه الحكم المصري :

إن هذه الاجراءات القاسية التي طبقتها حكومة محمد علي في بلاد الشام جعلته في أعين الناس حاكماً ظالماً أكثر من ولاة الدولة العثمانية الظالمين، إذلم يعامل سكان بلاد الشام معاملة الحاكم الوطني لرعاياه بل معاملة الفاتح لبلاد عدوة مما اوغر صدور الناس وجعلهم يثورون ضد الحكم المصري عند اول فرصة . وعلى الرغم من وجود عدد من الاسباب التي حالت دون قيام ثورة عامة في جميع انحاء بلاد الشام ، فان نيران الثورة التي بدأت في فلسطين ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م اخذت تنتقل من مكان الى آخر ولم تنته الا بانتهاء الحكم المصري في بلاد الشام . فكان من نتيجة ذلك كما قال المؤرخ سليمان ابو عزالدين « ان ما فقده محمد علي من جيشه في محاربة السوريين بسبب تنفيذ قانون التجنيد أكثر من عدد الذين تمكن من تجنيدهم . . . وما استولى عليه من اموال السوريين بحق او بغير حق انفق إضعافه في محاولة اخضاعهم »[٤٢] .

نشبت الثورة ضد محمد علي في جوار البحر الميت في فلسطين اولا . وذلك بعد ما شرع ابنه بتطبيق الاجراءات التي ذكرناها، كالتجنيد والاحتكار وجباية الضرائب

---

٤٠ - نوفل ، المصدر السابق ، ص ٤٩٤ ، كذلك ، ميخائيل مشاقة ، الجواب على اقتراح الاحباب ، نشر رستم وابو شقرا (بيروت ، مديرية الآثار ١٩٥٥) ص ١٢١ .

٤١ - الشدياق ، المصور السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ونوفل ، المصور السابق ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

٤٢ - سليمان أبو عز الدين ، ابراهيم باشا في سوريا (بيروت : المطبعة العلمية ، ١٩٢٩) ص ١٦٨ .

الجديدةعلى بعض القبائل التي لم تخضع لمثل هذه الأحكام في عهد العثمانيين. وتبعهم اهل جبل نابلس الاشداء. ثم انتقلت نيران الثورة الى صفد والخليل ، ولكن ابراهيم باشا استطاع ان يخمد هذه الثورات بمساعدة حليفه الامير بشير الشهابي[٤٣] . ولما ظهرت بوادر الثورة في دمشق خلال شهر ايار من السنة نفسها بسبب التجنيد كان ابراهيم باشا واقفاً لها بالمرصاد وحال دون اندلاعها واخذ يجرد الناس من السلاح[٤٤] . وتمكن الحاكم المصري من اجهاض تمرد آخر في طرابلس وعكار بمساعدة الامير بشير . كما ساهم الامير خليل ابن الامير بشير الحاكم باخماد الثورة التي نشبت في منطقة العلويين سنة **١٢٥٠** هـ / **١٨٣٤** م[٤٥] .

تجنيد الدروز في لبنان :

وفي عام **١٢٥١** هـ / **١٨٣٥** م كان ابراهيم باشا قد اخمد الثورات التي قامت ضده في بلاد الشام واستطاع ان يجرد سكانها من السلاح وان يجعل الناس ترضخ لحكمه . غير ان ابراهيم باشا كان قد استثنى مؤقتا من امر التجنيد ونزع السلاح ، سكان جبل لبنان من رعايا حليفه الامير بشير الثاني . ولم يكن بوسع الحاكم المصري ان يطبق قانون التجنيد الاجباري على هؤلاء قبل غيرهم ، وقد كانوا قبل فترة قصيرة في عداد المجندين في جيشه وقدموا له مساعدات مهمة خلال حروبه ضد السلطان كما ساهموا في اخماد عدد من الثورات التي قامت في وجهه سنة **١٢٥٠** هـ / **١٨٣٤** م . ولكن ابراهيم باشا لم يطمئن لحلفائه السابقين بعد ان احكم سيطرته على بقية انحاء بلاد الشام . وقرر اتخاذ التدابير اللازمة لتجنيد هؤلاء اللبنانيين ـ حلفاء الامس ـ ونزع سلاحهم . ولذا نراه في صيف **١٢٥١** هـ / **١٨٣٥** م ، يطلب من الامير بشير عدداً كبيراً من شباب الدروز لتجنيدهم اسوة ببقية الاقطار الواقعة تحت نفوذه جاعلا مدة الخدمة العسكرية خمسة عشر عاماً[٤٦]؛ ولم يلق هذا الطلب استحساناً لدى مشايخ الدروز رغم الحاح الامير على وجوب تلبية طلب ابراهيم باشا واخبروا الامير الشهابي انهم لا يستطيعون اكراه الناس على التجنيد بالشكل الذي وضعه الحاكم

---

٤٣ ـ حروب ، ج ١ ، ٤١ ـ ٤٥ ، مشاقة ، المصدر السابق ، ص **١٢٣** .

٤٤ ـ مذكرات ، ص ١١٥ ـ ١١٧ ، كذلك : ابو عزالدين ، المرجع السابق ص ١٨٠ ـ ١٨١ .

٤٥ ـ حروب ، ج ١ ، ص ٤٧ ـ ٥٠ ، كذلك ، الشدياق ، ٢ ، ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

٤٦ ـ المحفوظات ، ج ٣ ، ص ٤ ـ ٥ .

المصري . بيد ان ابراهيم باشا لم يقتنع بذلك بل ارسل من قبله بحري بك لمقابلة الامير بشير وحثه على جمع المطلوب من المجندين . فابلغ الامير رسول العزيز عدم موافقة الدروز على الخدمة الاجبارية ورفع له بعض الرسائل التي وردت له من مناصب الدروز بهذا الشأن(٤٧) .

سياسة التهديد والتفرقة الطائفية :

ولكن محمد علي اصر على موقفه وقرر نزع السلاح من الدروز واجبارهم على تقديم المطلوب من المتطوعين. وتسهيلاً لمهمته عمل على تفريق كلمةاللبنانيين على اساس طائفي . واسر للمسيحيين انه سينزع سلاح الدروز ويبقى سلاحهم(٤٨) . وكان محمد علي يخشى بقاء السلاح في ايدي الدروز لئلا يثوروا عليه ، فاتخذ من ترددهم في امر التجنيد حجة لتجريدهم من السلاح وطلب من ابنه جمعه منهم ، واذا اقتضى الامر ان يجرد عليهم حملة عسكرية لاخضاعهم بالقوة(٤٩) . ولكن ابراهيم باشا ارتأى تأجيل عملية نزع السلاح وانتقل الى شمال سوريا ثم ما لبث ان ابلغ الامير بشيراً انه سيأتي على رأس قوة عسكرية الى الشوف لنزع السلاح تنفيذا لاوامر والده . واشار مهددا متوعدا انه اذا وصل الى بيت الدين ولم يمتثل الدروز لأوامره «يضربهم أينما كانوا وسيخرب بيوتهم ويقطع أرزاقهم». وأمام هذا التهديد السافر وزع الامير بشير اولاده على مختلف المقطعات في الشوف لجمع السلاح . وسرعان ما وصل ابراهيم باشا في الوقت نفسه الى دير القمر وبرفقته ابن اخيه عباس باشا وسليمان باشا الفرنساوي وسليم باشا ومحمد باشا يقودون عدة الاف من الجنود لتنفيذ اوامر العزيز . وزار ابراهيم باشا مع قادته العسكريين بيت الدين فاستقبلهم الامير بشير مرحبا واطلعهم على ما انجزه في عملية نزع السلاح . غير ان الدروز كانوا قد بدأوا بتسليم سلاحهم تحت ضغط تلك القوة الزاحفة . وما ان فرغ ابراهيم باشا من عملية نزع سلاح الدروز حتى امر بتجريد النصارى من السلاح ايضا خلافاً لتعهده(٥٠) . فترك هذا الاجراء امتعاضاً في نفوس الناس خاصةعند أولئك

---

٤٧ - المصدر نفسه ، ص ١٥ - ١٦ .

٤٨ - راجع بهذا الشأن ، تقرير بحري بك الى ابراهيم باشا :
اسد رستم صفحة جديدة من تاريخ الثورة الدرزية (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية) ص ٨٤٠ - ٨٤١ .

٤٩ - المحفوظات ، ج ٣ ، ص ١٩ وص ٢٩ .

٥٠ - نفس المصدر ، ص ٥٦ .

الذين سبق لهم ان حاربوا في صفوف ابراهيم باشا ضد السلطان . غير ان عملية نزع السلاح من الأهالي لم تكن إلا مقدمة لأخذ المتطوعين للجندية . وكرر ابراهيم باشا طلبه من الامير بشير بوجوب تقديم الف وخمسماية شاب من الدروز للخدمة العسكرية . واتبع الامير سياسة التهديد والوعيد مع الدروز محذرا اياهم من الرفض او التردد في تنفيذ رغبة العزيز . ومما قاله لمشايخ الدروز ان العزيز قبل بوجوب تطويع نصف العدد الذي طلبه في البداية فاذا « امتثلتم للاوامر وقدمتم من تلقاء انفسكم الانفار المطلوبة منكم تكونوا قد فزتم برضاء مولانا عنكم ووفقتم الى الاقامة في اوطانكم آمنين مطمئنين بالرفاهية . اما اذا عمدتم الى التردد وأبديتم التمنع فان قوة مولانا القاهرة معلومة لديكم اذ تؤخذ العسكر اذا ذاك من جبل الدروز (جبل لبنان) كما اخذت القدس ، ونابلس ، »[٥١] .

حل ازمة التجنيد في لبنان :

وكان جواب مشايخ الدروز كما يستدل من بعض الوثائق ان شباب الدروز ينفرون من قيود الجندية وأبدوا تخوفهم من أن تفسد العشرة السيئة في الجندية أخلاق المتطوعين الدروز فيما لو اختلطوا بباقي العساكر من غير ملتهم . ولكنهم ابدوا استعدادهم لتقديم اي عدد يطلبه العزيز من المتطوعين غير النظاميين الامر الذي يجنبهم الاختلاط المباشر بغيرهم . واستطاع ابراهيم باشا في النهاية ان يتوصل الى صيغة مقبولة لدى المشايخ بشأن المتطوعين الدروز والتحق نصف العدد المطلوب من هؤلاء بالجندية . وبدل من ان يوزع المتطوعين الدروز انفارا على مختلف فرق الجيش . شكل « ثلاث فرق كاملة من هؤلاء الدروز وجعل كل فرقة منهم مئة وثمانين جندياً ، وجعل لكل فرقة اربعة بواقين واستعمل الباقي لاكمال الاورطة الرابعة . . . وارسل الباقي من شباب الدروز الى السويدية »[٥٢] .

وانتهت بهذا الحل الوسط مشكلة تجنيد الدروز في لبنان فتجنب ابراهيم باشا حتى ذلك الحين قيام الدروز بثورة ضده . واستقر بالتالي الوضع في بلاد الشام

---

٥١ - راجع تقرير بحري بك الى ابراهيم باشا ، رستم ، صفحة جديدة ، ص ٤٨٣ .
٥٢ - راجع تقرير سليمان باشا ، المحفوظات ج ٣ ، ص ٧٥ .

J.L. PORTER, *Giant Cities of Bashan And Syrian Holyplaces* (London; T. Nelson And Sons Paternoster Row; 1866) P. 204

لمصلحة ابراهيم باشا حوالي سنتين (١٢٥١ ـ ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٥ ـ ١٨٣٧ م) . غير ان رضوخ الناس لاحكام ابراهيم باشا القاسية لم يكن الا قبول المكرهين ، ذلك ان الاسباب التي ادت قبل هذا الى قيام عدة ثورات واضطرابات في وجه الحكم المصري في بلاد الشام ظلت قائمة خلال هذه الفترة القصيرة . ولهذا لم ينته عام ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م حتى عكر صفو ذلك الاستقرار الظاهر نشوب ثورة جديدة في وجه ابراهيم باشا فاقت في شراستها وعنفها كل ما واجهه من ثورات في بلاد الشام . وكانت تلك الثورة هي ثورة دروز حوران ووادي التيم الشهيرة .

الثورة في جبل الدروز في حوران :

لم تختلف اسباب ثورة جبل الدروز هذه عن اسباب بقية الثورات التي قامت في وجه الحكم المصري في مختلف انحاء بلاد الشام . فمن المعروف ان مسألة التجنيد ونزع السلاح هي اسباب مشتركة لنشوب تلك الثورات ، بيد ان ثورة الدروز في جبل حوران اتخذت في مسيرتها ونتائجها طابعا مميزا بسبب وضع الدروز الخاص في تلك المنطقة غير المستقرة . فطبيعة تلك المنطقة وظروف حياة السكان كانت تختلف عن بقية اقسام بلاد الشام . ولهذا رأى الدروز ان مسألة تجنيدهم وتجريدهم من السلاح كانت تشكل خطرا أكيدا يهدد حياتهم ومصيرهم .

وكان الدروز في حوران حتى مجيء ابراهيم باشا الى سوريا في حالة حرب دائمة تقريبا ، اما مع جيرانهم واما مع القبائل الرحل التي اعتادت المرور في ديارهم . وكانوا في الوقت نفسه يتعرضون احيانا للغزو واذا بهم رجال حرب متمرسون في القتال وزادتهم طبيعة الحياة القاسية في هذا القسم من بلاد الشام صلابة وبأساً . وكان اقتناء السلاح بالنسبة إليهم مسألة ضرورية لمجابهة كل طارىء ولحماية أنفسهم من التعديات عند مدخل الصحراء .

بيد ان حكومة محمد علي لم تنظر بعين المتفهم لهذا الوضع الخاص للدروز في جبل حوران بل اصدرت في مطلع عام ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧ م اوامرها بالتجنيد وطلبت من الدروز هناك تقديم نحو مئة وخمسة وسبعين مجندا . ويبدو ان هذا العدد القليل لا يستحق الثورة على حكومة محمد علي لو لم يكن هناك اسباب اخرى لذلك . ومما يلفت الانتباه هو تأخير عملية التجنيد هذه في حوران اكثر من سنتين عن موعد تطبيقها في سائر مناطق الشام . وظل الدروز هناك حتى ذلك الحين يقومون باعباء

الدفاع عن انفسهم ضد اعتداءات الاعراب المحيطين بهم ويحافظون على الامن داخل مناطقهم . وهذا مما كان يتوجب على حكومة محمد علي ان تقوم به ولكنها لم تفعل ذلك ، فما هي يا ترى أسباب تبدل سياسة محمد علي تجاه منطقة حوران بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على حكمه في سورية خاصة وأن تجنيد هذا العدد القليل (١٧٥) لم يكن ليؤثر بأي شكل على وضع جيش ابراهيم باشا . والذي يتبادر إلى الذهن هو أن مسألة التجنيد هذه لم تكن في الواقع إلا ذريعة للوصول إلى أهداف أهم من ذلك . فجبل الدروز في حوران كان يومذاك قد أصبح ملجأ للفارين من التجنيد والثائرين على حكومة العزيز وللهاربين من ثقل الضرائب وللنازحين من مناطق الثورة في فلسطين . ويبدو أن حكومة محمد علي قصدت من وراء التجنيد الاجباري دخول قواتها إلى الجبل واحكام سيطرتها عليه وايقاف تيار اللاجئين إليه وبالتالي جعله قاعدة للسيطرة على قبائل البدو[٥٣] .

ومهما كانت اهداف ابراهيم باشا من تجنيد هذا العدد المحدود من دروز الجبل في جيشه ، فقد تلكأ هؤلاء عن تلبية طلبه واستدعى شريف باشا حكمدار جميع الايالات السورية الشيخ يحيى الحمدان شيخ مشايخ دروز جبل حوران الى دمشق للتفاوض بالامر . وعرض الشيخ الحمدان على شريف باشا الاسباب التي توجب اعفاء دروز جبل حوران من التجنيد ، ومنها انهم يقطنون عند مدخل البادية وعليهم ان يدافعوا عن انفسهم بقوة سلاحهم .

وبما ان الحكومة لا تقوم بمثل هذه المهمة المتوجبة عليها فان على الدروز ان يحموا انفسهم بأنفسهم . ويبدو ان تمسك المفاوض بموقفه اثار حنق شريف باشا فأهان الشيخ يحيى الحمدان وفرض عليه أمره ولكنه أعطاه مهلة عشرة ايام لاقناع بني قومه في أمر التجنيد .

حملة آغا البصيلي واندلاع الثورة :

تذكر احدى المصادر ان الشيخ يحي الحمدان ترك دمشق غاضبا بسبب اهانته ولدى وصوله الى حوران عقد الدروز اجتماعا استقر رأيهم فيه على رفض طلب

---

٥٣ - ابو عزالدين ، المرجع السابق ، ص ١٩٧ - ١٩٩ .

شريف باشا واللجوء الى منطقة اللجاة المنيعة تحسبا للقتال[٥٤] .

وتحالف دورز جبل حوران مع عرب السلط المقيمين في تلك المنطقة وبدأوا « يمخرقون » في القرى المجاورة والتي كانت تابعة لشريف باشا . وقرر شريف باشا اخضاع هؤلاء المتمردين فوّجه عليهم حملة عسكرية مؤلفة من اربعماية فارس من جنود الهوارة وبقيادة علي آغا البصيلي . ولما وصلت تلك القوة الى احدى قرى الدروز جرت مفاوضات بين قائدها وفريق من مشايخ الدروز حول مسألةالتجنيد والاعتداء على القرى المجاورة . وأبدى الدروز خلال هذه المفاوضات استعدادهم لوقف تلك الاعتداءات شرط ان يعفوا من التجنيد[٥٥] . ولكن نجاح تلك المفاوضات كان يعوزه الثقة بين الجانبين ، فعلى الرغم من وعد علي آغا لمشايخ الدروز بالتوسط لهم لدى شريف باشا فانه لم ينسحب مع قواته كدليل على حسن النية . بل كان بقاء تلك القوات في قرية الثعلة الدرزية من جهة ومعرفة الدروز باصرار شريف باشا على أخذهم على حين غرّة من جهة ثانية جعلت المواجهة العسكرية بين الفريقين أمراً محتماً . ولهذا لم ينتظر الدروز يوماً آخر لمعرفة نتيجة التوسطمع شريف باشا ، بل هاجموا فرسان الهوارة ليلاً وقتلوا في المعركة معظم رجال تلك الحملة . وكان في عداد القتلى متسلم حوران عبد القادر آغا أبي حبيب ، فيما قتل من الدروز أحد زعمائهم الشيخ ابراهيم الأطرش .

حملة محمد باشا :

ولكن شريف باشا خاف من مغبة الامر وعزم على اخضاع تلك الثورةقبل ان يستفحل خطرها . وارسل في مطلع سنة **١٢٥٣ هـ / ١٨٣٨** م حملة جديدة مجهزة بالمدافع بلغ عدد افرادها حوالي ثمانية آلاف مقاتل بقيادة محمد باشا مفتش الجيش . واستطاعت تلك الحملة ان تتغلب على الدروز في قرية بصر الحرير واجبرتهم على التراجع الى منطقة اللجاة الحصينة .[٥٦] وظن محمد باشا ان التراجع دليل على هزيمة قوات الدروز فتعقب آثارهم الى مسالك اللجاة الوعرة . ولكن ثوار الدروز ما لبثوا ان انقضوا على افراد تلك الحملة عندما بدأ جنودها بالسلب والنهب والحقوا فيها

---

٥٤ - مذكرات ، ص ١٢١ .

٥٥ - المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

٥٦ - المصدر نفسه ، ص ١٢٣ .

هزيمة ساحقة ، قتل خلالها عدد كبير من جنود الحملة ومن بينهم قائدها محمد باشا واربعة عشر ضابطا . وتضعضع الباقون فيما وقع الآخرون في الاسر وغنم الدروز مقادير كبيرة من السلاح والعتاد[٥٧] .

حملة منيكلي باشا :

بلغت اخبار هزيمة محمد باشا اسماع سيده ابراهيم باشا فقرر التصدي للثورة الدرزية بنفسه . وكان ابراهيم باشا انذاك في انطاكية واقفا بالمرصاد لاية تحركات يقوم بها العثمانيون على الحدود الشمالية من سورية . ولكنه تخلى مؤقتا عن قيادة قواته في الشمال واعطى اوامره للقوات المرابطة في كل من حلب وانطاكية وحمص بالتوجه الى دمشق . وغادر ابراهيم باشا انطاكية الى مدينة دمشق ايضا ، ولكنه لم يصل الى حمص حتى بلغه خبر تحركات جديدة للقوات العثمانية على الحدود فأضطر للعودة الى انطاكية بعد ان طلب من والده ارسال وزير الحربية احمد منيكلي باشا لقيادة تلك الحملة الى حوران . وحضر منيكلي باشا من مصر سنة **١٢٥٣** هـ / **١٨٣٨** م على رأس قوة عسكرية وانضم الى شريف باشا الذي جمع بدوره فلول الحملة المصرية التي كان قد هزمها الدروز في اللجاة . وبلغ عدد رجال الحملة الجديدة ، نحو عشرين الف مقاتل فيما كان عدد ثوار الدروز حوالي الفي رجل فقط[٥٨] . واجتازت طلائع الحملة المصرية الجديدة مسالك اللجاة حتى بلغت قرية (جدل) فبات الجنود هناك دون ان يتعرضوا للمقاومة . اما في اليوم التالي فقد تقدم جنود الحملة باتجاه اللجاة . ودارت المناوشات بين الفريقين فيما اخذ ثوار الدروز بتقهقرون الى مناطق اشد وعورة وذلك بموجب خطة عسكرية كانت غاية الثوار منها استدراج جنود الحملة الى مكان حصين ووعر يستطيعون فيه الصمود والتصدي لتلك الحملة الضخمة . وما ان بلغت طلائع القوات المصرية ذلك المكان حتى اصلاها الثوار نارا حامية . وهاجمت قوات ابراهيم باشا معاقل الثوار ثلاث مرات متتالية ولكن الثوار اجبروها على التراجع في كل هجوم ودون ان تحرز اي تقدم في القتال . وفي نهاية المطاف انقض الثوار على جنود الحملة فهزموها وكبدوها خسائر جسيمة في الارواح ، قدرت رسميا بأكثر من

---

٥٧ - المحفوظات ، ج **٣** ، ص **٣٢** كذلك راجع رستم ، بشير ، ج **٢** ، ص **١٣٧** .
٥٨ - المحفوظات ، ج **٣** ، ص **١٢٣** - **٣٢١** ، ومذكرات ، ص **١٢١** .

اربعة الاف من القتلى والجرحى[٥٩] . وكان في عداد القتلى امير اللواء والي بك ومن بين الجرحى وزير الحربية نفسه فيما فقد الدروز ثلاثمائة رجل في صفوفهم . واستطاع الثوار ان يغنموا كمية كبيرة من السلاح والذخائر والمؤن مكنتهم من الصمود مدة طويلة[٦٠] .

ولم تكن الهزائم المتلاحقة التي اوقعها الثوار في قوات ابراهيم باشا النتيجة الوحيدة لتلك الثورة بل من نتائجها كذلك انها شجعت بعض الناقمين على حكم ابراهيم باشا على التمرد والعصيان . وأخذ دروز الجبل يحرضون اهالي دمشق على الثورة وبعثوا برسائل في هذا المعنى الى مفتي الحنفية والى شمدين آغا زعيم اكراد الشام[٦١] . بينما قام في الوقت نفسه بعض الثوار الدروز من قرى الغوطة يقطعون طريق بيروت دمشق ويؤلبون سكان القرى المجاورة للهجوم على ثكنات الجيش في دمشق واطلاق سراح أبنائهم المجندين[٦٢] . ولكن شمدين آغا المذكور أبلغ مضمون تلك الرسالة الى حافظ باشا متسلم دمشق فاحتاط هذا للامر وضرب بشدة كل من حاول ان يتصل بالثوار . غير ان دروز وادي التيم استجابوا لنداء اخوانهم وقاموا بحركة تمرد وعصيان بقيادة شبلي العريان في بلدة راشيا[٦٣] . وهدد ثوار وادي التيم طرق مواصلات الجيش المصري ، فاضطرت حكومة محمد علي ان تجرد عليهم حملة عسكرية لاخضاعهم . وأوكل ابراهيم باشا قيادة هذه الحملة الى سعد الدين شهاب امير حاصبيا ومعه الامير محمود شهاب واستطاع هؤلاء ان يقتصوا من بعض القرى المتمردة في اقليم البلان كما قبضوا على بعض دروز حاصبيا وأرسلوهم الى دمشق . اما شبلي العريان الذي سبق ان حاصر الامير محمود شهاب في قلعة حاصبيا فقد اضطر هو الآخر لأن ينسحب من وادي التيم وينضم الى صفوف الثورة في جبل الدروز في حوران[٦٤] .

---

٥٩ - المحفوظات ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ - ٣٣٣ .
٦٠ - المصدر نفسه ، ص ٣٢٥ ، كذلك مذكرات ص ١٢٤ - ١٢٥ .
٦١ - راجع نص الرسالة في : مذكرات ، ص ١٢٦ وراجع : المحفوظات ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ .
٦٢ - المصدر نفسه ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .
٦٣ - ميخائيل مشاقة ، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، نشر : عبدو وشخاتيري (مصر ١٩٠٨) ص ١٧٧ ، كذلك راجع مذكرات ، ص ١٢٦ .
٦٤ - المصدر نفسه ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

الحملة الكبرى بقيادة ابراهيم باشا :

غير أن الحؤول دون امتداد الثورة الدرزية الى وادي التيم لم ينه مشكلة الثورة في حوران . وكانت الهزائم المتتالية التي اوقعها الثوار الدروز في جيش ابراهيم باشا مدعاة لقلقه وللتفكير بخطة جديدة لاخضاع ثورة جبل حوران قبل ان تتخذ الدولة العثمانية من تلك الاضطرابات حجة للتدخل في شؤون بلاد الشام . وارتأى اولا تأجيل موعد الزحف على جبل الدروز في حوران حتى اشهر القيض في الصيف حيث تنضب موارد المياه في منطقة الثوار ويمكن بالتالي محاصرتهم ، فيستسلمون من العطش . واذا لم يستطع الانتظار الى فصل الصيف فانه سيجرد على الثوار حملة مكونة من ثلاث الايات من العساكر الموجودة لديه في حلب وجوارها[٦٥]. ولكن ابراهيم باشا لم يأخذ بالاقتراح الاخير اذ ان بقاء الاربع الايات على الحدود الشمالية كان ضروريا لمجابهة اي طارىء مع الدولة العثمانية . كما انه لم يتبنَّ اقتراحا آخر قدمه شريف باشا يقضي بتجنيد سبعة او ثمانية آلاف من نصارى جبل الدروز (جبل لبنان) لتساهم في اخماد ثورة حوران ، مشيرا الى ان هذا الاقتراح لا يتفق « مع كرامة الحكومة المصرية وشهرتها ، وثانيا لان نجاح النصارى غير مضمون فان فشلوا في مهمتهم هل يقال للدروز « الامان يا دروز »[٦٦] .

وكان لا بد والحالة هذه من استقدام قوات نظامية من مصر وغير نظامية بقيادة مصطفى باشا الذي يحسن الحرب في الجبال وتشكيل حملة جديدة تزيد عدة وعددا عن الحملات السابقة يكون في قيادتها ضابط خبير كسليمان باشا الفرنساوي . وهكذا كان ففي اوائل ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م ارسل محمد علي القوات الالبانية المؤلفة من حوالي اربعة الاف مقاتل فانضمت الى جنود الحملة في حوران . وكان مصطفى باشا قد وصل بدوره الى الشام على رأس حملة مؤلفة من حوالي سبعة الاف جندي . كما استقدم ابراهيم باشا قوات اخرى من نواحي مختلفة من بلاد الشام حتى اصبح عدد الجنود في الحملة الجديدة التي قادها بنفسه ضد الثوار الدروز في اللجاة اكثر من

---

٦٥ - المحفوظات ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ ، ورستم ز ، بشير ، ج ١ ، ص ١٤٠ .
٦٦ - المحفوظات ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

عشرين الفا[٦٧] .

وكان ابراهيم باشا قد وضع بالاشتراك مع قادته العسكريين خطة مفصلة لحصار الثوار تجمع بين اقتراحين : هما الهجوم على معاقل الثوار ومضايقتهم عطشا حتى الاستسلام . وبموجب تلك الخطة قرر السيطرة على عدد معين من موارد المياه على حدود منطقة اللجاة فيحتفظ بقسم منها ليستقي منه جيشه ويردم الباقي بالتراب . وجاء في بعض الروايات ان ابراهيم باشا قرر تسميم المياه التي لا يمكن ردمها[٦٨] . فكانت خطته هذه محكمة للغاية بحيث يستطيع تهديد الثوار بالموت عطشا خلال فصل الصيف . ذلك ان موارد مياه منطقة اللجاة الوعرة في حوران تجف عادة في اشهر القيض فلا يبقى لاهالي تلك المنطقة سبيلا للمياه سوى ما هو موجود على الحدود المتاخمة لتلك المنطقة[٦٩] .

حرب المياه :

شرع ابراهيم باشا بتنفيذ تلك الخطة فور وصوله الى حوران واستولى على عدد من موارد المياه على حدود اللجاة . فاستبقى ما هو ضروري لجيشه واتلف ما لم يكن بحاجة اليه ومن شأنه ان يستقي منه الثوار الدروز . ولكنه لم يستطع تنفيذ خطته هذه بسهولة بل لقي جيشه عند كل مورد مياه مقاومة عنيفة من الثوار وقتالا ضاريا تكبد خلاله الجيش المصري خسائر جسيمة في الارواح . ومن اعنف تلك المعارك موقعة دامة التي تمكن فيها الثوار من رد قوات ابراهيم باشا على اعقابها الى خارج اللجاة . بيد ان ابراهيم باشا بحكم التفوق العددي لجيشه على الثوار ، عشرون الفا مقابل الفين ، استطاع أن يتغلب على الثوار في موقعة براق عند مدخل اللجاة واستولى على مياهها الوافرة بعد ان قتل اثناء تلك المعركة حسب ما ورد في مذكرات مؤرخ مجهول اكثر من الفي جندي مصري مقابل ثلاثمائة من الدروز[٧٠] . واستمر الكر والفر بين الفريقين المتصارعين في حرب المياهَ اكثر من شهرين كان ابراهيم باشا

---

٦٧ - وفي مذكرات تاريخية ، ص ١٣٢ (اربعون الف رجل) . راجع ايضا ابو عزالدين . المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

٦٨ - مشاقة ، مشهد العيان ، ص ١١٨ .

٦٩ - مذكرات ، ص ١٣٢ .

٧٠ - المصدر نفسه ، ص ١٩٣ . يبدو من سياق هذه المذكرات ان مؤلفها كان ظاهر الانحياز لابراهيم باشا .

خلالها يطمر كل بركة مياه يستولي عليها بعد قتال عنيف واستطاع من خلال هذا الاجراء اللاانساني ان يحرم الثوار الدروز وعائلاتهم ومواشيهم من المياه الضرورية للبقاء . ولكن الثوار حتى ذلك الحين لم يستسلموا بل اضطروا بسبب شدة الحر وقلة المياه وبعد ان مات منهم اناس من العطش ان يعمل بعضهم لفتح جبهة جديدة في وادي التيم علّهم في ذلك يخففون وطأة الحصار على اخوانهم في اللجاة[٧١] .

ثورة الدروز في وادي التيم :

وبعد ان اشتد الضغط على دروز جبل حوران بسبب خطة ابراهيم باشا لمنع المياه عن الثوار استغاث هؤلاء باخوانهم في وادي التيم ليقوموا بعمل ما من شأنه رفع الضغط عن ثوار اللجاة . فاستجاب هؤلاء لنداء اخوانهم وقاموا ببعض اعمال الشغب والعصيان ضد الحكم المصري في مناطقهم . ولكن ابراهيم باشا كان واقفا لهذا التحرك بالمرصاد فأمر أحمد بك قائد لواء المدرعين بالزحف على منطقة وادي التيم للقضاء على الثوار والتنكيل بهم بشدة . ومما جاء في احد اوامر ابراهيم باشا الانتقامية : « انه اذا اعتصم الاشقياء (الثوار) بالقرى ، عليكم ان تضربوا قراهم بالمدافع حتى تنفذ القذائف ، فاذا ما تمّ ذلك سيّروا عليهم الجند ولا تعبأوا في سبيل تشتيت العصاة والتنكيل بهم بقتل الرجال والنساء بل غضوا النظر عن جميع ما يأتيه الجنود في هذا السبيل ونكلوا بهم كل التنكيل[٧٢] » . غير ان سياسة ابراهيم باشا الانتقامية هذه زادت في بسالة الثوار وجعلتهم يستميتون في الدفاع عن انفسهم وبيوتهم وأعراضهم .

وكان شبلي العريان قد ترك آنذاك منطقة اللجاة في حوران ورجع برفقة مئتي مقاتل الى قرية مجدل شمس . ولكنه اضطر ان يخرج منها الى بلدته راشيا فوصلها عند الفجر وهاجم سراي الحكومة فيها وقتل متسلمها ابن الجعفري انتقاما . واخذ العريان يحرض دروز تلك المنطقة على الثورة حتى اصبح بحوزته عدد لا بأس به من المقاتلين[٧٣] . وعرف ابراهيم باشا بالامر فجرد على ثوار وادي التيم حملة مؤلفة من

٧١- مذكرات - مذكرات ، ص ١٣٨ - ١٣٩ . كذلك ، مشاقة ، مشهد العيان ، ص ١١٩ .
٧٢- المحفوظات ، ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٣٧٨ .
٧٣- المصدر نفسه ، ص ٣٨٢ .

الف جندي وعددا من رجال المدفعية والمدافع لحصارهم . وما ان وصلت تلك القوة الى راشيا حتى اجبرها الثوار على الانكفاء الى قلعتها . اما رجال المدفعية فلم يستطيعوا الدخول الى البلدة بل نصبوا مدافعهم في موقع مرتفع لحصار البلدة . ولكن الثوار هاجموا رجال الحملة المصرية في الليل واستولوا على ما في حوزتهم من المدافع والذخيرة ، ولم ينج من رجال المدفعية الا القليل . ثم ضيق ثوار راشيا الحصار على الجنود الموجودين في القلعة واجبروهم على الفرار الى البقاع ولكنهم استطاعوا ان يفتكوا بهم ويغنموا اسلحتهم[٧٤] .

ابراهيم باشا وسياسة التفرقة الطائفية :

تركت هذه الانتصارات التي حققها ثوار الدروز في حوران ووادي التيم صداها في مختلف انحاء بلاد الشام . فما اثارت خطة ابراهيم باشا اللاانسانية لقهر ثوار اللجاة عن طريق ابادتهم عطشا حمية ونقمة اخوانهم في منطقتي حاصبيا والشوف فهبوا يلتحقون بصفوف الثوار الى جانب شبلي العريان . وكان على رأس الذين التحقوا بثورة وادي التيم من رجال الشوف الشيخان حسن جنبلاط وناصر الدين العماد . وبلغ ابراهيم باشا خبر انتصار الثوار الدروز في معركة راشيا فنهض من حوران عائداً الى دمشق وشرع بوضع خطة جديدة للقضاء على ثورة وادي التيم . وكتب في الوقت نفسه الى الامير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان يطلب منه ارسال نجدة عسكرية من نصارى لبنان او على حد قول مؤرخ معاصر « ان يجمع اربعة الاف مقاتل من نصارى لبنان ويسلمهم اسلحة مؤبدة لهم ولذريتهم ويوجههم صحبة ولده الامير خليل الى حاصبيا لقتال الدروز[٧٥] » . ولم يرفض الامير بشير طلب حليفه ابراهيم باشا الذي كان معناه انقسام رعاياه في جبل لبنان الى فريقين متقاتلين على اساس طائفي . بيد ان بعض المراجع المتأخرة تشير الى ان الامير بشير الثاني وقع في حيرة من أمره ازاء طلب ابراهيم باشا لتجنيد حملة من نصارى جبل لبنان للقتال ضد دروز وادي التيم . فالامير بشير كان على علم بالتحاق عدد من دروز الشوف ـ قلب ولايته ـ في ثورة وادي التيم لا بل ان بعض المصادر تذهب الى القول بأن بعض دروز الشوف وعلى رأسهم الشيخ ناصر الدين العماد توجه الى

---

٧٤ ـ مذكرات ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، ورستم ، بشير ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

٧٥ ـ الشدياق ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

حاصبيا للالتحاق بالثورة بعلم الامير وموافقته الضمنية[٧٦] . ومهما يكن من امر فان قبول الامير بشير الثاني طلب ابراهيم باشا لتجنيد النصارى في لبنان لاول مرة ضد الدروز ، وبالتالي اشتراك اولئك المجندين في القتال ضد الثورة الدرزية بقيادة ابنه الامير خليل ، يعتبر برأي عدد من المؤرخين خطأ فادحا ارتكبه بشير الثاني بحق الوحدة الوطنية في لبنان . وكرس الامير بشير بعمله هذا الانقسام السياسي في لبنان ولاول مرة في تاريخه على اساس طائفي مذهبي . وزرع بذلك بذورا للفتن الاهلية الطائفية التي نشبت في لبنان ما بين ١٢٥٦ - ١٢٧٧ هـ/ ١٨٤٠ - ١٨٦٠ م . حتى ان بعض المعجبين ببشير الثاني من المؤرخين كفليب حتي مثلا لم يستطع تبرير هذا الخطأ اذ قال في مستهل كلامه عن اسباب الفتن الطائفية خلال فترة (١٩٥٦ - ١٢٧٧ هـ/ ١٨٤٠ - ١٨٦٠ م) ، انه كان من عوامل ذلك الانفجار استياء الدروز الشديد من : « محاولات الامير بشير للقضاء على نفوذ مشايخهم واعيانهم الاقطاعيين ، ومن ابنه خليل قائد الجيش الماروني الذي اعان ابراهيم باشا على قمع الثورة في حوران »[٧٧] .

معركة وادي بكا ـ معركة الاخوة :

وفيما شرع الامير بشير بتجهيز النجدة العسكرية التي طلبها ابراهيم باشا من نصارى جبل لبنان جرّد الأخير حملةجديدةعلى وادي التيم . ونهض ابراهيم باشا على رأس قسم من جنود تلك الحملة الى قريةعيحاحيث نشب القتال بينه وبين الثوار دون ان يفضي القتال الى نتيجة حاسمة . وهنا لجأ ابراهيم باش الى الحيلة لتفريق صفوف الثوار . ودّس بواسطة جواسيسه خبرا مفاده ان مقادير كبيرة من الذخيرة سترد الى الجيش المصري عن طريق عيحا . فانطلت الحيلة على الثوار وارسل الشيخان حسن جنبلاط وناصر الدين العماد ثلاثمائة من رجالهما للأستيلاء عليها . ولكن مصطفى باشا الذي كان قادما الى عيحا للالتحاق مع قواته بجيش ابراهيم باشا اشتبك مع هذا الفريق من الثوار فبادر الشيخان جنبلاط والعماد لمساندة رجالهما بنحو سبعة مئة مقاتل آخر . اما ابراهيم باشا فقد ارسل بدوره قسما من جيشه لنجدة حليفه . فأطبق على الثوار من الوراء وأجبر الثوار على ترك ذلك الموقع واللجوء إلى

---

٧٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ ، كذلك رستم : بشير ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

٧٧ - حتي ، تاريخ لبنان ، ص ٥٢٥ ، كذلك ص ٥١٤-٥١٥ .

وادي بكا . وسارع ابراهيم باشا على رأس جيشه الى الموقع الجديد ، فأطبقت القوات المصرية على رجال الشيخين من كل جانب . وتحصن الشيخ حسن جنبلاط في قلعة صخرية تطل على الوادي فيما تحصن الشيخ العماد في موقع مماثل في أسفل الوادي . وجرى قتال مرير بين الفريقين . واستطاع رجال الشيخين رغم قلة عددهم بالنسبة للجيش المصري المهاجم ان يصدواقوات ابراهيم باشا ويكبدوها خسائر جسيمة حتى اوشكت عساكر ابراهيم باشا على الفرار من ميدان المعركة[٧٨] .
ولما رأى الوزيران ما حل بجنودهما ، أمرا بهجوم معاكس في الحال . وقاما بتشجيع رجالهما على القتال فاستمروا في اطلاق النار حتى نفذت ذخيرة الثوار الدروز من الرصاص والبارود . ولكن الثوار لم يستسلموا لابراهيم باشا بل استبسلوا في القتال . وامر الشيخ ناصر الدين العماد رجاله بالهجوم على الحملة المصرية « بالسلاح الابيض » فيما سار في مقدمة صفوفهم مستلا سيفه « يفري به » من يصل اليه من اعدائه الى ان خرّ صريعا وهو مثخن بالجراح . ولم ينج من رجال الشيخ العماد خلال هذه المعركة سوى خمسين رجلا استطاعوا ان يشقوا طريقهم الى خارج ميدان المعركة . اما الشيخ حسن جنبلاط فقد أدرك ان لا فائدة ترجى من التغرير برجاله المحاصرين دون ذخيرة ، فشق طريق انسحابه مع من تبقى من الثوار الى قرية شبعا[٧٩]

كانت معركة وادي بكا نموذجا رائعا للبطولة والبسالة الدرزية في ساحة القتال ، اذ جابه الدروز رغم قلة عددهم جيوشا جرارة ولم يتراجعوا الا بعد ان استشهد معظم المقاتلين ومن بين القتلى كان الشيخ ناصر الدين العماد واربعون زوج اخوة ، ولهذا سميت بمعركة الاخوة .

وعلى الرغم من الخسائر الجسيمة التي مني بها ابراهيم باشا في وادي التيم فان انتصاره هذا على قوات الثورة الدرزية في وادي بكا اعاد الثقة الى نفوس قادته العسكريين وجنودهم ، فتمكن في نهاية المطاف من اخضاع الدروز في وادي التيم وحوران ولكن بعد ان دفع ثمنا باهظا لذلك .

معركة جنعم :

اما القسم الآخر من الثوار الدروز بقيادة شبلي العريان فقد احتشدوا بعد

---

٧٨ - الشدياق ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

٧٩ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٣ ، كذلك مذكرات ، ص ص ١٤٨ .

معركة وادي بكّـا في موقع جبلي يقال له جنعم على سفح جبل الشيخ . وقرر ابراهيم باشا ان يهاجم هؤلاء الثوار من ثلاث جهات ، فاستدعى لهذه الغاية كلا من الامير خليل ابن الأمير بشير الشهابي الذي كان مرابطاً مع جنوده في حاصبيا ، ومدير ايالة صيدا الذي حضر الى قمة بانياس بعساكره النابلسية .وطلب ابراهيم باشا من كليهما التقدم الى مكان قريب من جنعم تأهبا للهجوم على الثوار الدروز في ساعة الصفر وعندما حان الموعد المقرر تقدمت قوات الأمير خليل الشهابي للهجوم فصدها الثوار الدروز واوقعوا الهزيمة في صفوفها وكبدوها بعض الخسائر البشرية واجبروها على التراجع إلى القرب من حاصبيا[٨٠]. وكذلك كان مصير النابلسيين الذين تقدموا للهجوم من جهة بانياس فقد ردوا على اعقابهم . ولكن الثوار فشلـوا بسبـب قلـة عددهم من صد هجوم قوات الوزيرين ابراهيم باشا ومصطفى باشا في قرية شبعا ، واضطر الثوار الى التراجع بعد قتال عنيف دام طوال الليل والنهار . ودخل ابراهيم باشـا قرية شبعـا منتصرا فيما بعـث من يبلـغ الـدروز في جنعـم بوجـوب تسـليم سلاحهم . وفي اليوم التالي جاء الى قرية شبعا وفد من الدروز على رأسهم الشيخ حسن البيطار لمقابلة ابراهيم باشا وعرضوا عليه تسليم سلاحهم شرط العفو عنهم . فاستجاب الباشا لطلبهم وسمح لهم بالرجوع الى اوطانهم[٨١] . غير ان شبلي العريان ومعه بعض الثوار من دروز جبل لبنان ابوا التسليم او تقديم الطاعة لابراهيم باشا بل ان بعضهم التجأ الى حوران والتحق بصفوف الثـورة هنـاك من جديد . امـا ابراهيم باشا فقد رأى بأن استسلام شبلي العـريان امـر لا بد منـه من اجـل عودة الاستقرار والهدوء الى منطقة وادي التيم ، ولهذا اعطى الاوامـر لقواتـه في مختلف ايالات الشام لملاحقة العريان اينما وجد والقبض عليه . ولكن شبلي العـريان كان محنكا فاستطاع ان يفلت اكثر من مرة من قبضة القوات التي كانت تتوجه للقبض عليه ، او على حد ما جاء في رواية معاصرة ، لا تعطف عليه انه : « موصوفـا في الحروب وصاحـب تدبـير . . . وفرسـه طـير . وهـو فارس . . . فبقيت العسـاكر لاحقينه ولم كانوا يحوقوا عليه (يقبضوا عليه) نحو ثمانية ايام . حشروه (احاطوا به) في قلعة جندل بالقرب من قطنا فهرب من العساكر وتوجه الى عيحـا »[٨٢] .

٨٠- مشاقة ، مشهد العيان ، ص ١٢٠ ، كذلك رستم ، بشير ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .
٨١- مشاقة ، المصدر السابق ، ص ١٢٠-١٢١ ، كذلك ابو عزالدين ، المرجع السابق ، ص ٢١٧ .
٨٢- المذكرات ، ص ١٥٩-١٦٠ .

ولكن شدة التضييق التي واجهها شبلي العريان جعلته اخيرا يفكر بالاستسلام عن طريق بعض الوسطاء . وفي احد الايام بلغه ان ابراهيم باشا يرغب فعلا بالعفو عنه فتقدم منه مستسلما عن طريق الامير مسعود الشهابي فعفا عنه الباشا وعامله بكل اكرام وتقدير وأبقى له سلاحه ، وعيّنه قائدا لفرقة غير نظامية(٨٣) .

نهاية الثورة في جبل حوران :

وكان لعفو ابراهيم باشا عن دروز وادي التيم وللمعاملة الحسنة التي لقيها زعيم ثوارهم شبلي آغا العريان اثرهما في انهاء ثورة اللجاة في حوران . وكانت ثورة الدروز في وادي التيم قد حققت اهدافها العسكرية فساعدت ثوار اللجاة على تنفس الصعداء ، فاستطاعوا اختراق جدار الحصار الذي فرضه عليهم ابراهيم باشا وبدأوا يهددون طرق مواصلاته من جديد . ولكن حالة السكان الدروز في منطقة الثوار كانت سئية للغاية بسبب اتلاف موارد المياه وفقد الغلال في فصل الصيف فأثر هذا في معنويات الثوار وفي سير الثورة . بيد ان ابراهيم باشا أخذ في المقابل يخفف من تصلبه ازاء فرض مطالبه على الدروز اذ كان عليه ان يتحسب في الوقت ذاته لتحركات الجيش العثماني على الحدود الشمالية . ورأى في استمرار ثورة الدروز في الداخل مع تأزم الاوضاع على الحدود في الخارج خطرا اكيدا يهدد سلامة حكمه في بلاد الشام . ولهذا قرر التساهل مع دروز حوران كالتساهل مع دروز وادي التيم من قبلهم . وبعث من قبله الى حوران جرجس ابو دبس والشيخ حسن البيطار للتوسط في الامر وعرض ابو دبس للشيخ الحمدان قصة عفو ابراهيم باشا عن دروز وادي التيم بعد تسلمه السلاح منهم ونصحه بالاقتداء بهم مقابل عفو مماثل . ولم يكن بوسع دروز حوران ان يستمروا بثورتهم خلال تلك الظروف الصعبة دون ان يتلقوا اية مساعدة خارجية فقرروا التفاهم مع ابراهيم باشا مقابل الابقاء على الوضع الذي كانوا عليه قبل الثورة . وهكذا كان فالفوا وفدا لمقابلة شريف باشا حكمدار الشام وقدموا له الطاعة مع سبع مئة بندقية من سلاحهم والفين مما غنموه في حربهم مع الجيش المصري . فتلا شريف باشا امر العفو عليهم وعادوا الى قراهم آمنين مطمئنين(٨٤) . وسمح ابراهيم باشا مقابل ذلك لدروز جبل حوران بحمل السلاح

---

٨٣ - المصدر نفسه ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

٨٤ - المحفوظات ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ .

وتعهد لهم بعدم تجنيدهم ورفع السخرة عنهم والابقاء على حريتهم وامتيازاتهم في الداخل . فكان انتصارهم السياسي هذا نتيجة طبيعية لنضالهم الشاق في وجه قوات ابراهيم باشا وغيره من الغزاة مؤكدين بذلك على تقاليد اصيلة في النضال من اجل الحفاظ على حريتهم وكرامتهم . واذا بشاعر ثورتهم الشيخ ابو علي الحناوي ينشد في احدى قصائده مفتخرا بذلك .

« وافخر نسب في الارض تلقى نسبنا
متجنبين العار والمعيار

ترى جدّنا النعمان خلفه سما لخم
ومنا حماة الدين والانصار »

وانتهت بذلك الثورة الدرزية التي قامت في حوران ووادي التيم بعد مرور تسعة اشهر على اندلاعها ولكن آثارها السياسية والعسكرية كانت قد وصلت الى لبنان فاذا بنيران ثورة جديدة تهب في وجه ابراهيم باشاوتساهم في اجلائه نهائيا عن بلاد الشام .

الثورة في لبنان ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠م

بيد ان بعض الدروز في لبنان لم يغفروا لمحمد علي دوره السابق في القضاء على زعمائهم كما لم ينسوا ما حاول ان يفعله ابراهيم باشا باخوانهم دروز جبل حوران ابتداء باهانة زعمائهم وانتهاء بمحاولة ابادتهم جوعا وعطشا . فبقيت نفوس هؤلاء مشحونة بالبغض والكراهية لحكم محمد علي وما سببه من مآسي ومظالم في بلاد الشام . ولكنهم بقوا يتحينون فرصة افضل للثورة على حكم العزيز من جديد ولكن بمؤازرة اخوانهم النصارى هذه المرة على الرغم من محاولات ابراهيم باشا السابقة لزرع بذور التفرقة الطائفية في صفوفهم . وقام النكديون الدروز بدور اساسي في تلك الثورة[٨٥] .

وبقيت الظروف الدولية والمحلية تسير لمصلحة محمد علي حتى جرت موقعة

---

٨٥ - راجع بهذا الشأن ما كتبه الامير بشير الشهابي لعزيز مصر في : المحفوظات الملكية ، ج (١) ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

نزب (نصيبين) الشهيرة (١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م) التي حقق خلالها العزيز انتصارا كاسحا على القوات العثمانية . وانتهت تلك الكارثة على الدولة العثمانية بوفاة السلطان محمود الثاني وارتقاء ابنه اليافع عبدالمجيد عرش السلطنة . واختار السلطان عبد المجيد خسرو باشا لمنصب الصدارة العظمى مما أدى إلى فرار قائد الاسطول العثماني احمد فوزي باشا مع اسطوله الى الاسكندرية لينظم الى اسطول محمد علي . وهال انكلترا ما حل بالدولة العثمانية على يد العزيز من كوارث وخشيت قيام دولة قوية في مصر وبلاد الشام من شأنها ان تهدد طريق الهند . وكان محمد علي مؤهلاً لانشاء مثل هذه الدولة التي قد تتحالف مع فرنسا وتهدد مصالح الانكليز في الشرق . وكانت انلكترا في الوقت نفسه تخشى من امكانية سيطرة روسيا على القسم الشمالي الشرقي من الامبراطورية العثمانية . واذا كانت انكلترا المستفيدة الاولى من بقاء الدولة العثمانية على حالها قبل الحملة المصرية فان بقية الدول الاوروبية الكبرى آنذاك وهي فرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا كانت ترى بدورها ان انهيار الدولة العثمانية من شأنه ان يهدد مصالحها ايضا . وجميع هذه الدول باستثناء فرنسة كانت ترغب بانهاء حكم العزيز في بلاد الشام وارجاع السيطرة العثمانية عليها . ولهذا قررت التدخل مباشرة في النزاع المصري العثماني وقبل فوات الاوان . وكانت بداية هذا التدخل عندما حاول السلطان عبد المجيد التفاوض مع محمد علي بشأن استرجاع الاسطول العثماني ، فاذا بالدول الأوروبية الخمس ترسل مذكرة لكل من السلطان والعزيز توصيهما بعدم ابرام اي اتفاق من غير موافقتها[٨٦] .

وشعر محمد علي اذ ذاك بأن مطامع الدول الاوروبية في الشرق لن تدعه يستغل ثمرة انتصاراته العسكرية على السلطان فأخذ يستعد لمواجهة جميع الاحتمالات بما فيها التصدي عسكريا لمحاولة اقصائه عن بلاد الشام . وشرع العزيز بتحصين المواقع العسكرية المهمة في مصر وبلاد الشام . وطلب من ابنه ابراهيم باشا جمع الحاميات المتفرقة في انحاء سوريا وحشدها في المواقع الاستراتيجية . وتوقع الناس في بلاد الشام عودة محمد علي الى التجنيد الاجباري من اجل زيادة عدد افراد جيشه ومواجهة

٨٦-

Harold Temperley, *England And The Near East*

The Crimea (U. S. A; Frank Cass and Co; 2nd edt, 1964) PP. 107 — 109.

الحالة الراهنة . وشاعت الاخبار انذاك في لبنان بأن ابراهيم باشا سيعمل على تجنيد جميع اللبنانيين مسلمين ومسيحيين ، وان سليمان باشا الفرنساوي جاء الى بيروت من اجل هذه الغاية . وتركت هذه الاشاعات اثرها في نفوس اللبنانيين فاشتدت مخاوفهم من التجنيد حتى ان بعض العائلات البيروتية غادرت المدينة الى قبرص والجزر اليونانية هربا من امر التجنيد . وخشي نصارى جبل لبنان من ان يجندهم العزيز في جيشه كما جند الدروز ١٢٥١ هـ / ١٨٣٥ م فعمدوا للاتفاق مع الدروز وتعادهوا على التصدي لاية محاولة يقوم بها العزيز من اجل تجنيدهم . وبلغ العزيز خبر تفاهم الدروز والنصارى ضده فكتب لحليفه الامير بشير يطلب منه تجريد النصارى من الاسلحة التي سبق ووزعها عليهم ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨ م لمحاربة الدروز[٨٧] . ولكن طلب ابراهيم باشا القاضي بتجريد حلفاء الامس من السلاح جعل التحالف الدرزي المسيحي اشد صلابة وقوة من ذي قبل . الا ان هذا التحالف بدا ضعيفا بحكم تحالف الامير بشير الحاكم مع محمد علي من جهة وبموقف فرنسا المؤيد للعزيز من جهة ثانية . واذا كان هذا التحالف جاء نتيجة طبيعية لاتفاق مصالح الفريقين ، فان اثره في سير الاحداث في لبنان كاد ان يكون محدودا لو لم تعمل بعض الدول الاوروبية في الخفاء وخاصة انكلترا لشد ازره وتحريض جميع اللبنانيين على الثورة ضد الحكم المصري . وتذكر بعض المصادر ان انكلترا ارسلت الى لبنان منذ وقت مبكر السيد وود(Richard Wood) ترجمان سفارتها في الاستانة للعمل على استمالة زعماء الدروز والموارنة الى الجانب العثماني . حتى ان القنصل الفرنسي نفسه (السيد بوري) وعلى الرغم من صلات الود التي كانت قائمة بين بلاده والعزيز فقد حرض اللبنانيين على الثورة ايضا واضطرت الدولة الفرنسية الى نقله من قنصليتها في بيروت[٨٨] .

وكان لاتصالات الدول الاوروبية هذه اثرها الكبير في تهيئة الاجواء الملائمة للثورة على ابراهيم باشا ليس في لبنان وحسب بل في سائر انحاء بلاد الشام . وبدأ تململ الناس من الحكم المصري في مختلف المقاطعات . الا ان الامير بشيراً الثاني حاكم جبل لبنان ظل مواليا لحليفه محمد علي واخذ يعمل ما بوسعه لابقاء معظم

٨٧- المحفوظات الملكية ، ج ٤ ، ص ٢١٠-٢٢١ كذلك : الشدياق ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .
٨٨- المحفوظات ، ج ٤ ، ٣٨١ .

اللبنانيين في الجانب المصري . وكانت فرنسا تشد ازره في هذه السياسية ولكن اللبنانيين كانوا بشكل عام متذمرين من الحكم المصري غير انهم كانوا في هذه المرحلة منقسمين الى ثلاث فئات :

الفئة الاولى كانت تشكل الاكثرية وقد اتخذت موقف الحياد والتردد تجاه الثورة ضد محمد علي وكوّن بعض الدروز قسما من هذه الفئة . اما سبب موقف هؤلاء الدروز فيعود من جهة لفقدانهم زعامة تنظم امورهم وتقودهم الى الثورة ذلك ان بعض زعماء الدروز كانوا قد اصبحوا رهائن عند محمد علي وبعضهم قتل خلال ثورة حوران ووادي التيم فيما كان معظم جمهور الدروز اما مجردين من السلاح واما لهم أبناء وأقارب مجندون في صفوف الجيش المصري منذ عام ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م (٨٩) . أما الفئة الثانية فقد ألفت القسم الموالي للحكم المصري ، وهي من حزب الأمير بشير الشهابي . وكان في عداد هؤلاء زعماء من جميع الطوائف المعروفة في الجبل وجلهم من الموارنة وبعض أعيان الدروز كالأمير أمين ارسلان والشيخ حسين تلحوق والشيخ يوسف عبد الملك(٩٠) . أما الفئة الثانية التي قامت بالثورة ضد الحكم المصري في لبنان فقد تألفت من جميع المعارضين والناقمين على الأمير بشير من الشهابيين والخوازنة واللمعيين والنكديين . والجديد في ثورة لبنان هذه أن النصارى الذين كانوا موالين للحكم المصري والذين عمل ابراهيم باشا على تسليحهم سنة ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م لمقاومة الدروز انضم بعضهم إلى صفوف الثورة عندما أمر العزيز بتجريدهم من السلاح . ورفض هؤلاء تسليم أسلحتهم للأمير بشير وعقدوا مع ممثلين دروز اجتماعاً لهذه الغاية . ثم تلاه اجتماع آخر حضره مندوبون عن سائر المقاطعات التي وقفت ضد الحكم المصري في خلوة الدروز في دير القمر وتحالفوا على حد ما جاء في رواية معاصرة « على الرأي والقلب والكلمة واحدة ثم بثوا الدعوة إلى العصيان في أنحاء البلاد »(٩٠) . وهكذا انطلقت الشرارة الأولى لنار الثورة في لبنان ضد محمد علي ، فكان مشايخ النكدية الدروز ، وأهل دير القمر والمناصف والشحار أول الثائرين . وتجمع من هؤلاء قوة سارت تحت راية النكديين

---

٨٩ - حروب ابراهيم باشا ، ج ٢ ، ص ٦٦ - ٦٨ .
٩٠ - المصدر نفسه ، ص ٣٩ - ٤٧ وص ٥٧ - ٥٩ .
٩١ - المصدر نفسه ، ص ١٣ - ١٨ .

الحمراء للتحرش بقوات ابراهيم باشا في صيدا وضواحيها وأثاروا القلاقل في تلك النواحي وقطعوا المياه عن مدينة صيدا والطرق المؤدية إلى المطاحن القريبة منها . واضطر قائد القوات المصرية في صيدا سليمان باشا الفرنساوي إلى ارسال فرقة من جنوده للحفاظ على الأمن . غير أن سليمان باشا لم يحاول الهجوم على الثوار في تلك الظروف الحرجة بل عمل على تهدئة خواطرهم وكتب يخبرهم بأن الحكومة المصرية لا ترمي من قرارها إلى نزع سلاحهم ولا إلى تجنيدهم . وسارع الأمير بشير في الوقت ذاته إلى تفريق صفوف الثوار فأرسل بعض رجال الدين المسيحيين لاقناع أبناء ملتهم للتخلي عن الثورة فيما أرسل مرسوماً يطمئن جميع الثوار إلى عدم تجنيدهم أو تجريدهم من السلاح . وبعد أيام ورد مرسوم آخر من ابراهيم باشا يؤكد ما أعلنه الأمير فتراجع الثوار بعد الوعد والوعيد إلى أوطانهم(٩٢) .

امتداد الثورة الى سائر المناطق اللبنانية :

ولكن شرارة الثورة ما لبثت ان انتقلت الى بيروت وكان في عدادها بعض الامراء اللمعيين ومشايخ آل الخازن وأبو سمرا غانم ويوسف الشنتيرى ، ونادى محمود الشهابي جهارا بالدعوة للوقوف بجانب الدولة العثمانية(٩٣) . وهاجم هؤلاء مع رجالهم الكرنتينا خارج سور بيروت فردهم جنود مركب مصري بعد ان اطلقوا عليهم نيران المدفعية . وفيما استكان ثوار الدروز وقدموا الطاعة للأمير بشير ثار أهالي المتن من دروز ونصارى في اوائل الصيف (١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م) . ولكن الامير بشيراً حاول ردعهم عن طريق بعض الوسطاء فأبوا التراجع والطاعة واخذوا يؤلبون اهل ضواحي بيروت على الثورة فاستجابت لدعوتهم جموع من برج البراجنة والشياح وحارة حريك وهم من جميع الطوائف . وجرت بين الثوار والقوات المصرية معركة في ضواحي بيروت انتصر فيها الثوار . وانضم الى صفوفهم اثر هذا الانتصار جموع غفيرة من بينهم امراء شهابيون ناقمون وامراء من الحرافشة ومشايخ من آل الخازن واشهرهم فرنسيس الخازن الذي اصبح فيما بعد قائد عامية كسروان .

---

٩٢ - اسد رستم ، الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي (بيروت ، منشورات الجامعة الاميركية ، ١٩٣٠ - ١٩٣٤) ج ٥ ، ص ٩٧ - ٩٩ كذلك ص ١٢٦ - ١٢٧ .

٩٣ - المحفوظات ، ج ٤ ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

وتنادى الثوار من جميع الطوائف دروزا ونصارى وسنة وشيعة للاجتماع في انطلياس حيث تحالفوا على العمل بيد واحدة حتى ينالوا استقلالهم[٩٤] . وتمكن الثوار من مضايقة القوات المصرية في سائر انحاء لبنان ونهبوا مستودعات الذخيرة واثاروا الاضطرابات مما اجبر الامير بشير على التدخل بسرعة لاخماد نيران تلك الثورة بمساعدة ابراهيم باشا . وحاول الامير بشير في البداية تفريق صفوف الثوار عن طريق المفاوضات الا ان الثوار اصروا على موقفهم ما لم تستجب السلطة الى مطالبهم اي عدم تجريدهم من السلاح وعدم تجنيدهم وابطال اعمال السخرة ودفع ضريبة الفردة عن الاحياء فقط[٩٥] .

وكان تصلب الثوار هذا كما قيل بسبب الدعم الاجنبي الذي كانوا يتلقونه من الدول الاوروبية . وخوفا من ان يفلت زمام الامور من يد الامير بشير اذا ما استمرت الثورة على ذلك النحو ، كتب رسالة الى سيده العزيز في شهر حزيران من تلك السنة يعرض فيها اخبار العصيان وينصحه بوجوب اخماد الثورة في لبنان على جناح السرعة ومما قاله : « ان الاصلح سرعة المبادرة لردع هؤلاء البغاة قهرا قبل ان تتوسع القضية معهم ويكونوا سببا لمناصرة غيرهم في العصيان . . لانه على ما نرى غير ممكن تخميدهم بوجه التطمين والتأمين لان ذلك مع جهلهم وغرورهم ودخول يد الغير بينهم مما يزيدهم شقيا وفجورا والامر بذلك لدولتكم وها انا وبيدكم اولادي واحفادي مستعدون لكل ما تصدر به اوامر دولتكم »[٩٦] .

التصدي للثورة اللبنانية :

ازاء هذه الاخبار قرر عزيز مصر التحرك لاخماد الثورة في لبنان معلنا للامير بشير انه سيرسل قوة كبيرة بقيادة حفيده عباس باشا « لضرب العصاة الذين في بيروت ونزع اسلحتهم حربا وقهرا وهذا هو مطلوبي » . كما امر عثمان باشا بالزحف على الجبل عن طريق بعلبك ومعه خمس الايات فيما جهز سليمان باشا خمس الايات اخرى من المشاة والفرسان ، واستطاعت هذه القوة الضخمة ان تخمد مختلف الحركات

٩٤- الاصول العربية ، ج ٥ ص ١٠٠ .
٩٥- المصدر نفسه ، ص ١٠٨-١١٠
٩٦- المحفوظات ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ .

الثائرة في لبنان . وقبضت على بعض قواد الثورة ومنهم اربعة من الامراء الشهابيين وثلاثة من اللمعيين وثلاثة من المشايخ النكدية هم حمود وقاسم وعباس . وسر الامير بشير لهذه النيتجة السريعة وبعث يخبر حليفه العزيز بأن مشايخ النكدية قاموا بدور اساسي في الثورة ضده وانهم كانوا يحثون : « دروز الجبل على النهوض والتوجه لمساعدة دروز اللجاة (في حوران) ويحرضوهم حتى هيجوا جانبا منهم واوقعوهم بالغلط وحصل ما حصل ، ثانيا انهم بهذه الحركة بذلوا كمال جهدهم باثارة نار الفساد وهيجوا كثيرا من الناس على ارتكاب العصيان حتى انهم كانوا يعطوهم سلاحا من عندهم سرا مشاهد ذلك ان القرايا التي هم ساكنون فيها فأهاليها دروز وشركا للمشايخ المذكورين فجميعهم نهضوا مع العصاة ولم يتأخر منهم نفر واحد من الجملة ان الشيخ حمود ارسل اصهاره الاثنين الى عند العصاة الذين كانوا مجمهورين بساحل صيدا وبقوا مع العصاة لنهاية الحركة . واما هم اي المشايخ المذكورون كان مرادهم التظاهر والهدف مع العصاة ولكن من خوفهم على ابن عمهم (الشيخ ناصيف) الذي هو بالمحروسة (القاهرة) فما امكنهم ذلك بل جعلوا يحركوا الناس للنهوض بالعصاوة »[٩٧] .

كما ألقى الأمير بشير القبض على الشيخ نقولا الخازن ومعه ستة وأربعين عامياً أرسلهم جميعاً إلى مصر ثم نفيوا إلى سنار في بلاد السودان[٩٨] .

معاهدة لندن :

وهكذا استطاع عزيز مصر ان يخمد ثورة اللبنانيين بالقوة بعد ان قتل وشرد ونفى منهم الكثيرين .وظن الناس انذاك ان الحكم المصري في بلاد الشام سيبقى الى الابد لو لم تتخذ الدول الاوروبية قرارها بوجوب اجلاء محمد علي عن بلاد الشام . فعلى الرغم من الخلاف الذي كان قائما بين فرنسا وبريطانيا حول المسألة المصرية ، العثمانية ، فقد توصلت كل من انكلترا والنمسا وبروسيا وروسيا الى اتفاق في لندن سمي بمعاهدة لندن (**١٢٥٩ هـ / ١٨٤٠ م**) . وبموجب هذه المعاهدة قررت الدول الاوروبية منح محمد علي واعقابه من بعده الحكم الوراثي على مصر وولاية عكا شرط

٩٧- المصدر نفسه ، ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

٩٨- الشدياق ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

قبول العزيز باخلاء جزيرة كريت وبلاد العرب وادنه ، وان يعيد للسلطان العثماني الاسطول الذي التجأ اليه في مصر خلال مدة عشرة ايام .فاذا لم ينفذ محمد علي هذا الطلب خلال المدة المذكورة يحرم من ولاية عكا ويعطى مهلة عشرة ايام اخرى لقبوله تلك الشروط مقابل الاحتفاظ بحكم مصر . فاذا انقضت مدة العشرة ايام الاخيرة دون قبول محمد علي طلب هذه الدول يحق للسلطان حرمانه الحكم الوراثي في مصر واتخاذ كافة الاجراءات التي يراها مناسبة كما تتعهد دول أوروبا بمساعدة السلطان لتنفيذ ما يتخذه من قرارات مناسبة حول هذا الموضوع[٩٩] .

وكان من الطبيعي ان يحاول العزيز رفض هذه الشروط وان يستعد للحرب المحتملة فكتب الى ابنه ابراهيم باشا يقول . « يجب علينا ان نثبت في الميدان فان متنا متنا مشرفين مكرمين وان عشنا عشنا كذلك . وهو أمر تفرضه روح البطولة والانسانية الحقة . وأصبح لزاماً أن نشمر عن ساعد القوة »[١٠٠] .

واهتم بتجنيد النصارى في لبنان حتى تيأس الدول الاوربية على حد قوله من « اثارة الفتن في تلك الجهات » . وطلب مساعدة البطاركة الكاثوليك لابقاء النصارى الى جانبه . وعملت فرنسا على مساعدته بكل ما امكن فحاولت ان تردع الكاثوليك في لبنان عن الانضمام الى صفوف الثورة ضد العزيز . وارسلت المسيو بودان الى لبنان ليؤكد للامير بشير ولبطريرك الموارنة انها لن تتخلى عن حماية الموارنة ولكنها لا ترضى باعمال الشغب التي يقوم بها بعض الموارنة ضد حكومة العزيز[١٠١] .

نهاية الحكم المصري :

وما ان تأخر العزيز عن تلبية شروط الدول الاوربية ضمن المدة المعنية حتى انبرت انكلترا لتنفيذ المقررات الدولية في لندن وعملت على قطع المواصلات بين محمد علي في مصر وبين ابنه ابراهيم باشا في سوريا . وارسلت لهذا الغرض اثنتين من قطع اسطولها إلى ميناء بيروت بقيادةالكومودور تشارلز نبير فوصلها في العاشرة من اب . واصدر عند وصوله بيانا حرض فيه الاهالي على الثورة ضد الحكم

---

٩٩ - راجع نص المعاهدة هذه . الاصول العربية ، ج ٥ ، ص ١٤٨ - ١٥١ .

١٠٠ - المحفوظات ، ج ٤ ، ص ٤٢٦ .

١٠١ - رستم ، بشير ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

المصري[١٠٢] . كما ابلغ الامير بشيراً الثاني بما تم عليه الاتفاق في لندن ودعاه لطاعة السلطان . وكتب في الوقت ذاته للامير بشير الثالث يحثه على الانحياز الى جانب الدولة العثمانية . وكان ريتشرد وود قد عرض على الاخير الحكم في جبل لبنان فقبله وقام هذا يدعو للثورة من جديد ضد الحكم المصري فاستمال اليه قسما من الدروز[١٠٣] . واخذت سفن الدول الاوربية الحربية تصل الى الساحل اللبناني منذ الخامس من شهر ايلول ، فاستطاعت ان تمد الثوار بالاسلحة والذخيرة . وقام ريتشرد وود الانكليزي بالدور الاساسي في عملية الاتصال بالثوار وتحريضهم في جميع انحاء لبنان فألفوا قوة مساندة للقوات الاوربية . وحاول ابراهيم باشا بالمقابل ان يعمل ما في وسعه لابقاء من استطاع من اللبنانيين الى جانبه وعاد الى سياسة التفرقة الطائفية لاضعاف قوة المعارضة والثورة ضده . وجاء في بعض المصادر ان ابراهيم باشا كتب يعد الدروز باعطائهم مقاطعة كسروان لتكون ملكا لهم الى الابد وانه لن يأخذ منهم ضريبة مقابل الوقوف ضد الثوار فرفضوا ذلك[١٠٤] . وبدأت الهزائم تتوالى على جيش ابراهيم باشا في جميع انحاء البلاد فلما انضم الى القوات الاوروبية بشير الثالث واستطاع ان يبلي بلاء حسنا في القتال ضد قوات ابراهيم باشا . اما الامير بشير الثاني فقد تأخر عن الموعد الذي ضرُب له للانضمام الى معسكر الدول الاوربية فعملت انكلترا على عزله واسناد الحكم في جبل لبنان الى الامير بشير الثالث مكافأة للاخير على موقفه خلال الحرب . وفي الثالث من ايلول صدر فرمان سلطاني قض بتعيين الامير بشير الثالث حاكما على « امارة جبل الدروز » وبعزل الامير بشير الثاني من منصبه[١٠٥] .

عودة المتغيبين الدروز :

اما محمد علي فقد لجأ الى استعمال آخر طلقة لديه من اجل استمالة الدروز

---

١٠٢ - راجع نص البيان في : الاصول العربية ، ج ٥ ، ص ١٤٨ - ١٤٩

Charles Napier, *The War In Syria* (London- 1842) P. 29- 50.

١٠٣ - مشاقة ، مشهد العيان ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، كذلك

Temperly, *op.cit* , P. 483.

١٠٤ - حروب ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

١٠٥ - راجع نص البيان ، الاصول العربية ، ج ٥ ، ص ١٧٢ - ١٧٤ .

الرافضين الى صفوفه في القتال فعفا عن المنفيين في مصر من زعماء الدروز وهم الشيخ نعمان جنبلاط والشيخين عبد السلام وخطار العماد والشيخ ناصيف النكدي وولده عباس وانعم على كل منهم برتبة الميرالاي طالبا منهم الرجوع الى لبنان لمساعدة ابنه ابراهيم باشا في الشؤون الداخلية وتعيينهم في مناصب الجبل[١٠٦] . ولكن هؤلاء لم يصلوا الى فلسطين حتى كان الحلفاء قد اجبروا قوات ابراهيم باشا على الانسحاب حتى حدود غزة . وما ان وصلوا برا الى يافا حتى نهض بعض النكديين من معسكر الامير بشير الثالث لملاقتهم . بيد ان الامير بشير هذا لم يحسن استقبالهم فنفروا منه وعادوا إلى ديارهم . واذا بهم يرون الثورة التي قامت في لبنان ضد الحكم المصري والتي ساهم بعضهم فيها قد انتهت بعد ان تمكنت القوات الاوربية من السيطرة على لبنان وتم لها اجلاء القوات المصرية عنه .

وهكذا انقض عهد محمد علي وابنه ابراهيم باشا في بلاد الشام بعد مضي عشرة اعوام من الثورات والقلاقل وعدم الاستقرار ، فكان هذا خيبة امل لسكان بلاد الشام الذين توقعوا من الحكم المصري أن يكون أفضل من الحكم العثماني فاذا بهم يتلقون على يد ابراهيم باشا صنوفا متنوعة من الظلم والاستبداد والاستغلال . ولكنهم لم يستكينوا لتلك المظالم بل ثاروا في وجهها ابتداء من ثورة فلسطين وتمرد طرابلس وعكار وحلب وثورة العلويين ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م وانتهاء بثورة الدروز عام ١٢٥٤ هـ / ١٨٣٨ م . بيد أن الثورة الدرزية التي قامت في وجه ابراهيم باشا في كل من حوران ووادي التيم كانت بحق أعنف تلك الثورات وأكثرها صمود وتضحيات . واذا كان جلاء محمد علي عن بلاد الشام قد تم نهائيا بفضل تدخل الدول الاوربية عام ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م ومساندتها للثورة في لبنان ، فان الثورة الدرزية في حوران ووادي التيم تستطيع ان تفخر على زميلاتها بما زخرت به من بطولات وبكونها لم تتلق اية مساعدة تذكر من اية جهة اخرى ، اجنبية كانت ام محلية ، بل كانت ثورة وطنية خالصة تصدى الدروز خلالها وعلى الرغم من قلة عددهم وعددهم لأقوى الجيوش النظامية انذاك في الشرق واوقعوا فيها هزائم متتالية . واستمرت تلك الثورة بفضل تضحياتهم الجسيمة ولكنهم استطاعوا مقابل ذلك ان يحافظوا على حقوقهم الطبيعية وان يثأروا لكرامتهم .

---

١٠٦ - المحفوظات ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

الفصل الثامن

الموحدون الدروز في لبنان
خلال فترة الحروب الاهلية
١٨٤٠ ـ ١٨٦١ م

بعد جلاء محمد علي عن لبنان وتخلي الامير بشير الثاني عن الحكم توقع عامة الدروز وسائر اللبنانيين الناقمين على مظالم ذلك العهد ان ينعم لبنان بالهدوء والاستقرار .

ولكن هؤلاء صدموا اما واقع جديد تغيرت فيه بنية الوضع الداخلي وتداخلت فيه قوى خارجية ادت الى تضعضع الوحدة الوطنية وادخلت لبنان في دوامة من الصراع الطائفي والقلاقل والاضرابات دامت اكثر من عشرين سنة .

وكان لبنان قد شهد على الصعيد الداخلي في عده الامير بشير الثاني تحولا سياسيا واجتماعية واقتصاديا لغير صالح الدروز بشكل عام وزعماء الاقطاع منهم بشكل خاص . ذلك ان الامير بشيرا عمل على سحق نفوذ رجال الاقطاع خاصة الدروز منهم من اجل دعم نفوذه ومركزه السياسي في البلاد . بيد ان سياسة الامير هذه لم تأت عن طريق التشريع العصري او وضع القوانين التي من شأنها ان تحد من سلطة رجال الاقطاع . بل جاءت سياسته هذه بشكل اجراءات تعسفية وانتقامية ضد خصومه السياسيين ، كالتصفية الجسدية والتغريم ومصادرة الاملاك والعقارات . وخسر زعماء الدروز بهذه الطريقة القسم الاكبر من املاكهم وعقاراتهم . وكانت املاك الدروز المصادرة احيانا توزع على المقربين من الامير بشير مجانا ومنها عن طريق البيع الالزامي لبعض المتمولين من النصارى واحيانا للفلاحين منهم . ثم جاء عهد الحكم المصري في لبنان ليزيد من نقمة هؤلاء الزعماء على تلك السياسة . ولكن سياسة ابراهيم باشا المصري في لبنان ساهمت في زيادة عدد الناقمين والمعارضين للامير بشير حتى انه لما اجلي ابراهيم باشا عن لبنان لم يجد الامير بشير الى جانبه قوة كافية لبقائه في الحكم اذ اجمع على معارضته معظم رجال

الاقطاع دروزا وموارنة ومن كان لهؤلاء من اتباع ومؤيدين[١] .

عهد بشير الثالث :

كان بشير الثالث قد تولى الحكم بتأييد من بريطانيا والدولة العثمانية فاستبشر زعماء الدروز خيرا بالعهد الجديد آملين باستعادة ما فقدوه من املاك وسلطة ونفوذ . ولما طالب زعماء الدروز بشيراً الثالث باعادة ما خسروه من املاك في عهد سلفه رفض بشير هذا طلبهم وعمل على كبح جماحهم وعلى تجريد بعضهم مما تبقى لهم من املاك . ونزع بشير الثالث مثلا من مشايخ العمادية قرية شمسطار البقاعية وسلمها للامير منصور اللمعي كما صادر ارض الرمادة في قرية عنجر وهي من املاك التلاحقة واعطاها لنسيبه الامير ملحم حيدر[٢] . وفوق هذا كله اتهم بالتآمر على قتلهم بشكل جماعي الا ان المؤامرة اكتشفت بمساعدة القنصلية الفرنسية قبل تنفيذها . فاتفقوا مع القنصلية الفرنسية على المطالبة بعزله وتعيين الامير سلمان الشهابي بدلا منه . وتبنى العثمانيون موقف المعارضين للحكم الشهابي لا لانهم كانوا يريدون التخلص من بشير الثالث وحسب بل لانهم كانوا يعملون لالغاء الحكم المحلي في لبنان وربط ولاية الجبل بالاستانة مباشرة تمشيا مع سياسة المركزية[٤] . اما فرنسا فقد ظنت ان عزل بشير الثالث سيكون ضربة موجعة للسياسة البريطانية في المنطقة . ولكن القنصلية الفرنسية فوجئت بتأييد الاكليروس الماروني لبشير الثالث وعلى رأسهم بطريرك الموارنة . اما سبب تأييد البطريرك الماروني لبشير الثالث فهو خوفه من تعيين الامير سلمان الشهابي المسلم بدلا منه . وهذا ما جاء في احد التقارير التي بعثها القنصل الفرنسي في بيروت لوزارة الخارجية

---

١ - راجع ، رستم ، بشير ، ص ٨ وكذلك :

David. Urquhart, *The Lebanon- A History And A Diary* (London, 1860) vol. I. P. 138- 165.

٢ - الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

٣ ـ Churchill, *Mount Lebanon Vol,3*. P. 237- 239.

السيدة حبوس هي حفيدة الامير جمال الدين الارسلاني الذي حضر موقعة مرج دابق ١٥١٦ م . عرفت بذكائها ومقدرتها السياسية حتى ان الامير بشير الثاني ولأها مقاطعة الغرب . وقد امدت الامير بشير بالمال عندما سجن في عكا مع الشيخ بشير . ووقفت الى جانب الشيخ بشير في النزاع بين البشيرين .

٤ - المحررات السياسية ، ج ١ ، ص ٢٦٧ .

الفرنسية . كما ورد في هذا التقرير ان البطريرك الماروني رفض ترشيح الامير حيدر ابي اللمع لهذا المنصب بحجة ان هذا الاخير لا ينتمي الى عائلة كبرى تفرض هيبتها على الجميع كالعائلة الشهابية واعرب عن تخوفه من تعيين حاكم تركي على لبنان بدل بشير الثالث . والواقع ان بطريرك الموارنة كان يرى في بشير الثالث انذاك حاكما مؤقتا حتى تغيير الظروف السياسية في الداخل والخارج فيتساهل معارضو الامير بشير الثاني ويتسنى له الرجوع الى الحكم[٥] . ولكن رجوع الامير بشير الثاني الى السلطة لم يكن بأي حال يرضي زعماء الدروز وحلفاءهم من باقي الطوائف وهو الذي اوقع بهم صنوفا شتى من المظالم . فأرسلوا عرائض الاحتجاج للسلطان معددين فيها ما ارتكبه بشير الثاني من مظالم وما ازهقه من ارواح وما انتزعه من املاك . وايدت تقارير القناصل الاجنبية انذاك ما جاء في تلك العرائض واحصوا على الامير بشير قتل وشنق وسمل عيون اكثر من سبعين شخصا من اعيان الدروز ومن الامراء الشهابيين ايضا . هذا فضلا عما صادره من اموال وممتلكات لكبار رجال الاقطاع الدروز وما هدمه من عقارات[٦] .

بداية الخلاف بين الدروز والموارنة :

ويبدو ان البطريرك الماروني كان يرمي من وراء تأييده لبشير الثالث ومطالبته بعودة بشير الثاني الى حصر السلطة بيد الموارنة في لبنان . وقد ادى موقف البطريرك هذا امام معارضة زعماء الدروز لكلا البشيرين الى التباعد والفرقة السياسية بين الموارنة والدروز .

وكانت بذور الفرقة هذه زرعت في عهد الامير بشير الثاني ونمت ابان الحكم المصري في لبنان حيث عمل ابراهيم باشا على تسليح الموارنة ودفعهم بالتواطوء مع الامير بشير لقتال ثوار الدروز في وادي التيم وحوران[٧] . الا ان هذه الفرقة كادت

---

٥ - خوري واسماعيل ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

٦ - راجع :

C. Churchill, *The Druzes And The Maronites Under The Turkish Rule From 1840-1860* (London, 1862), P. 36. 37.

٧ -

Aime Vingtrinier, *Soleiman Pacha, Colonel Seve* (Paris, 1886), P. 290

ان تضمحل عندما تحالف النصارى والدروز في ثورتهم ضد الحكم المصري سنة ١٨٤٠ م . ولكن هذا التقارب سرعان ما انقلب الى تباعد بين الفريقين امام تصلب الاكليروس الماروني تجاه بعض القضايا الاساسية . ومنها الموقف المتعارض من الحكم الشهابي وقضية استعادة الدروز لاملاكهم المصادرة وبعض امتيازاتهم ونفوذهم . وازداد الوضع تأزما بين الدروز والنصارى في مطلع عهد بشير الثالث اي بعد عودة زعماء الاقطاع الدروز المنفيين خلال عهد بشير الثاني والحكم المصري ففوجىء هؤلاء بالوضع السيء الذي وصل اليه الدروز عامة ورجال الاقطاع منهم خاصة[٨] او على حد قول المؤرخ كمال الصليبي :

« في هذه الفترة ، حرم الدروز من حسن المعاملة التي نعم بها النصارى فقادتهم الى الازدهار ، ناهيك بتجريد الدروز من السلاح ، وتجنيد خيرة فتيانهم للقتال بعيدا عن الوطن والاهل . وحين دفع بهم تظلمهم ضد الحكم المصري الى الثورة ، استطاع ابراهيم باشا اخضاعهم وارسال كبارهم الى المنفى . فلا عجب ان تمزقت اسر درزية كثيرة في تلك الايام وتشتت ، ثم اصبحت على العموم عاجزة معدمة . وحين عاد زعماء الدروز من منفاهم بعد ١٨٤٠ وجدوا اقاربهم واصدقاءهم في حالة يرثى لها ، فيما نعم النصارى بالبحبوحة والرخاء ، وكان هذا وحده كافيا لبعث النقمة في قلوب الدروز ، خصوصا وقد كان عدد من النصارى يمتلكون اراضي كانت لهم (للدروز) فيما مضى من الايام . اضف الى ذلك ما اظهره النصارى في مواقفهم السياسية من ضروب الاستفزاز[٩] » .

اسباب اقتصادية :

والوقائع التاريخية لهذه الحقبة من تاريخ جبل لبنان تدعم صحة هذا الاستنتاج ، ذلك ان النصارى وجلهم من الموارنة في الجبل كانوا قد وجدوا طريقهم الى المناطق الدرزية كفلاحين ومزارعين وصناع مهرة ، وكان الفلاحون منهم تابعون لرجال الاقطاع الدروز سياسيا واقتصاديا . فلم ينقض عهد الامير بشير الثاني سنة ١٨٤٠ م حتى انقلبت الاوضاع لصالح هؤلاء من النصارى وتغيرت العلاقات التي

٨- Urquhart, *op.cit.*, II, P. 396.

٩- صليبي ، المرجع السابق ، ص ٨٠

كانت قائمة بين الدروز والنصارى او بكلام ادق بين الفلاحين النصارى ورجال الاقطاع دروزا ونصارى وذلك بحكم التغيرات الاقتصادية التي شهدها جبل لبنان ابان القرن التاسع عشر . فالتجارة الاوروبية التي نشطت خلال هذه الحقبة في بلدان شرق المتوسط ومنها لبنان ، خلقت طبقة من التجار والميسورين بين النصارى اخذوا بدورهم ينافسون زعامة رجال الاقطاع[١٠] .

وكان لازدياد طلب فرنسا لخيوط فيالج الحرير اثره في تغيير نوعية الانتاج وبناء حلالات خيوط حديثة برأسمال فرنسي ادت الى اقفال الكثير من الحلالات الصغيرة التي كان يملكها شيوخ العائلات المقاطعجية . واستطاع النصارى بحكم علاقاتهم الوثيقة بفرنسا وغيرها من الدول الاوروبية ان يمسكوا بزمام التجارة كما امسكوا بزمام صناعة الحرير المحلية في الجبل . وجمع التجار من هؤلاء ثروات كبيرة ، فاخذوا يشترون الاراضي ويقدمون القروض للفلاحين بحيث انهم زاحموا رجال الاقطاع لا بل ان ازدياد نفوذ طبقة التجار بين الفلاحين كان من غير شك على حساب نفوذ وامتيازات رجال الاقطاع الذين كانت غالبيتهم من الدروز . وشعر هؤلاء الدروز ربما لاول مرة بخطر التغلغل الاقتصادي الاوروبي في لبنان دون ان يكون باستطاعتهم منافسته فاخذ وضعهم الاقتصادي يتردى تدريجيا لصالح المنتفعين من الوضع الجديد اي النصارى . وتمثل هذا التردي بتقلص مساحة الاراضي الزراعية التي كان يملكها الدروز مقابل توسع الطائفة المارونية في مجالي زراعة التوت وتملك الاراضي وصناعة خيوط الحرير (الحلالات) المرتبطة بالاستثمارات الفرنسية .

ادى هذا التردي الاقتصادي في وضع الدروز الى تقهقر في وضعهم السياسي ايضا . ولم يستطع الدروز على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ان يواكبوا التغيرات الاجتماعية الاقتصاديةالمستجدةاو يستثمرونها بالشكل الذي يبقي لهم الزعامة السياسية في البلاد . لا بل ان ضآلة عدد فلاحي الدروز مثلا بالمقارنة مع عدد فلاحي النصارى واخلاصهم لرجال الاقطاع جعلهم على ما يبدو متخلفين عن فرز طبقة سياسية جديدة كاخوانهم النصارى تستطيع مواكبة تلك التغيرات كما بدا

---

(١٠)
H.A.R. Gibb and Harold Bowen, *Islamic Society and the West* (Oxford, 1950) vol. I, PP. 303-313.

كذلك ، انطون خانجيان ، نبذه مختصرة في حوادث الشام ١٨٤٠ - ١٨٦٠ ، (بيروت ، ١٩٢٧) ص ٧ .

واضحا من خلال ثورة الفلاحين سنة ١٨٥٧ م . وما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال هو ان هذه التغيرات في اوضاع جبل لبنان عامة واوضاع الدروز خاصة لم تقع فجأة بل استغرق وقوعها زمنا طويلا بحيث ان هذا الانقلاب السياسي لصالح الموارنة وقع على مراحل وبشكل تدريجي وسلمي . وكان حرياً بمثل هذا الانقلاب اتخاذ ابعاد اجتماعية وسياسة تقدمية بدلا من الطائفية لو لم تبادر الى استغلاله قوى خارجية عن طريق القنصليات الاجنبية ومحلية عن طريق رجال الدين خاصة الاكليروس الماروني فاذا بتلك التغيرات تتحول الى فتن وحروب اهلية اتخذت الطابع الطائفي بين الدروز والنصارى .

المطامع الدولية :

اما على الصعيد الخارجي فقد كانت الظروف مؤاتية لاستغلال الوضع الداخلي وتفجير الاحقاد ذلك ان لبنان كان قد اصبح في هذه الحقبة مسرحا تتنافس عليه مختلف القوى الدولية . وادى جلاء محمد علي عن بلاد الشام الى فراغ سياسي تسابقت الدول الاوروبية على ملئه . واتخذت تلك الدول من لبنان محورا لسياستها في الشرق وتنافست كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا للحصول على منطقة نفوذ لها انطلاقا من لبنان ، ولم تجد هذه الدول افضل من الطائفية مدخلا لسياستها في لبنان . وكانت فرنسا التي تربطها علاقات ود تقليدية بالموارنة قد وجدت نفسها بعد محمد علي وتخلي الامير بشير عن الحكم محاصرة من بريطانيا في هذه المنطقة[١١]. اما بريطانيا فقد سعت بدورها للقضاء على النفوذ الفرنسي مستهدفة بذلك المحافظة على طريق الهند ومعتبرة لبنان الحصن الذي يمكن من خلاله السيطرة على الشرق . ومما شجع بريطانيا على تنفيذ هذه السياسة وجود قوات لها على الساحل الممتد من طرابلس شمالا حتى حيفا جنوبا . وكانت تلك القوات قد اشتركت في العمليات العسكرية لاجلاء قوات ابراهيم باشا عن بلاد الشام . اما روسيا والنمسا فقد كان من مصلحتيهما ان لا تتركا فرنسا وبريطانيا تستأثران بالنفوذ في هذه المنطقة ، بل سعت كل دولة منهما للسيطرة والنفوذ بالطريقة نفسها . وعملت روسيا على توطيد علاقاتها بكنيسة الروم الارثوذكس معلنة عن رغبتها في رعاية مصالح تلك الطائفة . اما النمسا فقد سعت بدورها لحماية مصالح الروم الكاثوليك والموارنة منافسة بذلك

---

١١ ـ Temperly, *England and the Near East*, PP. 170- 171.

فرنسا . وكانت بريطانيا قد تمكنت بشخص قنصلها الكاثوليكي ريشارد وود من استمالة بعض زعماء الموارنة الاقطاعيين ، ولكنها فشلت في استقطاب رجال الدين الموارنة ، اذ بقي هؤلاء ينظرون الى البريطانيين كاعداء للكنيسة الكاثوليكية . وجاء نشاط الكنيسة البروتستانية في لبنان ليدعم موقف الاكليروس الماروني المعادي للبريطانيين ، ولكن البريطانيين حولوا جهودهم عند ذاك لاستمالة الدروز الى جانبهم[١٢] .

دور بريطانيا :

ولم يكن زعماء الدروز حتى ذلك الحين اي حتى سنة **١٨٤١** م قد سعوا لاي تحالف كان مع اية دولة اوروبية ، بل كان موقف الدروز التقليدي يشوبه الكثير من الشك والحذر تجاه اي تحالف خارجي . وباستثناء تجربة الامير فخر الدين المعني لا نجد بين الحكام الدروز من عمل على اقامة علاقات تحالف مع الدول الاوروبية . وصحيح ان تاريخ الدروز في العهد العثماني يزخر بكثير من التحالفات السياسية مع هذا الوالي او ذاك ، ولكن مثل هذه التحالفات بقيت محصورة ضمن اطار الدولة العثمانية وان تعدّت هذا الاطار المحلي فقد كانت تحظى عادة بتأييد الباب العالي ورضاه . ولهذا لم يكن مستغربا عدم تحالف الدروز مثلا مع روسيا عندما وصل الصراع الروسي - العثماني الى ساحل بيروت وصيدا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي[١٣] . ولا يختلف برأينا موقف الدروز من حملة نابليون بونابرت الى عكا عن هذا الاطار . وما ثورة الدروز في حوران ووادي التيم ضد ابراهيم باشا حيث لم يلق الدروز اي دعم عسكري خارجي الا مثل اخر على هذا المنحى السياسي .

الا ان الدروز رأوا انفسهم سنة **١٨٤١** م امام واقع جديد في لبنان ، تتصارع فيه مختلف القوى الاجنبية وتعمل كل دولة على استقطاب فريق من اللبنانيين على اساس طائفي . وهذا ما اشار اليه احد التقارير التي رفعها القنصل الفرنسي لحكومته سنة **١٨٤١**م مؤكدا ؛ « بأن القناصل في بيروت قد تبنوا ذهنية الطوائف في لبنان وسوريا ، وان الكاثوليك يقصدون السفارة الفرنسية ومثلهم بقية الطوائف كلا الى

---

١٢ - المحررات السياسية ، ج ١ ، ص ٧٣ .

١٣ - وهي غزورة المراكب المسكوبية لبيروت سنة ١٧٧١ م اي في عهد الامير يوسف الشهابي .

قنصليتها[١٤] . وتجدر الاشارة هنا الى ان معظم المؤرخين اعطوا لعلاقات الدروز ببريطانيا خلال هذه الفترة اهمية مبالغ فيها . ففي حين لم تقم اية علاقة رسمية بين الدروز وبريطانيا قبل عام ١٨٤١ م فان تلك العلاقة لا يمكن مقارنتها باي حال بتلك العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة بين فرنسا والموارنة . وهذا ما تؤكده الوثائق البريطانية الرسمية ، اذ ان علاقة الدروز ببريطانيا كانت في معظمها علاقات شخصية بينما كانت علاقة فرنسا بالموارنة ذات طابع جماعي .

ولم تكن علاقة بريطانيا بالدروز مثلا ترمي لانشاء دولة مستقلة في الجبل يهيمن عليها الدروز كما كانت تعمل فرنسا من خلال علاقتها الوثيقة بالموارنة ، بل ان سياسة بريطانيا في هذه الفترة كانت تهدف الى حفظ سلامة الدولة العثمانية بسبب اختلافها مع سائر الدول الاوروبية على اقتسام ثروة الرجل المريض . ورأت في حفظ التوازن بين الدروز والموارنة داخل الجبل الطريق الصحيح لبقاء سلطة الدولة العثمانية في بلاد الشام . وما تأييد بريطانيا للدروز سوى محاولة جادة لحفظ هذا التوازن السياسي في الجبل بعد ان اختل ميزان القوى هذا لصالح الموارنة اثر الدعم الذي كان يتلقاه هؤلاء من فرنسا والنمسا .

دور فرنسا :

لم يقتصر الدعم الفرنسي للطوائف الكاثوليكية في لبنان يومذاك على الناحية السياسية بل تعداه الى تقديم دعم مادي لاحبار الكنيسة مما زاد من نفوذ هؤلاء على رعاياهم وجعلهم ينشطون في الميدان السياسي اكثر من ذي قبل . وكانت قوة الاكليروس الماروني على هذا الصعيد قد بزّت سلطة رجال الاقطاع المسيحي فضلا عن فئة التجار والميسورين . ذلك ان رهبان الموارنة عبر توزعهم على الاديرة الغنية باوقافها الزراعية شكلوا مع القسس المنتشرين في مختلف القرى نوعا من التنظيم السياسي يدير شؤون طائفتهم ويسيطر عليها اقتصاديا .

---

١٤ - راجع : Temperly, *op.cit.*, p. 439.

١٥ -

D. Chevallier, *Société Du Mont-Liban à L'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe* (Paris, 1971) P. 246- 256.

وقد اتخذ تدخل الاكليروس الماروني في السياسة خلال هذه الفترة بعدا جديدا بسبب تضعضع سلطة رجال الاقطاع الميسيحي كنتيجة حتيمة للتغيرات الاقتصادية والثقافية التي شهدتها المناطق المسيحية .

وفوق هذا كله ادى نشاط الارساليات الى ظهور تعصب طائفي لم تعرفه البلاد من قبل. وحقد رجال الاكليروس الماروني على زعماء الدروز بسبب رعايتهم للبعثات الانجيلية في مناطق الدروز؛ ففي حين كان الدروز يشجعون الانجيليين على تأسيس المدارس في مناطقهم عمل الاكليروس الماروني كل ما بوسعه لاغلاقها ، حتى ان البطريرك الماروني اوعز للامير بشير بوجوب اغلاق المدارس الانجليلية كما بعث برسالة للشيخ ناصيف النكدي يطلب فيها طرد الانجيليين من دير القمر ورفع حمايته عنهم فكانت هذه التدخلات تثير حفيظة الدروز[١٦] . وكان من الصعب ان يتقبل زعماء الدروز تحدي الاكليروس الماروني هذا من غير ان تنتابهم بعض الشكوك والمخاوف حول مستقبلهم السياسي في لبنان . ومما زاد من حدة هذه الشكوك تلك العلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية الوثيقة التي كانت قائمة بين فرنسا والموارنة في لبنان بحيث ان زعماء الدروز تخوفوا على ما يبدو من ان سياسة الاكليروس الماروني هذه ستؤدي في نهاية المطاف الى اقامة دولة مسيحية في جبل لبنان بمساعدة فرنسا على حساب الدروز ويكون الحكم فيها للموارنة[١٧] . ولم يكن تخوف الدروز هذا من غير مؤشرات حملتهم على مثل هذا الاعتقاد . فاليسوعيون كانوا يعملون من خلال نشاطهم الثقافي على نشر افكار مثل الامة المارونية ، وان الموارنة جزء من فرنسا بين عامة الناس ، كما ان سعي الاب اليسوعي مكسيمليان ريلو والمعروف بـ (ابونا منصور) لتحريض القرويين الموارنة على الثورة في وجه الدروز لم يكن بخاف على بعض الدروز .

ومما ورد في مجلة الارساليات الاميركية في تلك الفترة ان غاية اليسوعيين والاكليروس الماروني تشجيع الفتن للقضاء على الانجيليين واقصاء الدروز عن الجبل[١٨] .

١٦- Henry H. Jessup, *Fifty-Three Years in Syria* (New York, 1910) vol. I, P. 160.

١٧- Great Britain,ForeignOffice: *Correspondence Relating to The Affairs Of Syria 1860-61*

١٨- Missionary Herold (Aug. 1860) P. 239.

وهكذا وجد زعماء الدروز انفسهم ربما لاول مرة سنة ١٨٤١ في وضع ليس من السهل القبول به ، فبعد ان سدد الحكم الشهابي ضربات قاسية لزعامتهم السياسية ومكانتهم الاقتصادية شعروا انهم امام تحديات جديدة للتنازل عما تبقى لهم من سلطة ونفوذ . ومما زاد من قلقهم تمسك الاكليروس الماروني بعودة الامير بشير الثاني الى الحكم . ولم يسع هؤلاء لتبديد هذه المخاوف او للتفاهم مع زعماء الاقطاع الدروز حول ما فقده الاخيرون من املاك وامتيازات بل كانت سياسة التحدي والاستفزاز هي الطابع المميز لعلاقات الدروز والنصارى في هذه المرحلة . واذا قام زعماء الدروز بتأييد من ابناء طائفتهم يطالبون بالاملاك والامتيازات التي فقدوها ، كجباية الضرائب والمحافظة على الامن وممارسة السلطة القضائية البدائية عارض مسيحيو المناطق الدرزية كل هذا بتشجيع من رجال الدين ؛حتى ان بطريرك الموارنة وزع منشورا على رعاياه في تلك المناطق يدعوهم فيه للتمرد على السلطة القضائية التي كانت يومذاك من صلاحيات رجال الاقطاع الدروز ويطلب منهم ممارسة هذه الصلاحيات بانفسهم . وازاء هذا التحدي الذي لم ير زعماء الدروز مثله من قبل رأوا انه لا بد ، من مواجهة هذا الواقع ولو عن طريق القوة في محاولة لاسترجاع ما كانوا يعتبرونه « حقوقهم المغتصبة »[١٩] .

تفاقم الخلاف : الحوادث الدامية :

وتسارعت الاحداث اثر هذه الخلافات السياسية الحادة بين الدروز والنصارى . وقام التحريض الخارجي بدورٍ اساسي في تصلب المواقف وشحن النفوس بالحقد والبغضاء حتى اصبح الصدام المسلح امرا متوقعا لاشعال نار الفتنة . وفيما تذكر المصادر النصرانية حادثة الشجار المعروفة التي وقعت بين صائد حجل من بعقلين واخر من دير القمر القمر كبداية لحوادث ١٨٤١ الطائفة ، فان المصادر الدرزية تذكر وقوع حوادث اخرى متفرقة سبقت هذا الحادث ، ومنها اغتيال محمد الخفاجي في معاصر الشوف ثم قتل رجلين من دروز الغرب في خلدة . وتتهم هذه المصادر النصارى بتأليف عصابة قتل قامت بتنفيذ هذه الحوادث مستهدفين من وراء ذلك اشاعة جو من الاضطراب الامني في البلاد من شأنه ان يقنع اولياء الامر في

---

١٩ Churchill, *Druzes*, P. 38- 39.

استنبول بضرورة عودة الامير بشير الثاني الى الحكم لتهدئة الحالة[٢٠] .

ولا يتسع المجال في هذا البحث للتحقيق في صحة جميع هذه الحوادث ، انما الواضح تاريخيا ان حادث الشجار الذي وقع في وادي دير القمر اتخذ طابعا طائفيا .

ولم ينجح توسط النكدية بوضع حد نهائي لتلك الحادثة ، ذلك ان نصارى دير القمر على حد قول طنوس الشدياق « تشامخوا على النكدية ونبذوا اوامرهم » ، مما ادى الى تدهور الوضع من جديد بين دروز دير القمر ومسيحييها خلال شهر تشرين الاول لعام **١٨٤١** واستمر القتال بين الفريقين لعدة ايام . واعقب ذلك الحادث حوادث اقتتال طائفي في عدد من القرى وفي مختلف المناطق[٢١] .

واستمرت هذه الاضطرابات الى ان تدخل الباب العالي وارسل مصطفى باشا على رأس قوة من الجيش العثماني لتهدئة الوضع . ولكن هذف الدولة العثمانية من هذا التدخل كان في الحقيقة وضع حد لاستقلال جبل لبنان الداخلي وجعله تحت الحكم العثماني المباشر . وفي اوائل عام **١٨٤٢** م انجز مصطفى باشا هذه المهمة عندما استدعى الامير بشير الثالث الى بيروت وارسله الى الاستانة . فكانت هذه الخطوة نهاية الحكم الشهابي في لبنان وبداية الحكم العثماني المباشر .

الدروز في عهد الحكم العثماني المباشر (عمر باشا النمساوي) :

كانت اولى نتائج النزاع الدامي بين الدروز والموارنة خلال عام **١٨٤١** م انتهاء عهد الامارة الشهابية وبداية عهد الحكم العثماني المباشر اذ عيّن الباب العالي عمر باشا المعروف بالنمساوي حاكما على مقاطعة جبل لبنان . واتخذ عمر باشا بيت الدين مقرا لحكمه ، وعمل كل ما بوسعه لتثبيت سلطة الحكم العثماني المباشر في الجبل . وككل حاكم جديد عمل عمر باشا جهده لاستقطاب عدد من زعماء الدروز والنصارى لتأييد سياسته هذه . ونجح في بادىء الامر بكسب ولاء الدروز عامة لا حبا بالعثمانيين بل خوفا من عودة الحكم الشهابي الى لبنان . ولكن عمر باشا لم يتمكن من الحصول على تأييد عامة الموارنة ضد عودة الشهابيين الى الحكم ، ذلك

---

٢٠ - لمزيد من التفاصيل راجع .Ibid, P. 46-47 وابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

٢١ - لمزيد من التفاصيل عن الحركة الاولى راجع المصدر نفسه ، ص ٣٧-٤٣ .

ان الاكليروس الماروني كان لا يزال يمني النفس بعودة بشير الثاني الذي عرف بانحيازه للكنيسة المارونية[٢٢] .

ولم تكن الظروف الداخلية ولا الخارجية مؤاتية لعودة الشهابيين الى السلطة باية حال ، فالانقسام الطائفي في الداخل وتدخل قناصل الدول الاجنبية بشؤون لبنان بغية تأمين مصالح دولهم الخاصة على حساب مصالح اللبنانيين عامة حال دون عودة الحكم الشهابي الى لبنان . وكان الخلاف بين الدروز والموارنة وتخلي القنصل البريطاني عن دعم الحكم الشهابي ، قد تركا عمر باشا طليق اليدين لترسيخ سلطة الحكم العثماني المباشر في لبنان . غير ان الدروز كانوا اول من اتخذ زمام المبادرة للوقوف في وجه هذه السياسة . ولقد سبق لهم ان ثاروا على مظالم الحكم الشهابي والمصري في لبنان فكيف بهم الحال عندما وجدوا ان عمر باشا لا يسعى لإعادة الوحدة الوطنية بقدر ما كان يسعى لتثبيت سلطته على حساب مصالحهم ونفوذهم . ومما اثار حفيظة الدروز انحياز عمر باشا الى بعض زعماء الموارنة رغبة منه باستمالة الموارنة بعد ان اظهر هؤلاء موقفا مناوئا له . وكان بعض الذين استمالهم قد قاموا بدور اساسي في حوادث عام ١٨٤١ الطائفية . وبدل ان يمتنع عمر باشا عن التعاون مع مسببي تلك الحوادث الدامية حفظاً لما تبقى من الوحدة الوطنية في الجبل ، فقد ادخل في خدمته جنودا وقادة من الموارنة امثال ابي سمرا والشنتيري اللذين كان لهم دورا بارزا في القتال الطائفي ضد الدروز[٢٣] .

تصدى الدروز لعمر باشا :

عمل عمر باشا النمساوي كل ما بوسعه لتثبيت سلطة الدولة العثمانية المباشرة في الجبل ، ولكن انحيازه للموارنة لم يساعده على تحقيق هذا الهدف ، اذ ظل اكثر الموارنة ميالون لعودة الحكم الشهابي بينما فقد الدروز ثقتهم به وقرروا التصدي لسياسته . غير ان عمر باشا لم يقف مكتوف اليدين امام تحركات الدروز بل سعى لاجهاض تحركاتهم بالقوة . ولجأ الى سياسة المكائد والغدر التي عرف بها كثيرون من

---

٢٢ - راجع المحررات السياسية ، ج ١ ، ص ١٦٨ وكذلك كتاب الياس حوا معتمد الموارنة في الاستانة الى سفير النمسا ، المحررات ، ج ١ ، ص ١٤ .
٢٣ - الشدياق ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

الولاة العثمانيين ودعا خمسة من زعماء الدروز الى مقابلته في بيت الدين والقى القبض عليهم جميعا[٢٤] .

ولكن اعتقال هؤلاء الزعماء ادى الى مزيد من الغضب والتمرد في صفوف الدروز ضد عمر باشا ، فاخذوا يستعدون لمواجهة عسكرية مع الوالي العثماني الجديد . غير ان مثل هذه المواجهة في ظل الانقسام الداخلي بين ابناء الوطن الواحد بدت غير مضمونة النجاح ، وسرعان ما تذكروا ان امارة الجبل لم تكن خلال التاريخ العثماني الطويل لتنعم بشيء من الحرية والاستقلال الداخلي لو لم تحافظ على وحدتها الوطنية .

وفي محاولة منهم لاعادة هذه الوحدة لسابق عهدها ، وجّه اعيان الدروز بيانا خاصا الى بطريرك الموارنة مقترحين فيه عقد مثياق تحالف ماروني ـ درزي ضد عمر باشا ووعدوا بالموافقة على تأييد حكم شهابي وبالتعويض على خسائر النصارى خلال حوادث ١٨٤١ م مقابل ذلك[٢٥] .

وعلى الرغم من هذا العرض الذي قدمه الدروز للموارنة وحث القنصل الفرنسي للقبول به ، فان محاولة الدروز للتحالف مع الموارنة باءت بالفشل ؛ ذلك ان فقدان الثقة بين الجانبين بسبب الحوادث الاهلية حال دون توحيد كلمة هذين الفريقين ضد السيطرة العثمانية على الجبل . اما الكولونيل تشرشل فيعزو فشل وصول الجانبين الى اتفاق ضد عمر باشا الى التعنت الذي ابداه كل من الدروز والنصارى اثناء المفاوضات . ففي حين طلب الدروز من الموارنة اعلان تمردهم على عمر باشا مقابل موافقتهم على تأييد عودة الحكم الشهابي فان الموارنة اصروا على ان يبدأ الدروز وحدهم بالثورة وان يحرروا وثيقة ممهورة باختام كبار زعمائهم تطالب بامير شهابي كشروط مسبقة للقبول بذلك التحالف مع الدروز[٢٦] .

---

٢٤ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٧٢ ، هنالك بعض الخلاف حول بعض اسماء الذين اعتقلوا فالشدياق يذكر منهم الامير احمد ارسلان والشيخ نعمان جنبلاط ، والشيخ ناصيف النكدي ، والشيخ حسين تلحوق ، والشيخ يوسف عبد الملك ، ولكن مصادر اخرى تذكر سعيد جنبلاط واحمد وامين ارسلان وداود عبد الملك بدل يوسف عبد الملك . قابل ، ابو شقرا ، المصدر المذكور ، ص ٤٥ .

٢٥ ـ المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

٢٦ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٧٥ .

ومرة اخرى اعطى سوء التفاهم بين الدروز والموارنة ، الفرصة لعمر باشا للحيلولة دون قيام مثل هذا التحالف . وكان كافيا على حد قول تشرشل ان يتبع عمر باشا سياسة التهديد والوعيد ازاء الموارنة حتى يحبط اية محاولات جديدة تؤدي الى اي تحالف من شأنه ان يهدد سلطة العثمانيين في الجبل(٢٧) .

ولكن فشل الدروز في كسب دعم الموارنة لموقفهم المناهض لعمر باشا لم يثن عزيمتهم عن المطالبة بالافراج عن المعتقلين . ووفد الى لبنان من اجل هذه الغاية بعض زعماء الدروز في المناطق الاخرى كاسماعيل الاطرش من حوران وشبلي العريان من راشيا واميران شهابيان من حاصبيا واحد مشايخ بلاد بشارة . وسارع شبلي العريان لحصار بلدة بيت الدين ومن ثم القصر الذي كان ينزل فيه عمر باشا . ووصلت اخبار هذا الحصار الى والي بيروت اسعد باشا فأبدى قلقه للامر وارسل من يفاوض شبلي العريان على الانسحاب . غير ان شبلي العريان رفض ذلك ما لم يطلق سراح زعماء الدروز المعتقلين وتلغى الخدمة العسكرية الاجبارية في الجبل ويعفى سكانه من تأدية الضرائب لمدة ثلاث سنوات .

رفض اسعد باشا القبول بهذه الشروط واعدّ قوة كبيرة من الجنود الاتراك والارناؤوط للزحف الى بيت الدين وفك الحصار عنها بالقوة . ولم يستطع الدروز بمفردهم التصدي للقوات العثمانية بطريقة فعالة بعد ان اصر النصارى على عدم اشتراكهم في مقاومة عمر باشا ففوتوا بذلك الفرصة لاعادة التحالف التقليدي بينهم وبين الدروز ضد الحكم العثماني المباشر . ولم يقتصر موقف النصارى على عدم مشاركة الدروز في مقاومتهم لعمر باشا بل نراهم يستجيبون لاغراء اسعد باشا ويلتحق بعض الحاقدين منهم في صفوف القوات العثمانية(٢٨) . وكان بعض الدروز بقيادة خطار عماد يقفون في صف عمر باشا مما جعل بعض مشايخ الدروز يستنكفون عن قتال اخوانهم . ولكن اسعد باشا سارع بدوره لوضع حد لتفاقم الوضع فاقال عمر باشا من منصبه وعين مكانه محمد باشا ، واطلق سراح المعتقلين الدروز بعد ان توسط القنصل البريطاني بالامر(٢٩) . وامام فشل الحكم العثماني

---

٢٧ - راجع: Churchill, *The Druzes*, P. 75- 76.

٢٨ - راجع ، خليل همام فايز ، ابو سمرا غانم او البطل اللبناني (القاهرة ، ١٩٠٥) ص ١١٧ ،وكان اسعد باشا قد قدم للبطريرك بعض الهدايا وفرق الخلع على بعض مشايخ النصارى .

٢٩ - ابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

المباشر توصلت الدول الاوروبية بالاتفاق مع الباب العالي لوضع نظام جديد للحكم في لبنان هو نظام القائمقاميتين .

القائمقامية الدرزية : ١٨٤٣ - ١٨٦١ م

قسم جبل لبنان بموجب نظام القائمقاميتين الى منطقتين اداريتين يفصل بينهما طريق بيروت - دمشق ؛ فالمنطقة الشمالية للنصارى ويدير شؤونها قائمقام ماروني والمنطقة الجنوبية للدروز ويحكمها قائمقام درزي على ان تبقى هاتان القائمقاميتان تابعتين لوالي صيدا . وعين في مطلع عام ١٨٤٣ م الامير حيدر ابي اللمع قائمقاما على المنطقة الشمالية واحمد ارسلان على القائمقامية الدرزية .

وقضى النظام الجديد بان يكون كل قائمقام مسؤولا عن ابناء طائفته مما كرّس الانقسام الطائفي في جبل لبنان ، وواجه تطبيقه الكثير من الصعوبات والمشاكل . فاختلاط الدروز والنصارى في كلتي القائمقاميتين جعل هذا التقسيم امرا غير عملي . كما ان اختيار الرجل المناسب لمنصب القائمقامية واجه بعض الصعوبات ، فعلى الصعيد الدرزي اعتبر اختيار الامير احمد الاسلان محاولة عثمانية للحد من سلطة الجنبلاطيين الموالية للبريطانيين ولكنها كانت في الوقت نفسه اشارة الى تعزيز نفوذ رجال الاقطاع . ذلك ان الامير احمد ارسلان طالب بصيانة حقوق رجال الاقطاع وامتيازاتهم .

اما على صعيد القائمقامية النصرانية فقد لقي تعيين الامير حيدر ابي اللمع المتحدر من عائلة درزية والمتنصر حديثا - لقي معارضة من مشايخ الموارنة على اعتبار انهم أحق منه بهذا المنصب(٣٠) . ولم يكن الامير حيدر هذا اقل غيرة على مصالح النصارى فقد طالب أسعد باشا والي صيدا بمنحه السلطة على جميع النصارى في كلتي القائمقاميتين ربما لازالة الشكوك حول صدق ايمانه بالمسيحية . ولكن اسعد باشا رفض هذا الطلب واحاله للباب العالي فارسل خليل باشا قائد الاسطول العثماني للنظر في الامر .

---

(٣٠) ذكرنا في الفصل الاول من هذا الكتاب ان آل ابي اللمع كانوا في الاصل دروزاً ينتسبون الى بني فوارس ثم بدأوا بالتنصر على المذهب الماروني اسوة بالامراء الشهابيين في اواخر القرن الثامن عشر للميلاد .

واذا كان عامة الموارنة ما زالوا يرغبون برجوع الحكم الشهابي الى لبنان فقد نقل اليهم خليل باشا وجهة نظر الباب العالي وهي انه لا عودة للحكم الشهابي . واقترح الباشا لحل الخلاف القائم حول صلاحيات قائمقام النصارى ، بأن يعين في كل مقاطعة مختلطة وكيلان : احدهما درزي واخر نصراني بموافقة القائمقام فيمارس كل منهما السلطة القضائية البدائية على ابناء طائفته ويجبي الضرائب . وارضاء للمعترضين من النصارى طلب خليل باشا من الدروز تأدية مبلغ كبير من المال تعويضا عن خسائر النصارى لحوادث ١٨٤١[٣١] .

غير ان اقتراحات خليل باشا هذه لقيت معارضة من رجال الاقطاع خاصة الدروز منهم ذلك ان الوكيل المقترح كان من شأنه ان يحد من امتيازاتهم التقليدية كجمع الضرائب . كما رفضوا دفع المبلغ الذي عينه خليل باشا للنصارى ما لم يقبل هؤلاء بالعودة الى وضعهم السابق اي البقاء تحت نفوذ رجال الاقطاع . وطبعا لم يقبل النصارى بهذا الشرط خاصة بعد ان اخذ رجال الدين المسيحيين من الموارنة والكاثوليك يحرضون ابناء طوائفهم على الثورة ضد سيطرة الاقطاع الدرزي[٣٢] .

ادى هذا التحدي الى تفاقم الوضع بين الفريقين فاخذ كل فريق يستعد لدعم موقفه بقوة السلاح وبدأت حوادث الثأر والاغتيال في ربيع عام ١٨٤٥ م . ثم اندلع القتال على اوسع نطاق بين الطائفتين ، وكثيرا ما كان النصارى هم البادئون بالقتال كما كان الحال في الشوف اذ شنّ نصارى جزين بقيادة ابي سمرا غانم هجوما عنيفا على عدد من القرى الدرزية[٣٣] . كما وقعت حوادث اخرى في منطقة الغرب وفي المتن ادت الى تدخل قناصل الدول الاجنبية لوقف القتال . ونتيجة للضغوط التي مارسها القناصل على الدولة العثمانية عين وجيهي باشا بدلا من اسعد باشا فعمل الوالي الجديد على وقف القتال دون ان يلقى نجاحا كافيا . وعندها طلبت الدولة العثمانية من ناظر خارجيتها شكيب افندي التوجه الى بيروت من اجل حل المشكلة اللبنانية .

---

٣١ - راجع المحررات السياسية ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

٣٢ - Jessup, op. cit. vol I., P. 162.

وقد ورد في هذا المصدر ان بطريرك الموارنة لم يكتف ببسط نفوذه الروحي في القرى المختلطة بل ايضا بسط نفوذه السياسي .

٣٣ - Churchill, *op.cit*, PP. 84- 92.

الدروز وتنظيمات شكيب أفندي :

اتخذ شكيب افندي فور وصوله الاجراءات التمهيدية لتثبيت نظام القائمقاميتين في لبنان . ودعا قناصل الدول الاجنبية في بيروت لاجتماع حثهم فيه على عدم التدخل بشؤون البلاد الداخلية . وسارع الى اعتقال بعض الزعماء من كلا الطائفتين ومن بينهم القائمقامان واسند الى وفيق باشا مهمة جمع السلاح[٣٤] . وبعد ان استتب الامن وضع بعض التعديلات على النظام الجديد دعيت باسم تنظيمات شكيب افندي . وبموجب هذه التعديلات اعطى شكيب افندي والي صيدا حق تعيين القائمقام وعزله ، وعين لكل قائمقامية مجلسا مؤلفا من نائب القائمقام وقاض ومستشار عن كل من الطوائف الخمس ، السنة والدروز والروم الارثوذكس والروم الكاثوليك ، والموارنة . وحدد للمجلس مهمتين اساسيتين : الاولى تتعلق بتوزيع الضرائب وجبايتها ، والثانية قضائية اي النظر بالدعاوى التي تحال الى القائمقام .

كانت تنظيمات شكيب افندي هذه خطوة جديدة نحو تنظيم البلاد بطريقة حديثة ، اذ اخذت الادارة المنظمة تحل تدريجيا محل سلطة رجال الاقطاع . وما الصلاحيات التي منحها شكيب افندي لمجلس القائمقامية الا بعض التي كانت بيد رجال الاقطاع في السابق . فلم يبق لهؤلاء سوى صلاحية النظر بالدعاوى البدائية وتنفيذ قرارات المجلس المالية . ولهذا كان من البداهة ان تلقى هذه التنظيمات اعتراض رجال الاقطاع دروزا ونصارى فحاولوا عرقلة تنفيذها ومنها مسألة مسح الاراضي لاعادة توزيع الضرائب . وفي الوقت ذاته عاد قناصل الدول الاجنبية الى سابق نشاطهم يتدخلون بشؤون البلاد الداخلية ، ومع ذلك نعم الدروز عامة بهدوء نسبي بين ١٨٤٦ - ١٨٥٦م . ومن العوامل التي ساعدت على التهدئة تولي الاميرين حيدر اللمعي وامين ارسلان لمنصب القائمقاميتين . وقد عرف هذان القائمقامان بالاتزان والحكمة . اما على الصعيد الديني فقد تولى السدة البطريركية المطران يوسف الخازن الذي عرف بحسن علاقاته مع بعض زعماء الدروز . اما على الصعيد الخارجي فقد كان لانشغال الدولة العثمانية والدول الاوروبية الكبرى

---

٣٤ - الشدياق ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٢١ و ٣٢٩ .

بحرب القرم اثارا حسنة على تهدئة الاوضاع في لبنان[٣٥] .

واذ خمدت نار الحرب الاهلية بين الدروز والنصارى خلال هذه الحقبة فقد نشأ خلاف من نوع اخر داخل الطائفة المارونية بين الفلاحين ورجال الاقطاع . اما على الصعيد الدرزي فقد نشأ خلاف بين فئتي اليزبكية والجنبلاطية . وحتى الجنبلاطيون مثلا نراهم ينقسمون خلال هذه الفترة الى فريقين ، فريق يوالي نعمان جنبلاط واخر سعيد جنبلاط[٣٦] . الا ان سعيد جنبلاط ما لبث ان برز كزعيم للدروز ينافسه في ذلك الحزب اليزبكي . غير ان الحزب اليزبكي لم يكن حينذاك اكثر من حلف مؤقت بين بقية مشايخ الدروز المعارضين للزعامة الجنبلاطية . ورأى العثمانيون في قوة سعيد جنبلاط ما يهدد نفوذهم فعملوا على اثارة امين ارسلان ضد الزعيم الجنبلاطي . ولكن موقف العثمانيين هذا وحّد صفوف الدروز يزبكيين وجنبلاطيين بدلا من تفريقهم .

ولكن الوضع ما لبث ان توتر بين الدروز والعثمانيين في منتصف عام ١٨٥٢ م بسبب فرض الخدمة العسكرية عليهم . فقد رفض الدروز التجنيد واعلنوا العصيان . واذ فشل العثمانيون في اخضاع الدروز بالقوة عمدوا الى تحريض النصارى ضدهم . ثم سرعان ما غير العثمانيون موقفهم من الدروز فأخذوا يعملون للتقرب منهم بشتى السبل . الا ان تقرب العثمانيين هذا اثار حفيظة النصارى وزعمائهم الدينيين . واخذت العلاقات الدرزية المسيحية تتردى تدريجيا حتى كان عام ١٨٥٧ م ، فاذا بالنزاع المسلح ينشب بين الطائفتين من جديد ويبلغ ذروته عام ١٨٦٠ م .

فتنة ١٨٦٠ :

تعتبر فتنة ١٨٦٠ م من اسوأ الحوادث التي شهدها لبنان بين الدروز والنصارى خلال هذه الفترة ، واذا كان من الممكن تعريف الاسباب والعوامل الداخلية والخارجية التي ادت الى نشوب تلك الفتنة ، فانه من الصعب تحديد درجة المسؤولية

---

٣٥ ـ نشبت حرب القرم بين روسيا والدولة العثمانية سنة ١٨٥٣ وتوقفت ١٨٥٦ م . وقد تحالفت بريطانيا وفرنسا مع الدولة العثمانية .

٣٦ ـ ابو شقرا ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

التي تقع على عاتق كل فئة من القوى السياسية التي كانت موجودة في ميدان الصراع السياسي انذاك . ومن المعروف ان كل فئة اشتركت في تلك الحوادث الدامية حاولت القاء مسؤولية ما حدث على الفئة المناوئة لها . وتجدر الاشارة هنا الى ان مصادر دراسة هذه الحقبة من تاريخ جبل لبنان تنقسم الى اربعة انواع هي :

- المصادر المسيحية المحلية ومنها كتاب اسكندر ابكاريوس (نوادر الزمان) وكتاب انطوان ظاهر العقيقي (ثورة وفتنة في لبنان) .

- المصادر الدرزية ،ككتاب الحركات في لبنان ليوسف ابو شقرا
- المصادر الاجنبية وهي بدروها نوعان :

أ - تقارير قناصل الدول الاجنبية

ب - تقارير الارساليات التبشيرية التي نشرت في بعض الدوريات التابعة لها .

المصادر العثمانية .

وعلى الرغم من توفر معظم المصادر الثلاثة الاولى والتي يمكن ان تعطي صورة واضحة عما جرى في هذه الحقبة ، فان المصادر العثمانية بقيت مجهولة لدى الباحثين اذ انها لا تزال مطوية في بطون الارشيف العثماني . ويمكننا القول في هذا المجال انه بسبب هذا النقص في المصادر الاساسية لم يكتب تاريخ هذه الحقبة بشكل علمي صحيح حتى الان . وليس بوسعنا خلال هذا البحث العام تأريخ هذه الاحداث المتشابكة والمعقدة والتي تظافرت على خلقها عوامل عدة داخلية وخارجية . ولكننا في سياق هذا الموضوع يمكن ان نستخلص بعض الحقائق الاولية من بعض المصادر المحايدة اجنبية كانت ام محلية والتي على ضوئها يمكن تلمس حقيقة ما جرى من الحوادث الدامية سنة ١٨٦٠ .

ويظهر من خلال هذه المصادر ان فتنة ١٨٦٠ م لم تكن وليدة الساعة التي وقعت فيها بل تعود اسبابها الداخلية الى التطورات التي شهدتها العلاقات الدرزية - المارونية خلال عهد الامير بشير الثاني وما بعد .

وقد عرضنا في مطلع هذا الفصل بعضا من هذه التحولات السياسية والاقتصادية التي كانت لصالح النصارى منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي .

ولكن قائمقامية النصارى في الشمال شهدت قبيل فتنة ١٨٦٠ م ثورة الفلاحين التي تزعمها طانيوس شاهين سنة ١٨٥٨ ، وقد اظهرت هذه الثورة نوعا من الوعي السياسي والاجتماعي ضد تسلط رجال الاقطاع . وكان الامير بشير احمد اللمعي قائمقام النصارى قد اتخذ موقفا مؤيدا من الثورة بسبب خلافه مع مشايخ الموارنة من آل الخازن[٣٧] .

كما انحازت القنصليات الفرنسية والنمساوية الى رجال الاكليروس الماروني الذين انحازوا بدورهم الى حركة الفلاحين طمعا بالسلطة والنفوذ ؛ وما ظهور هذه الحركة الثورية في قائمقامية النصارى اي بين فلاحي الموارنة في الشمال الا دليل على ان هذه التحولات الاجتماعية في لبنان لم تكن حتى ذلك الحين طائفية الاتجاه بقدر ماهي ثورة اجتماعية ضد رجال الاقطاع من مختلف الطوائف . ولكن عامة الدروز بحسب رأي بعض الباحثين كانت تختلف من حيث الوعي السياسي والاجتماعي عن فلاحي النصارى وربما كان ذلك بسبب تماسك النظام الاجتماعي تقليديا بين الدروز من جهة ولان غالبية الفلاحين كانت في كلتا المنطقتين من النصارى من جهة ثانية . ولذا كان من السهل برأي هذه المدرسة من الباحثين ؛ ان يستغلها رجال الاقطاع ورجال الدين طائفيا فكانت فتنة ١٨٦٠ الطائفية[٣٨] . غير ان القول بأن حوادث ١٨٦٠ الطائفية لم تكن الا ثورة طبقة الفلاحين ضد رجال الاقطاع تبدو كانها محاولة تبسيط لتلك الحوادث المعقدة مع ما رافقها من تدخل خارجي وداخلي جعلها تسير بغير اتجاهها الصحيح . وقد ورد في المصادر المحلية والاجنبية اكثر من اشارة واضحة الى ان هذه الحوادث كادت ان لا تكون طائفية لو لم تستغلها جهات محلية او اجنبية جعلتها تتخذ بعدا طائفيا . وتتحدث بعض المصادر مثلا عن التحالف غير المباشر الذي كان قائما بين رجال الاقطاع من الطائفتين مما يدل على ان جوهر الصراع في حوادث ١٨٦٠ الدامية كان نوعا من الصراع الطبقي بين رجال الاقطاع الذين كانوا في غالبيتهم من الدروز وبين الفلاحين الذين كانوا في غالبيتهم من النصارى[٣٩] .

---

٣٧ ـ انطوان ظاهر العقيقي ، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت ، نشر ابراهيم يزبك ، لات) ص ٧٢ ـ ٧٩ كذلك ص ٨٣ .

٣٨ ـ راجع مثلا يوسف ابراهيم يزبك في مقدمته لكتاب العقيقي ، ثورة وفتنة ، ص ١٠٤ .

٣٩ ـ الحتوني ، ص ٣٢٩ ، كذلك G. Antonius, the *Arab Awakening* P. 57.

اما كيف هيمنت الطائفية على هذا الصراع فذلك قد يعود لعدة عوامل منها :

ان رواسب حوادث ١٨٤١ - ١٨٤٥ الطائفية كانت لا تزال حية في اذهان عامة الناس فكان من السهل تحريض هؤلاء طائفيا . ومن الممكن ايضا ان يكون رجال الاقطاع الدروز قد استغلوا موقف رجال الاكليروس المسيحي في تحريض المسيحيين طائفيا فأثاروا بدورهم عامية الدروز طائفيا وذلك محافظة على امتيازاتهم الاقطاعية خصوصا وان ثورة المسيحيين التي قد بدأت ضد رجال الاقطاع في الشمال كان من شأنها لو استمرت طبقية ان تمتد الى المناطق الدرزية . ومن العوامل ايضا تولي زمام الامور السياسية والدينية اناس عرفوا بتعصبهم الطائفي ، فخورشيد باشا العثماني والي صيدا كان معروفا بتعصبه الديني . اما على الصعيد المحلي فلا يمكن اغفال دور الكنيسة المارونية الذي ساهم في تحويل ذلك الصراع الاجتماعي الى صراع طائفي خدمة للمصالح السياسية للكنيسة . وكان باستطاعة الكنيسة ان تقوم بمثل هذا الدور بفضل مكانتها الاقتصادية إذ كانت تملك وحدها ثلث الاراضي الزراعية في جبل لبنان وبالتالي اصبحت طرفا رئيسيا في انتاج فيالج الحرير وتجارتها . وبرزت قوة الكنيسة السياسية هذه خلال ثورة الفلاحين التي نشبت عام ١٨٥٨ م بقيادة طانيوس شاهين ضد رجال الاقطاع ، اذ تمكنت بفضل نفوذها الاقتصادي والمعنوي بين الفلاحين ان توجه تلك الثورة فتصوغ برنامجها وتحدد مسارها في نهاية الامر . وبدل ان تستكمل ثورة الفلاحين مسارها الاجتماعي من غير توجه طائفي نجدها تنحرف في حوادث ١٨٦٠ بقيادة طانيوس شاهين للمساهمة في الاقتتال الطائفي ضد الدروز[٤٠] . وعندما رأت الكنيسة ان زمام الامور سيفلت من يدها عملت على وضع حد لقوة طانيوس شاهين على يد يوسف كرم وذلك خدمة لمصالحها السياسية .

وتتهم بعض المصادر البطريرك بولس مسعد بالتعصب الطائفي ؛ الا ان البطريرك بولس مسعد لم يكن الوحيد الذي اظهر تعصبا طائفيا على صعيد رجال الدين المسيحيين بل بزه في ذلك المطران طوبيا عون الذي يتهمه احد المؤرخين المعاصرين لهذه الحوادث بالتحريض على قتال الدروز وانه اشتهر بكرهه لهم . كما ان مطران صيدا وصور بعث برسالة لنصارى راشيا يحثهم فيها على تصفية الدروز

٤٠ - راجع ، الصليبي ، تاريخ لبنان ، ص ١٢٦ .

واخراجهم من البلاد . وبلغ التوتر الطائفي ذروته بعدما شرع شباب القرى المسيحية بتأ... ؤ.. ق للقتال اخذت تعلن عن عزمها على « سحق الدروز » ، كما انشأ المطران طوبيا عون رابطة لشبان الموارنة واخذ يتحدى بدوره الدروز[٤١] .

الدور العثماني :

اما على الصعيد الخارجي فقد توافق هذا التوتر الطائفي مع هدف الدولة العثمانية لاستغلاله في تطبيق سياستها المركزية في لبنان . واشعال نار الفتنة من جديد كان يعني من وجهة النظر العثمانية اعطاء الدليل على ان الحكم الذاتي في لبنان غير قادر على العيش والاستمرار . ولعلنا من خلال هذه السياسة نستطيع فهم موقف الوالي العثماني تجاه ما جرى من حوادث عام ١٨٦٠ . ففي الوقت الذي اخذ كل من الفريقين يستعد للقتال لم تحاول الدولة العثمانية على الاقل وقف تدفق الاسلحة على فريقي النزاع في لبنان[٤٢] . وهكذا لم يأت ربيع ذلك العام الا وكان الفريقان على استعداد تام للقتال واخذ الناس بحسب بعض الروايات المعاصرة يتهامسون ويتساءلون الى اين المصير وجميعهم يتوقعون شرا مستطيرا دون ان يعملوا على تدارك وقوع ذلك الشر[٤٣] . ولم تمض فترة طويلة حتى وقعت حادثة بيت مري الشهيرة حيث كان معظم القتلى من الدروز ، فكانت تلك الحادثة بمثابة عود الكبريت التي اشعلت نار الفتنة بين الدروز والنصارى في المتن والجرد والغرب والشوف وجزين . ثم امتدت نيران الفتنة بين الدروز والنصارى الى منطقة حاصبيا وراشيا . وتجدر الاشارة الى ان الدروز في حاصبيا وقفوا ضد رجال الاقطاع الشهابيين وعملوا على توحيد صفوفهم هناك مع النصارى ضد الاقطاع الشهابي . ولكن النصارى ظلوا موالين للشهابيين . واستمر القتال بين الفريقين لعدة اسابيع ووقع عدد كبير من الضحايا . الا ان سقوط مدينتي زحلة ودير القمر بيد الدروز وامتداد

---

٤١ ـ G. Britain, Foreign Office, *Correspondence*, II, P. 519.
كذلك ، العفيفي ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ . وكمال الصليبي ، تاريخ لبنان ، ص ١٢٤ و ١٣٥ وتروى المصادر الاجنبية بعض الامثلة على تحدي النصارى للدروز ومنها ما ذكره الكولونيل تشرشل من ان نصارى دير القمر منعوا احد النكديين من بناء قصر له في دير القمر مع العلم ان دير القمر كانت في الاساس من اقطاع النكدية .

٤٢ ـ Jessup, *op.cit*, I, P. 166.

٤٣ ـ G. Britain, Corres. II, P. 198.

الفتنة الى دمشق وما رافق هذه الحوادث من كوارث ومآسي كان سببا مباشرا لتحرك سفراء الدول الاوروبية لمطالبة الباب العالي بوجوب التدخل فورا لوقف القتال[٤٤] . ودعا خورشيد باشا والي بيروت زعماء الدروز والنصارى الى مقره وعرض عليهم مقترحاته لايقاف القتال فقبلوا مقترحاته . واعلن الوالي العثماني ان الدروز والنصارى قد اتفقوا على الصلح متوخيا بذلك قطع الطريق على تدخل الدول الاوروبية . بيد ان اندلاع الفتنة في دمشق بين المسلمين والنصارى ما لبث ان فتح الباب للتدخل الاوروبي من جديد . وكان عامة المسلمين في دمشق قد هاجموا فجأة حي النصارى وذلك بعد مضي عدة ايام على تفاهم الدروز والنصارى في لبنان الامر الذي اثار الحكومة الفرنسية وجعلها ترسل نحو سبعة آلاف جندي من قواتها البحرية الى لبنان . وقد اتهمت الدول الاوروبية السلطات العثمانية في دمشق بالتحريض على الفتنة واعتبروها مسؤولة عما حدث . ومما قاله قنصل فرنسا في هذا المجال « ان مسؤولية الاحداث تقع على الاتراك لانهم منذ ١٨٤٠ وهم يعملون على الغاء الحكم الذاتي في لبنان[٤٥] .على ان اصابع الاتهام أشارت بشكل خاص الى احمد باشا والي دمشق حيث نقل عن لسانه قوله « في سوريا مصيبتان المسيحيون والدروز ، فذبح اية فئة هو ربح للدولة العثمانية[٤٦] » . ويهزأ الكولونيل تشرشل الذي عاصر تلك الاحداث من القول ان الاتراك لم يتمكنوا من اخماد الفتنة بل يتهمهم بالتآمر والتحريض والاشتراك فيها[٤٧] .

وامام احتمال التدخل الاوروبي رأى الباب العالي انه من الأفضل تسوية المشكلة بنفسه فأرسل فؤاد باشا ناظر الخارجية لهذا الغرض ، فوصلها وشرع باتخاذ بعض

---

٤٤ - راجع في شأن هذه الحوادث ، ابو شقرا ، المصدر المذكور ، ص ٩٩ - ١٣٢ . وتجدر الاشارة هنا الى ان كثيرين من الدروز على عكس ما ورد في بعض المصادر حموا النصارى الابرياء من القتل . ويذكر احد المصادر الدرزية على سبيل المثال ان قاسم بك الحمود (النكدي) حمى خمسين رجلا من اهالي دير القمر وسعيد جنبلاط نحو مئة ومثله فعل بشير النكدي وحمى بنو حماده بني افرام (البستاني) . كما ان رجلا تقيا من كفر قطره حمى سبعين رجلا . كما لقي الكثيرون من نصارى الجرد والغرب حماية من مشايخ ال تلحوق وال عبد الملك .
راجع بذلك كتاب الحركات ، ص ١٣١ ، والعفيفي ، ص ١١٥ .

٤٥ - Detesta., *op.cit* , II, P. 45.

٤٦ - G. Britain, *Correspondence* 1860- 61, I, P. 178.

٤٧ - Churchill, The *Druzes*, P. 215.

الاجراءات التي من شأنها ان تقطع الطريق على التدخل الاوروبي . وفي محاولة لتهدئة الوضع في دمشق القي القبض على عدد من الجنود والضباط العثمانيين بتهمة الاشتراك في القتال الى جانب الدروز وانزل بهم عقوبة الاعدام . كما قبض في الوقت نفسه على عدد من سكان دمشق وحكم على بعضهم بالاعدام وعلى البعض الاخر بالسجن .

ولم يكن بوسع فؤاد باشا ان يقتص من زعماء الفتنة في لبنان بالطريقة نفسها ، ذلك ان ما وقع في لبنان اشبه بالحرب الاهلية التي يجب ان يتحمل مسؤوليتها الفريقان المتنازعان بالتساوي .

ومع ذلك قرر محاكمة بعض زعماء الدروز ارضاء لرغبات قناصل الدول الاوروبية المتعاطفة مع النصارى . ودعا فؤاد باشا سبعة واربعين منهم لمقابلته في بيروت . ولكن زعماء الدروز الذين خبروا مكائد الولاة العثمانيين لم يحضروا جميعهم بل حضر منهم اثنا عشر شخصا ، منهم سعيد جنبلاط والقائمقام محمد ارسلان فالقى القبض عليهم ، اما بقية المطلوبين فقد فروا الى حوران[٤٨] .

وبعد ان حكم فؤاد باشا على المسجونين بالاعدام استبدل الحكم بالسجن المؤبد ، الا ان سعيد جنبلاط توفي في السجن . ولو اقتصر تحامل العثمانيين على الدروز عند هذا الحد لهان الامر ، بل افسحوا المجال كما تقول احد المصادر الدرزية امام القوات الفرنسية التي نزلت في لبنان لاخذ قسطها من هذا التحامل . وفيما كانت فرقة من القوات الفرنسية متوجهة الى بيت الدين رافقها جمع من النصارى الحاقدين ، فاباح لهم قائد الفرقة قتل من يصادفونه في طريقهم من الدروز فذهب ضحية هذه المحاباة عدد جديد من الدروز وبينهم من كان قد اجار بعض النصارى خلال الحوادث الدامية[٤٩] .

وشعر الدروز اثر هذا التحامل العثماني الفرنسي المزدوج انهم في خطر شديد

---

٤٨ - ابوشقرا ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ . ومن الذين حضروا من الدروز ، سعيد جنبلاط وسليم جنبلاط ، محمد الامين ارسلان ومحمد قاسم ارسلان ، اسعد عماد ، قاسم مرعي نكد وقاسم حمود نكد . حسين تلحوق وناصيف تلحوق ، يوسف عبد الملك وقاسم حضر الدين . وحضر كبراء النصارى ولكن فؤاد باشا لم يلق القبض على احد من النصارى .

٤٩ - المصدر ذاته ، ص ١٣٥ - ١٤٥ ،

ففر قسم منهم الى جبل الدروز . اما من بقي منهم فقد واجه اجراءات فؤاد باشا التعسفية بروية وصبر ، ذلك ان فؤاد باشا حاول مسايرة النصارى الى اقصى حد على حساب الدروز . وكانما هؤلاء هم وحدهم مسؤولون عما حدث في البلاد من قتل وخراب متجاهلا بقية الفرقاء . ولكنه كان يرمي من وراء ذلك الى قطع الطريق على مزيد من تدخل الدول الاوروبية . ومما فعله فؤاد باشا انذاك انه طلب من النصارى ، اعداد لائحة باسماء المعتدين من الدروز اثناء الفتنة . فاعد له بشكل اعتباطي لائحة باربعة الاف وستماية شخص من الدروز وثلاثماية وستين شخصا من السنة والشيعة . وكان من الواضح ان هذا العدد مبالغ فيه فاعيد النظر في اللائحة وحدد عدد المطلوبين بالف ومئتي درزي . فصدر الامر باعتقالهم واودعوا السجن . والح رئيس البعثة الفرنسية ومن معه من زعماء النصارى على وجوب تطبيق حكم الاعدام بحق هؤلاء المسجونين من الدروز . ولكن تدخل فؤاد باشا والمعتمد البريطاني في اللجنة حال دون التنفيذ . واقنع الفرنسيون بتخفيض هذا العدد الى اربعماية وخمسين . واذ تعذر اثبات جريمة القتل على اي من هؤلاء الغي حكم الاعدام بحقهم ولكنهم نفوا الى طرابلس الغرب وبقوا في المنفى مدة اربع سنوات[٥٠] .

وفي الوقت الذي كان فيه فؤاد باشا يعمل على اعادة الهدوء والامن للبلاد كانت لجنة دولية مؤلفة من ممثلي الدول الاوروبية الخمس ، بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وبروسيا تدرس وضع لبنان السياسي . وتوصلت اللجنة بعد مضي عدة اشهر من النقاش والتداول الى الغاء نظام القائمقاميتين ووضع نظام جديد عرف « بالنظام الاساسي » او نظام المتصرفية الذي ظل معمولا به حتى اواخر الحرب العالمية الاولى .

---

(٥٠) المصدر ذاته ، ص ١٤٣ - ١٤٥ ، كذلك G. Britain, Correspondence, I,pp.706-707
يروي ابو شقرا في معرض قصة محاكمة المسجونين الدروز ما يلي : حضر جميع المطارنة باستثناء مطران صيدا الى فؤاد باشا في بيروت طالبين منه تنفيذ حكم الاعدام بهؤلاء وشنقهم على مرآى منهم . ولكن فؤاد باشا اجابهم قائلا ، انتم كهنة ورؤساء دين فهل بامكان احدكم ان يشهد على احد من هؤلاء انه قاتل . فبهتوا لهذا الكلام دون ان يتلفظ احدهم ببنت شفة . عندها التفت فؤاد باشا الى اللورد دوفرين مندوب بريطانيا قائلا ، اسألهم عمن يرمون قتله من الدروز ومن ذا الذي يعتقدون انه قاتل فنقتله . فاستمر المطارنة على صمتهم ، عندها نهض فؤاد باشا ليقول : « انا على ذمتي لا احمل نفسي مقتل احد منهم ما لم تجر محاكمته في مجلس شرعي عادل ويحكم عليه بارتكاب جريمة القتل حتى استحل لذمتي قتله » . وصادقه على ذلك قنصل بريطانيا ثم قنصلي روسيا والمانيا ، راجع ، ابو شقرا ، كتاب الحركات ، ص ١٤٠ .

الفصل التاسع

الموحدون الدروز في لبنان منذ عهد المتصرفية حتى نهاية الحرب الكبرى

ذكرنا في الفصل السابق ان الحوادث الطائفية التي وقعت بين الدروز والنصارى خلال الفترة (١٨٤٠ - ١٨٦٠م) انتهت بالغاء نظام القائمقاميتين وبوضع نظام سياسي جديد في لبنان عرف بنظام المتصرفية . وبموجب النظام الجديد اصبح لبنان سنجقا عثمانيا له استقلاله الداخلي واقتصرت حدوده على الجبل بعد ان فصلت المدن الساحلية والبقاع . ولكن النظام الجديد الغى رسميا الحكم الوطني في جبل لبنان اذ اصبح تحت حكم موظف عثماني مسيحي يعين من قبل الباب العالي بعد موافقة الدول الست . ودعي هذا الحاكم متصرفا على ان يعاونه في شؤون الحكم مجلس اداري مؤلف من اثني عشر عضوا من مختلف الطوائف : اربعة عن الموارنة وثلاثة عن الدروز واثنين عن الروم الأرثوذكس وعضو عن الكاثوليك وعضو عن السنة وآخر عن الشيعة . وقسم لبنان المتصرفية ادارياً إلى سبع أقضية ، يدير شؤون كل قضاء قائمقام يعينه المتصرف من الطائفة التي تشكل أغلبية سكان القضاء . وجرياً على هذه القاعدة عين على قضاء الشوف قائمقاماً من الدروز . وقسم القضاء إلى نوع أو مديريات يدير كل ناحية مدير يعينه المتصرف . وكل ناحية كانت تتألف من عدة قرى يدير شؤون كل قرية منها مختار أو شيخ ينتخبه الأهالي[1] .

وحصر النظام الجديد مهمة القضاء بالمحاكم البدائية والاستئنائية بعد ان الغى الاقطاع واعلن مبدأ المساواة بين جميع اللبنانيين امام القانون . اما مهمة الامن فقد اسندت الى قوات محلية بعد اعفاء السكان من الخدمة العسكرية الاجبارية ومن دفع

١ - ابو شقرا ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ ، كذلك ، اسد رستم ، لبنان في عهد المتصرفية (بيروت ، دار النهار للنشر : ١٩٧٣) ص ٥٥ - ٦١

الضرائب للباب العالي على ان يجبى من اللبنانيين ضرائب ما يكفي لموازنة الادارة في المتصرفية[٢] .

لم يكن لبنان المتصرفية في حدوده الضيقة التي اقتصرت على اقليم جبل لبنان الا تجسيدا للمشروع الفرنسي الرامي الى ايجاد سلطة مسيحية في جبل لبنان ولفصل ولاية الجبل التقليدية عن ولايتي صيدا ودمشق وجعلها مرتبطة بالاستانة مباشرة . الا ان المشروع الفرنسي لاقامة امارة مسيحية مستقلة لم يحقق غايته بعدما تقرر بموجب النظام الاساسي ان يكون حاكم هذه الولاية متصرفا مسيحيا عثمانيا ، الامر الذي اثار حفيظة المطالبين بعودة امير شهابي مسيحي الى السلطة في ولاية الجبل . كما اثار معارضة بعض الزعماء المسيحيين المحليين الطامعين بهذا المنصب كيوسف كرم[٣] .

ومع ان نظام المتصرفية وضع في الاصل لمصلحة النصارى وكرس تفوقهم السياسي رسميا لاول مرة على الدروز في لبنان ، فان بعض النصارى نددوا بتصغير لبنان المتصرفية وطالبوا بضرورة توسيع رقعته كي يشمل البقاع والمدن الساحلية . ولقيت هذه المطالبة تأييدا من الدروز . غير ان الضمانات الدولية للنظام الجديد ابقى حدود المتصرفية من غير تعديل حتى نهاية الحكم العثماني .

النتائج السياسية لتطبيق نظام المتصرفية :

لم يساعد نظام المتصرفية هذا على نهوض الدروز سياسيا ، بل ان فصل جبل لبنان عن بعض المناطق اللبنانية التي تسكنها غالبية درزية كحاصبيا وراشيا ترك الدروز في لبنان اقلية ذات تأثير سياسي اقل فاعلية في مجرى السياسة المحلية من ذي قبل . اما السلطة التي كانت بيد رجال الاقطاع (المقاطعجيين) وجلهم كانوا انذاك من الدروز ؛ فقد نصت احدى مواد النظام الاساسي لعام **١٨٦١**م على الغاء ما تبقى من امتيازات اصحاب الاقطاع كما نصت على مبدأ المساواة بين جميع المواطنين[٤] .

---

٢ ـ المرجع نفسه ، ص ٦٠ ـ ٦١

٣ ـ المرجع نفسه ، ص ٤٢ ـ ٤٣ كذلك ، صليبي ، لبنان ، ص ١٥١ ـ ١٥٢

٤ ـ راجع المادة الخامسة من بروتوكول ١٨٦٤ ، في ملحق كتاب :

احمد طربين ، لبنان منذ عهد المتصرفية الى بداية الانتداب ، ١٨٦١ ـ ١٩٢٠ . (القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٦٨) ، ص ٢٨٣ .

وبالتالي فقد انتقلت سلطة المقاطعجي هذا الى الموظفين الاداريين في النظام الجديد مما جعل أبناء العائلات الاقطاعية يسعون للحصول على الوظائف الهامة في المجلس الاداري للمتصرفية . الا ان الدروز لم يمثلوا في هذا المجلس الا بنسبة عددهم كاقلية اي بثلاثة اعضاء من اصل اثني عشر عضوا بينهم اربعة من الموارنة . ووزعت بقية الوظائف الثانوية في النظام الاداري للمتصرفية بنفس النسبة العددية تقريبا . ولم تكن هذه الوظائف من نصيب طبقة العامة باي حال ، بل اصبحت مصدر تعويض لرجال الاقطاع من مختلف الطوائف بحيث ان هؤلاء استأثروا بجميع المناصب الهامة تقريبا . الا اننا نلاحظ ان بعض الوظائف تسلمها لاول مرة موارنة لا ينتمون الى العائلات الاقطاعية بل الى العائلات الميسورة ، التي وجدت طريقها الى هذه المراكز بفضل ما توفر لها من امكانات مالية عن طريق التجارة والزراعة وبفضل ما كانت تلقاه من دعم سياسي من الكنيسة المارونية[٥] . ذلك ان هذه العائلات الصاعدة اقتصاديا كانت قد اشترت خلال هذه الفترة معظم اراضي رجال الاقطاع وشرعت باستثمارها عن طريق ضمانها للفلاحين ، وكانت تشتري بهذه الاموال المناصب الادارية والالقاب العثمانية من المتصرف . اما موقع الدروز ازاء هذا التحول السياسي والاجتماعي داخل متصرفية جبل لبنان فقد تميز بالتردي المستمر ، ففي الوقت الذي ضعفت فيه سلطة رجال الاقطاع وظهرت فئة جديدة بين الميسورين عند الموارنة لتسلم زمام السلطة بدعم من الاكليروس الماروني ، نجد انه لا اثر لوجود فئة سياسية مماثلة ذات فاعلية عند الدروز . ولعله يمكن تفسير هذه الظاهرة من خلال الوظائف التي تسلمها الدروز في عهد المتصرفية اذ حصرت جميع الوظائف المهمة عادة بالعائلات الاقطاعية الكبرى[٦] . كما يمكن فهم ذلك من خلال الوضع الاقتصادي للدروز في هذه الفترة اذ نلاحظ تقهقرا جديدا لمكانتهم هذه سواء من حيث ملكية الاراضي الزراعية او من حيث الانتاج في مجال تربية دود

---

٥ - عندما شرع داود باشا بتأليف مجلس وكلاء الطوائف ، عين عن الدروز الشيخ سعيد تلحوق ، كما عين الامير ملحم ارسلان قائمقاما على قضاء الشوف ، لمزيد من التفاصيل عن توزيع الوظائف هذه ، راجع رستم ، المتصرفية ، ص ٤٣ - ٤٧ .

٦ - بشاره الخوري ، حقائق لبنانية (بيروت ، منشورات اوراق لبنانية) ج ١ ، ص ٣٠ ، فعلى سبيل المثال ، كان قائمقام الشوف ، الامير مصطفى ارسلان ، والمدراء في القضاء هم : نجيب جنبلاط ، نسيب جنبلاط ، بشير ابو نكد ، مجيد ارسلان ، حمد تلحوق ، عجاج وعثمان عبد الملك ، راجع : رستم ، المتصرفية ، ص ١٧٦ .

الحرير . اما من حيث ملكية الاراضي الزراعية فقد خسر الدروز قسما مهما منها اثر حوادث ١٨٦٠ الطائفية ونزوح الكثيرين منهم الى حوران .وقد رافق عملية النزوح هذه بيع الاراضي في الجبل للموارنة . فبين ١٨٦١ و١٨٦٣ نجد بين ١٢٢٠ معاملة بيع مسجلة في قضاء الشوف مثلا ان ثلاثة ارباع البائعين كانوا من الدروز وثلثي المشترين من الموارنة[٧] . واستمرت عمليات بيع الاراضي الزراعية من قبل رجال الاقطاع الدروز عندما اخذ هؤلاء يتوجهون للوظائف الادارية فكانوا يضطرون احيانا لبيع املاكهم ليشتروا بثمنهامن المتصرف واعوانه المراكز الادارية اوللمحافظة على مستواهم المعيشي السابق . وكثيرا ما كان المتصرف يستغل ظاهرة المنافسة على المراكز الادارية من قبل ابناء العائلات الدرزية التي كانت من اصحاب الاقطاع لأذكاء الخلاف السياسي بين الدروز .فكان لتنافس العائلتين الارسلانية والجنبلاطية على مركز القائمقامية مثلا اثره الواضح في ترسيخ الانقسام اليزبكي الجنبلاطي عند الدروز في لبنان كما ساهم هذا التنافس في اضعافهم سياسياً واقتصادياً في المدى البعيد . ولم يبق الدروز المالكين الاساسيين للاراضي الزراعية في الجبل ، بل اصبحت هذه الملكية في يد الموارنة خلال عهد المتصرفية ، الامر الذي اضعف دور الدروز في انتاج الحرير . وانتشرت مصانع الحرير (حلالات الفيالج) خلال هذه الفترة في القرى المارونية . وساهمت هذه المصانع في تشغيل اليد العاملة وفي رفع مستوى المعيشة عند الموارنة بشكل خاص . فاذا بالوضع الاقتصادي الجديد يدعم دور الموارنة السياسي في الهيمنة على نظام المتصرفية بينما اصبح الدروز يقومون بدور ثانوي على الصعيدين الاقتصادي والسياسي[٨] .

داوود باشا والدروز :

كان داود باشا اول متصرف عين في جبل لبنان بموجب النظام الجديد فكان من اقدر حكام المتصرفية . الا ان تطبيق نظام المتصرفية واجه في البداية بعض الصعوبات الامنية وبخاصة في دير القمر التي سبق ان شهدت اسوأ الحوادث الطائفية بين سكانها من الدروز والنصارى . وبموجب النظام الجديد كان على

---

٧ ـ طربين ، المرجع السابق ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .
٨ ـ المرجع نفسه ، ص ٣٣٧

المتصرف ان يجعل دير القمر مركزا للمتصرفية على ان تكون السلطة التنفيذية في الشوف للدروز . ولكن هذا الاجراء لقي معارضة من مسيحي دير القمر اذ رفض هؤلاء القبول باية سلطة للدروز في البلدة كما رفضوا عودة الدروز اليها . ولم يعمل داود باشا على فرض ما نص عليه النظام الجديد على نصارى دير القمر بل لجأ الى تعديل النظام الاساسي لصالح هؤلاء النصارى وامر باجلاء من تبقى من الدروز وهم من سكان دير القمر الاصليين الى القرى المجاورة . ومن العائلات الدرزية التي اكرهت علي ترك منازلها في دير القمر ؛ آل يونس ، وآل علي صالح ، وآل القاضي ، وآل ابو ناصر الدين،وآل الخبيص ، وغنام ونجار وابو ضرغم[9] . وهكذا فان البلدة التي كانت فيما مضى عاصمة للامارة المعنية اجبر سكانها الدروز على اخلائها وعلى رأسهم النكديون اصحاب الاقطاع فيها[10] .

إذا استثنينا ثورة يوسف كرم في شمال لبنان فقد عرف لبنان في عهد داود باشا استقرارا وازدهارا كان بأشد الحاجة اليهما بعد فترة الحوادث الطائفية . الا ان تطبيق نظام المتصرفية واجه في البداية معارضة عامة من رجال النظام الاقطاعي السابق الذين كانوا في غالبيتهم من الدروز . خاصة وان هؤلاء وجدوا في تطبيق النظام الجديد نهاية لسلطتهم ونفوذهم . ولكن داود باشا تمكن من احتواء تلك المعارضة تدريجيا وذلك عن طريق تعيين عدد من رجال الاقطاع في المراكز الادارية المهمة . وسعى داوود باشا الى انشاء جهاز اداري كفوء استطاع بواسطته ضبط الاوضاع العامة والقيام ببعض المشاريع العمرانية في جبل لبنان .

مساهمة الدروز في النهضة العلمية خلال القرن التاسع عشر :

كان من اهم نتائج الاستقرار السياسي الذي نعم به لبنان المتصرفية انتعاش الحياة الفكرية والعلمية . وتزعم مسيحيو لبنان تلك النهضة الفكرية ، غير ان الدروز استفادوا بدورهم من هذه النهضة نتيجة لوجود مدارس الارساليات الانجيلية في مناطقهم . وقد شجع بعض اعيان الدروز البعثات البروتستانتية لفتح بعض المدارس في المناطق الدرزية ، وحموا القيمين عليها من ضغوط المؤسسات

---

٩ - ابو شقرا ، المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

١٠ - طربين ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

الكاثوليكية . ولعل اقدم هذه المدارس في القرى الدرزية واكثرها اهمية المدرسة التي اسستها الارسالية الاميركية في عبيه سنة **١٨٤٣**م . ويليها من حيث القدم تلك المدارس الانجيلية التي تأسست في كل من قرية عرمون سنة **١٨٥٣** وبتاتر سنة **١٨٥٣** وبتخنيه عام **١٨٥٤** . وشجع مشايخ آل عبد الملك مدرسة بتاتبر وارسلوا نحو عشرين من ابنائهم الى هذه المدرسة في السنة الاولى من تأسيسها . واقتدى بمشايخ الجرد مشايخ الغرب من آل تلحوق ودعوا سليمان الصليبي لتأسيس مدرسة في عاليه فافتُتحت المدرسة عام **١٨٥٥** . ثم اسست مدارس مماثلة في قرى الغرب (**١٨٥٦**) وعيناب (**١٨٥٨**) ، وبشامون (**١٨٥٩**) ورأس المتن (**١٨٦١**) ودير قوبل (**١٨٦٨**) [١١] .

المدرسة الداوودية :

وفي مطلع سنة **١٨٦٢** تقدم الشيخ سعيد تلحوق من المتصرف داود باشا بطلب يعرض فيه حاجة الدروز للمدارس مقترحا انشاء مدرسة للعلوم العربية واللغات الاجنبية تعتمد في دخلها على ريع اوقاف الدروز العمومية وانه يمكن تحويل خلوات الشيخ احمد امين الدين في عبيه الى مدرسة . فوافق المتصرف على طلبه هذا واسست اول مدرسة خاصة بالدروز سنة **١٨٦٢** وسميت بالمدرسة الداوودية نسبة الى داوود باشا الذي اسهم في تأسيسها . ثم وضعت المدرسة تحت رعاية الوقف الدرزي واشرافه[١٢] .

ساهمت هذه المدارس في المناطق الدرزية بتثقيف ابناء الدروز . ولكن خريجي هذه المدارس لم يبادروا كغيرهم لفتح مدارس جديدة خاصة بهم بل اكتفوا بشكل عام بارسال ابنائهم الى هذه المدارس . وظهر بين خريجي هذه المدارس نخبة من المثقفين الذين ساهموا بقسطهم في النهضة العربية في لبنان لغة وادبا وعلما وصحافة . وكان بين خريجي المعهد الطبي في الجامعة الاميركية في بيروت خلال

---

١١ - الصليبي ، لبنان ، ص ١٧٨ - ١٨٠ كذلك ، رستم .

١٢ - نقولا زيادة ، ابعد التاريخ اللبناني (القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، **١٩٧٢**) ص **١٩٣** - **١٩٤** . عهد بادارة المدرسة في بادىء الامر الى لجنة مؤلفة من شيخي العقل والقائمقام ، ثم عدل هذا النظام سنة **١٨٧٩** ، فاسندت ادارة المدرسة الى مجلس من اثني عشر عضوا من اعيان الدروز برئاسة القائمقام . واول من تولى رئاسة المدرسة بسبب هذا النظام الامير ملحم ارسلان ثم الامير مصطفى ارسلان فنسيب بك جنبلاط حتى سنة **١٩٠١** م .

العقد الاول من تأسيسه اربعة اطباء من الدروز هم امين الحلبي واسعد سليم ويوسف سليم وداود سليم . وقد برز الدكتور اسعد سليم في ابحاثه العلمية المتنوعة منها كتاب نشر له عام ١٨٩٩ عن تربية دود الحرير . اما اخوه الدكتور داود سليم فقد هاجر الى اميركا الشمالية وبرز في ابحاثه في علم الكهرباء[١٣] . وفي مجال العلوم نذكر الامير محمد ارسلان رئيس الجمعية العلمية السورية التي تأسست سنة ١٨٤٧ ، والتي اعيد تشكيلها عام ١٨٦٨ . وكان الهدف من تأسيسها نشر العلوم والفنون . واعترفت السلطات العثمانية بهذه الجمعية وانضوى تحت لوائها كثيرون من حملة الاقلام في البلدان العربية ، ومن بين الذين اشتركوا فيها من الدروز اضافة للامير امين ، الامير مصطفى ارسلان والشيخ سعيد تلحوق . وتأسست خلال هذه الفترة جمعية المعارف الدرزية لتعنى بشؤون الدروز الثقافية والتعليمية . اما في حقل الصحافة فقد اسس الامير علي آل ناصر الدين جريدة الصفاء سنة ١٨٦٨ م[١٤] .

الدروز والوعي القومي العربي :

كان من اهم نتائج حركة التعليم في مدارس الارساليات الاجنبية والمدارس الرسمية العثمانية وكذلك المدارس الخاصة ظهور حركات سياسية اصلاحية وقومية في المشرق العربي خلال القرن التاسع عشر للميلاد . اذ ان الثقافة التي كان يتلقاها طلاب هذه المدارس لم تخل من بعض التوجيه السياسي . وحيث امن التعليم في مدارس الارساليات الفرنسية بعض الموظفين في جهاز ادارة المتصرفية فان القسم الاكبر من طالبي العلم بين الدروز فصد اما المدارس البروتستانتية واما المدارس الاسلامية العثمانية الرسمية منها والخاصة . ولم يكن مثقفو الدروز بعيدين عما احدثته هذه النهضة الفكرية من يقظة سياسية تجاه الاوضاع القائمة في الدولة العثمانية يومذاك ،وسواء اتجهت هذه اليقظة السياسية نحو المطالبة بالاصلاح السياسي في ظل الحكم العثماني ام كانت وعيا عربيا قوميا يدعو لاحياء التراث العربي او للاستقلال عن الدولة العثمانية ، فان الدروز قاموا بدورهم في خدمة القضايا العربية المطروحة . وتمثل ذلك الدور باشتراك عدد من الدروز في بعض

---

١٣ - راجع ، رستم ، المتصرفية ، ص ١٠٨ .

١٤ - جرجي زيدان ، آداب اللغة العربية (دار الهلال ، لات) ج ٤ ، ص ٦٩ - ٧٣ . كذلك ، زيادة ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ - ٢١١ .

الجمعيات السياسية السرية منها والعلنية والتي كان بعضها يدعو للاصلاح السياسي والبعض الآخر لاستقلال الاقطار العربية عن الدولة العثمانية . ولا يسمح لنا المجال في هذا البحث تناول اسباب وظروف نشأة القومية العربية في اواخر القرن التاسع عشر ولكننا لا بد ان نشير الى ان عددا من الجمعيات السياسية كان قد تأسس ابان العهد الحميدي (١٨٧٦ - ١٩٠٨م) واخذ اعضاؤها يطالبون بالاصلاح السياسي قبل ان ينتقلوا الى مرحلة المطالبة بالاستقلال . وكان بعض مثقفي الدروز انذاك في طليعة رواد الاصلاح السياسي في الدولة العثمانية ، ومن هؤلاء نذكر الأمير أمين ارسلان الذي أسس جمعية الاصلاح التركية السورية لهذا الغرض . وانخرط دروز آخرون في جمعيات عربية أخرى كانت تدعو لبعث التراث العربي وتدريس اللغة العربية وآدابها وتطالب بحكم لا مركزي يضمن للعرب حقوقهم السياسية . ونذكر من هذا القبيل « حلقة دمشق » التي أسسها طلاب الشيخ طاهر الجزائري وكان من أعضائها البارزين عارف الشهابي ، وعثمان مردم ولطفي الحفّار وصلاح الدين القاسمي وانضم إليها من الدروز عارف النكدي والأمير عادل ارسلان[١٥] .

لم يكن العرب وحدهم يطالبون بالاصلاح بل كان بعض الاتراك يطالبون به ايضا . وقد وقفت جمعية تركيا الفتاة الى جانب العرب ضد الاستبداد الحميدي . ودعت تلك الجمعية الى معاملة جميع رعايا الدولة العثمانية بالمساواة دون تمييز لا في العرق ولا في الدين[١٦] . فلما وصلت تركيا الفتاة الى سدة الحكم سنة ١٩٠٨م توخى بعض الاصلاحيين المسلمين العرب تحقيق الشعارات التي نادى بها اعضاء هذه الجمعية . ذلك ان هؤلاء المصلحين لم يطالبوا بالانفصال عن الدولة العثمانية بل كانوا يرون في ذلك الانفصال امام مطامع الدول الاوروبية خطرا على الاسلام عامة وعلى العرب والاتراك خاصة . وكان ابرز من قاد هذا التيار الاصلاحي الشيخ محمد رشيد رضا ثم الامير شكيب ارسلان .

الامير شكيب ارسلان :

كان الامير شكيب ارسلان وهو سليل العائلة الارسلانية الدرزية اكثر حماسا

---

١٥ - مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ٥٣ - ٥٤ .
١٦ - زين زين ، نشوء القومية العربية (بيروت ، دار النهار للنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩) ص ٨١ - ٨٣ .

للقومية العربية من صديقه الشيخ محمد رشيد رضا . ولكن شكيب ارسلان كان كرشيد رضا يؤمن بالوحدة الاسلامية ويرى ان للعرب منزلة خاصة في الامة الاسلامية ، وان تلك الامة لا تنهض الا بنهوض العرب وانه يمكن التوفيق بين القومية العربية والوحدة الاسلامية[١٧] . ولهذا كان الامير شكيب يدعو بدوره للمحافظة على الروابط التي تجمع بين العرب والاتراك وذلك من اجل الوقوف معا في وجه خطر الاستعمار الاوروبي على البلدان العربية والاسلامية .

لقد كان هذا الخطر ماثلا في ذهن الامير شكيب ربما اكثر من بقية دعاة القومية العربية في تلك الحقبة . وهذا قد يفسر حماسته لصد غزو الايطاليين لليبيا سنة **١٩١١**م اذ عمل الامير الارسلاني كل ما بوسعه لمد الثوار العرب في ليبيا بالمال والسلاح وانضم بنفسه الى معسكر انور باشا للقتال ضد الايطاليين . واخذ من هناك يكاتب جريدة « المؤيد » ويحثّ من خلال مقالاته العرب والمسلمين على مساعدة الليبيين . واقام الامير شكيب علاقات ودية وثيقة مع عدد من الحركات التحررية في المغرب العربي ، كرابطة العلماء الجزائريين والدستور في تونس . وكان صلة وصل بين هذه الحركات من جهة وبين التيار الرئيسي للشعور القومي العربي في الشرق[١٨] .

بيد ان الامال التي علقها الامير شكيب ارسلان وامثاله من الاصلاحيين العرب على تركيا الفتاة خابت بعيد وصول اعضاء تلك الجمعية الى سدة الحكم سنة **١٩٠٨** . ولم يعمل هؤلاء على تحقيق المبادىء التي نادوا بها بل حاول الاتراك بدلاً من ذلك تأكيد قوميتهم التركية المتعصبة محاولين فرض لغتهم على جميع رعايا الامبراطورية العثمانية . وبظهور هذه القومية التركية المتعصبة قوى التيار العربي المطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية . ذلك ان سياسة التتريك او محاولة هيمنة العنصر التركي على بقية شعوب الدولة العثمانية ادى الى قيام العرب بتأليف جمعيات سرية وعلنية للدفاع عن قضاياهم وحقوقهم . ومن هذه الجمعيات المنتدى الادبي

---

١٧ - البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ، ١٧٩٨ - ١٩٣٩ (دار النهار للنشر الطبعة الثالثة ، بيروت ، ١٩٧٧) ص ٣٥٧ .

١٨ - المرجع نفسه ، ص ٣٦٦ ، كذلك ، راجع :
الامير شكيب ارسلان ، سيرة ذاتية (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٩) ص ٧٨ - ٨٤

والجمعية القحطانية والعلم الاخضر والعربية الفتاة[١٩] .

الامير عادل ارسلان :

اما الجمعية القطحانية فقد كانت من ابرز الجمعيات السرية التي تأسست خلال هذه الفترة . وكان هدف هذه الجمعية تحويل الدولة العثمانية الى مملكتين ، احداهما تركية والثانية عربية . فالمملكة العربية تتألف من الولايات العربية ويكون لها مجلسها النيابي ومؤسساتها الخاصة على ان تصبح هذه المملكة جزءا من امبراطورية تركية ـ عربية . وقد حاولت الجمعية القحطانية استقطاب الضباط العرب في الجيش التركي بشكل سري ولم تسمح لاحد بالانتماء اليها الا اذا كان من ذوي الثقة وكان من اعضائها البارزين شخصيتان درزيتان هما امين وعادل ارسلان[٢٠] .

وما لبث نشاط هذه الجمعية ان توقف بسبب اكتشاف امرها فاعتبرت نفسها منحلة . ولكن بعض المخلصين من اعضائها اعادوا تأليف تلك الجمعية تحت اسم آخر هو « جمعية العهد » وحصرت عضويتها بالعسكريين العرب . ولم يقبل فيها من المدنيين على حد قول جورج انطونيوس سوى اثنين اختيرا لنزاهتهما ووطنيتهما وكان احدهما درزيا وهو الامير عادل ارسلان . واصبحت هذه الجمعية بالنسبة للعسكريين العرب كالعربية الفتاة بالنسبة للمدنيين ، وهي الجمعية العربية التي تأسست في باريس سنة ١٩١١ وكانت تهدف لاستقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية[٢١] .

لقد كان من شأن هذه الجمعيات ان تستقطب الدروز المثقفين لاسباب عديدة منها ، ان الدروز كانوا قد عانوا من مساوىء الحكم العثماني اكثر من باقي الفئات الاسلامية وان مواقعهم وحروبهم الكثيرة مع البشاوات العثمانيين جعلتهم اقرب الى حركة الانفصال عن الاتراك . اما الرابطة الاسلامية التي نادى بها بعض زعمائهم كالامير شكيب ارسلان والتي كانت تدعو الى جمع العرب والاتراك معا في دولة

---

١٩ ـ راجع ، جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية (بيروت ، دار العلم الملايين ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٨) ص ١٨٣ ـ ١٨٩

٢٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

٢١ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٨ .

واحدة ، فان هذه الدعوة لم تكن لتلقى حماسة عند عامة الدروز ، بل ربما كان وعيهم العربي المبكر وعصبيتهم المذهبية تدفعهم اكثر من اي عامل آخر للاستقلال عن الدولة العثمانية . وبدا هذا الاتجاه اكثر وضوحا لدى دروز جبل حوران بسبب العداء التقليدي الذي كان يظهره الولاة العثمانيون نحو الدروز .

اما في جبل لبنان فلم تقم اية معارضة درزية مهمة ضد الاتراك في العهد الحميدي (١٨٧٦ - ١٩٠٨م) . فنظام المتصرفية الذي اعطى للموارنة هيمنة على السلطة وبعض الامتيازات لم يكن من صنع الاتراك العثمانيين بل من صنع قناصل الدول الاوروبية . وكان من مصلحة الموارنة التمسك بهذه الامتيازات في ظل المشاريع الاصلاحية العثمانية . بينما كان من مصلحة الدروز ان يتعدل هذا النظام لاعادة بعض الاعتبار لزعامتهم التقليدية في لبنان . ولكن الدروز شغلوا في هذه المرحلة بالانقسامات الحزبية التقليدية الممثلة بالصراع اليزبكي الجنبلاطي على بعض المراكز الادارية في المتصرفية[٢٢] .

وبعد انقلاب تركيا الفتاة واعلان الدستور ١٩٠٨ م ، طرحت من جديد مسألة اشتراك جبل لبنان في مجلس المبعوثان . وكان احد اعيان الدروز وهو الامير محمد ارسلان قد انتخب عضوا في ذلك المجلس ممثلا لمنطقة اللاذقية . وبرز الامير محمد كاحدى الشخصيات اللامعة بين اعضائه فاسندت اليه رئاسة اللجنة الخارجية في استنبول ولكنه لم يبق لمدة طويلة في هذا المنصب اذ استشهد على باب المجلس العثماني خلال الحوادث التي قام بها معارضو الدستور العثماني في شهر آذار من تلك السنة[٢٣] . اما في جبل لبنان فان اعلان الدستور العثماني افرز بين الدروز تيارا قويا بزعامة الامير شكيب ارسلان وناصيف جنبلاط اخذ يدعو لاجراء انتخابات في الجبل ، وارسال من يمثله الى مجلس المبعوثان . وقام وفد من المعارضين لنظام المتصرفية بمسيرة الى بيت الدين ناقلا هذه المطالب الى المتصرف يوسف فرنكو باشا[٢٤] . ولكن مطالبة الدروز هذه لم تلق اذنا صاغية عند المتصرف ، اذ ان تمسك

٢٢ - طربين - المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

٢٣ - ارسلان ، سيرة ، ص ٥٤ - ٥٦ . وكان سكان منطقة اللاذقية قد اختلفوا على من يمثلهم في مجلس المبعوثان ولكنهم اتفقوا على ان يكون الامير محمد ارسلان ممثلهم في هذا المجلس .

٢٤ - الخوري ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

الاكليروس الماروني باستقلالية المتصرفية وامتيازاتها ودعم قناصل الدول الاوروبية للمتصرف اديا الى عدم تحقيق غاية المعارضة الدرزية . ولكن لم يطل الامر حتى دخلت تركيا الحرب الى جانب دول المحور فالغت السلطات العثمانية امتيازات الجبل ووضعته تحت سلطتها المباشرة .

الدروز والثورة العربية في الحجاز :

ومع دخول تركيا الحرب واتخاذ قادتها خطا طورانيا واضحا كانت الحركة القومية العربية بدورها قد اتجهت نحو الانفصال عن الدولة العثمانية ، واخذت تدعو لانشاء دولة عربية مستقلة . وفي منتصف الحرب قامت ثورة الشريف حسين في الحجاز ضد العثمانيين لتجسد اماني العروبيين في الوحدة والاستقلال . وقاد هذه الثورة ابنه الامير فيصل في بلاد الشام . واظهر الدروز سواء في جبل حوران ام في لبنان حماسة واضحة للثورة العربية[٢٥] . والتحق بعض الضباط الدروز كفؤاد سليم في صفوف الثورة في الحجاز . اما في جبل الدروز فقد اعلن سلطان الاطرش الثورة ضد الاتراك العثمانيين بالتنسيق مع سائر الوطنيين العرب في الشام ، وارسل بدوره ثلاثماية درزي لمجابهة الاتراك على طريق الحجاز . وعمل على قطع طرق تموين القوات العثمانية في تلك الانحاء كما اشترك سلطان الاطرش مع رجاله في معركة بصرى اسكى شام ودخل قلعتها بعد معركة عنيفة جرت بينه وبين الجيش العثماني في الخامس من ايلول ١٩١٨م . وواصل سلطان الاطرش تقدمه الى دمشق مع سائر قوات الجيش العربي واشترك في معركة الدير علي حيث انهزم الجيش التركي بقيادة رضا باشا الركابي ، وكان في طليعة القوات العربية التي دخلت دمشق[٢٧] . ويذكر يوسف الحكيم احد وزراء الحكومة الفيصلية في كتابه « سوريا في العهد الفيصلي » ان دروز جبل حوران كانوا من اكبر انصار الوحدة السورية وانهم حاربوا الجيش التركي في عدة مواقع من حوران وغيرها واظهروا بطولة فائقة[٢٨] . واقتدى بدروز جبل حوران دروز مناطق راشيا وحاصبيا وجبل لبنان في تأييدهم للحكومة العربية .

---

٢٥ ـ انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٦) ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .
٢٦ ـ بولس مسعد ، لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده (المطبعة السورية ، ١٩٢٩) ج ١ ص ٥٤ ـ ٥٧ .
٢٧ ـ راجع ، حنا ابو راشد ، جبل الدروز (مصر : المطبعة التجارية الكبرى ، ١٩٢٥) ص ٩٥ ـ ٩٧ .
٢٨ ـ يوسف الحكيم ، سوريا والعهد الفيصلي (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٦) ص ٨١ ـ ٨٢ .

واعلن الحزب الجنبلاطي بزعامة نسيب جنبلاط والحزب اليزبكي بزعامة مصطفى العماد تأييدهما للامير فيصل . كما انضم الامير عادل ارسلان الى بطانة الامير فيصل واصبح احد مستشاريه المقربين[٢٩] . ولما اشتد الحصار الاقتصادي على لبنان خلال الحرب وانتشرت المجاعة والاوبئة بين سكانه ، وجد العديد من هؤلاء ملاذا لهم في جبل الدروز . ولم يقتصر النزوح الى جبل حوران على فقراء الدروز في لبنان بل ان كثيرين من باقي الطوائف نزحوا الى الجبل فلقيوا هناك ترحيبا وتسامحا مكناهم من البقاء على قيد الحياة .

وإذا كان الوطنيون العرب خلال هذه الفترة قد استبشروا خيراً بانشاء حكومة عربية مؤقتة في دمشق تمهيداً لقيام دولة عربية مستقلة فإن الخطوات التي اتخذها الحلفاء فيما بعد خيبت آمال الوطنيين العرب في الحصول على الاستقلال التام . وتنكر هؤلاء الحلفاء وعلى رأسهم بريطانيا لحق العرب في تأسيس دولة عربية تشمل آنذاك جميع البلاد السورية . وأخذت فرنسا وبريطانيا تعملان على أحكام سيطرتهما على المقاطعات العربية التي كانت تحت الحكم العثماني وذلك تمهيداً لتطبيق الاتفاقات السرية المعقودة بين الدولتين خلال الحرب ومن بينها اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة[٣٠] . ومن المعروف أن هذه الاتفاقية نصت على توزيع المقاطعات العربية الى مناطق نفوذ سياسي واقتصادي بين فرنسا وبريطانيا . وكانت خطة احتلال جيوش الحلفاء لهذه المقاطعات تتماشى مع الخطة السياسية المرسومة . فاحتلت القوات البريطانية القسم الجنوبي من بلاد الشام فيما احتلت القوات الفرنسية القسم المتبقي من الساحل والممتد من جبل عامل في جنوب لبنان حتى خليج الاسكندرونة في الشمال . أما المناطق الداخلية أو الجزء الشرقي من بلاد الشام فقد عهد بحكمها مؤقتاً لحكومة الأمير فيصل العربية[٣١] . بيد أن الابقاء على الحكم الفيصلي في هذا الجزء من بلاد الشام لم يكن برأي الحلفاء إلا ترتيباً مؤقتاً لكي تستكمل فرنسا إجراءاتها السياسية على الصعيد الدولي من أجل احكام سيطرتها الاستعمارية على

---

٢٩ ـ المصدر نفسه ، ص ١٣٠ ، كذلك ، راجع ، ذكريات الامير عادل ارسلان (بيروت ، ١٩٦٢) ص ١ ـ ١٠ .

٣٠ ـ راجع نص هذه الاتفاقية في :

E. wood ward , B. Butler edts., *Documents on British Foreign Policy 1918-1939* (London, 1952) Ist ser., vol. I,PP 241- 251.

٣١ ـ زين زين ، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان (بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٧١) ص ٧٧ ـ ٨٢ .

الأجزاء التي منحتها إيّاها اتفاقية ساكيس بيكو . وكانت تلك الاجراءات مما قرره مؤتمر الصلح في فرساي بشأن المقاطعات العربية التي كانت تحت الحكم العثماني . ثم تلاه قرار آخر في آذار سنة ١٩١٩ يقضي بارسال لجنة تحقيق دولية لاستفتاء السكان بنوع الحكم الذي يرغبون فيه .

على أن أهم تلك الاجراءات الدولية كانت اقرار المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم والتي نصت على تطبيق نظام الانتداب على المقاطعات العربية[٣٢] . فجاء اقرار نظام الانتداب هذا نتيجة لاتفاقية سايكس بيكو ، وتبريراً قانونياً ودولياً لفرض الحكم الفرنسي على سوريا ولبنان .

وعلى الرغم من وجود مؤيدين لفرنسا في جبل لبنان فضلاً عن بعض الزعماء المؤيدين لها في أماكن أخرى فإن أكثرية السكان في المناطق العربية المحررة أبدت رفضها للانتداب الفرنسي كما أقرت لجنة كنج ـ كراين في استفتائها[٣٣] . ولكن موقف السكان هذا لم يحمل فرنسا على تغيير استراتيجيتها في فرض سيطرتها على سوريا ولبنان بل انها لم تتورع عن الصدام مع الحكومة العربية الفيصلية من اجل تحقيق ذلك الهدف[٣٤] .

وفي نيسان ١٩٢٠ منح المجلس الاعلى للحلفاء فرنسا حق الانتداب على سوريا ولبنان . فبعثت الحكومة الفرنسية اثر ذلك انذارا للملك فيصل يقضي بوجوب قبول انتدابها والغاء التجنيد الاجباري وتسليم سكة حديد رياق حلب وشروطا اخرى قاسية لم يكن من السهل على الحكومة العربية قبولها . واصبح الصدام العسكري بين القوات العربية والقوات الفرنسية امرا محتما . ولم يتوان دروز جبل حوران

---

٣٢ ـ راجع نص هذه المادة :

Quancy Wright, *Mandates Under the League of Nations* (Chicago, the University of Chicago Press, n. d.) PP. 607 - 611

٣٣ ـ تم تأليف لجنة كنج ـ كراين من قبل المجلس الاعلى للحلفاء من اجل استفتاء سكان المقاطعات العربية التي كانت تحت الحكم العثماني قبل الحرب الكبرى ، بشأن مستقبلهم السياسي . راجع :

Harry Howard, *The King-Crame Commission (Beirut,* 1963) P. 200.

٣٤ ـ ساطع الحصري ، يوم ميسلون ، صفحة من تاريخ العرب الحديث (بيروت ، مكتبة الكشاف ومطبعتها ، ١٩٤٧) ص ٩٢-١٠٦ .

انذاك عن دعم الحكومة العربية ضد التهديد الفرنسي السافر ، فارسل اهالي بلدة السويداء قوة من المتطوعين الدروز لنجدة الجيش العربي ولكنهم لم يصلوا الى بصر الحرير الا وكانت القوات الفرنسية قد هاجمت جيش الامير فيصل في ميسلون وتقدمت الى دمشق واحتلتها[٣٥] .

رفض الانتداب الفرنسي :

كان المد الوحدوي انذاك قد اتسع بين مختلف سكان مناطق الدول العربية فشمل حتى الاقليات . وايد مسيحيو فلسطين وسوريا كما ايد شيعة العراق ودروز لبنان وسوريا الوحدة الشاملة[٣٦] . ولكن بعض الاقليات المتخوفة كالاكراد في العراق والموارنة في لبنان اظهروا موقفا معارضا للوحدة المنشودة . وتتطلع الموارنة في لبنان الى قيام دولة مستقلة عن اية دولة عربية بحماية فرنسا ، وكان يقود هذا التيار البطريرك الماروني الياس الحويك[٣٧] . وتبلور خلال هذه الفترة تيار سياسي آخر في لبنان كان يدعو لانشاء لبنان الكبير المستقل من غير حماية او انتداب . واستقطب هذا التيار شخصيات عديدة من مختلف الطوائف اللبنانية بمن فيهم معظم اعضاء مجلس الادارة في جبل لبنان . ففي العاشرة من تموز **١٩٢٠** اتخذ اكثرية اعضاء المجلس المذكور قرارا بشان المطالبة باستقلال لبنان التام بالتنسيق مع حكومة فيصل العربية ودون الاشارة الى الانتداب الفرنسي . وكان ممثلو الدروز في المجلس محمود جنبلاط وفؤاد عبد الملك بين هذه الاكثرية[٣٨] . ومع اننا لا نملك اي احصاء عن هذه الفترة يمكن بواسطته تحديد الاتجاه السياسي للدروز بشأن مستقبل لبنان بعد الحرب ، فان الوقائع التي اجمعت عليها مختلف المصادر تظهر بوضوح ان الاكثرية الساحقة من الدروز كانت تعارض مبدأ الحماية الفرنسية للبنان . وما ورد في تقرير لجنة كنج كراين بهذا الصدد يؤكد صحة هذا الرأي . ويبدو ان موقف الدروز هذا كان يستند الى تجارب ووقائع سابقة جرت لهم اثر التدخل الفرنسي بعيد الحوادث الطائفية في لبنان سنة **١٨٦٠م** . وقد رأينا ان ذلك التدخل ادى الى قيام نظام المتصرفية والى

---

٣٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١١٨ .

٣٦ ـ صايغ ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ .

٣٧ ـ صليبي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

٣٨ ـ راجع نص القرار ، وثيقة رقم ٦٦٧٦ (ارشيف مديرية الآثار ـ بيروت)

اضعاف الدروز سياسيا بعد تقوية نفوذ الموارنة على حسابهم[٣٩] .

وجاء نزول القوات الفرنسية في لبنان في مطلع تشرين الاول **١٩١٩** ليعيد هذا الواقع الى اذهان الدروز ويثير مشاعر القلق والتمرد عند الكثيرين منهم . ولعل الحادثة التي وقعت في مزرعة الشوف بعد حوالي شهر من دخول القوات الفرنسية والتي ادت الى وقوع بعض الضحايا واحراق عدد كبير من بيوت الدروز فيها ما يظهر حقيقة تلك المشاعر[٤٠] . ولم يخب هذا الشعور حتى عندما احكمت القوات الفرنسية الطوق على جبل لبنان اذ ظلت تفد الى دمشق شخصيات درزية معربة عن تأييدها لحكومة فيصل العربية[٤١] . كما ان احد الضباط الدروز وهو فؤاد سليم من قرية جباع الشوف كان قد تولى قيادة « حرب العصابات » ضد الفرنسيين . وهي الحرب التي دارت رحاها بين القوات العربية والقوات الفرنسية من جبل عامل حتى جبال العلويين واشترك فيه عدد من المتطوعين الدروز[٤٢] .

بيد ان نجاح الفرنسيين في احكام سيطرتهم على البلاد السورية اثر معركة ميسلون جعل اكثرية الدروز في لبنان يسلمون بالامر الواقع . وكان بعض قادة الدروز اللبنانيين يميلون فعلا الى التيار الداعي لاقامة دولة لبنان الكبير حتى في ظل الانتداب الفرنسي . اذ كان هذا الفريق من الدروز مرتبطا من حيث المصالح بالفريق الماروني الداعي لاستقلال لبنان عن اية دولة عربية . وقد اشترك بعض قادة هذا الفريق في الوفود التي ارسلت الى مؤتمر الصلح في باريس من اجل دعم موقف البطريرك الماروني الياس الحويك . ومن هذه الوفود نذكر وفد المطران عبد الله الخوري الذي تألف من الامير توفيق ارسلان قائمقام الشوف والشيخ يوسف الجميل واميل اده[٤٣] . وفي اجتماع بعبدا الذي عقد في الثاني والعشرين من شهر آذار **١٩٢٠** من اجل اعلان استقلال لبنان الكبير شارك الدروز باعداد غفيرة يتقدمهم مخاتير

---

٣٩ - راجع ما سبق ، ص

٤٠ - راجع جريدة لسان الحال (تشرين٢ ١٩١٩)

٤١ - لسان الحال (السبت ١٠ تموز ١٩٢٠) ومن هذه الشخصيات محمود جنبلاط ، وفؤاد عبد الملك .

٤٢ - راجع مقال عجاج نويهض « الشهيد فؤاد سليم » الأماني ، ١٩ (ايار ، ١٩٧٣) ص ٢٥ - ٣١ ، ويذكر اسماء المتطوعين الدروز في تلك الحرب منهم ، حسيب ذبيان وسلمان ذبيان وسعيد ملحم بشير وحمد صعب ونجيب حمادع وكامل حماده وناصيف ذبيان وحمد وسلمان الحسنية .

٤٣ - راجع لسان الحال (٢٠ شباط ١٩٢٠) .

القرى وبعض الاعيان كمصطفى العماد ورشيد جنبلاط وامين حماده وامين تقي الدين ونجيب عبد الملك وشفيق الحلبي وغيرهم[٤٤] .

وعندما اعلن الجنرال الفرنسي غورو دولة لبنان الكبير في اوائل شهر ايلول من تلك السنة لقي هذا الاعلان ترحيبا عند هذا الفريق من الدروز بينما لقي معارضة من الفريق الدرزي الآخر « العروبي » المؤيد لوحدة لبنان مع سوريا .

واذ اذعن دروز لبنان لسياسة الامر الواقع وقبلوا مرغمين الانتداب الفرنسي فان هذا القبول الظاهري ظل يخفي وراءه شعورا من الريبة والحذر تجاه سلطة الانتداب . وما لبث هذا الشعور ان تجلى في ثورة دروز جبل حوران الشهيرة ضد الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٥ .

---

٤٤ - راجع لسان الحال (٢٣ آذار ١٩٢٠) .

الفصل العاشر

الدروز في جبل حوران منذ جلاء محمد علي حتى الحرب العالمية الاولى

« انهم ، هم وحدهم ، بينما كل من
حولهم يركع ضارعا خاشعا للسيف
العثماني .

يعلّمون راية الطغاة ، ذات الهلال
الشاحب ان تخاف الغضبات الوطنية
من اسنة رماح الجبل »

(بورتر) رحالة وشاعر انكليزي .

لم تكد اوضاع الدروز في جبل حوران تشهد بعض الاستقرار اثر نجاح ثورتهم ضد ابراهيم باشا حتى بدأ صراع طويل بينهم وبين السلطات العثمانية التي حاولت بدورها تقليد سياسة ابراهيم باشا لفرض سلطانها على الجبل . وقد يتساءل القارىء عن اسباب رفض الدروز في هذه البقعة من بلاد الشام للقوانين العثمانية وسلطاتها . ولعل الجواب البديهي لمثل هذا السؤال هو محاولة السلطات العثمانية فرض قوانين جائرة على الدروز في جبل حوران على النحو الذي انتهجه ابراهيم باشا وادى الى ثورتهم الشهيرة ضد الحكم المصري كما رأينا . ومما يلفت الانتباه حقا هو ان السلطات العثمانية ما لبثت ان ارتكبت الاخطاء نفسها التي وقع بها ابراهيم باشا نفسه عندما رفض تفهم وضع الدروز الخاص في تلك المنطقة المعرضة دائما لخطر الغزو من الصحراء . وفوق هذا كله قررت الدولة العثمانية في هذه المرحلة فرض سلطتها المركزية على جبل الدروز في حوران قبل ان توفر لهؤلاء اي نوع من الحماية ضد غزوات البدو من الصحراء فاضطر الدروز الى حماية انفسهم بانفسهم بعد ان رفضوا اية اجراءات لا تؤمن لهم حماية كافية للبقاء في تلك الانحاء .

لهذه الاسباب جميعها وقع صدام مسلح بين الدروز والدولة العثمانية مرارا عدة خلال هذه الحقبة من تاريخ جبل الدروز في حوران . وكان هدف الدولة العثمانية من ذلك فرض سيطرتها التامة على الدروز دون اية مراعاة لوضعهم الخاص الذي فرضته طبيعة الحياة القاسية في ذلك الاقليم . وحيث لم يستطع ولاة الشام ولا ولاة حوران ان يفرضوا تلك السلطة على الجبل فقد حاول ريتشارد وود القنصل البريطاني في دمشق والذي قام بدور مهم في الحرب ضد ابراهيم باشا ان يتدخل لانهاء تلك الحالة الشاذة في منطقة حوران . لقد كانت

سياسة الدولة البريطانية انذاك ترمي الى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية . لهذا حاول ريتشارد وود عن طريق صداقته لشبلي العريان تركيز سلطة العثمانيين في جبل الدروز . ولكن شبلي العريان لم يعمل على خدمة سياسة بريطانيا الا بقدر ما تخدم هذه السياسة طموحه الشخصي وتساعد على حفظ مصلحة دروز الجبل . فاضطرت الدولة العثمانية ان تبقي وضع جبل الدروز على حاله لاكثر من عشر سنوات .

غير ان العثمانيين حاولوا خلال فترة الخمسينات فرض الخدمة العسكرية في منطقة حوران ، فثارت ضد هذا التدبير منطقة حوران بكاملها بما فيها جبل الدروز . واتفق الدروز مع البدو لمقاومة هذه الاجراءات[1] .

وكان من الطبيعي ان يرفض الدروز الخدمة العسكرية الاجبارية في الجيش العثماني لانه من شأن هذه الخدمة ان تضعف قوة الدروز الدفاعية ضد خصومهم البدو في الوقت الذي لم تمنحهم السلطة العثمانية اية حماية من الغزو البدوي القادم من الصحراء ، فضلا عما كان يعنيه التطوع في الجندية من خسارة لليد العاملة المنتجة في الزراعة . ويصف لنا احد الرحالة الاجانب هذا الموقف بدقة من خلال ما ينقله عن لسان احد مشايخ الدروز في شهبا حول موضوع التجنيد الاجباري فيقول « نحن هنا على اطراف الصحراء مضطرين للبقاء في حالة حرب مستمرة مع البدو من اجل حماية نسائنا واولادنا واملاكنا . . . وليس هنالك قوات نظامية (عثمانية) تردع البدو . . . دع السلطان يمنحنا حماية جيوشه ويدافع عنا ضد هجمات البدو المستمرة وليعطينا حصة في الارض التي نحرثها بحيث نستطيع زراعتها كرمة وزيتونا كاخواننا في لبنان وعند ذاك نعمل ما يفعله الاخرون (لطاعة الدولة العثمانية)[2] » . ومقابل اعفاء الدروز في جبل حوران من الخدمة العسكرية الاجبارية في الجيش العثماني عرضوا على السلطة العثمانية تقديم مساعدة عسكرية للسلطة من حين لاخر كما قبلوا تأدية مزيد من الضرائب . ولكن سياسة العثمانيين على حد قول بورتر لم تكن في الحقيقة ترمي الى زيادة عدد قواتهم من خلال نظام الخدمة هذا بقدر ما كانت ترمي الى كسر شوكة الدروز والقضاء على روح الاستقلال

١- Moshe, Mao'z, *Ottoman Reform In Syria And Palestine 1840-61* (Oxford, 1968) pp.125-28

٢- Porter, *op.cit*, vol. II, pp. 68- 69

والتمرد على السلطان[٣] . والواقع ان موقف العثمانيين هذا لا يختلف في جوهره عن موقف ابراهيم باشا الذي اراد بدوره ان يفرض التجنيد الاجباري على الدروز في الجبل للغاية نفسها فكانت ثورة الدروز الشهيرة ضده .

حملة محمد قبرصلي باشا :

لم يكن من السهل على ولاة الدولة العثمانية الخضوع لشروط الدروز في الجبل ولا حتى الاستفادة من اخطاء ابراهيم باشا ، بل قرر والي دمشق ركوب رأسه واخضاع الجبل بالقوة . وفي ايلول من عام ١٨٥٢ م جردت السلطة العثمانية على حوران حملة كبيرة مؤلفة من نحو ثمانية الاف جندي نظامي واربعة الاف غير نظامي[٤] . ولكن تجريد هذه الحملة جعل سكان حوران من سنة وبدو ينضمون الى صفوف الدروز ويقاومون مجتمعين حملة قبرصلي باشا . ووفقوا اكثر من مرة في قطع طرق التموين لتلك القوات وفي قتل الكثير من جنودها والاستيلاء على معداتها[٥] .

وحاول قبرصلي باشا ان يقوم بهجوم واسع في شهر تشرين من تلك السنة على ازرع ، ولكن الدروز وقفوا له بالمرصاد فصدوا الهجوم وكبدوا الجيش العثماني خسائر جسيمة في الارواح والعتاد[٦] .

كانت معركة ازرع ضربة قاسية للسلطة العثمانية في حوران واجبر قائد الحملة على مفاوضة الدروز وبأمر من الباب العالي عرض قبرصلي باشا على الدروز اعفاءهم من الخدمة العسكرية شرط ان يقدموا للدولة خدمات اخرى مقابل ذلك . ولكن الدروز اصروا على موقفهم مما جعل الدولة العثمانية تلجأ لوساطة القنصل البريطاني ريتشارد وود . وبمساعدة صديقه سعيد جنبلاط تمكن القنصل البريطاني من حل الازمة العالقة ونجح الدروز بتحقيق معظم مطالبهم اي اعفائهم من الخدمة الاجبارية مقابل تأديتهم للضرائب المتأخرة وارجاع البنادق التي غنموها في ازرع للسلطة العثمانية[٧] . وهكذا حاول القنصل البريطاني من خلال هذا الاتفاق اعادة

---

٣ - *Ibid.*, P. 70

٤ - Mao'z, *op.cit* ., P. 120

٥ - Porter, *op.cit* ., P. 191

٦ - ابو راشد ، جبل الدروز ، ص ٩٧ كذلك النجار ، بنو معروف ، ص ١٠٠ .

٧ - *Maoz, op.cit* ., P. 128

شيء من هيبة السلطة العثمانية المفقودة في جبل الدروز في حوران . الا ان الفريقين لم يتقيدا بشروط الاتفاق الجديد فاذا بالسلطات العثمانية تعيد الكرة بعد عدة سنوات وتحاول عام ١٨٥٧ م ، فرض التجنيد الاجباري على الدروز من جديد الا انها فشلت امام انتصار الدروز في موقعة اللجاه[٨] .

وعبثا حاول الاتراك العثمانيون فرض سيطرتهم على حوران خلال فترة امتدت نحو ربع قرن بعد حكم ابراهيم باشا ، ذلك ان السلطة الفعلية في ذلك الاقليم كانت اذ وجدت ، للدروز حيث هم وللبدو حيث وجدوا . ولم يكن للدولة العثمانية قوة عسكرية ذات فاعلية الا في بصرى اسكي شام . مما جعل معظم الرحالة الاجانب يعتبرون المرور في ذلك الاقليم محفوفا بالمخاطر ما لم يمنحون حماية ما من الدروز[٩] .

اسماعيل الاطرش يؤسس زعامة آل الاطرش في الجبل :

ينتسب الطرشان الى الشيخ عبد الغفار الذي كان يسكن اصلا احدى قرى الجبل الاعلى في منطقة حلب . ثم انتقل عبد الغفار الى برمانا احدى قرى جبل لبنان . اما حفيده علم الدين فقد انتقل الى احدى قرى اقليم البلان (السفح الشرقي لجبل الشيخ)[١٠] . وتذكر بعض المصادر ان اول من هاجر منهم الى حوران هو اسماعيل بن علم الدين حيث كان يعرف باسم عبد الغفارالذي حضر الى السويداء وطلب من حاكمها يومذاك مزيد الحمدان ، تحديد مكان للنزول به مع عائلته فمنحهم الحاكم قريتين ، هما العفينة وجبران ثم اعطيا القريّة . اما تسمية الاطرش فتعود لاسماعيل نفسه لانه كان مصابا بالصم (الطرش) . ولما تولى محمد بن اسماعيل زعامة القرية اصبح يعرف بمحمد الاطرش[١١] .

اما شهرة آل الاطرش فتعود الى اسماعيل الثاني بن محمد الذي وصفه احد الرحالة الغربيين المعاصرين بقوله انه « الاشجع في شعب شجاع[١٢] » .

٨- محمد كرد علي ، خطط الشام (دمشق ، ١٩٢٥) ج ٣ ، ص ٨٠ .

٩- Murray, *op.cit*., PP. 497- 498.

١٠- ابو راشد ، جبل ، (ط٢) ص ٥١ .

١١- المصدر ذاته ، ص ٢٤٤ .

١٢- Murray, *op.cit*., P. 500

الا ان زعامة الطرشان الحقيقية بدأت في القسم الجنوبي من جبل حوران وهو القسم الذي كان يتعرض لغزوات البدو المستمرة من الجنوب حتى غدا خاليا من السكان . وكانت القرية آخر بلدة مسكونة في هذا القسم . اما صلخد وعرمان فقد كانتا قريتين مهجورتين ؛ فلما استقرا اسماعيل الاطرش في تلك المنطقة اخذ يدعو الفلاحين من الدروز والنصارى للسكن في تلك القرى وعمل كل ما بوسعه لصدّ غزوات البدو .

واعطى هذا الصمود لاسماعيل الاطرش مكانة خاصة بين اقرانه . ومما عزز من مكانته هذه اشتراكه في المعارك التي خاضها دروز الجبل ضد القوات العثمانية في حرب الساري عسكر سنة **١٨٥٢**م . وصحيح ان دائرة القتال في تلك الحرب كانت في اللجاه ولكن مقر اسماعيل الاطرش في القرية كان مركز انطلاق قوات الدروز الثائرة وهو الذي كان يدير عملياتها الحربية[١٣] .

وتعدت شهرة اسماعيل الاطرش القتالية منطقة الجبل في حوران الى لبنان عندما استجاب لطلب صديقه سعيد جنبلاط وانجد دروز لبنان في حوادث **١٨٦٠** م الدامية التي وقعت بين الدروز والنصارى . ولكن هذه الحوادث الطائفية التي وقعت في لبنان لم يقع مثلها في جبل الدروز . ذلك ان علاقة الود القائمة بين الطائفتين هناك كان يقوى اواصرها التحالف المشترك ضد العثمانيين .

وكان النصارى في جبل الدروز يشكلون اقلية بين سكانه ولكنهم تمتعوا بحماية الدروز طيلة هذه المدة . وبين هؤلاء من كان ينتمي الى طائفة الروم الكاثوليك مع ان اتباع هذه الطائفة في لبنان كانوا حلفاء للموارنة في الحوادث الطائفية (**١٨٤٠** - **١٨٦٠** م) .

ويعزى لاسعد عامر زعيم المقرن الشمالي انه حمى هؤلاء من اية تعديات طائفية . اما خارج منطقة العوامرة فقد كان معظم نصارى الجبل من طائفة الروم الارثوذكس الطائفة التي وقف معظم اتباعها في لبنان الى جانب الدروز ضد الموارنة في تلك الحوادث[١٤] .

١٣- Porter, *op.cit*., II, PP. 190- 191

١٤- Churchill, *Mount Lebanon*, P. 168.

ولم تترك حوادث لبنان الطائفية بين الدروز والنصارى اثارا مماثلة في جبل الدروز . و.. س تلك الحوادث وما نتج عنها من تدخل خارجي خاصة نزول القوات الفرنسية في لبنان ، ادت الى نزوح عدة الاف من دروز لبنان الى جبل حوران . ويرجح ان معظم هؤلاء القادمين الجدد الى الجبل نزلوا في القرى الجنوبية اي في منطقة اسماعيل الاطرش مما زاد من قوته ونفوذه في الجبل[١٥] .

ومع استقرار الوضع في لبنان خلال عهد المتصرفية فان مناطق اخرى يقطنها الدروز ، كراشيا وحاصبيا شهدت حركة نزوح وهجرة باتجاه جبل الدروز هربا من تعسف وجور الحكم العثماني في هذه المناطق . وقد ورد في احد التقارير الدبلوماسية لهذه الحقبة انه حوالي سبع مئة عائلة درزية من هذه المناطق هاجرت عام ١٨٦٦ م الى الجبل وعمرت اكثر من سبع عشرة قرية[١٦] . وادى تدفق المهاجرين هذا الى انتشار دروز الجبل باتجاه السهل في حوران . ولقيت عملية انتشار الدروز هذه في السهل تساهلا من قبل الحوارنة في البدء بحيث ان تحالفا عسكريا وسياسيا كان قائما بين الفريقين ضد تسلط الولاة العثمانيين من جهة وغزوات البدو من جهة اخرى . غير ان انتشار الدروز في السهل ساعدهم بالرغم من قلة عددهم على السيطرة السياسية على منطقة حوران بكاملها حتى ان السُنة هناك اصبحوا تحت حمايتهم فضلا عن عدد من القرى المسيحية . ولم يكن بوسع الدروز ان يفرضوا سلطانهم على سهل حوران لو لم يكونوا متفوقين عسكريا على باقي سكان حوران بحيث ان احد القناصل يذكر في تقرير له خلال عام ١٨٧٩ م انه باستطاعة الدروز ان يقحموا من خمسة الى عشرة الاف رجل في ساحة القتال ضد اي عدوان خارجي[١٧] .

تحدي السلطة العثمانية :

غير ان امتداد نفوذ الدروز في منطقة حوران لم يكن بنظر الولاة العثمانيين الا على حساب سلطتهم ونفوذهم اذ ظلوا حتى اواخر القرن التاسع عشر تقريبا اعجز من ان يفرضوا سلطة الدولة في ذلك الاقليم . بيد ان فشل الولاة العثمانيين في فرض هيبة الدولة على تلك المنطقة ترك السلطة الفعلية بين ايدي مختلف القوى المحلية

---

١٥ - Mcdowell, *op.cit*, P. 42

١٦ - *Ibid*, P. 43

١٧ - نقلا عن تقرير دبلوماسي ، راجع Mcdowell, *op.cit*, P. 49

المتنازعة فيما بينها على السلطة والنفوذ . والجدير بالذكر ان الاصلاحات الادارية التي عملت على تنفيذها الدولة العثمانية في مختلف اجزاء الامبراطورية خلال هذه الفترة كانت عديمة الاثر في منطقة حوران اذ ظل لواء حوران جزء من ولاية الشام . ويعزو احد الباحثين سبب اخفاق الدولة العثمانية هذا الى حالة الاضطراب التي كانت تسود ذلك الاقليم[١٨] .

والواقع ان حالة عدم الاستقرار التي سادت منطقة حوران خلال هذه الحقبة لم تكن الا نتيجة لطبيعة ذلك الاقليم الذي لا يساعد سكانه على الاستقرار والطمأنينة في غياب سلطة عادلة وقادرة على تأمين متطلبات الحياة المستقرة في جوار الصحراء . ناهيك عن ان سياسة الولاة العثمانيين لم تكن ـ كما استعرضنا بعض وقائعها حتى الان ـ الا سلسلة من الاجراءات التعسفية دون اية مراعاة لظروف اولئك السكان خاصة الدروز منهم . لقد كانت سياسة الدولة العثمانية في ذلك الاقليم متقلبة لا يركن لها السكان . فتارة يحاول ولاة الشام فرض القوانين غير ملائمة لاوضاع الناس بالقوة واذا ما فشلوا يلجأون الى التفاوض حتى اذا ما استكان الدروز غدرت بهم السلطات العثمانية وجردت عليهم الحملات العسكرية الجرارة . واصدق برهان على فشل سياسة الدولة العثمانية في منطقة حوران هو تغير عدد من الولاة خلال فترة قصيرة . فبين عام **١٨٥٩** م وعام **١٩١٥** م مثلا عين الباب العالي اربعا وثلاثين واليا على دمشق كما تعاقب على متصرفية حوران بين **١٨٦٤** و **١٨٩٤** او في اقل من ثلاثين سنة اثنان وثلاثون متصرفا[١٩] .

وبينما كان نفوذ الدروز السياسي يقوى تدريجيا ليشمل معظم منطقة حوران كان ولاة دمشق العثمانيين يعملون كل ما بوسعهم للقضاء على ذلك النفوذ . وحيث لم يجدِ تدخلهم المباشر احيانا في اضعاف سلطة الدروز كانوا يعملون بشكل مباشر على اثارة الخلافات بين الدروز وجيرانهم . واذ توسع الدروز باتجاه منطقة اللجاه حيث كانت تسكن قبائل السلوط اثار العثمانيون هذه القبائل ضد الدروز ولكن هؤلاء الاخيرين استطاعوا ان يتحالفوا مع عرب السلوط ضد العثمانيين . ويبدو ان امتداد سلطة الدروز الى سهل حوران بحيث تصبح محاصيله الزراعية بأيديهم وطرق الحج

---

١٨ ـ راجع عبد العزيز عواد ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٩٦٤ ـ ١٩١٤ (القاهرة ، ١٩٦٩) صفحة ٧٦ .
١٩ ـ المصدر ذاته ، ص ٩٦ .

تحت سلطتهم ، كان يخيف او يثير مشاعر الحسد عند الولاة العثمانيين فعملوا ايضا على اثارة بعض الخلافات التقليدية بين الدروز وسكان السهل من الحوارنة . ففي سنة ١٨٧٨ م حاول مدحت باشا والي الشام انذاك اخراج محمد ابو عساف احد اعيان الدروز من بلدة ازرع تنفيذا لهذه السياسة .

وكانت ازرع احدى قرى حوران التي طلبت يومذاك حماية الدروز من غزوات البدو بعد فشل الدولة العثمانية توفير تلك الحماية . وقام محمد ابو عساف الى ازرع فقطن فيها واعترف بزعامته متصرف حوران نفسه . ولكن مدحت باشا خشي من ابقاء هذا المركز الستراتيجي في ايدي الدروز فطلب من متصرف حوران ان يأمر محمد ابو عساف بالرجوع من حيث اتى ؛ولكن ابا عساف رفض ذلك بينما لم يستطيع مدحت باشا اخراجه بالقوة .

بيد ان مدحت باشا لم يدخر وسيلة لتنفيذ سياسته هذه ضد دروز الجبل الا واتخذها[٢٠] . واثار هذه المرة خلافا بين الدروز والحوارنة في بصر الحرير مما افسح له مجالا للتدخل بشكل مباشر . فأمر بارسال العساكر العثمانية الى الجبل بحجة انهاء النزاع بين الفريقين المتنازعين[٢١] . وتقدم قائد الحملة بشروطه لحل مشكلة النزاع . ومن هذه الشروط تسليم سبعة عشر قرية اخذها الدروز عنوة من الحوارنة ابان القتال وشروط اخرى كتأدية الاموال الاميرية للدولة وتسليم بعض الذين اشتركوا في القتال[٢٢] . وتذكر بعض المصادر ان المفاوض باسم الدروز وهو الشيخ ابو علي الحناوي قال للجنة المفاوضة من قبل الوالي العثماني ما يلي : « اما الاموال الاميرية فانها تدفع بطيبة خاطر ، لانها تدفع كزكاة اموال وفرض واجب . واما تسليم القرى لاصحابها ، فهذا امر لا تقبله العشائر ، فكما اخذناها نحن بالسيف فليأخذوها هم بالسيف ايضا . واذا اردتم ان تستلموها بالقوة فنسلمها بعد ان نروي ترابها بالدم ، واذا مشيتم علينا فلا نقابلكم الا بالبارود واليوم المفروض[٢٣] » .

---

٢٠ - راجع برقية مدحت باشا للصدر الاعظم (تشرين ١ ١٩٧٩) في .

Ali Haydar ; Midhat Bey, The Life *Of Midhat Pasha* (London, 1903), PP. 188- 189.

٢١ - راجع برقية مدحت باشا للصدر الاعظم (كانون ١ ١٩٧٩) ، المصدر ذاته ، ص ١٨٩

٢٢ - راجع هذه الشروط في كتاب ابي راشد ، جبل ، ص ٩٦ - ٩٩ ،

٢٣ - المصدر ذاته ، ص ١٠٠ .

وهكذا رفضت شروط السلطة العثمانية من قبل الدروز والتي كان يعني قبولها كسر شوكة الدروز. وعندها تقدم القائد العثماني بعساكره لاخضاع الدروز بالقوة فلقيه الدروز في قراصة (وهي عين ماء تقع بالقرب من نجران) وصدّوا تقدمه واوقعوا الهزيمة بعساكره .وامام صمود الدروز وعنادهم وبالتالي مسايرة السلطان عبد الحميد الذي كان يريد اضعاف سلطة خصمة السياسي مدحت باشا، اضطر الاخير لطلب مساعدة القنصل البريطاني وتكليف الشيخ سعيد تلحوق من اعيان الدروز لمفاوضة الدروز وانهاء الازمة بشكل يحفظ ماء وجه الوالي العثماني[٢٤] . وهكذا كان فقد جاء الحل لصالح الدروز اذ رضي الوالي بخضوعهم شكليا لسلطته . وعين سعيد تلحوق قائمقاما واعطي صلاحيات معينة لتشكيل قوات امن داخلي ومجلس اداري ومحكمة . وبكلام اخر فان هذه الاجراءات الجديدة كانت محاولة لتطبيق نظام الولاية العثماني الجديد بحسب قانون ١٨٦٤ في جبل الدروز . وتوقع الوالي العثماني ان ينجح القائمقام في القضاء على سلطة مشايخ القرى والاقطاعيين في الجبل . ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل امام معارضة الطرشان وانعدام ثقة عامة الناس بالسلطات العثمانية او بأية اجراءات يتخذها الوالي حتى لو كانت في مصلحة هؤلاء . ومما زاد في شكوك العامة بنوايا الوالي العثماني تلك الحملة التأديبية التي جردها على جبل الدروز اثر النزاع الذي نشب سنة ١٨٨١ م بين دروز قرية الثعلة في الجبل وبين سكان بلدة الكرك الحورانية . وبدل ان تساعد تلك الحادثة السلطات العثمانية على تنفيذ بعض الاصلاحات في جبل الدروز ومنها الغاء نظام الاقطاع ، فقد افسحت المجال امام زعماء الاقطاع لتثبيت سلطتهم من جديد .

كانت زعامة الدروز في جبل حوران قد آلت خلال هذه الفترة لاسماعيل الاطرش الذي وفق بين عامي ١٨٥٣ و١٨٥٧ في القضاء على زعامة آل حمدان . اما سقوط آل الحمدان الذين قاموا بدور اساسي في الثورة ضد ابراهيم باشا المصري ، فتعزوه المصادر الى استبدادهم وسوء معاملتهم للفلاحين دروزا ونصارى في الجبل[٢٥] . ولكن اسماعيل الاطرش استطاع بدوره ان يستغل كل فرصة لتقوية

٢٤- Haydar, *op.cit*., PP. 193- 195.

٢٥- ابو راشد ، الجبل ، ص ٩٤-٩٥ .

نفوذه في الجبل حتى انه لم يتورع احيانا عن مساندة السلطة العثمانية من اجل دعم مركزه السياسي[٢٦] .

ومع بروز زعامة الطرشان ظهرت منافسة حادة على هذه الزعامة بين بقية العائلات الكبرى في جبل الدروز الا ان هذه المنافسة تركزت بشكل خاص بين فارس عامر واسماعيل الاطرش . فالعوامرة كانوا يسيطرون بشكل خاص على القسم الشمالي من الجبل حيث كانت تمر القوافل التجارية الى دمشق عبر وادي اللوا . وتحالف العوامرة مع زعماء بعض العائلات الكبرى في الجبل كآل الحلبي مع كون هؤلاء الاخرين حلفاء لآل هنيدي . اما اسماعيل الاطرش فقد استطاع مواجهة هذا التحالف بحلف آخر من خصوم العوامرة التقليديين كآل القلعاني وبني عزام . ولكن العوامرة والطرشان بقيوا يعترفون حتى ذلك الحين بزعامة آل الحمدان المستضعفة الى ان قضي على تلك الزعامة من قبل ابراهيم الاطرش[٢٧] .

زعامة ابراهيم الاطرش :

وبوفاة اسماعيل الاطرش سنة **١٨٦٩** م خلفه ابنه ابراهيم كزعيم على الطرشان وبالتالي في جبل الدروز . واقتفى ابراهيم سياسة والده في موالاة العثمانيين حيث يمكن توظيف تلك الموالاة لتقوية نفوذه وزعامته حتى اصبح في عام **١٨٨٠** زعيم الجبل الاول . وبعد استقالة سعيد تلحوق من منصب القائمقامية في جبل حوران سنة **١٨٨٢** عين ابراهيم الاطرش مكانه . واظهر ابراهيم الاطرش مقدرة في شؤون ادارة الجبل بحيث ان تدخله ساهم في انهاء اكثر من نزاع محلي كالذي وقع سنة **١٨٨٢** بين آل عزام الدروز وسكان بصر الحرير . واذ اندلع القتال من جديد في بداية سنة **١٨٨٣** استطاع ابراهيم الاطرش مرة ثانية ان يوقف القتال دونما حاجة لتدخل القوات العثمانية[٢٨] . وهكذا نجح ابراهيم الاطرش حيث فشلت سياسة الولاة العثمانيين في حل الكثير من المنازعات الداخلية في جبل الدروز . الا ان السلطة العثمانية كانت ترمي من وراء هذه السياسة الى استيعاب جبل الدروز ودمجه في ولاية حوران . واذا

---

٢٦ - تذكر المصادر مثلا انه لما هاجم البدو قافلة تجارية قادمة من بغداد استطاع اسماعيل الاطرش استرجاع ما سلبه هؤلاء ، ثم لما هاجم بنو صخر بلدة الرمثه ساعد الاطرش القوة العثمانية .

٢٧ - راجع Porter, *op.cit.*, II, P. 138

٢٨ - نقلا عن التقارير الدبلوماسية ، راجع . Mcdowell, *op.cit.*, p. 57

اظهر زعماء آل الاطرش استعدادا كافيا لتقبل سياسة الدولة العثمانية الجديدة الرامية الى فرض سلطتها تدريجيا على جبل الدروز مقابل مضاعفة سلطتهم الرسمية ، فان عامة الدروز اخذوا يظهرون معارضتهم للطرشان وتمثلت تلك المعارضة بثورة الفلاحين سنة ١٨٨٩ م .

ثورة الفلاحين في جبل الدروز ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠ م :

لم يكن موقف ابراهيم الاطرش الممالىء للعثمانيين هو السبب الوحيد لثورة الفلاحين في جبل الدروز بل ان معاملة مشايخ القرى للفلاحين كانت السبب الرئيسي في تلك الثورة . وكان مشايخ القرى كالاقطاعيين يعاملون الفلاحين معاملة سيئة فيعمل هؤلاء بالاجرة دون ان يكون لهم حق تملك الارض ، وكانوا في الوقت نفسه يطردون من القرى والمزارع متى شاء شيخ القرية ومن غير تعويض . وهذا اشبه بنظام الاقطاع الذي كان سائدا في القرون الوسطى حيث كان يعامل الفلاحون معاملة الارقاء او على حد قول عبدالله النجار بان الفرق بينهم وبين العبيد انهم لا يباعون ولا يشترون[٢٩] . وازداد وضع الفلاحين سوءاً مع وصول عدد كبير من المهاجرين الدروز الى الجبل خلال هذه الفترة . اما ابراهيم الاطرش فقد ظل غير مبال بما كان يجري على صعيد العامة من هؤلاء بل كان همه استرضاء مشايخ القرى ولو على حساب الفلاحين .

نشبت ثورة الفلاحين هذه سنة ١٨٨٩ م وكأنها مؤامرة للاطاحة بزعامة ابراهيم الاطرش لا ثورة ضد جميع مشايخ القرى في الجبل . ذلك ان احد منافسي ابراهيم الاطرش كأخيه شبلي اتهم باستغلال تلك الثورة لمصلحته الشخصية إذ شجع ثورة العامة مع بعض زعماء العائلات الكبيرة كابي طلال وهبه عامر زعيم آل عامر[٣٠] . ولكن شبلي الاطرش عجز عن قيادة ثورة العامة بسبب انتمائه الى عائلة الطرشان الحاكمة من جهة ولانه كان يفتقر الى ميزات القائد الاساسية من جهة ثانية ، واضطر مع سائر الطرشان للجوء الى المزرعة بالقرب من السويداء تجنبا لنقمة العامة . وحذا حذوى الطرشان بعض مشايخ القرى بعدما اخذ الثوار يستولون على القرى

---

٢٩ - النجار ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

٣٠ - بورون ص ١٥٧

ويطردون المشايخ منها . وكاد الوضع ان يتطور الى حرب اهلية بين الدروز في الجبل خاصة بعدما اتجه مشايخ القرى بزعامة ابراهيم الاطرش لطلب نجدة العثمانيين لاول مرة لاخضاع اتباعهم واخوانهم . غير ان تدخل عقال الدروز السريع حال دون استمرار تفاقم الوضع وتوسط هؤلاء بين العامة ومشايخ القرى . وتهدئة لثورة العامة اضطر ابراهيم الاطرش الى دفع تعويضات كبيرة للثائرين فكانت بمثابة ضربة قاسية لنفوذه . كما تنازل بقية الطرشان وسائر مشايخ القرى عن بعض الامتيازات واعترفوا بحق ملكية الارض للفلاحين . ولم يعد الفلاحون مجرد عمال في ارض يملكها اسيادهم بل منحوا حق السكن وامتلاك الاراضي . وبالمقابل تعهد الفلاحون بعدم العصيان او القيام باي عمل من شأنه ان يستدعي التدخل العثماني في شؤون الجبل[٣١] .

وتراءى للفلاحين ان ثورتهم ضد الاقطاع قد حققت اهدافها الرئيسية من غير اية مساعدة خارجية او تدخل خارجي . فكانت اشبه بثورة داخلية فرضتها تحولات اجتماعية واقتصادية معينة داخل المجتمع الدرزي في الجبل . الا ان الواقع كان غير ذلك اذ ان توقف الثورة جاء نتيجة لرغبة الفريقين في تجنب القتال وخشيتهم من التدخل العثماني الذي من شأنه ان يقضي على امتيازات جبل الدروز الداخلية . الا ان تجنب التدخل العثماني هذا لم يعد ممكنا عندما ظهر للفلاحين ان مشايخ القرى لا ينوون تنفيذ ما اتفق عليه في خريف سنة **١٨٨٩** . واذا بربيع عام **١٨٩٠** يشهد انتفاضة جديدة من قبل هؤلاء الفلاحين ضد زعمائهم ومن كان معهم من مؤيدين . ووقعت معركة شرسة في المزرعة اجبر خلالها الزعماء للتراجع . كما لاذ زعماء الطرشان بالفرار الى دمشق يطلبون حماية العثمانيين بينما اخذ الفلاحون يحتلون قراهم[٣٢] .

وهكذا انتهت معركة المزرعة سنة **١٨٩٠** م بانتصار الفلاحين على اسيادهم ، الا ان هذا الانتصار بدا ناقصا بعدما افسح في المجال اما تدخل العثمانيين لفرض سيطرتهم على جبل الدروز .

---

٣١ - Corres. 91, P.63.

٣٢ - النجار ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

وكانت الدولة العثمانية كما رأينا من خلال هذا الفصل تعمل جاهدة لفرض نظام المركزية على سائر مقاطعات الدولة ومنها منطقة حوران . وبذلت جهودا حثيثة لاثبات وجودها في جبل الدروز الا ان جهودها حتى ثورة الفلاحين سنة ۱۸۹۰ ذهبت ادراج الرياح . بيد ان استعانة زعماء الدروز ، خاصة الطرشان منهم ، بالوالي العثماني اثر تلك الثورة ساعدت الدولة العثمانية على بسط سيطرتها تدريجيا على الجبل . ففي حزيران ۱۸۹۰ م اتخذت السلطات العثمانية من طرد الطرشان من قراهم حجة لتجريد حملة عسكرية على الجبل وتمكنت تلك القوة من احتلال السويداء بعد معركة عنيفة خلال شهر حزيران من تلك السنة . وفرض قائد الحملة خمسة شروط على الدروز الجبل هي : وضع حامية عسكرية في عرى او السويدا ، وتأدية الضرائب المفروضة وتسجيل الاملاك بحسب القوانين العثمانية والسماح لزعماء الطرشان بالرجوع الى الجبل وتسليم بنادق المرتيني(Martini) [٣٣] . واعرب الدروز عن قبولهم ببعض هذه الشروط كدفع المستحق من الضرائب والقبول برجوع الطرشان الى الجبل انما اصروا على ابقاء السلاح في ايديهم وامام ضغط الباب العالي انسحبت القوات العثمانية وكلف علي بك جنبلاط بالتوسط لدى دروز الجبل .وبسبب قرب موسم حصاد الزرع وافق الدروز على هدنة مؤقتة مع العثمانيين . وما ان اقبل فصل الخريف حتى استؤنف القتال بين الدروز والقوات العثمانية فاعادت تلك احتلال مدينة السويداء كما احتلت حاميات اخرى ، عرى وصلخد[٣٤] .

وهكذا انتهت ثورة الفلاحين في جبل الدروز سنة ۱۸۹۰ بتثبيت اقدام العثمانيين في الجبل دون ان يخضع الدروز كليا للعثمانيين . ولكن الوجود العثماني في الجبل ادى الى تسوية النزاع بين الفلاحين وزعمائهم . وحصل الفلاحون على حق تملك الاراضي رسميا . واعيد توزيع الاملاك على الفلاحين بحيث لم يبق لمشايخ القرى سوى ثمن الارض باستثناء شبلي الاطرش الذي احتفظ بربع املاكه . ولم يستطع الفلاحون القضاء على نفوذ مشايخ القرى كليا ، بل ان هؤلاء الاخيرين تمكنوا من استرجاع معظم سلطتهم السابقة بمساعدة الدولة العثمانية . والواقع ان

٣٣- *Mcdowell, op. cit.*, P.60.

٣٤- *Ibid,* P. 67.

الوضع الاجتماعي الذي كان قائما في جبل الدروز يومذاك لم يسمح بتغير توازن القوى السياسية الا ضمن اطار العصبية العائلية والعشائرية القائمة ، بحيث ان قادة تلك الثورة الذين كانوا ينتسبون بدروهم لبعض العائلات الكبرى شعروا انه ليس من مصلحتهم القضاء على مكانتهم التقليدية في الجبل . وهكذا استرجع ابراهيم الاطرش مركزه السابق كقائمقام على الجبل ثم نال رتبة باشا سنة ۱۸۹۳ .ألاان وفاة ابراهيم الاطرش بعد ذلك بفترة قصيرة افسح في المجال امام اخيه شبلي للوصول الى سدة الزعامة في جبل الدروز في حوران[٣٥] .

دروز الجبل في عهد شبلي الاطرش :

لقد ذكرنا في الصفحات السابقة ان شبلي الاطرش لم يكن لديه صفات الزعامة التي توفرت في شخصية اخيه ابراهيم . ذلك ان شبلي فشل اولا في قيادة ثورة الفلاحين وفقد ثقة الاخيرين به عندما انضم الى مشايخ القرى كما لم يحصل شبلي على تأييد السلطة العثمانية على غرار اخيه[٣٦] . الا ان شبلي الاطرش اعتبر كاحد زعماء الجبل خلال هذه الحقبة من تاريخ جبل الدروز في العهد العثماني . ورغم ذلك فقد ظل الموقف العدائي المتبادل بين الدروز والسلطات العثمانية قائما خلال هذه الفترة واظهر الدروز استعدادهم دائما لمجابهة اي اجراء يتخذه الوالي العثماني اذا ما رأوا فيه ما يهدد مصلحتهم . وكانت التجربة الاولى التي خاضها شبلي الاطرش في هذا المجال محاولته شن حملة ثأرية ضد عرب الروله الذين سبق لهؤلاء ان غزوا قرية عرى الدرزية وقتلوا من سكانها اربعة رجال . ولكن القوات العثمانية تصدت لحملة شبلي الاطرش وجردت رجاله من السلاح وسجنته في قلعة المزرعة . بيد ان دروز الجبل ساءهم تصرف السلطات العثمانية فهاجموا قلعة المزرعة وحاصروها واجبروا القوات العثمانية على اطلاق سراح شبلي الاطرش[٣٧] .

لم تكن هذه الحادثة الا حلقة صغيرة في سلسلة من الحوادث المتتالية التي وقعت بين الدروز والعثمانيين خلال هذه الحقبة . ذلك ان الولاة العثمانيين كانوا قد

---

٣٥ ـ النجار ، المصدر السابق ، ص ١٠٦ .
٣٦ ـ ابو راشد ، جبل ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .
٣٧ ـ المصدر ذاته ، ص ١٠٤

صمموا على اخضاع جبل الدروز لقوانينهم وانظمتهم التي طبقوها في اماكن اخرى من الدولة العثمانية دون ان يوفروا لجبل الدروز حماية امنية من البدو . لقد كانت السلطات العثمانية تطلب من دروز الجبل الكثير دون ان تعطيهم شيئا ومن غير ان تعدل تلك الانظمة بالشكل الذي يتلاءم مع اوضاع تلك المنطقة الخاصة ، بل اصر الاتراك العثمانيون على تطبيق سياستهم الخاطئة بالقوة والعنف ؛ وكانت النتيجة ان هذه الحقبة من تاريخ الجبل غدت سلسلة من المعارك والحروب بين القوات العثمانية والدروز تكبد خلالها الطرفان الكثير من الخسائر البشرية . الا ان الدروز في الجبل لم يكن لهم على ما يبدو اي خيار سوى القتال او الخضوع لقوانين جائرة تجعلهم يعيشون في تلك البقعة من حوران عيشة الاذلاء لمطامع البدو والعشائر والولاة الطغاة .

ولعل اول اجراء اتخذته السلطة العثمانية ضد رغبة سكان الجبل هو تعيين شخص من خارج الجبل يدعى ضياء باشا الخالدي في منصب القائمقامية وذلك بعد وفاة ابراهيم الاطرش . ولكن الدولة العثمانية تراجعت عن التمسك بقرارها فعينت شبلي الاطرش في هذا المنصب وقررت تخفيض عدد قواتها العسكرية في الجبل . الا ان مسايرة العثمانيين مرحليا لدروز الجبل لم تكن الا مقدمة لمحاولة اخضاعهم بالقوة من جديد . وهكذا عمد الاتراك الى تنفيذ قانون التجنيد الاجباري المكروه بالقوة سنة ١٨٩٥ في جبل الدروز ، فاثار هذا الاجراء نقمة الدروز وجعلهم يهاجمون مركز السلطة في السويداء تعبيرا عن معارضتهم واستيائهم . الا ان العثمانيين رفضوا هذا التحدي وجردوا حملة جديدة على الدروز بقيادة عمر رستم الذي نجح بعد معركة قاسية باحتلال السويداء . وشرع القائد الجديد بتنفيذ قانون التجنيد الاجباري على دروز الجبل ووقعت القرعة على نحو مئتي رجل من هؤلاء ارسلوا الى دمشق ومعهم زعماء الطرشان والعوامرة . ونفت السلطة العثمانية شبلي الاطرش ومعه اربعة عشر زعيما من الدروز الى الاناضول . ولم ينته عام ١٨٩٦ حتى اصبح عدد المنفيين نحو الف رجل .

وعلى الرغم من هذه السياسة التعسفية والقمعية التي اتبعها الاتراك العثمانيون في الجبل فان مقاومة الدروز لم تتوقف ولجأ بعضهم الى المناطق الحصينة في اللجاه واخذوا يشنون من هناك هجماتهم على المراكز العسكرية التابعة للدولة العثمانية . وابرز تلك المواقع كانت هجومهم في حزيران عام ١٨٩٦ على حامية

السويداء واحراقهم لمركز القيادة فيها[٣٨] .

حرب عرمان ١٨٩٦ او حملة ممدوح باشا :

بيد ان السلطة العثمانية لم تتراجع امام صمود الدروز في الجبل بل ظلت تتحين الفرص للنيل من صمودهم لإخضاعهم . ولم يكن من الصعب على العثمانيين خلق سبب ما لتجريد حملة عسكرية جديدة على الجبل . وتذكر بعض المصادر ان السبب الحقيقي لحرب عرمان هو محاولة ممدوح باشا قائد القوات العثمانية في حوران الانتقام من اهالي تلك القرية لانهم حموا ارملة محمد الاطرش التي رفضت الزواج من القائد العثماني . ولكن ممدوح باشا عمل على اثارة الفتنة بين دروز عرمان وعرب تلك الناحية لكي يتسنى له التدخل عسكريا ضد تلك القرية وينتقم منها . وهكذا كان ففي شهر تشرين من عام **١٨٩٦** جرد ممدوح باشا على تلك القرية اربعة طوابير (كتائب) من جنوده بقيادة غالب بك ورضا بك فاوقع بها الدروز هزيمة نكراء وغنموا اسلحتها بما فيها سلاح المدفعية[٣٩] . وبلغ ممدوح باشا خبر نكبة حملته هذه فقرر ارسال كتيبتين جديدتين من القوات العثمانية المرابطة في السويداء . كما امر بقية كتائب الجيش العثماني في حوران للانضمام الى القوات المهاجمة . ولكن دروز الجبل كانوا يقفون للجيش الزاحف بالمرصاد وهاجموه في معركة تل الحديد وتمكنوا من وقف تقدمه .

وبعد عدة ايام من القتال المستعر بين الفريقين انكسر الجيش العثماني وخسر اكثر من الف جندي فيما خسر الدروز عددا من كبار مقاتليهم بينهم عدد من الفرسان[٤٠] .

حملة طاهر باشا ١٨٩٧ م :

لم ترض السلطات العثمانية بتلك الهزيمة النكراء التي اوقعها الدروز بقواتها في

---

٣٨ - Mcdowell, *op. cit.*, P.76

٣٩ - ابو راشد ، جبل ، ص ١٠٨ .

٤٠ - يذكر حنا ابو راشد ان من ابطال الدروز الذين استشهدوا في حرب عرمان الشهيرة عقاب البربور ومحمد ابو خير ، ومحمود الغزالي ومنصور الشوفي وجبر الحجيلي وحسين ابو خير ويوسف باغي وسليمان طربيه ، وحمد الصغير وعباس المتني .

حرب عرمان فجردت في مطلع عام ١٨٩٧ م اربعا وخمسين كتيبة بقيادة طاهر باشا بلغ عدد افرادها نحو ثلاثين الف رجل . ودخلت تلك القوات السويداء عنوة ، وفرض قائدها على الدروز شروطا جديدة قاسية اقلها تجريد جبل الدروز من كامل سلاحه وتسليم بعض المطلوبين من الزعماء ودفع غرامة مالية مقدارها خمسة الاف ليرة ذهبية تعويضا عن كل الجنود الذين قتلوا في ساحة المعركة فضلا عن تجنيد ثلاثة الاف رجل لمدة خمس سنوات[٤١] .

كان من الطبيعي ان يرفض الدروز على لسان اعيانهم هذه الشروط القاسية . ولكن طاهر باشا عمد الى تنفيذ تلك الشروط بالقوة وقاد بنفسه قوة الى شمال الجبل في اللجاه بغية اخضاع الثائرين . الا ان محاولته باءت بالفشل عندما فاجأ ثوار الدروز مؤخرة الحملة وقضوا عليها قبل ان تصله الامدادات التي طلبها . وحاول طاهر باشا اذ ذاك اتباع اسلوب جديد في القتال يعتمد على ارسال قوات محدودة سريعة الحركة . واذ نجحت هذه الطريقة في التخفيف من الخسائر العثمانية فانها لم تنجح في القضاء على المقاومة الدرزية . ولكن الدروز في الجبل عانوا الكثير من وطأة الحصار امام ضخامة اعداد تلك الحملة ولكنهم حاربوا بضراوة لا مثيل لها على حد ما جاء في احد التقارير الدبلوماسية واعتراف الاتراك العثمانيين انفسهم ، حتى انه في احدى المعارك بالقرب من قنوات كان بين شهداء الدروز اكثر من ثلاثين امرأة[٤٢] .

اما وضع الدروز الذين التجأوا الى منطقة اللجاه فلم يكن افضل من بقية المناطق . اذ ان مغادرتهم لقراهم جعلت البدو والشراكسة والاكراد الذين البتهم الدولة العثمانية ضد الدروز يستولون على قطعانهم وغلالهم .

وعلى الرغم من هذه التضحيات بالاموال والارواح فقد رفض الدروز مبدأ الخضوع التام للسلطة العثمانية . الا انهم ابدوا استعدادا لدفع الضرائب المفروضة عليهم وتسليم بعض المسؤولين عن حادثة السويداء . لكنهم رفضوا الخدمة العسكرية كما رفضوا تسليم سلاحهم ذلك لان قبول الشرطين الاخيرين كان يعني بالنسبة لدروز الجبل تركهم تحت رحمة غزوات البدو والشراكسة . وامام صمود

٤١- Mcdowell, op., cit., P.77

٤٢- *Ibid,p.78*

الدروز الرائع وعنادهم في سبيل المحافظة على حقهم الطبيعي في العيش بحرية وكرامة واستعدادهم المستمر للتضحية من اجل ذلك تراجعت الدولة العثمانية عن اجراآتها التعسفية .

وما لبث العثمانيون ان اعلنوا العفو العام عن الدروز وذلك بعد ان قطع الدروز جميع الطرق المؤدية الى دمشق[٤٣] . ولكن العثمانيين لم يلجأوا الى هذا القرار الا بعد ان خسروا ثقة الدروز بهم . ذلك لان العثمانيين اخلوا بقرار العفو ونفوا عددا من زعماء دروز الجبل من جديد . غير ان بعض هؤلاء تمكن من الفرار ومنهم نسيب الاطرش وسلامة الاطرش ووهبة عامر وقفطان عزام والشيخ الروحي حسن الهجري فاخذوا يطالبون باطلاق سراح رفاقهم وبالغاء التجنيد الاجباري وهددوا بالثورة اذا لم تستجب السلطات العثمانية الى مطالبهم . ولقيت مطالب الدروز هذه المرة آذانا صاغية لدى الباب العالي . ذلك ان سياسة التقرب من عرب الامبراطورية العثمانية التي اتبعها السلطان عبد الحميد خلال هذه الفترة يبدو انها تركت بعض الاثر على سياسة العثمانيين تجاه منطقة حوران المضطربة . وعين الباب العالي واليا جديدا في دمشق هو حسين باشا فسعى هذا بدوره للتقرب من دروز الجبل بشتى الطرق كما ان السلطان عبد الحميد اصدر عفوا عاما عن جميع المنفيين من زعماء جبل الدروز[٤٤] .

عقد من الهدنة بين الدروز والعثمانيين (١٩٠٠ ـ ١٩٠١ م)

واستمرت سياسة اللين هذه التي اتبعتها السلطة العثمانية تجاه جبل الدروز في مطلع عام ١٩٠٠ نحو عشر سنوات عملت خلالها السلطة على احداث بعض التغييرات الادارية في منطقة حوران . وقسم جبل الدروز الى ثلاثة اقضية هي السويداء وصلخد وعاهرة . وكان الهدف من التقسيم الجديد هو تثبيت وجود السلطة العثمانية في الجبل وربطه بشكل محكم بولاية دمشق بحيث يتسنى للوالي العثماني في دمشق السيطرة على الاوضاع المضطربة في حوران[٤٥] . وخوفا من ان

---

٤٣ ـ ابو راشد ، جبل ، ص ١٠١ ـ ١١١

٤٤ ـ المصدر ذاته ، ص ١١٢ .

٤٥ ـ عواد ، المصدر السابق ، ص ٧٧ .

يلقى هذا الاجراء اعتراض الدروز عمد الوالي في دمشق الى تطمينهم بأن غاية الدولة العثمانية من احداث التنظيم الاداري الجديد ليس السيطرة العسكرية على الجبل وابدى استعداده لاعفائهم من الخدمة العسكرية لمدة عشرين سنة شرط قبولهم بذلك الاجراء . ورغبة في اثبات حسن نواياه زار الوالي السويداء وثبت الشيخ احمد الهجري في منصب ابيه كشيخ روحي في الجبل ووزع الهدايا . وهكذا فان برنامج الدولة العثمانية الاصلاحي اخذ يلقى القبول والاستحسان لدى الدروز في الجبل ، خاصة بعدما دعمت برنامجها هذا ببعض المشاريع العمرانية كتأسيس بعض المدارس في السويداء وصلخد وعاهرة(٤٦) .

ومع تجاوب دروز الجبل هذا اخذت السلطة العثمانية تبني لها مراكز عسكرية في الجبل وتقيم التحصينات بحجة المحافظة على الامن ومنع التعديات على الناس . وبدت هذه الحجة مقنعة لبعض الوقت إلى ان اخضعت تلك الاجراءات الامنية من قبل السلطات العثمانية للتجربة على ارض الواقع فاذا بها تهدف الى اخضاع الدروز بالقوة لا لحفظ الامن . وتحقق الدروز من ذلك بعدما لاحظوا ان السلطات العثمانية لم تحرك ساكنا عندما اعتدت بعض قبائل البدو على الدروز في القسم الجنوبي الشرقي من الجبل سنة ١٩٠٥ . وحيث لم تثبت قوات السلطة العثمانية عزمها على المحافظة على حق الدروز بالامن والطمأنينة كان على دروز الجبل ان يدافعوا عن انفسهم بانفسهم . ولم يأخذ الدروز بثأرهم ذلك العام على غير عادتهم بل ارادوا من خلال صمتهم ان يظهروا حسن نواياهم تجاه السلطة العثمانية ومن جهة ثانية ارادوا التحقق من صدق نوايا الاتراك العثمانيين ازاءهم . ولكنهم امام تقاعس السلطة عن ردع المعتدين عمل الدروز على مهاجمة البدو في العام التالي . وحدث ان قتل في احدى الهجمات الثأرية تاجران من سكان دمشق اثناء مرورهما في منطقة النزاع فأثار هذا الحادث نقمة الدمشقيين على دروز الجبل وأجبر واهؤلاء حاكم المدينة على اصدار قرار بمنع دروز الجبل من دخول دمشق . غير ان الحاكم عمل على تسوية المشكلة فدعا مشايخ الدروز الى الشيخ مسكين وفاوضهم على دفع دية القتيلين الدمشقيين وعاد الوضع في الجبل الى السكون مرة ثانية(٤٧) . ولكن هذا الهدوء

---

٤٦ - المصدر ذاته ، ص ٢٩٣

٤٧ - Gertrude Bell, *Syria.the Desert and the Swon (London,1908) p.86*

النسبي ما لبث ان تعكر في مطلع عام ١٩١٠ بسبب الحوادث التي وقعت في بصرى اسكي شام بين الدروز والحوارنة . والواقع ان العداء المزمن بين دروز الجبل والحوارنة كان باعثا لكثير من المشاكل والحوادث الفردية . فمن خلاف على الاراضي الى نزاع حول المراعي والى حوادث ثأرية جعلت الفريقين يتربصان بعضهما ببعض . ورافق هذا الوضع الشاذ القائم في منطقة حوران عزم حكومة تركيا الفتاة على فرض سلطة الدولة المركزية على جميع المقاطعات بما فيها جبل الدروز . فاذا بالاتراك العثمانيين يتخذون من تلك الحوادث المتفرقة ذريعة لشن حملة عسكرية على جبل الدروز من اجل نزع سلاح ابنائه وفرض نظام التجنيد الاجباري عليهم . وهي لعمري شروط عجز جميع الولاة العثمانيين السابقين عن فرضها على الدروز لاسباب تعود لطبيعة الوضع القائم في منطقة حوران نفسها كما اسلفنا . ولو ان حكومة الاتحاد والترقي في الاستانة مهدت لمثل هذه الخطوة باتخاذ اجراءات امنية كافية لحماية الدروز من غزوات البدو لكان من الممكن ان يلبي الدروز مطالب السلطة من تسليم السلاح والخدمة العسكرية . ولكن حكومة الاتحاد والترقي لم تكن اقل جهلا باوضاع المنطقة ممن سبقها من الحكام العثمانيين وقررت بدروها اخضاع الدروز واختارت سامي باشا الفاروقي لتنفيذ سياستها هذه مهما كان الثمن[٤٨] .

حملة سامي باشا الفاروقي ١٩١٠ :

تألفت حملة سامي باشا من ثلاثين كتيبة من الجنود مزودة بسلاح المدفعية وتوجهت الى جبل حوران . واستهدفت هذه الحملة احتلال جبل الدروز والقاء الرعب في نفوس دروز الجبل الى ان يعلنوا خضوعهم التام للدولة العثمانية . وبالاضافة الى ضخامة الحملة فقد شاع بين الدروز خبر مفاده ان العثمانيين البوا الفين رجلا من قبائل البدو - خصومهم التقليديين - للانضمام الى جنود الحملة بغية جمع غنائم الحرب فكان هذا الخبر اشد ازعاجاً لدروز الجبل من قدوم الحملة العثمانية نفسها[٤٩] .

---

٤٨ - كرد علي ، خطط ، ج ٣ ، ص ١١٢ - ١١٥ . وتجدر الاشارة الى المقال الذي نشره صاحب الخطط في الصحف خلال هذه الفترة وفيه تجني على الدروز الا ان المؤلف اتخذ موقفا اكثر موضوعية في كتابه المذكور .

٤٩ - راجع ما ينقله المؤلف عن التقارير الدبلوماسية في Mcdowell, *op.cit* ., P.97

وأمام هذا الواقع ارتأى بعض زعماء الدروز القيام بمحاولة اخيرة لحقن الدماء فذهب الشيخ يحيى الاطرش لمقابلة قائد الحملة سامي باشا في درعا . ولكن سامي باشا القى القبض على الزعيم الدرزي وارسله مخفوراً الى دمشق . وتذكر بعض المصادر ان قائد الحملة كان قد ارسل بطلب يحي الاطرش بواسطة اسقف حوران المطران نقولا قاضي مزوداً اياه بكتاب العفو والامان غير ان سامي باشا اخل بوعده وغدر بيحي الاطرش[٥٠] .

اثار هذا الحادث حفيظة الدروز فايقنوا انه لا نتيجة ترجى من التفاوض مع العثمانيين الذين سبق ان اخلوا بوعودهم وغدروا بهم مراراً فلجأوا الى سلاحهم وتمركز بعضهم في التلال المواجهة لجبل حرمون في المنطقة الغربية من الجبل . اما سامي باشا فقد عمل على تطويق جبل الدروز من جهاته الثلاث وتقدم على رأس قوة كبيرة من الحملة الى السويداء فدخلها في نهاية شهر ايلول من عام ١٩١٠ م . اما القسم الاخر من الحملة الذي سار من صلخد باتجاه السويداء فقد كمن له الدروز في قرية الكفر واوقعوا به خسائر جسيمة في العتاد والارواح . ومع ذلك فقد تمكنت القوات العثمانية من دخول بلدة شهبا . ومرة اخرى لجأ سامي باشا الى سياسة الخداع فوزع عند دخوله الى السويداء منشوراً جاء فيه ؛ ان كل من سلم من الزعماء نفسه وسلاحه الى مركز القيادة يعفى عنه وانه من تمرد ولم يسلم يجازى بالاعدام واعطى ثلاثة ايام مهلة للتسليم بعد اذاعة منشورة[٥١] . وامام رهبة الحملة التي كان عددها يفوق عدد المقاتلين الدروز بنسبة واحد الى ثلاثة وامام قرار العفو الذي اذاعه قائد الحملة لكل من يسلم نفسه من الزعماء ، سلم قسم من الدروز ورفض القسم الاخر التسليم وكان هذا الفريق بقيادة سليم الاطرش. اما الزعماء الذين سلموا سلاحهم في السويداء فقد غدر بهم سامي باشا والقى القبض عليهم وارسلهم مخفورين الى حيفا ودمشق . وشرع سامي باشا بعد ذلك بتطبيق القوانين والاجراءات العثمانية التي فرضت على جبل الدروز ، فجمع نحو عشرة الاف قطعة من السلاح واخذ نحو الف ومئتين وخمسين شابا من دروز الجبل للخدمة العسكرية . كما اتخذ بعض الاجراءات التي من شأنها ان تساعد في تعزيز الامن في

---

٥٠ - ابو راشد ، الجبل ، ص ١٢٣ .

٥١ - المصدر ذاته ، ص ١٢٤ Mcdowell, *op.cit.*, P.102

حوران ، فحدد مثلا مناطق الرعي التي كانت مدار تنازع بين قبائل البدو وبعض القرى الدرزية في الجبل كما امر برد بعض الغنائم التي اخذها البدو عن طريق الغزو[٥٢] .

غير ان معاملة السلطات العثمانية لزعماء الدروز الذين القي القبض عليهم من قبل قائد الحملة كانت نموذجاً للسياسة العثمانية الظالمة في جبل الدروز اذ واجه معظم هؤلاء الزعماء حكم الاعدام ونفذ بكل من ذوقان الاطرش (والد سلطان باشا الاطرش) وبالاخوين مزيد ويحيى عامر وبأبي طرودي حمد المغوش وبهزاع الحلبي ومحمد القلعاني . كما حكم على زعيم الطرشان انذاك يحيى الاطرش بالاعدام ، ولكن الحكم لم ينفذ بعد ان قبض اولياء الامر مبلغاً كبيراً من المال واستبدل حكم الاعدام بالنفي[٥٣] .

ومن الملاحظ ان بعض الذين نفذ بهم حكم الاعدام لم يكن لهم ضلع في حوادث الجبل ، بل ان سياسة القمع والارهاب التي مارستها السلطة العثمانية في جبل الدروز لم تترك سوى اثار الحقد والكره في نفوس الاهلين . وتكبد الفريقان الكثير من الخسائر المادية والبشرية بسبب سياسة العثمانيين القصيرة النظر او على حد ما كتبه السفير البريطاني في تقريره السنوي في الاستانة يومذاك انه كان باستطاعة الحكومة العثمانية ان توفر الاف الاموال والارواح لو انهااتبعت سياسة الاصلاح التدريجي . « ولكان بالامكان صرف تلك الاموال المهدورة على شق الطرقات والتعليم ومشاريع اخرى من شأنها ان تكتسب عطف السكان وولاءهم » .

ولكن الدولة العثمانية في عهد جمعية الاتحاد والترقي كانت تريد اضفاء طابع القوة على حكومتها الثورية ، فلجأت على حد ما يقوله Mcdowell في بحثه « الى استعمال العنف والقوة حيث كانت تجدي سياسة اللين والمصانعة . . . (إذ كانت تجهل) ان سياسة اللين هي اشد تأثيراً في دروز الجبل من سياسة القوة والعنف »[٥٤] .

---

٥٢ ـ Mcdowell, *op.cit.,p.102*

٥٣ ـ بورون ، المصدر السابق ، ص ١٦٠

٥٤ ـ Mcdowell, *op.cit*, P. 107 ، كذلك كرد علي ، الخطط ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

ولم تشعر السلطات العثمانية باهمية الاخطاء المتكررة التي ارتكبتها في تعاملها مع دروز جبل حوران الا بعد ان اندلعت الحرب العالمية الاولى ودخلت تركيا تلك الحرب . وبدت تلك الحرب الفرصة الذهبية امام دروز الجبل للتخلص نهائياً من الحكم العثماني الجائر . فاذا بالقسم الاكبر منهم ينضم الى صفوف الثورة العربية التي قامت اولا في الحجاز ابان الحرب ثم انتشرت في بلاد الشام . ولكن امنية دروز الجبل للتحرر النهائي من رقبة الحكم العثماني ان تحققت لفترة قصيرة من الزمن خلال الحرب الكبرى ، فقد خيم مكانها ظل الانتداب الفرنسي . واذا بدروز جبل حوران يحملون راية الثورة من جديد تخلصاً من ظلم الانتداب .

الفصل الحادي عشر

ثورة الموحدين الدروز ضد الانتداب الفرنسي ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧

« يا بني وطني : ليس لكم على اختلاف المذاهب والفئات إلا عدو واحد هو الاستعمار » . .

سلطان الاطرش
قائد الثورة

بعد ان خيم ظل الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان اثر موقعة ميسلون (تموز ١٩٢٠) ظن الكثيرون ان راية التحرر العربي قد سقطت الى الابد ، وان تلك الراية لن يجرؤ على رفعها احد بعد الان في وجه الدول الاجنبية الطامعة بالسيطرة على المشرق العربي . غير ان الوقت لم يطل حتى بدأت حركات التمرد والثورة تظهر في مختلف انحاء بلاد الشام وابرز تلك الثورات واطولها عمراً واكثرها تضحيات هي ثورة دروز جبل حوران ضد الفرنسيين عام **١٩٢٥** .

لم تكن ثورة الدروز هذه مجرد حدث عابر في تاريخ بلاد الشام كما حاول ان يصورها بعض المغرضين ولا مجرد ردة فعل عشائرية لثأر شخصي كما وصفها بعض الكتاب الغربيين بل جسدت تلك الثورة الى حد بعيد مدى الوعي القومي العربي عند الدروز كما جسدت تطلعات بقية المواطنين العرب في البلاد السورية نحو الوحدة والتحرر من الاستعمار . واذا بالثورة الدرزية هذه تكون القسم المهم من الثورة السورية الكبرى ، وهي امتداد لليقظة العربية الكبرى المطالبة بالحرية والاستقلال .

اسباب الثورة .

ذكرنا ان دروز جبل حوران كانوا قد اسهموا بدورهم في الثورة العربية ضد الاتراك العثمانيين خلال الحرب العالمية الاولى . وجاء موقفهم هذا نتيجة طبيعية لاصالتهم العربية وكردة فعل لتلك المعاملة السيئة التي كان يلقاها الدروز في الجبل على ايدي الولاة العثمانيين . ولم يكن بوسع هؤلاء الدروز ان يتناسوا تلك المكائد التي كان يدبرها العثمانيون للقضاء على زعمائهم ولا تلك الحملات التي كانت تجردها الدولة العثمانية من حين الى آخر ضد جبل حوران . كان سلطان الاطرش

قائد الثورة السورية التي نحن بصددها قد اشترك في ثورة الشريف حسين واشتبك مع القوات العثمانية في اكثر من موقع خلال الحرب كما ذكرنا .

ولكن امل الدروز في التحرر من رقبة الحكم العثماني سرعان ما تبدد بعدما منحت فرنسا حق الانتداب على سوريا ولبنان . واصبح ذلك الانتداب امراً واقعاً بعد ان هزمت قوات الامير فيصل في ميسلون واحتلت القوات الفرنسية بلاد الشام . ولكن السلطات الفرنسية لم تراع اثناء تطبيقها بنود الانتداب روح المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الامم مما جعل السكان يشعرون بان الانتداب لا يختلف عن الاستعمار بشيء سوى الاسم . ولم تكتف فرنسا بالحؤول دون قيام دولة عربية مستقلة بل عملت ايضا على تقسيم البلاد السورية وخلق دويلات جديدة على أساس اقليمي وطائفي[1] . وبعد انشاء دولة لبنان الكبير قسمت سوريا الى اربع دويلات مستقلة بعضها عن بعض وهي دولة حلب ودولة جبل العلويين ودولة دمشق ودولة جبل الدروز . ثم اعيد النظر في هذا التقسيم سنة **١٩٢٢** فاقيم اتحاد ثلاثي بين دويلات دمشق وحلب وجبل العلويين[2] . ثم عدل المفوض الثاني فيغان هذا القرار وسلخ دولة جبل العلويين عن هذا الاتحاد وجعل حلب ودمشق دولة واحدة سماها الدولة السورية . فيما ابقى جبل الدروز منفصلا عن هذه الدولة وذلك امعاناً في سياسة التجزئة الطائفية لسلخ الاقليات عن ارتباطها القومي . تركت هذه التجزئة اسوأ النتائج في نفوس الوطنيين السوريين كما ألحقت هذ التجزئة اضراراً بالغة باقتصاديات البلاد . ولم تكتف سلطات الانتداب بالتجزئة السياسية ، بل اقامت الحواجز الجمركية وزادت الضرائب كما عملت على تعزيز مركزها التجاري بحيث اصبحت هذ الدويلات خلال سنتين من بدء الانتداب تستورد ضعف ما تصدر تقريباً[3] . وعملت في الوقت نفسه على تحصيل معاش الموظفين من الموارد الضريبية التي فرضتها على السكان . وكان على هؤلاء السكان ان يساهموا بنفقات المفوضية ونفقات الجيش الذي فتح البلاد بقوة الحراب واحتلها . ولم تكن الحالة الزراعية

---

١ - عبد الرحمن الكيالي ، **الجهاد السياسي** (حلب ، المكتبة العصرية ، **١٩٤٦**) ص **٧٧ - ٨٧** .

٢ - قرار رقم **١٤٥٩** تاريخ **٢٨** حزيران **١٩٢٢** .

٣ - راجع مثلا : Office Commercial, *Bulletin Economique* No. 6 (Ju - Juill 1924), P. 5

والصناعية بوضع افضل بعد الحرب اذ كثر عدد العاطلين عن العمل في القطاع الصناعي كما كان الجفاف يهدد احياناً موسم الزرع في منطقة حوران . وفوق هذا كله عملت السلطات الفرنسية على تحصيل الدين العثماني من هذه المقاطعات التي كانت تحت سيطرة الدولة العثمانية قبل الحرب ففرضت عليها حوالي احد عشر مليون ليرة عثمانية . وتسهيلاً لجمع العملة الذهبية من البلاد السورية اصدرت نقداً من الورق عن طريق مصرف سوريا ولبنان . ولكن الناس بقوا لفترة من الزمن حذرين من التعامل بهذا النقد الورقي خوفاً من ان تهبط قيمته على غرار العملة التركية خلال الحرب[٤] . ولم تكن سياسة الانتداب الادارية افضل من سياسته الاقتصادية تجاه البلاد السورية . وبدلا من ان نترك فرنسا للسلطات المحلية تسيير امورها الداخلية فان المفوضين السامين كانوا يهيمنون على المجالس والحكومات المحلية مباشرة وكأنهم حكام مستعمرات . واذا بالمندوب السامي يمسك في قبضته ، بالاضافة الى السلطات العسكرية ، السلطتين التشريعية والتنفيذية معاً . وبدلا من ان تبعث الحكومة الفرنسية بخبراء وموظفين أكفاء لتدريب الموظفين المحليين على ادارة شؤونهم كما ورد في مشروع الانتداب ، فقد بعثت عدداً من الموظفين المشبعين بالروح الاستعمارية والمشهورين بعدم الكفاءة فأساؤا الى سكان البلاد الواقعة تحت الانتداب ، ونقم الناس على هؤلاء الموظفين وطالبوا بتغيرهم دون جدوى . ولكن تذمر السكان بشكل خاص كان من دائرة الاستخبارات التي فرضت عليهم جواً من الارهاب واخذت توزع عليهم التهم يميناً وشمالاً . وعملت على كمّ الافواه الحرة بمختلف الوسائل وخنق كل صوت معارض للانتداب اما عن طريق الرشوة واما عن طريق التهديد والوعيد[٥] . كما اتبعت سياسة تغريم السكان لجمع الذهب ففرضت مثلاً نحو مئة الف ليرة ذهبية على حوران وحدها فيما فرضت عقوبات عسكرية بشكل انتقامي احياناً على السكان وذلك لمجرد مرور احد الاشقياء مثلا في احدى القرى . وكان من الطبيعي ان تؤدي سياسة الظلم هذه الى استياء الناس من الانتداب

---

٤ - راجع بشأن مشكلة النقد الورقي والديون العثمانية : حنا خباز ، **فرنسا وسوريا** (مصر مطبعة علم الدين ١٩٢٨) ج ١ ، ص ١١٥ - ١٢٣

٥ - Quincy wright, "Syrian Grievances agaist French Rule" *Current History* (Feb. 1926) P. 288 - 289

ابو راشد ، **جبل حوران** ص ١٧٤ - ١٧٧ ، **والمقطم** عدد ١١٠٧٣ (٥ آب ١٩٢٥) ص ٢

الفرنسي في جميع انحاء البلاد السورية ورأى الوطنيون منهم انه لا خلاص من هذه الحالة الا عن طريق الثورة[٦] .

سياسة الانتداب في جبل حوران :

لـم يكن الدروز في جبل حوران أقل استياء من بقية الوطنيين السوريين تجاه سياسة الانتداب هذه . وكان دروز الجبل قد عارضوا الانتداب الفرنسي منذ البداية وطالبوا بالاستقلال التام لسوريا بكاملها او الوصاية الاميركية او الانكليزية كما ورد في تقرير لجنة كنج ـ كراين الاميركية[٧] . ولكن فرنسا استطاعت بعد موقعة ميسلون وفرض سيطرتها العسكرية على سوريا ، ان تكسب تأييد بعض زعماء الدروز في الجبل لاسباب عديدة وبطرق شتى ، منها تردد الحكومة البريطانية في مناصرة حكومة الامير فيصل ، ومنها استغلال المنافسات العشائرية بين زعماء الدروز واثارة العداء التقليدي بين الدمشقيين والحوارنة . وفضلاً عن ذلك فقد استطاعت سلطات الانتداب أن تغري بعض زعماء الدروز بالدعاية والمال والمناصب كما اغرت بعض الزعماء الروحيين منهم عندما تقدمت بمشروعها لانشاء حكومة درزية تحت اشراف فرنسا ومساعدتها[٨] . الا ان قسماً كبيرا من دروز حوران بقي معارضاً للسياسة الفرنسية هذه ولكن معارضته اصبحت مشلولة بحكم الضعف العربي العام . وكان لتردي أوضاع الحركة القومية العربية أثره في تشجيع قسم من الدروز على القبول بالانتداب الفرنسي فأخذوا يتعاملون معه على اساس الامر الواقع . وعقد هؤلاء عدة اجتماعات في اواخر عام **١٩٢١** لدرس المشروع الفرنسي لاقامة حكومة درزية مستقلة ومنها مؤتمر عقد في السويداء عاصمة الجبل توصلوا خلاله لوضع مذكرة بمطالبهم رفعوها لسلطات الانتداب الفرنسي . وطالبوا من خلال هذه المذكرة بان تكون حكومة جبل الدروز شورية ومستقلة في الامور الداخلية بحيث ان تقبل الانتداب الفرنسي يجب الا يمس استقلالها وان يرأس هذه الحكومة حاكم محلي ينتخبه الاهالي مرة كل ثلاث سنوات . ومما جاء في تلك المذكرة انه لا يحق للحكومة ان

---

٦ ـ الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، **الثورة السورية الوطنية** (**مذكرات**) (دمشق ، دار الجزيرة ، **١٩٣٣**) ص ١٢ ـ ١٣ .

٧ ـ Howard, *The king-Crane*, *p.20*

٨ ـ سلامة عبيد ، **المرجع السابق** ، ص ٨٧

تتدخل في شؤون الجبل الدينية ولا فرض التجنيد على اهالي جبل حوران ولا نزع اسلحتهم[٩] . ولكن السلطات الفرنسية عدلت بنود هذه المذكرة بشكل يسمح لها بالتدخل لحفظ مصالحها بعد ان اعدت اتفاقية جديدة قيدت بموجبها اعمال الحكومة المقترح تأليفها . ولكي لا تثير ضجة حول هذه التعديلات استدعت بعض زعماء الجبل الموالين لها الى دمشق ووقعت معهم الاتفاقية الجديدة في ٤ آذار **١٩٢١** وعرفت باتفاقية (أبو فخر - دي كيه)[١٠] . ولكن زعماء الدروز الذين وقعوا هذه الاتفاقية كانوا يمثلون الاقلية الموالية لفرنسا في جبل حوران ، والدليل على ذلك ان عدد الموقعين كان ستة عشر شخصاً يمثلون تسع عائلات فقط فيما لم يكن هنالك اي ممثل لعائلات كبرى في الجبل كآل عامر والحلبي ونصار والقسم الاكبر من زعماء آل الاطرش . وكذلك لم يكن بين موقعي الاتفاقية من يمثل السويداء عاصمة الجبل فكانت غير ممثلة بالاضافة الى مئة قرية اخرى بما فيها بلدة شهبا[١١] . بيد ان سلطات الانتداب الفرنسي استطاعت عن طريق الدعاية ان تخنق صوت المعارضين لهذه الاتفاقية .

الحكومة الدرزية في حوران :

وعلى اثر توقيع هذه الاتفاقية طلبت المفوضية الفرنسية من دروز الجبل البدء بتشكيل حكومتهم المقترحة برئاسة الامير سليم الاطرش . وتسهيلا لمهمة الامير سليم هذه ارسلوا له فرقة عسكرية فرنسية وقدموا له ضابطاً فرنسيا ليكون مستشاره الخاص . ولم تكن مهمة حكومة الامير سليم هذه سهلة بأية حال فقد لقيت عددا من العقبات والصعاب خلال فترة حكمها كما لقيت استهتاراً ومعارضة من عامة الناس في الجبل . والتف هؤلاء المعارضون والناقمون حول سلطان باشا الاطرش الذي بقي حتى ذلك الحين يراقب التطورات بصمت رغم معارضته المبدئية للانتداب الفرنسي[١٢] . ولكن حادثة ادهم خنجر الشهيرة كانت السبب المباشر الذي

---

٩ - راجع نص هذه المذكرة في كتاب محي الدين السفرجلاني، **تاريخ الثورة السورية . صفحات خالدة من روائع الكفاح العربي في سبيل الحرية والاستقلال والوحدة** .
(دمشق ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦١) ص . ٥٥ - ٥٨
١٠ - **المرجع نفسه** ، ص ٥٥ - ٥٨
١١ - هلال عز الدين الحلبي ، **مذكرات . ١٩٢٥ - ١٩٢٧** (مخطوط) ص ٢ - ٣
١٢ - ابو راشد ، **جبل** . ص . ١٤١ .

جعله يخرج عن صمته هذا ليقوم بانتفاضته الاولى ضد الفرنسيين فمهدت تلك الحادثة لثورته الكبرى عام ١٩٢٥ .

ادهم خنجر وثورة سلطان ١٩٢٢ :

كان ادهم خنجر اللبناني من جبل عامل احد الذين حاولوا اغتيال الجنرال غورو في الثاني والعشرين من تموز عام ١٩٢١ م . وقد اصدرت السلطات الفرنسية حكماً بالاعدام على ادهم ورفاقه . واضطر ادهم لان يلجأ الى شرقي الاردن حيث اصبح رئيساً لمجموعة من المقاتلين عملت عبر الحدود على اقلاق راحة الفرنسيين . وفيما كان هؤلاء في طريقهم للقيام باحدى عمليات النسف في دمشق ، عرفت بهم سلطات الانتداب وضيقت عليهم الحصار مما جعل بعضهم وعلى رأسهم ادهم خنجر يلجأ الى جبل الدروز . وعرج ادهم خنجر على بلدة القرية قاصداً بيت زعيمها المعارض للانتداب ، سلطان باشا الاطرش مستجيرا به . فعرفه احد الجنود والقي القبض عليه دون معرفة صاحب البيت الذي كان يومذاك غائباً عن داره فعد ذلك خرقاً لتقاليد الضيافة في جبل الدروز التي تقضي بحماية المستجير مدة من الزمن مهما كان وضعه . وأرسل ادهم مخفوراً الى السويداء وبلغ الخبر سلطان الاطرش فطلب من المسؤولين الفرنسيين اطلاق صراح ادهم فرفضوا[١٣] . وحاول سلطان بدوره مقابلة مستشار حكومة الجبل الكابتان كاربية من اجل تسليمه ضيفه فاصر الاخير على موقفه . ولم يكن بوسع سلطان الاطرش القبول بهذا التحدي لتقاليد الضيافة في الجبل وخرق حرمة منزله فأبرق للمفوض السامي الفرنسي يذكره بأن السلطات الفرنسية لم تراع بحسب ما ورد في احدى بنود اتفاقية ١٤ آذار تقاليد جبل الدروز وعاداته بالمحافظة على الضيف طالبا منه التدخل لأطلاق سراح ضيفه . وختم سلطان برقيته هذه بالقول : « ان موتي واهانة ضيفي سيان في عوائد السوريين الرجل يطلب مني ان اتوسط له عفواً من فخامتكم حلمكم انقاذاً لشرفي ووطني »[١٤] .

ولكن سلطان لم يلق اية استجابة من السلطات الفرنسية لطلبه هذا فقرر

---

١٣ - منير الريس ، **الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي ، الثورة السورية** (بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٦٩) ص . ١٤٢ - ١٤٤ كذلك الحلبي ، **مذكرات** ، ص . ٥ - ٦

١٤ - نص البرقية ، السفرجلاني ، **المرجع السابق** ، ص . ١١٠

عندئذ ان يقطع الطريق على اية محاولة لنقل ضيفه السجين الى دمشق . واقام سلطان مع عشرة من رجاله كمينا في قرية الثعلة غرب السويداء لهذه الغاية . وعندما ارسلت السلطات الفرنسية سيارتين مصفحتين لنقل السجين هاجم سلطان ورفاقه احدى المدرعتين وانقضوا عليها وهي تطلق عليهم نار رشاشاتها دون ان يتراجعوا وتمكنوا من تحطيمها بعد تعطيلها . اما المصفحة الثانية فقد تمكنت من الهرب وهي تطلق النار . وبلغ السلطات الفرنسية خبر هذا الحادث فأرسلت طائرة الى السويداء نقلت السجين جوا الى دمشق ومنها الى بيروت . وعندما عرف سلطان بالامر قال : « لا حيلة لنا بالسماء ، اما في الارض فاننا مستعدون لبذل ارواحنا في سبيل كرامتنا »[١٥] . ولكن هذه الحادثة هزت السلطات الفرنسية ، فأمر الجنرال غورو بتجريد حملة تأديبية على سلطان ورجاله . وضربت الطائرات الفرنسية قرية سلطان وهدمت بيته واخذت تضرب كل قرية مر بها مما ادى الى قتل عدد من الابرياء والعزل . وصادرت السلطة الغلال والمواشي واحرقت البيادر ووزع اعوانها مناشير ضد سلطان ورجاله تنعتهم بالاشقياء والعصاة[١٦] . واضطر سلطان ان يلجأ الى شرقي الاردن ليعيش في منطقة البدووأخذمن وقت الى آخر يشتبك مع القوات الفرنسية في القرى الجنوبية غير ن انتفاضة سلطان هذه لم تكن برأي الناس الا ثأراً لشرف عائلته وعشيرته . واشمأز هؤلاء من اعمال فرنسا الانتقامية في جبل حوران والتي لم يشهدوا مثيلها حتى زمن الحكم العثماني . ووقف الزعماء الدمشقيون المناهضون للانتداب الفرنسي موقف المؤيد لسلطان ، ولكن تأييد هؤلاء اقتصر على التأييد المعنوي . ولما عرض شكيب وهاب احد رجال سلطان على رضا الركابي رئيس وزراء الاردن دعم الثورة لدخول سوريا ، لم يبد الركابي حماساً كافياً للامر . وهكذا بقي سلطان ورجاله في شرقي الاردن حوالي عشرة اشهر يمنون النفس بمساعدة الوطنيين العرب لهم . غير ان السلطات الفرنسية التي خشيت بالفعل امتداد الثورة ودعمها عن طريق شرقي الاردن جعلها تصدر امراً بالعفو عن سلطان ورجاله فرجعوا الى السويداء خلال عيد استقلال الجبل (٥ نيسان ١٩٢٣) فلقي استقبالا حافلا من الدروز هناك[١٧] .

---

١٥ - الحلبي ، مذكرات ،ص ٧ - الريس ، المصدر السابق ،ص . ١٤٢

١٦ - سلامة عبيد ، المرجع السابق ،ص . ٢٧٩ السفرجلاني ، المرجع السابق ،ص . ١١١

١٧ - علي عبيد ، مذكرات ،ص . ٣-٤ ، والحلبي ، مذكرات ،ص . ١٠-١٢

وهكذا وقعت أول انتفاضة درزية ضد الانتداب الفرنسي ١٩٢٢ ولكنها شكلت حلقة من سلسلة تلك الانتفاضات الوطنية التي شهدتها سوريا ضد الفرنسيين مند سقوط حكومة فيصل العربية . وليست ثورة الشيخ صالح العلي وثورة ابراهيم هنانو وحركة العصيان المسلح في دير الزور الا بعض تلك الحلقات من السلسلة نفسها ولكنها جاءت تعبر عن رفض السوريين للانتداب وسياسته ، ومهدت بالتالي لثورة الدروز سنة ١٩٢٥ م .

الاسباب المباشرة للثورة :

كانت الاسباب العامة التي ذكرناها قد هيأت جميع السوريين الوطنيين للثورة ضد الانتداب الفرنسي ، غير ان سياسة الانتداب في جبل الدروز والتي تمثلت بمظالم المستشار الفرنسي كاربيه دفعت دروز الجبل الى حافة الانفجار الثوري . وكانت حكومة الامير سليم الاطرش التي تألفت في ظل الانتداب قد واجهت صعوبات جمة في جبل الدروز خلال هذ الفترة . اما سلطان الاطرش فقد ظل حاقداً على تلك الحكومة التي تعاونت مع الفرنسيين وبقي رغم العفو عنه بعيداً عن قريته. ومات الامير سليم في اواسط ايلول ١٩٢٣ ، فكثر المرشحون لخلافته ، ولكن المستشار الفرنسي كاربيه استغل هذه المشكلة لكي يحكم جبل الدروز مباشرة وبالوكالة الى ان يتم الاتفاق على اختيار الحاكم الوطني . وأول عمل قام به كاربيه هو تسليم قيادة الامن الداخلي الى الضابط الفرنسي موريل منتزعاً هذا المنصب من السلطة المحلية . ويبدو ان كاربيه كان يعمل للسيطرة كليا على الجبل وليصبح حاكماً اصيلاً بالاتفاق مع المندوب السامي (١٨) . وكان من الطبيعي الآّ تسكت معارضة الطرشان عن سياسة كاربية هذه ولكن المستشار الفرنسي اغتنم الفرصة ليحل المجلس النيابي ويدعو لانتخابات جديدة وانتخب المجلس الجديد بالشكل الذي خطط له كاربيه وكأنما عين اعضاءه تعينا . وفي اوائل تشرين الاول سنة ١٩٢٤ اجتمع المجلس الجديد وانتخب كاربيه حاكماً أصيلاً على الجبل بالاجماع فأصبح بهذا قائداً للجيش الفرنسي في دولة جبل الدروز ومستشاراً يمسك في قبضة يده جميع

---

١٨ - سلامة عبيد ، المرجع السابق ،ص . ١٠٦

السلطات[١٩] . ولكن تعيين كاربيه هذا او انتخابه بهذه الطريقة حاكماً على جبل الدروز كان مناقضاً لاتفاقية الرابع من آذار ١٩٢١ المعروفة باتفاقية ابو فخر - دي كيه ؛ اذ قضت تلك الاتفاقية بانتخاب حاكم وطني وليس فرنسياً لهذا المنصب . غير ان سلطات الانتداب الفرنسي ضربت الاتفاقية عرض الحائط واستبد كاربيه في سياسته الرامية الى تطويع دروز الجبل واخضاعهم بالقوة . وعلى الرغم من الحماسة التي ابداها للقيام ببعض الاعمال الانشائية في حوران اذ اسس بعض المدارس وشق بعض الطرق وجر مياة القينة الى السويداء، فانه كان يعمل بمنطق عسكري لا يتفق مع تقاليد الجبل . وساءه مثلا ان يرى جبل حوران ملجأ لكل طريد او معارض للانتداب وسعى للقبض على المطلوبين وجلهم من دروز لبنان حتى انه لم يتورع مرة عن قتل احدهم وهو في دار المضافة المستجير بها[٢٠] . وحاول تغيير بعض عادات الناس في جبل الدروز ولو اضطره هذا الى استعمال القوة فمنع الاحتفال المعروف بالاسبوع - وهو المأتم الذي يقام بعد مرور اسبوع على الوفاة - كما منع فتح المضافات وتدخل بشؤون الاحوال الشخصية الدرزية فأمر بتخفيض المهر وباعطاء الثلث من املاك الموصي لولده . اما الطرقات التي شقها في الجبل فلم تكن من اموال المفوضية الفرنسية بل عن طريق السخرة واجبار الناس عل العمل في هذه الطرقات ولو ادى ذلك الى تعطيل اعمالهم في موسم الزرع . ولم تكن الغاية من شق هذه الطرقات تسهيل المواصلات بين قرى الجبل بقدر ما كانت ترمي الى تسهيل الاعمال العسكرية . وكثيراً ما كان يجبر كبار الزعماء واصحاب العمائم بتكسير الحجارة على الطرقات ومن بين هؤلاء مثلا الشيخ صالح طربيه الفقيه الزاهد الورع[٢١] . اما المدارس التي اسسها من اجل محو الأمية في الجبل فقد استغلها كربيه لمصالح السلطة الحاكمة وحولها الى مراكز للتجسس على المواطنين واصبح الناس

---

١٩ - انظر : **المقطم** ،عدد ١١٠٧١ (٢ آب ١٩٢٥) ص . ٢ وقارن رأي المصادر الفرنسية بكربيه :.Capitaine N. Bouron, *Les Druzes,Histoire du Liban et de la Montagne Houranaise* (Paris, Editions Berger - Levrault, 1930) PP. 231 - 234 .

٢٠ - سلامة عبيد ، المرجع السابق ،ص . ١٠٧-١٠٨

٢١ - امين سعيد ، **الثورة العربية الكبرى ،تاريخ مفصّل جامع للقضية العربية في ربع قرن** (القاهرة لا . ت) ج ٣ ، ص ٣٠٠-٣٠٢ . راجع ايضا : **المقطم** عدد ١١٠٨٦ ، (٢٠ آب ١٩٢٥) نقلا عن الايكودو باري ص . ٢

يدعونها « مملكة المعلمين »[٢٢] . ولكن هؤلاء الجواسيس انتشروا في كل قرية تقريباً يراقبون الاهالي ويقدمون التقارير ، فاذا بالوشايات والتهم توزع يميناً وشمالاً فعم الحذر والخوف والتذمر بين الناس . وعمل كاربية على مضايقة آل الاطرش وآل الحلبي لانهم كانوامن معارضيه . فأغلق دور زعماء الطرشان في السويداء ومنع الاهالي من دخولها وبالغ في مضايقتهم حتى انه منع بحسب ما ورد في بعض المصادر تشييع جنازة الطرشان في السويداء وكثيرا ما كان يلقي القبض على من يلقي التحية والسلام على احد من هؤلاء الطرشان[٢٣] . أما آل الحلبي فقد جرد عليهم حملة ارهابية في صيف **١٩٢٤** وذلك لان احد زعمائهم سعيد عز الدين الحلبي قد طالب في مقال نشرته له احدى الصحف بالوحدة السورية . وارغم اهالي قرية الثعلة على الخروج من قريتهم مسافة كيلو مترين لاستقبال تلك الحملة . ومن القصص التي تروى عن تعسف الحاكم الفرنسي في جبل الدروز ان الضابط الفرنسي موريل فقد مرة هرته في السويداء فطلب من زعماء البلدة ان يعيدوا له هرته سليمة معافاة والا امر بسجنهم فداء عن الهرة . ورافق هذه الاعمال التعسفية حملة اعدها كاربيه لخنق الحريات ، فقيدت حرية الصحافة وحرية التجول والدخول او الخروج الى الجبل ومنعت الاجتماعات الكبيرة الا باذن من الحاكم . ودخل كثير من الزعماء السجن دون محاكمة وبعضهم تعرض للضرب والتعذيب المادي والمعنوي ، وكان بعضهم لا يخرج من السجن الا لتكسير الحجارة في الطرقات العامة .

تعنت المفوض السامي :

ولدت هذه المظالم حقداً مكبوتاً تجاه الفرنسيين في نفوس دروز الجبل وادت بالتالي الى تقوية جناح المعارضة ، حتى ان اصدقاء فرنسا السابقين في الجبل انقلبوا عليها بسبب تلك السياسة الرعناء . وكثر التذمر من رجال الانتداب ومن انتشار الرشوة والفساد والجاسوسية ، ولكن كاربية لم يتراجع عن خطته بل تشدد في خنق كل تذمر او شكوى في مهدها وقابلها بالتحدي . ويظهر ان المفوض الفرنسي الجنرال

---

٢٢ - ابو راشد ، **جبل** ،ص . ١٦٧ - ١٦٨

٢٣ - الحلبي ، **مذكرات** ص . ١٤ - ١٥ ، كذلك سعيد ، **المرجع السابق** ،ج ٣ ص ٢ . ٣

٢٤ - عبيد ، **مذكرات** ،ص . ٥ - ٧ والشهبندر ، **مذكرات** ،ص . ١٠ ، راجع ايضا ما ورد في **المقطم** نقلا عن الايكودوباري والاوفر ، **المقطم** عدد ١١٠٨٦ (٢٠ آب ، ١٩٢٥)

سراي كان يدعم موقف مندوبه هذا مما زاد الحالة تفاقماً[٢٥] . غير ان زعماء الجبل لم يتركوا فرصة للمطالبة بتعيين حاكم وطني الا واغتنموها . وكان وفد من هؤلاء قد خف الى دمشق في الخامس من نيسان **١٩٢٥** لمقابلة المندوب السامي الجنرال سراي ومطالبته بوجوب تطبيق بنود اتفاق ٤ آذار **١٩٢١** المعقود بين زعماء جبل الدروز وسلطان الانتداب الفرنسي . ولكن المفوض السامي ، لم يحسن معاملة الوفد بل اعلن من خلال غطرسته الاستعمارية عن عدم تقيده بذلك الاتفاق وانذر الوفد بالخروج من دمشق خلال ساعتين وخرج الوفد غاضباً لسوء المعاملة فما التفت السلطات الفرنسية القبض على احد اعضاء الوفد وهو عقلة القطامي احد زعماء المسيحيين في جبل الدروز وارسل مخفوراً الى تدمر[٢٦] . وحدث بعد مرور نحو شهر على تلك الحادثة ان غادر كاربية الحاكم الفرنسي جبل الدروز لقضاء اجازته في فرنسا وعين الضابط الفرنسي رينو حاكماً على الجبل بالوكالة فاتبع الحاكم الجديد سياسة مغايرة لسلفه واظهر من اللين وحسن التصرف مما أجل عملية انفجار الوضع في الجبل . ويبدو ان رينو هذا كان يطمح بدوره ليكون حاكماً اصيلاً بدل كاربيه ، فشجع سكان الجبل على ارسال عرائض للمفوضية من اجل ابعاد كاربيه وابداله بحاكم فرنسي آخر في الجبل ومنها ما طالب بتعيين رينو نفسه في هذا المنصب[٢٧] . ومما فعله رينو انه اوعز بتشكيل وفد يمثل جميع عائلات جبل الدروز ، بلغ عدد اعضائه اكثر من ثلاثين عضواً لمقابلة المفوض السامي الفرنسي في بيروت ومطالبته بابعاد كاربيه . ووصل اعضاء الوفد الى دمشق اولا لمقابلة مندوب المفوض السامي فرفض هذا مقابلتهم ، ثم تابعوا طريقهم الى بيروت من اجل مقابلة المفوض السامي نفسه . ولكن الاخير ابلغ مندوبي الوفد صياح الاطرش وفواز عز الدين الحلبي اللذين حاولا اخذ موعد للمقابلة بأنه لا يقبل الشكوى بغياب كاربيه وانه على اعضاء الوفد مغادرة بيروت حالا مهدداً بنفيهم الى تدمر . وعبثا حاول الامير فؤاد ارسلان اقناع المفوض السامي بوجوب استقبال الوفد الدرزي ولو من قبل اللياقة .

---

٢٥ - الحلبي ، **مذكرات** ،ص . **٢١ - ٢٢** كذلك ابو راشد ، **جبل** ، ص . **٢١٩ - ٢٢٧**

٢٦ - السفرجلاني ، **المرجع السابق** ،ص . **١٢٣ - ١٢٥**

٢٧ - الحلبي ، **مذكرات** ،ص . **٢٦** ، انظر نص عريضة اهالي بلدة القريا لمندوب المفوض السامي في كتاب سلامة عبيد ، **المرجع السابق** ، ص . **٣٠٠** ، كذلك

Bouron, *op.cit.*, P. 235

واعتبر اعضاء الوفد الدرزي ان تلك المعاملة كانت اهانة معنوية لهم ورجعوا الى حوران وهم يـ ـون الغيظ والحقد على الانتداب ورجاله . الا ان موقف سلطات الانتداب هذا دفع بعض المترددين من زعماء الدروز للوقوف الى جانب المعارضة وقرروا جميعاً التخلص من هذا الحكم المستبد الجائر . اما سلطان الاطرش فقد سبقهم الى اتخاذ مثل هذا الموقف ، واخذ سيل من العرائض وبرقيات الاحتجاج ينهال على المفوضية الفرنسية . وعقد المعارضون اجتماعين شعبيين في قريتي سميع والدويرة . وروى الصحافي حنا ابي راشد الذي كان حاضرا احد هذين الاجتماعين انه القي فيهما الخطب الحماسية مطالبة باقالة كاربية من منصبه وذلك بتشجيع من سلطان والضابط رينو الحاكم الوكيل . ولكن السلطات لم تستجب لذلك المطلب الجماعي فاضطر الاهالي عند ذلك للجوء الى السلبية[٢٨] . واغتنموا يوم الاضحى في الثاني من تموز سنة **١٩٢٥** للاتصال بزعماء السويداء واتفقوا على القيام بمظاهرة سلمية تشبه مظاهرة الطلاب في دمشق . ومشى اهالي بلدة السويداء بتلك المظاهرة السلمية فعلا وهم يهتفون « بسقوط كاربيه الغاشم وحياة رينو العادل » . وطلبوا من ممثلي المجلس النيابي التوقيع على عريضة لاقالة كاربيه من منصبه فوقعها اكثرية النواب . غير ان احد اصدقاء كاربيه من هؤلاء النواب رفض التوقيع على تلك العريضة مما ادى الى جدل بينه وبين بعض المتظاهرين فأهانوه وكادوا يقضون عليه . وعرف الضابط موريل صديق كاربيه بما حدث فخف الى المكان من غير استشارة رئيسه رينو وشرع مع جنوده بتفريق المتظاهرين بعنف وقسوة واجهز على ظهورهم بالسياط واسمعهم قارس الكلام . ولكن المتظاهرين تصدوا للضابط الفرنسي وضربه احدهم على انفه فيما اطلق عليه عيارين دون ان يصاب باذى[٢٩] . غير ان رينو تحرك بسرعة لانقاذ الموقف فطلب من اهالي السويداء تأدية مبلغ مئتي ليرة ذهبية كغرامة لاهانة الضابط الفرنسي ، كما طلب تقديم عدد من الرهائن من ابناء وجوه البلدة كضمانة لعدم تكرار الحادث السابق . ولبّى اهالي السويداء المطلبين الاولين ولكنهم رفضوا قبول طلب رينو الثالث القاضي بهدم منزل الشاب الذي اطلق النار ويدعى حسين مرشد وهاجوا وماجوا لمنع ذلك .

---

٢٨ ـ الحلبي ، مذكرات ،ص . ٢٩ ـ ٣٠

٢٩ ـ علي عبيد ، مذكرات ،ص . ٨ والشهبندر ، مذكرات ،ص . ١٨

Bouron, *op.cit.*, P. 237 - 238

غير ان السلطات الفرنسية سارعت لاقالة الضابط رينو وعينت مكانه القومندان توما مارتان فعمل الاخير على تهدئة الخواطر على طريقته الخاصة ولكنه كان في الوقت نفسه يخطط لالقاء القبض على زعماء المعارضة وإرسالهم الى المنفى . ولم تمض عدة ايام على هذه الحادثة حتى بدأت الاستعدادات لاقامة الاحتفال الفرنسي بعيد الحرية الرابع عشر من تموز . وتروي المصادر ان اهالي السويداء وعلى رأسهم سلطان الاطرش كانوا يستعدون لمعايدة القومندان مارتان في هذه المناسبة خاصة وان سلطان كان قد دعي من قبل القومندان للاشتراك في عيد فرنسا القومي هذا وبالتالي للبحث بشأن المشاكل العالقة. ولكن الشكوك بقيت تخامر نفس سلطان من ان يكون في الامر مكيدة ما للقبض عليه فتريث عن الذهاب الى السويداء . وارسل قبل ذهابه احد اعوانه ليستطلع له الوضع هناك . وصدق ظن سلطان عندما تبين له ان السلطات الفرنسية قد خططت للتخلص من زعماء الدروز المعارضين لها في ذلك اليوم . والقت القبض بالفعل على عدد منهم في السويداء وارسلتهم مخفورين الى دمشق . وفي الوقت نفسه القى الفرنسيون القبض على عدد آخر من زعماء الدروز بحيلة مشابهة في دمشق . ومن بين هؤلاء عبد الغفار ونسيب وحمد ويوسف الاطرش وبرجس بك الحمود وعلى عبيد وحسني صخر ونفي بعضهم الى تدمر[٣٠] .

نجا سلطان من المكيدة الفرنسية الا ان هذه الحادثة كانت النقطة التي طفح بها الكيل ودفعت دروز جبل حوران لاعلان الثورة ضد الانتداب الفرنسي .

اندلاع الثورة ومراحلها :

كان سلطان الاطرش اول من اعلن الثورة ضد الانتداب الفرنسي اثر تلك الحادثة . وسار سلطان برجاله من قرية رساس متجها نحو قرى جنوب جبل الدروز حيث انضم اليه عدد من الثوار الى ان وصل الى صلخد ومعه حوالي مئتين وخمسين فارسا هاجموا سرايا الحكومة ومقر البعثة الفرنسية واحرقوها . ولكن السلطات الفرنسية لم تتأخر عن ارسال قواتها من اجل القضاء على الثورة في مهدها وكلفت احد ضباطها القومندان نورمان للقيام بهذه المهمة .

---

٣٠ ـ الحلبي مذكرات ،ص . ٣٢ كذلك Bouron, *op.cit.*, P. 239

موقعة الكفر (٢١ تموز ١٩٢٥)

خرج نورمان على رأس حملة عسكرية متوجها الى صلخد . وفي منتصف الطريق بين صلخد والسويداء وبالقرب من بلدة الكفر كانت المجابهة الاولى بين الثوار الدروز والحملة الفرنسية . وكان قائد الثورة سلطان الاطرش قد بعث الى قائد الحملة قبل المجابهة برسالة يستنكر فيها عملية الغدر التي قامت بها السلطات الفرنسية عندما اعتقلت عددا من الزعماء في الجبل طالبا منه افساح المجال للتفاوض . ولكن الضابط الفرنسي لم يبد اي استعداد للتفاوض وابلغ سلطان انه مكلف باخماد فتنته ناعتا اياه بقطّاع الطرق[٣١] . ولم يبق امام الثورة اي خيار سوى المجابهة العسكرية مع قوات نورمان التي تمركزت في مكان حصين فوق احدى هضاب القرية بأسلحتها الحديثة . وحاول سلطان وضع خطة للهجوم على القوات الفرنسية ولكن حماسة الثوار لم تدع مجالا لدراسة اية خطة عسكرية فشنوا هجوما على الفرنسيين في وضح النهار وانقضوا على جنود الحملة . وكان هجومهم هذا صاعقا وبالسلاح الابيض بحيث لم يسمحوا للجنود الفرنسيين باستعمال رشاشاتهم الحديثة وتحولت بنادقهم الى عصي خشبية . ولم تدم المعركة اكثر من نصف ساعة حتى ابيدت الحملة الفرنسية وقتل قائدها ولم ينج من جنودها الا القلائل[٣٢] . وغنم الثوار جميع اسلحة الجنود الفرنسيين وذخيرتها ووقع في صفوف الثوار عدد من الجرحى والقتلى . وكان بين الذين استشهدوا مصطفى الاطرش شقيق سلطان . غير ان هذه المعركة قوت معنويات الثوار واعادت الى الذاكرة صور تلك المعارك الرائعة التي خاضها دروز الجبل ضد قوات ابراهيم باشا المصري وضد غيره من الولاة في العهد العثماني . وكانت النتيجة الاولى للمعركة انها نبهت سائر الوطنيين في بلاد الشام الى ان جبل الدروز وان استكان للاستعمار الفرنسي مؤقتا فان روح الثورة لا تزال تغلي في نفوس ابنائه ضد الانتداب الفرنسي واعوانه .

معركة المزرعة وحملة الجنرال ميشو (٢ ـ ٣ آب ١٩٢٥)

لم تتلل سلطات الانتداب الفرنسي من شأن الانتصار على قواتها ، وقررت

---

٣١ ـ سلامة عبيد ، المرجع السابق ، ص . ١٢٦

٣٢ ـ المكتب الطبوغرافي لجيوش الشرق ، الكتاب الذهبي لجيوش الشرق الاوسط ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ ، ترجمة ادوار البستاني (بيروت ، ١٩٣٩) ص . ١٣٨ ـ ١٤١

التصدي للثورة الدرزية في مهدها . واذ طلب الجنود المحاصرون في السويداء النجدة من القيادة الفرنسية استجابت الاخيرة لطلبهم وجهزت حملة عسكرية جديدة فاق عددها وعتادها قوة الثوار اضعافا مضاعفة وشمل عتاد الحملة هذه المرة ستة مدافع كبيرة وثلاث بطاريات من المدافع الصغيرة وعشر مصفحات يساندها سرب من الطائرات المقاتلة . واسندت قيادة هذه القوات للجنرال ميشو فسار على رأسها نحو السويداء بغية انقاذ الجنود الفرنسيين المحاصرين في قلعتها[٣٣] .

سلكت الحملة الفرنسية طريق ازرع ـ بصر الحرير وهي طريق تمر في ارض منبسطة ومكشوفة للمنطقة الوعرة المقابلة التي تحصن فيها الثوار . وكان قادة الثورة قد اجتمعوا حول نبع قراصة وقرروا مجابهة الحملة الفرنسية رغم ضخامتها وحصنّوا مواقعهم في قرية الدور ونبع قراصة . وما ان وصلت طلائع الجيش الفرنسي الى موقع تل الخروف حتى انقض عليها فرسان الثورة . الا ان الجنرال ميشو كان قد وضع خطة لاستدراج هؤلاء الخيالة الى كمين نصبه للثوار . فأوعز الى فرسانه المغاربة بمناوشة فرسان الدروز والتظاهر امامهم بالهزيمة . فخدع فرسان الدروز بالهزيمة وطاردوا المغاربة الى داخل المنطقة التي تحصن فيها الجنود الفرنسيون دون ان يحسبوا ان في الامر شركا للايقاع بهم . واذا بنيران الجنود الفرنسيين المتربصين بهم تحصد هؤلاء الفرسان فلم ينج منهم الا القليل . وكان بعض الذين نجوا من نار الكمين تلاحقهم الطائرات بقنابلها ورشاشاتها وتتعقبهم قذائف المدافع الى مسافة بعيدة وممن سقط في هذا الكمين الشهيدان حمد واجود البربور وهما من اشد الزعماء حماسة واخلاصا للثورة[٣٤] .

تركت هذه الحادثة اثرا سيئا في معنويات الثوار واضطر بعضهم للتراجع الى الجبال فيما تراجع سلطان الى قرية سليم . وشرع بوضع خطة جديدة للقتال تتلائم مع امكانات الثوار الهزيلة بالنسبة لجيش عصري منظم ومجهز بأحدث الاسلحة والمعدات الحربية . اما الجنرال ميشو فقد اعتبر ان ضربته هذه قضت على قوة الثورة الرئيسية وان طريق السويداء اصبحت مفتوحة امام جنوده ، فتقدم لاحتلال موقع

٣٣ـ الريس ، **المصدر السابق** ، ص . ١٦٨ ، راجع ايضا : ظافر القاسمي ، **وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى** (بيروت ، دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٥) ص . ١١٩ـ١٢٢ .

٣٤ـ الحلبي ، **مذكرات** ، ص ٣٦ـ ٤٠ كذلك : سلامة عبيد ، **المرجع السابق** ، ص . ١٣٤

المزرعة والافادة من مياهه التي عزّ مثلها في تلك المنطقة خلال فصل الصيف . ولكن بعض الثوار انقضوا على مؤخرة الحملة التي كانت تحمل الذخيرة والمؤن للقوات الفرنسية فاستسلم لهم جنود تلك الفرقة وقد اسر الثوار قائد الحملة واحرقوا المصفحات التي كانت معها واستولوا على جميع المؤن والذخائر . ووصلت اخبار هذا الانتصار الجانبي الى زملائهم الثوار فدبت الحماسة في نفوسهم فطوقوا بقية فرق الحملة الفرنسية عشية ذلك اليوم نفسه . ولم ينقض الليل لتستأنف الحملة تقدمها باتجاه السويداء حتى انقض عليها الثوار من كل جانب والتحموا مع جنودها بالسلاح الابيض مما افقد سلاح المدفعية والطيران فاعليته واعاد للسيف العربي تاريخه المجيد . واسفرت المعركة عن هزيمة شنيعة للقوات الفرنسية وتساقط معظم افرادها في ساحة القتال بين قتيل وجريح . وحاول الجنرال ميشو الاهابه بجنوده للثبات في المعركة ،واذا برصاصة تصيب جواده فيسقط الى الارض ويؤتى له بجواد آخر فيصيبه ما اصاب الاول ويقدم له جنوده جوادا ثالثا ليقف بين صفوفهم ويثير حماسة جنوده ، ولكن رصاص الثوار هذه المرة اصاب الجنرال نفسه فحمل الى احدى المصفحات التي انطلقت به نحو حوران . وتصف معظم المصادر تلك المعركة بأنها عبارة عن ساعات رهيبة تجندل خلالها مئات القتلى وتكدست على الطرقات جثث الخيل وبقايا المركبات والمعدات المعطلة حتى سدت طرق المدرعات . ولم ينج من سلاح المدرعات الا ثلاث مصفحات حملت احداها قائد الحملة نفسه . اما ما تبقى منها فقد انقض عليها الثوار ابان المعركة ، وتسلقوا ابراجها ليقتلوا من فيها . وكثيرا ما كانوا يقلبونها بأكتافهم او يشعلون النار من حولها . غير ان انتصار الثوار لم يكن من غير ثمن اذ استشهد اكثر من مئتي رجل في صفوفهم بينهم سبعة شهداء من عائلة مقلد وحدها واحدهم شبلي مقلد الذي قضى ويده متجمدة على مقبض سيفه[٣٥] .

كانت معركة المزرعة ضربا رائعا من البطولة التي لا يزال الناس يذكرون نوادرها . ومنها الهجوم على المدرعات وهي سائرة وقلبها بالاكتاف ، ونوادر كثيرة اخرى نذكر منها قصة الشهيد سليمان العقباني احد ضاربي السيوف من الثوار حيث قضى بسلاحه هذا على اكثر من خمسة عشر جندي من القوات الفرنسية خلال تلك

---

٣٥ - Elizabeth P. Maccalum, *The Nationalist Crusade In Syria* (New york, 1928) PP. 118-120

قد استشهد في هذه المعركة احمد البربور وهو احد اعلام الثورة واليد اليمنى لسلطان الاطرش

المعركة وكثيرا ما كانت ضربة سيفه تقطع جسم خصمه الى شطرين[٣٦] .

وروى شاهد عيان آخر وهو عز الدين الحلبي ان احد الثوار المدعو هاني الحلبي اقترب من احدى المصفحات حيث اطل سائقها من كوتها ليشق طريقه في ساحة المعركة ولكن هانيا المذكور عاجله بضربة سيف بترت رأس الجندي السائق ويده معا . اما المصادر الفرنسية فقد حاولت في معظمها التقليل من اهمية معركة المزرعة والبطولات التي زخرت بها ولكنها لم تستطع انكارها حتى ان الجنرال اندريا اعتبرها كارثة وضربة قاسية لنفوذ فرنسا [٣٧] .

المفاوضات

وعلى الرغم من ذلك الانتصار العسكري الكبير الذي حققته الثورة الدرزية ضد قوات الانتداب في المزرعة فان الثوار لم يلاحقوا فلول القوات الفرنسية خارج منطقة جبل حوران . ولقد كان بمقدور هؤلاء الثوار ان يتقدموا الى دمشق ولكن العداء التقليدي بين اهل حوران وجيرانهم جعل الثوار الدروز يكتفون بتحرير مناطقهم من الفرنسيين . كما حرصت السلطات الفرنسية على عزل الثورة الدرزية عن باقي المناطق .الا ان نجاح الثورة هذا ايقظ روح التمرد ضد الفرنسيين في سائر انحاء سوريا ، ودفع زعماء الحركة الوطنية في دمشق للمشاركة في اعمال الثورة . اما السلطات الفرنسية فقد تنبهت لخطر امتداد الثورة الى مناطق اخرى بحيث يصبح من الصعب ان لم يكن من المستحيل اخضاعها . وازاء هاتين الهزيمتين اللتين اوقعهما الثوار الدروز بالجيش الفرنسي لجأت سلطات الانتداب الفرنسية الى التفاوض مع قادة الثورة الدرزية بشأن مطالبهم السابقة بغية اكتساب الوقت ريثما تتمكن من استقدام قوات جديدة تستطيع بواسطتها التصدي للثوار . وبدأت المفاوضات بين الفريقين بعد مضي نحو من اسبوع على معركة المزرعة . واتفق الجانبان في ختام المرحلة الاولى على تبادل الاسرى ، فسلم الدروز ما لديهم من اسرى جنود الحملة مقابل اطلاق سراح زعماء الدروز والشبان الذين اوقفوا يوم

---

٣٦ ـ الشهبندر ، **مذكرات** ، ص ٢٩

٣٧ ـ الجنرال اندريا ، **ثورة الدروز وتمرد دمشق** ، ترجمة حافظ ابو مصلح (بيروت ، المكتبة الحديثة ١٩٧١) ص ٨٨-٨٩ ، راجع ما جاء في بلاغ الحكومة الفرنسية عن هذه المعركة : **المقطم** ، عدد ١١٠٨٣ (٦ آب ١٩٢٥) .

مظاهرة عيد الاضحى في بلدة السويداء(٣٨) . وفي المرحلة الثانية من المفاوضات تقدم الدروز بشروطهم للصلح ، وهي تتلخص باعادة الحكم الاهلي ورفض رجوع كاربية وابقاء السلاح بحوزة الدروز وعدم التعرض لشؤونهم الداخلية واحترام عاداتهم وتقاليدهم . وطالبوا في الوقت نفسه بحرية القول والاجتماع وعدم منع الدروز عن الاتحاد مع بقية المناطق السورية متى شاؤوا كما طالبوا باصدار عفو عام عن جميع الذين اشتركوا في الثورة . اما شروط الفرنسيين فقد اقتصرت على طلبهم ارجاع الغنائم العسكرية التي حصل عليها الثوار ابان المعركة وتسليم خمسة الاف بندقية مع دفع غرامة مالية قدرها خمسة الاف ليرة ذهبية . وعلى الرغم من هذه الشروط فقد كانت المفاوضات بين الجانبين تسير بشكل حسن وابدى الوفد الفرنسي تفهما وتساهلا غير متوقعين .

بيد ان ثقة الدروز بالسلطات الفرنسية ظلت ضعيفة كما كانوا على استعداد لمواصلة الثورة فيما لو تلقوا دعما كافيا ومساندة فعالة من الزعماء الوطنيين في المناطق السورية الاخرى . وعندما بدا لسلطان انه تلقى مثل هذه المساعدة ، اذ وفد عليه بعض زعماء دمشق الوطنيين الذين كانوا يمثلون حزب الشعب وقد ابدوا استعدادهم لمساندة ثورة الدروز والمساهمة الفعلية في اعمالها العسكرية ، لم يتردد سلطان الاطرش ـ قائد الثورة بقبول اقتراح الوفد الوطني الدمشقي لقطع المفاوضات مع الفرنسيين واستئناف الجهاد ضد الانتداب . ولم يكن هذا الموقف الشجاع الا برهانا آخر على ان ثورة الدروز هذه لم تكن اقليمية في اهدافها . واتفق سلطان مع الوفد الدمشقي بأن تثور دمشق ويبقى جبل حوران محتفظا بالقيادة . وابدى استعداده للزحف الى دمشق بعد اسبوع على ان يخرج ثوار المدينة لملاقاته ويقوموا معا بهجوم عام على عاصمة الشام بغية طرد الفرنسيين منها (٣٩) .

استئناف القتال :

وتنفيذا لهذه الخطة توقفت المفاوضات بين الثوار الدروز والسلطات الفرنسية ،

---

٣٨ ـ الريس ، **المصدر السابق** ، ص ١٨٠ ـ ١٨١

٣٩ ـ شهبندر ، **مذكرات** ، ص ٣٣ والسفرجلاني ، **المرجع السابق** ، ص ١٤٥ ايضا Bouron, *op.cit.*, PP. 245 ، 246

واذا بالثورة تدخل مرحلة جديدة ، فلم تعد ثورة وطنية محلية بل اصبحت ثورة وطنية كبرى تشمل اهدافها سوريا بأكملها . وانتقل مركز الثورة الى المقرن الشمالي استعدادا للزحف على دمشق . وفي الثالث والعشرين من شهر آب اذاع قائد الثورة سلطان الاطرش بلاغا سياسيا عسكريا يدعو فيه كافة ابناء البلاد السورية على حمل السلاح والثورة ضد الاستعمار الفرنسي. وجاء في هذا البلاغ: «يا احفاد العرب الامجاد هذا يوم ينفع المجاهدين . . . فلننهض من رقادنا ولنبدد ظلام التحكم الاجنبي عن سماء بلادنا . لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد ان سكت القلم ولا يضيع حق وراءه مطالب . . .

ايها السوريون : لقد اثبتت التجارب ان الحق يؤخذ ولا يعطى فلنأخذ حقنا بحد السيوف ولنطلب الموت توهب لنا الحياة »[٤٠] .

ومما ورد في البيان نفسه عن دواعي الثورة ما يلي : « ان المستعمرين نهبوا اموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا واقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد وقسمّونا الى شعوب وطوائف ودويلات وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا واقاليمنا» . وكشف سلطان الاطرش من خلال بلاغه هذا عن اهداف الثورة بما يلي : « ان حربنا اليوم هي حرب مقدسة ومطالبنا هي :

١ - وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالا تاما .

٢ - قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التأسيسي لوضع قانون اساسي على مبدأ سيادة الامة سيادة مطلقة .

٣ - سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتأليف جيش محلي لصيانة الامن .

٤ - تأييد مبدأ الثورة الفرنسية وحقوق الانسان في الحرية والمساواة والاخاء[٤١] .

الواضح من هذه البيانات التي اذاعها قائد الثورة سلطان الاطرش ، ان الهدف الاساسي للثورة هو طرد الفرنسيين واعلان دولة سورية عربية موحدة

---

٤٠ - نص البلاغ ، السفرجلاني ، **المرجع السابق** ، ص ١٥٣ - ١٥٥

٤١ - راجع نص المنشور ، ابو راشد ، **جبل** ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ ، كذلك : سعيد ، **المصدر السابق** ، ج ٣ ، ص ٣١١ - ٣٢٠

ومستقلة استقلالا تاما . وفيها رفض قاطع لجميع اشكال التجزئة التي حاول ان يفرضها الانتداب الفرنسي على بلاد الشام. وعلى الرغم من محاولات سلطات الانتداب هذه فصل قضية جبل الدروز عن بقية المقاطعات السورية وذلك من اجل ترسيخ جميع الفروقات الاقليمية والطائفية خدمة للسياسة الفرنسية الاستعمارية ، فان معظم الدروز رفضوا عزلهم عن بقية البلاد العربية السورية مصرين على وجوب تأكيد تلك الصلات القومية التي تربطهم بالوطن العربي متجاوزين بذلك جميع الفروقات الاقليمية والمذهبية . واوضح دليل على هذا الكلام ما جاء في بيان آخر اذاعه قائد الثورة سلطان الاطرش حيث قال : « لا تنافس في الاهواء ولا خصومات ولا احقاد طائفية بعد اليوم انما نحن امة عربية سورية ، امة مستضعفة قوية في الحق قد انتبهت الى المطالبة بحقها المهضوم. امة عظيمة التاريخ نبيلة المقاصد . . . تريد الحياة ، والحياة حق طبيعي وشرعي لكل الامم التي قسمها الاستعمار الاجنبي فوحدتها مبادىء حقوق الانسان واعلام الحرية والمساواة والاخاء . نعم ليس هنالك درزي وسني وعلوي وشيعي ومسيحي ، ليس هنالك الا ابناء امة واحدة وتقاليد واحدة ومصالح واحدة ليس هنالك الا عرب سوريون»[٤٢].

لبت جماهير الوطنيين في جبل الدروز نداء قائد الثورة واستعدت للزحف الى دمشق في اليوم المحدد لها . وكانت تأمل في الوقت نفسه مساندة الوطنيين في بقية المقاطعات السورية والانضمام الى صفوف المقاتلين الدروز ضد الانتداب الفرنسي . ولكن سلطات الانتداب التي فوجئت بتوقف المفاوضات بينها وبين قادة الثورة الدرزية وبلغها دور زعماء حزب الشعب السوري في ذلك ، عملت على تطويق اي تحرك فعلي من قبل هذا الحزب لدعم الثورة والقت القبض على زعمائه بعد عدة ايام . ولما تقدمت القوات الدرزية باتجاه دمشق تمكنت احدى الطائرات الفرنسية الاستطلاعية من كشف مواقع تجمعاتهم . وما كادت طلائع تلك القوات تصل الى القرب من المدينة حتى شنت الطائرات الفرنسية عدة غارات على تجمعات الثوار واوقعت بها خسائر كبرى ادت الى تشتتها ولم يصل منها الى دمشق الا حوالي مئة خيال . ويعزو معظم الباحثين سبب فشل حملة الثوار هذه في الدخول الى دمشق

---

٤٢ - سلامة عبيد ، المرجع السابق ، ملحق رقم٦١ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧

لسببين رئيسيين : أولهما سير حملة الثوار في ارض مكشوفة للطيران الحربي دون ان تعرف او يكون لديها اية وسيلة للتمويه الحربي . اما السبب الثاني فقد كان عدم استعداد الوطنيين في دمشق لمساندة الثوار الدروز بالسرعة اللازمة . ويبرر الدكتور عبد الرحمن شهبندر احد زعماء الثورة هذا التأخير بقوله : « انه لم يكن لديهم وقت كاف لاعداد المقاتلين الدمشقيين وتنفيذ الخطة المرسومة للهجوم » [٤٣] . في حين ان الاتفاق بين قائد الثورة سلطان الاطرش والوفد الدمشقي كان واضحا في ان الهجوم على دمشق سيبدأ بعد اسبوع كما ذكرنا سابقا .

موقعة المسيفرة (١٦ ـ ١٧ ايلول ١٩٢٥) :

الا ان فشل حملة الثوار هذه ساعد سلطات الانتداب على استكمال استعداداتها العسكرية لمجابهة الثورة الدرزية قبل ان تعم جميع البلاد السورية ويستفحل خطرها على الانتداب . واستقدمت القيادة الفرنسية الجنرال غملان لهذا الغرض ومعه قوة تقدر بأكثر من عشرة الاف جندي وعدد ضخم من الآليات والمعدات الحربية واختارت بلدة المسيفرة مركزا لتجمع تلك القوات . وفي منتصف شهر ايلول كان قد تجمع في ذلك المركز قوة فرنسية ضخمة شملت اللواء الخامس من الفيلق الاجنبي الرابع وكوكبة الفرسان الاجنبية الرابعة [٤٤] . واعدت هذه القوات متاريس وتحصينات دفاعية في بلدة المسيفرة وشرعت بارسال طلائعها لمناوشة الثوار والتقدم نحو السويداء لاحتلالها . ولما بلغت طلائع القوة الفرنسية هذه قرية الثعلة ارتأى بعض قادة الثورة ومنهم محمد عز الدين الحلبي مهاجمة المسيفرة قبل ان تصل اليها بقية الامدادات الفرنسية . وعقدت قيادة الثورة الدرزية اجتماعا في قرية سهوة البلاطة لدرس هذه المسألة وأبدت تحفاظاتها تجاه شن مثل هذا الهجوم على قوات العدو في سهل المسيفرة المكشوف حيث لا غطاء جويا يحمي الثوار ولا مدفعية تمهد لهم الطريق . ولكن حماسة الثوار تغلبت على كل منطق عسكري فانطلق هؤلاء الى سهل المسيفرة في وضح النهار فوصلوا الى جواره في الليل وشرعوا بالهجوم على

---

٤٣ ـ شهبندر ، **مذكرات** ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ، راجع ايضاً : **المقطم** عدد ١١٠٩٢ (٢٧ آب ١٩٢٥) ص ٥ كذلك العدد ١١٠٩٤ (٢٩ آب ١٩٢٥) والعدد ١١١١٢ (١٩ ايلول ١٩٢٥)ص ٧

٤٤ ـ **الكتاب الذهبي** ، ص ١٤٦ ـ ١٤٨

القوات الفرنسية المتحصنة في الخنادق وخلف الجدران . ولا ريب ان اقتحام الثوار لتلك التحصينات كان امرا بغاية الصعوبة من الوجهة العسكرية . اذ لم يكن لدى الثوار اي سلاح يمهد لذلك الهجوم او اي شيء آخر يقيهم نيران المدفعية والرشاشات او قنابل الطائرات . واستخفوا بفاعلية الاسلحة الحديثة وهاجموا القوات الفرنسية في سهل مكشوف بدل من ان يختاروا موقعا آخر يعطيهم موقعا أفضل للهجوم . ويبدو ان جهل كوادر الثورة بطرق الحرب العصرية واندفاعهم الثوري ومعنوياتهم العالية جعلتهم يرتكبون مثل هذا الخطأ الفادح في موقعة المسيفرة . وما ان شرع الثوار بهجومهم هذا حتى اخذت قذائف المصفحات الفرنسية ونيران الرشاشات تحصد الثوار المهاجمين على ضوء الانوار الكاشفة في الليل . ولم يشعر الثوار بخطأ تهورهم هذاالا وهم في قلب المعركة حيث لا خندق ولا تلة او صخرة يحتمون بها من العدو مما أدى الى استشهاد عدد كبير منهم خلال عملية الهجوم . وفيما اضطر بعض الثوار الى التراجع رفض بعضهم الآخر التراجع ، واستطاع رغم كثافة النيران ان يخترق مواقع العدو ويدخل القرية ببطولة فائقة ويقضي على كوكبة الخيالة الفرنسية المرابطة في البلدة وكان على رأس هؤلاء محمد عز الدين الحلبي [٤٥] . وفي صباح اليوم التالي حاول الثوار الذين لم يتمكنوا من دخول المسيفرة ،اقتحام خطوط القوات الفرنسية من جديد ، فاحتدمت المعركة بين الفريقين طوال النهار . ولكن الثوار اضطروا رغم استبسالهم في ساحة المعركة وبعد نفاذ ذخيرتهم الى التراجع امام نيران المدفعية والغارات الجوية المتلاحقة التي شنتها الطائرات الفرنسية على مواقعهم . ولم يستطع الثوار خلال تراجعهم هذا حمل الجرحى ولا نقل القتلى ، بل أجهز العدو على من بقي حيا من الجرحى .

بسالة الثوار الدروز :

انجلت المعركة عن خسارة بشرية جسيمة مني بها الثوار الدروز ولكن بطلاتهم وشجاعتهم في موقعة المسيفرة فاقت كل تصور للمغامرة والبطولة ، وبلغت مرحلة من التهور بشهادة اعدائهم الفرنسيين انفسهم وممن حضروا تلك الموقعة . ولا نجد في هذا المجال أبلغ ما كتبه بنيت دوتي (Bennet Doty) الذي كان في عداد

---

٤٥ ـ المصدر نفسه ، ص ١٤٩ ـ ١٥١ ، راجع ايضا المقطم عدد ١١١٢٠ (٢٩ ايلول ١٩٢٥) ص ٣ ، راجع ايضا : الحلبي ، مذكرات ، ص ٥٨ ـ ٦٤

القوات الفرنسية واشترك في معركة المسيفرة فوصف هجوم الثوار الدروز في كتابه « الفرقة الجهنمية » بقوله :

« كانت موجة الهجوم تتحطم بين الحين والحين على بضعة امتار من متاريسنا . . . وكثير ما داهموا هذه المتاريس رغم غزارة بنادقنا ، وان بعضهم والحقيقة تقال ماتوا في ظل متاريسنا » . الى ان ينتقل الى وصف استبسالهم فيقول :

« لقد رأيت اولئك الجبليين المتعصبين (ثوار جبل الدروز) يتقدمون نحونا وفي اجسادهم عدد من الاصابات برصاصاتنا ، يتقدمون ليموتوا فوق اسلاكنا الشائكة . . لقد مرت بي ساعات اتذكر اني أحسست في بعضها وكأني اعيش حلما لا حقيقة فقد حدث ان انقض نحو متراسي فجأة عشرة من الدروز في هجوم مستميت ، فخيل الي وكأنما حركتي قد شلت وذلك لانهم كانوا جميعا من الشيوخ بلحى مشعشعة طويلة . . تقدم اولئك الشيوخ القصيرو القامة الغريبو المظهر يتحدون نيراننا المركزة وكأنهم ارواح سحرية من عالم غير عالمنا ظلوا يتقدمون نحو اسلاكنا الشائكة ، ومن ثم وبحركة واحدة راحوا يقفزون من فوقها . وفجأة سقطوا جميعا دفعة واحدة . . لقد كانوا جميعا يحملون في اجسادهم عددا من الاصابات برصاصنا منذ اللحظة التي انطلقوا فيها نحونا . . واني اجزم ان العديد منهم قد ماتوا وهم واقفون على اقدامهم في تلك الهجمات المتلاحقة . . . لقد تكوموا هناك حيث اخمدنا آخر خلجة من خلجات ارواحهم بالقنابل اليدوية » (٤٦) .

«وعندما كان كل شيء قد انتهى وجدنا جثة واحدة من اولئك الدراويش (الشيوخ) الجبليين ويداه متشبثتان بجدار متراسنا . لقد كان على ما يبدو يهاجم رشاشاتنا وهو اعزل من كل سلاح . كان ملقى هناك واصابعه متثبتة بالزاوية الداخلية من الحاجز وقد تطاير فوقها رذاذ من دماغ جمجمته المهشمة وقد أدهشنا ان نعد في جثته ثلاثين اصابة واضحة من طلقات نيراننا . . . »

ويمضي دوتي الى القول « حتى الجرحى (من هؤلاء الثوار) كانوا يتابعون

---

٤٦ - Bennett J. Doty, *The Legion of the Dammed* (London, the century co., 1928) PP. 96 - 97

اطلاق النار . . كانوا مستخفين بالموت يطلقون النار بلا هوادة من وراء صخرة او حتى في الارض العراء حتى آخر خلجة من خلجات النفس »[٤٧] .

نماذج من البطولة : اسرة حمزة في رساس :

ومن قصص بطولة الدروز اثناء المعركة ما رواه الدكتور شهبندر في مذكراته عن استشهاد اسرة حمزة من بلدة رساس التي استنفرت للالتحاق بصفوف الثورة في موقعة المسيفرة . سار الى تلك المعركة رب العائلة وهو في سن الثمانين ومعه ابناؤه اربعة شبان ،وكانت مهمة احد ابنائه حماية الراية التي يحملها اهل قريته في المعركة . وتقدم الاول منهم صفوف المقاتلين من ابناء بلدته وهو يرفع رايتها حتى كاد يطأ مواقع الجنود الفرنسيين الذين صوبوا عليه نيران بنادقهم فسقط شهيدا ولكن اخاه تقدم لرفع العلم من جديد فسقط الى جانبه بنيران العدو . ولم يتوان الاخ الثالث عن التقدم لرفع راية بلدته فسقط هو الاخر شهيدا الى جانب اخويه الشهيدين . وقد جرى هذا المشهد امام الاخ الرابع الذي تقدم بدوره لرفع تلك الراية مع ان ابناء بلدته حاولوا ان يثنوه عن ذلك رأفة بأبويه بعد مقتل اخوته الثلاثة في ساحة المعركة . ولكنه ابى وتقدم صفوف الثوار حتى اصابته رصاصة قاتلة فسقط بدوره شهيدا . اما ابوه الشيخ المسن الذي كان يجلب المياه ليسقي الثوار فقد عاد مساء ذلك اليوم محملا على ظهره بعيره بعد ان اصابته شظايا قنابل الفرنسيين بجراح خطرة دون ان يعرف بما جرى لابنائه الاربعة . ولم يصل هذا الاب الشيخ حيا الى منزله بسبب تلك الجراح . وفيما كانت زوجته المسنة تنتظر رجوع اولادها الاربعة وزوجها احياء من تلك المعركة انهارت امام هول المصيبة الكبرى وسقطت جثة هامدة الى جانب زوجها واولادها الاربعة الشهداء ، فظلت هذه الاسرة مضرب المثل في التضحية والفداء[٤٨] .

وعلى الرغم من هذه البطولات والتضحيات فقد كانت معركة المسيفرة نكسة خطيرة في تاريخ الثورة الدرزية ضد الانتداب الفرنسي . واعتبرت من الوجهة العسكرية شركا نصب للثوار اذ ان القوة الفرنسية التي تمركزت بالمسيفرة واقامت لها

---

٤٧ - *Ibid* , PP. 91 - 92

٤٨ - شهبندر ، مذكرات ، ص ٤٠ - ٤٢

تحصينات دفاعية استطاعت ان تستدرج الثوار الى معركة غير متكافئة في سهل مكشوف فوقعوا بين نارين : مدفعية الحامية الفرنسية في قلعة السويداء من جهة والجيش المتقدم من درعا من جهة ثانية . وفضلا عن ذلك فقد كان موقع المعركة مناسبا لتدخل الطيران الحربي سواء كان النصر الى جانب الثوار ام الى جانب القوة الفرنسية. ولا يسع المرء الا ان يتساءل عن سبب فشل الثوار هذا على الرغم من بطولاتهم وتضحياتهم الجسيمة بيد ان السبب الاول لهذا الفشل يعود برأي عدد من الباحثين الى سوء التقدير والتخطيط العسكري لدى الثوار . وتذكر بعض المصادر ان قائد الثورة سلطان الاطرش لم يوافق على فكرة الهجوم على بلدة المسيفرة او القتال في سهلها المكشوف . غير ان حماسة الثوار حالت دون التقيد بهذا الرأي . صحيح ان القيادة الفرنسية ضحت باشرس فرقة من قواتها في سبيل تحقيق ذلك الانتصار ، بيد ان اندفاع الثوار وحماستهم للقتال من غير التقيد باتباع خطة عسكرية مدروسة لم يكن الا مغامرة تفتقر الى المنطق العسكري . لقد اندفع الثوار بحماسة الشجاع المؤمن باهداف ثورته والمنتشي بخمرة الانتصار ولكنهم اساؤوا بشكل فاضح التخطيط والتقدير لمقومات معركة عسكرية حديثة يعوزها الدرس والتخطيط وليس لمجرد مجابهة القوات الفرنسية المنظمة بحرب عفوية غير مدروسة .

التقدم نحو السويداء :

واستغل الفرنسيون نتائج معركة المسيفرة هذه للمضي في خطتهم العسكرية الرامية الى انقاذ الحامية في بلدة السويداء وبالتالي احتلال جبل الدروز بكامله . ولما استكملت الحملة الفرنسية استعداداتها الحربية تقدمت صفوفها الى المسيفرة بقيادة الجنرال غاملان . وكان في عداد هذه الحملة ثماني الوية من المشاة وست كوكبات من الخيالة وست كوكبات من المدفعية وكتيبة من الدبابات فضلا عن متطلبات الحملة الاخرى كفرقة الهندسة وسيارات الاسعاف مع كميات من الذخيرة والمؤونة بما فيها المياه [٤٩] . سارت هذه الحملة الضخمة باتجاه السويداء وفي مقدمتها كتيبة الدبابات وثلاث كوكبات من الخيالة المراكشيين فيما كانت الطائرات العسكرية الجاثمة في مطار درعا على اهبة الاستعداد للتدخل عند اول اشارة من قادة الحملة . وكان تقدم

---

٤٩ - الكتاب الذهبي ، ص ١٥٢ - ١٥٦

الحملة الفرنسية الى السويداء حذرا وبطيئا ولقيت من الثوار الدروز ، على قلة عددهم وعدتهم وهزيمتهم في المسيفرة ، مقاومة عنيدة في بعض المواقع الاستراتيجية . ولكن الحملة استطاعت ان تبلغ في النهاية قلعة السويداء وترفع الحصار عن حاميتها التي تكبدت خسارة جسيمة خلال ذلك الحصار .

وتوقع الناس بعد نجاح الحملة الفرنسية هذا ان تمضي سلطات الانتداب في خطتها المرسومة لاحكام قبضتها على جبل حوران باكمله ووضع حد نهائي للثورة الدرزية . ولكن هؤلاء الناس ما لبثوا ان فوجئوا بانسحاب القوات الفرنسية قبل ان تحقق ذلك الهدف . وتعزو بعض المصادر الفرنسية والمحلية هذا الانسحاب المفاجىء الى تخوف القيادة الفرنسية من ان يحاصر الثوار جنود الحملة في السويداء من جديد بعد ان هددوا طرق تموينها . الا ان السبب الاساسي لهذا الانسحاب كان اندلاع الثورة في حماه مما اجبر سلطات الانتداب على الاستعانة بحوالي ثلثي جنود حملة السويداء لمجابهة الخطر الجديد [٥٠] .

امتداد نيران الثورة الى سائر المناطق السورية :

لم يترك الزعماء الوطنيون في سوريا الثورة الدرزية تتلاشى امام جحافل القوات الفرنسية الزاحفة الى الجبل دون ان يقوموا بعمل ما من شأنه تخفيف الضغط العسكري عن ثوار الجبل . فخطط هؤلاء الزعماء بعد اتصالات سرية اجروها مع قادة الثورة في حوران لاشعال نيران الثورة في مناطق اخرى من البلاد السورية . وكانت ثورة حماة التي اندلعت في الرابع من شهر تشرين الاول **١٩٢٥** بقيادة فوزي القاوقجي ، اولى الاستجابات الثورية لدعم الثوار في جبل الدروز [٥١] . واستطاع الثوار في حماه ان يستولوا على مراكز الشرطة وان يحاصروا ثكنات الجيش الفرنسي في ضواحي المدينة . ولكن القوات الفرنسية عمدت الى قصف احياء المدينة بقنابل الطائرات وقذائف المدفعية بطريقة عشوائية جعلت بعض زعماء حماه المترددين

---

٥٠ ـ فوزي القاوقجي ، مذكرات **فوزي القاوقجي ١٩١٢ ـ ١٩٣٢** (بيروت ، دار القدس ١٩٧٥) ص ٩٣ ـ ٩٤ ، سعيد : **المصدر السابق** ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ، راجع ايضا : « لماذا جلا الفرنسيون عن السويداء » في **المقطم** عدد ١١١١٢ (تشرين الاول ١٩٢٥) ص ٣ ، كذلك البلاغ الرسمي ، **البشير** ، عدد ٣٣٨٥ (تشرين الاول ١٩٢٥)

٥١ ـ القاوقجي ، مذكرات ، ص ٨٦ الريس ، **المصدر السابق** ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧

يتلكأون عن دعم الثوار وبعضهم الآخر يقف ضدهم مما ادى الى فشل الثورة . الا ان ثورة حماه استطاعت بالرغم من فشلها ان تؤدي دورها المطلوب في انقاذ ثورة الجبل وفتح ابواب الغوطة واقليم البلان وغيرها من المناطق امام الثوار [٥٢] .

وفيما كانت القوات الفرنسية تعمل لاخماد ثورة حماه نشطت الثورة في غوطة دمشق واشترك فيها عدد من ثوار جبل الدروز وعلى رأسهم محمد عز الدين الحلبي وعادل نكد[*] وفارس الاطرش ومحمود ابو يحي ومحمد شرف . واجبرت السلطات الفرنسية على توجيه قسم من قواتها لقتال الثوار في تلك المنطقة . وجرت معارك عنيفة بين الثوار والجنود الفرنسيين نتج عنها خسائر مادية جسيمة في بعض قرى الغوطة[٥٣] . غير ان الخسائر التي منيت بها مدينة دمشق من جراء قصف الطائرات والمدفعية الفرنسية لها في الثامن عشر من شهر تشرين الاول كانت من افدح تلك الخسائر . وجاء قصف المدينة هذا ردة فعل لدخول الثوار الى دمشق ومحاولتهم خطف المفوض السامي الفرنسي الجنرال سراي . ولكن ضرب مدينة دمشق بخاصة الاحياء المدنية فيها من غير انذار او تمييز لقي استنكاراً دوليا . ولفت العالم الى سياسة الفرنسيين القائمة على القمع واستعمال القوة في البلاد المنتدبة . وهكذا اضطرت الحكومة الفرنسية الى سحب مفوضها السامي العسكري الجنرال سراي لتعين مكانه مفوضا ساميا من المدنيين هو دو جوفنيل . ويمكننا ان نعتبر تعيين مدني لاول مرة في هذا المنصب اعترافا من الحكومة الفرنسية ان سياستها العسكرية قد فشلت في تعاملها مع الثورة[٥٤] .

الثورة في اقليم البلان ووادي التيم :

لم تستطع حادثة قصف الفرنسيين لمدينة دمشق انهاء الثورة في قرى الغوطة وانما

---

٥٢ - محمد سعيد الزعيم ، مع ثورة حماه لسنة ١٩٢٥ وفي غياهب سجونها (حلب : مطبعة الضاد ، ١٩٦٢) ص ٣٨ - ٥٠ الشهبندر ، مذكرات ، ص ٤٨ - ٥٢ ، القاوقجي ، مذكرات ، ص ٩٣ - ٩٤ سعيد ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ - ٣٣٢

٥٣ - الريس ، المصدر السابق ، ص ٢٧٦ - ٢٨٠ ، والشهبندر ، مذكرات ، ص ٥٣ - ٧٠ راجع ايضا : كاتب سياسي شرقي ، « دمشق تحترق بعد حماه والمعرة » المقطم عدد ١١١٤٠ (٢٢ تشرين الاول ١٩٢٥) .

٥٤ - راجع : البشير عدد ٣٣٩٩ (٣ تشرين الثاني ١٩٢٥) كذلك

The Time (London) No. 44, 099 (Oct. 22, 1953) , P. 12

Quincy Wright, «The Bombardment of Damascus» *American Journal of International Law* Vol. XX, No. 2 (April 1926) PP. 264 - 275

امتدت الى اماكن جديدة من البلاد السورية كاقليم البلان (السفح الشرقي لجبل الشيخ) ووادي التيم . ذلك ان سكان اقليم البلان ، وجلهم من الدروز وتربطهم بسكان الجبل في حوران اواصر القربى وتاريخ نضالي مشترك كانوا يراقبون سير الثورة عن كثب . وابدى هؤلاء استعدادهم غير مرة لدعم ثورة اخوانهم المجاهدين ضد الفرنسيين . ولكن الحملات الفرنسية التي توالت انذاك على جبل حوران وعزلته عن بقية المناطق حالت دون اشتراك هؤلاء باعمال الثورة . الا ان انسحاب القوات الفرنسية بقيادة غاملان افسح المجال الان لمثل هذه المساهمة . وفي هذا الوقت بالذات كان قائد الثورة سلطان الاطرش قد ارسل نجدة كبيرة من ثوار الجبل لمساندة الدمشقيين في الغوطة . ووصلت تلك النجدة الى قرية الخياره في الغوطة وكان بين قادتها زيد الاطرش وحمزة الدرويش وعلي عامر وزيد عامر ومحمود كيوان وشكيب وهاب وفؤاد سليم واخوه نصري فاستقبلهم في الخيارة المجاهد نسيب البكري وبعض قادة الثورة في المقرن الشمالي والشرقي[٥٥] .

وفيما كانت قوات الثورة تستعد للهجوم على دمشق من جديد وصل الى قادتها خبر محاصرة الفرنسيين لقرية قلعة جندل في اقليم البلان وطلب سكانها نجدة من الثوار . وكان الفرنسيون قد بدأوا منذ اندلاع الثورة التضيق على سكان اقليم البلان ووادي التيم من الدروز بسبب تعاطفهم مع الثورة وعملوا على زرع بذور التفرقة والشقاق بينهم وبين المسيحيين . وتحسباً لأمتداد الثورة الى هذا الاقليم عمد الفرنسيون الى تجريد الدروز من السلاح وتغريمهم بالمال وارهابهم بشتى الطرق والوسائل . وحادثة قرية قلعة جندل ليست الا نموذجاً للسياسة الفرنسية ازاء سكان هذه القرى . وتفاصيل هذه الحادثة ان الكابتان الفرنسي كوليه جرد حملة عسكرية على قرية قلعة جندل وطلب من اهلها تسليم مئتي بندقية وأخذ ثمانية وعشرين رجلاً من الاهلين كرهائن . ولكن القرية ابت تسليم سلاحها وجاءتها نجدة من سكان القرى المجاورة حاصرت بدورها قوات كوليه واجبرتها على التراجع . الا ان كوليه عمد الى قتل الرهائن لديه مما اشعل الثورة في سائر قرى الاقليم[٥٦] .

---

٥٥ ـ الريس ، **المصدر السابق** ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١

٥٦ ـ المصدر السابق ، ص ٣٠٢ ، كذلك ، الحلبي ، مذكرات ، ص ٨٥ ، كذلك :

S. Longrigg, *Syria And Lebanon Under French mandate* (Oxford Univ. press, 1958) P. 158

لبى قادة الثورة نداء اخوانهم في اقليم البلان وسار الى نجدتهم المجاهدون الذين تجمعوا في قرية الخيارة فوصل قسم من قوات الثورة الى قلعة جندل بعد انتهاء المعركة مع الفرنسيين . اما القسم الآخر من المجاهدين فقد اكمل سيره عن طريق صحنايا حتى وصل الى قرية عرنة في الاقليم . استقبل دروز قرية عرنة الثوار بالزغاريد وكان على رأس المستقبلين شكيب وهاب من دروز جبل لبنان الذي كان قد سبق النجدة الى هناك . وانضم الى الثوار عدد من المسلحين الجدد وتقدموا الى بلدة مجدل شمس حيث استقبلوا بحفاوة بالغة . وكان قد سبقهم الى مجدل شمس فريق من الثوار بقيادة زيد الاطرش . وعقد قادة الثورة هناك اجتماعاً في منزل الشيخ اسعد كنج ابو صالح اعلنوا فيه انهم جاؤوا الى الاقليم بامر من سلطان الاطرش من اجل تحرير الوطن . وقرر المجتمعون توسيع الثورة حتى تشمل منطقة حاصبيا في اوائل تشرين الثاني **١٩٢٥** . اما الحامية الفرنسية في البلدة فقد استجارت بالشيخ حسين قيس فأجارها قبل دخول الثوار وأمن لها الطريق الى مرجعيون فالنبطية . وعلى الرغم من سياسة التفرقة الطائفية التي اتبعها الفرنسيون في منطقة حاصبيا وراشيا فان معظم قرى تلك المنطقة اعربت عن تأييدها للثورة . الا ان قرية مسيحية واحدة هي كوكبا اتخذت موقفاً عدائياً من الثورة . وحاول قادة الثورة عدم التعرض لهذه القرية وتجنب المرور بها . وفيما كانت سرية من المجاهدين بقيادة حمزة الدرويش تعبر مكاناً قريباً من قرية كوكبا وهي متجهة نحو جديدة مرجعيون وافاها كاهن القرية مع بعض شبانها المسلحين يدعون الثوار وقادتهم لتناول طعام الغذاء في قريتهم . قبل حمزه الدرويش الدعوة وركب السيارة مع الكاهن واتجهوا نحو قرية كوكبا . الا ان السلطة الفرنسية واعوانها ابوا ان تسير تلك القرية في ركاب الثورة فجاؤا بعصابة بطرس وغطاس كرم من زغرتا من اجل التحرش بالثوار . وما كادت سيارة حمزة الدرويش والكاهن تبلغ القرية حتى انهمر عليها الرصاص من سلاح هؤلاء مما اودى بحياة الكاهن وثلاثة من مرافقي حمزه الدرويش . وعبثاً حاول قائد الثوار اقناع سكان القرية الموالين لفرنسا بالكف عَن اطلاق النار فاضطر للاستنجاد برجال سريته من الفرسان فدخلوها بالقوة واضرموا النيران في منازلها[٥٧] .

ولكن هذه الحادثة اساءت الى سمعة الثورة بعد ان استغلها الفرنسيون ابشع

---

٥٧ - الريس ، **المصدر السابق** ، ص ٣٠٦-٣٠٨

استغلال لتحريض القرى المسيحية ضد الثوار في منطقة وادي التيم كما اساءت بشكل خاص الى حمزة الدرويش واضطر الى التخلي عن مركزه في قيادة الثورة فغادر وادي التيم الى جبل الدروز مستسلماً للفرنسيين هناك . ولكن قائد الثورة في المنطقة زيد الاطرش تنبه لخطر الدعاية الفرنسية لزرع بذور الشقاق الطائفي واذاع بياناً يطمئن فيه المسيحيين في وادي التيم معلناً ان هدف الثورة وطني قومي وان كان الفرنسيون يعملون « لايقاع الشقاق بين طوائف البلاد واغراء المسيحيين بالمسلمين والمسلمين بالمسيحيين فان شعار الثورة هو : « الدين لله والوطن للجميع »[٥٨] .

وتدليلا على صحة كلامهم لم يتقدم الثوار لاحتلال جديدة مرجعيون المسيحية ورجعوا الى بلدة حاصبيا . الا ان عصابة كرم لم ترتدع عن التحرش بالثوار والقرى الموالية لهم حتى هزمها شكيب وهاب ورجاله في جديدة مرجعيون . وقرر زعماء الثورة فيما بعد في اجتماع عقدوه في حاصبيا عدم التقدم غرباً وحصر نشاطهم الحربي في منطقة وادي التيم كي لا يسيء المغرضون لاهداف الثورة . خاصة وان معظم اعضاء المجلس النيابي اللبناني المؤيدين لفرنسا احتجوا فيما بعد على هجوم الثوار على حاصبيا ومرجعيون وراشيا . غير ان ممثلي الدروز فؤاد ارسلان وجميل تلحوق في المجلس النيابي عارضوا قرار المجلس ووقف الى جانبهم النائبان السنيان في بيروت عمر الداعوق وعمر بيهم[٥٩] .

معركة راشيا (٢٠ ـ ٢٤ تشرين الثاني ١٩٢٥) .

كان اهالي راشيا الدروز من الذين تعرضوا لمضايقة الحامية الفرنسية المرابطة في القلعة اثناء نشوب الثورة في وادي التيم فأستعانوا بقادة الثورة في حاصبيا . وفي العشرين من تشرين الثاني لعام ١٩٢٥ تقدمت نجدة من الثوار بقيادة اسد الاطرش وحمزة الدرويش وشكيب وهاب ورافقهم من الدمشقيين نزيه المؤيد العظم الى بلدة راشيا . وانقسمت قوات الثوار الى اربع فرق توزعت الى جوانب القلعة الاربعة لمحاصرتها . وبعد ان احكموا الحصار على القلعة من جميع جوانبها وقطعوا الطرق

---

٥٨ ـ راجع نص البيان : السفرجلاني ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦٥ وكذلك حنا ابي راشد ، **حوران الدامية** (القاهرة ، مكتبة زيدان العمومية ١٩٢٦) ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢

٥٩ ـ الجمهورية اللبنانية ، **وقائع المجلس النيابي** (١ كانون الاول ١٩٢٥) كذلك راجع **البشير** عدد ٣٤١٢ (٣ كانون ١ ١٩٢٥) ابو راشد ، **جبل** ص ٣٢١ ـ ٣٢٢

التي تربطها بالخارج بدأوا هجومهم في اليوم الثالث لوصولهم على الحامية الفرنسية المتحصنة هناك . ولكن عملية الهجوم هذه كانت بغاية الصعوبة بحيث ان الجنود الفرنسيين كانوا يشرفون على مراكز الثوار ويصلونهم ناراً حامية من رشاشاتهم الثقلية ومدفعيتهم . الا ان الثوار تمكنوا في نهاية المطاف من احتلال البرج الجنوبي الغربي من القلعة وبذلك اشرفوا على ساحتها الرئيسية . وشن ثوار آخرون هجوماً عنيفاً على المدخل الكبير وتمكنوا من احراق الطابق الاعلى واجبروا من بقي فيها من الجنود الفرنسيين على اللجوء الى الطابق الارضي[٦٠] .

كاد الثوار ان يحرروا جميع اقسام القلعة لو لم ينشغل بعضهم بالكسب والغنائم وينسحبوا محملين بها باتجاه حاصبيا تاركين من تبقى من الحامية الفرنسية في الاقبية . ولم يبق من المجاهدين في القلعة الا القليل واغفلوا امكانية طلب الحامية الفرنسية نجدة من الخارج وفي اليوم الرابع للهجوم وصلت اول نجدة فرنسية من فيلق الصباحيين السادس الى راشيا فخرج من بقي من الثوار في القلعة ومن بينهم شكيب وهاب لمجابهة الحملة الفرنسية . ولم يستطع هؤلاء الصمود طويلاً بعد ان نفذت ذخيرتهم ووصلت لنجدة الفرنسيين قوة اخرى من فيلق الرماة الافريقيين الحادي والعشرين فاضطروا للانسحاب من القلعة باتجاه قرية شبعا . اما النجدة التي جاءت لنجدة الثوار بقيادة متعب الاطرش وعلي عبيد فقد وصلت متأخرة وفي فصل الثلوج والامطار دون ان تساهم بشيء يذكر . وانتقم الفرنسيون من اهالي البلدة بعد ان انقذوا الحامية من الموت المحتم والهزيمة . ولكن نجاح الحامية الفرنسية هذا دفعت ثمنه غاليا اذ خسرت من افرادها بحسب ما جاء في احد المصادر الفرنسية حوالي النصف[٦١] .

الثورة عام ١٩٢٦ :

لكن اخفاق الثوار هذا في راشيا وقبلها في حوران لم يكن الا مؤشراً لبدء مرحلة حاسمة في تاريخ الثورة في مستهل عام ١٩٢٦ . واذ بقيت الثورة ناشطة في الغوطة

---

٦٠ - **الكتاب الذهبي**، ص ١٦٧ ، الريس **والمصدر السابق** ، ص ٣١٣-٣١٥ ، كذلك ، نزيه المؤيد العظيم ، « صفحة لامعة في تاريخ الثورة » في **الثورة السورية الوطنية** (دمشق : مطبوعات دار الجزيرة ١٩٣٣) ص ١٣١-١٤٠

٦١ - **الكتاب الذهبي** ، ص ١٦٩

والجبل والاقليم فقد اخفق الوطنيون باشعال نيرانها في سهل حوران الذي يربط بين منطقتي الجبل وقرى الغوطة . وظل سكان سهل حوران يعيشون حياة رتيبة هادئة دون ان يقدموا اية مساهمة فعالة لانجاح الثورة. ويبدو ان الخلاف التقليدي بين سكان الجبل وسكان السهل لعب دوره في خلق جو من الحذر وعدم التعاون الكامل مع الثوار في هذه المنطقة . اما على الصعيد السياسي فقد ظهرت بعض التطورات كما اشرنا الى ذلك اثر قصف الفرنسيين لمدينة دمشق وكان ابرزها استبدال الجنرال سراي المفوض السامي العسكري برجل مدني اكثر ليونة ودبلوماسية لمعالجة الوضع القائم وهو دوجوفنيل . ورأى المفوض السامي الجديد ان مصلحة الانتداب تقضي باللجوء الى الحوار مع قادة الثورة في تلك المرحلة الدقيقة حيث كان نطاق الثورة يتسع يوما بعد يوم فيشمل مناطق واسعة من البلاد السورية بينما لم يكن بعد لدى الفرنسيين قوات كافية في الشرق لقمعها . ولكن دوجوفنيل لم يكن مستعداً للتفاوض مع الثورة تحت ضغط السلاح بل وضع شروطاً مسبقة لذلك اقلها تسليم الثوار لسلاحهم . الا ان قادة الثورة رأوا في القاء سلاحهم قبل بدء المفاوضات خطراً على اهداف الثورة فقدموا للمفوض السامي المطالب الاتية :[٦٢]

« ١ ـ توحيد الحكومات السورية
٢ ـ اعلان عفو عام بلا قيد او شرط
٣ ـ تأليف حكومة مؤقتة يرضى عنها الثوار
٤ ـ تعويض المنكوبين عن خسائرهم
٥ ـ عقد معاهدة بين فرنسا وسوريا » . . .

وامام اصرار القادة على هذه الشروط للتفاوض عمل المفوض السامي على معالجة قضية الثورة السورية بشكل اقليمي بحيث تؤدي هذه الطريقة الى تفريق صفوف الثوار واقترح حلاً منفرداً للثور في الجبل . غير ان محاولة دي جوفينيل هذه باءت بالفشل واصر قائد الثورة سلطان الاطرش على معالجة المسألة السورية بكاملها مؤكداً للمفوض السامي انه يطالب باستقلال سوريا بكاملها وانه لا يفرق بين سوريا وجبل الدروز بل يعتبرهما بلاداً واحدة[٦٣] .

---

٦٢ ـ راجع السفرجلاني ، **المرجع نفسه** ص ٣١١

٦٣ ـ **المرجع نفسه** ، ص ٣٢٢ ، وكذلك ، اندريا ، **المصدر السابق** ، ص ١٤١

ولم يكن الفرنسيون على استعداد لتلبية مطالب الثورا ولكنهم كانوا يدركون في الوقت نفسه اهمية الدور الذي كان يقوم به دروز جبل حوران بقيادة سلطان الاطرش في الثورة السورية الكبرى ضد الانتداب . لقد كان هؤلاء عصب الثورة الوطنية الكبرى والمناطق التي يقطنها الدروز ان لم تكن كلها مشاركة في اعمال الثورة فانها كانت مؤيدة لها . لذا كان يرى المفوض السامي عن حق بان اضعاف سلطان الاطرش وعزله عن بقية كوادر الثورة وفي قلب حوران بالذات من شأنه ان يزيل العقبة الرئيسية امام خطته لتصفية الثورة الوطنية . اخيراً لجأ المفوض السامي الى التفريق بين زعماء دروز الجبل انفسهم منذراً المعتدين منهم بوجوب التخلي عن الثورة وعلى حد قوله رحمة « بالنساء والاطفال » وصور لهم متابعة القتال ضد فرنسا انه ضد « اماني الدروز وحريتهم » ، داعياً الثوار الى القاء السلاح[٦٤] .

اصرار زعماء الدروز على وحدة البلاد السورية واستقلالها :

لم تنل الضغوط الفرنسية شيئا من موقف زعماء الدروز الذين أيدوا اهداف الثورة السورية الكبرى ورفضوا عزل قضيتهم عنها . ووجهوا للمندوب السامي دي جوفينيل اثر اجتماعهم في قرية « داما » رسالة يؤكدون فيها وجوب تحقيق مطالبهم السابقة وتتلخص بوجوب اعتراف فرنسا باستقلال سوريا وقبولها دولة في عصبة الامم بعد اعلان وحدتها وانسحاب القوات الفرنسية منها[٦٥] .

كما بعث زيد الاطرش رسالة اخرى الى المفوض السامي يعلن فيها « ان الدروز يحاربون في سبيل حرية البلاد السورية واستقلالها » . مشيرا الى ان الدروز « لم يعتدوا على الفرنسيين بل صبروا على شدة وقسوة وامور مخالفة لمصالحهم ونلعدل مدة طويلة . وفي اثناء ذلك كانوا يجربون بكل الوسائل اسماع شكواهم الى ممثل فرنسا فكانت مساعيهم السلمية هذه تذهب سدى حتى تفاقم الامور وانفجرت هذه الثورة فكان ما كان » . . . .

وأضاف قائلا في رسالته ان الدروز : « يحاربون في سبيل حرية البلاد السورية

---

٦٤ - راجع نص البيان الذي واجهه المفوض السامي الفرنسي للثوار ، اندريا ، **المصدر السابق** ص ١٤٢ ، وسعيد ، **المصدر السابق** ، ج ٣ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٩

٦٥ - شهبندر ، **مذكرات** ، ص ٩٤ - ٩٥ ، اندريا ، **المصدر السابق** ص ١٤٣

واستقلالها ، وحقوق معترف بها وفي سبيل شرفهم الذي اهين مرات عديدة . وكل منصف يعذرهم في ذلك ويعذرهم اذا تنبهوا هذه المرة لعدم الوقوع في خطيئات سياسية حتى لا يبقى سبب لتكرار الحروب . ومعلوم فخامتكم ان الثقة لا تتولد في النفوس لمجرد صدور الوعود فان التجارب الماضية . . . لم تترك في نفوس السوريين عموما والدروز خصوصا اثرا من الثقة والاعتماد لذلك ليس من الامور الهينة في الحاضر اقناع الشعب الدرزي وجميع الثوار بترك السلاح بلا قيد ولا شرط »[٦٦] .

وكان من المتوقع ان تفشل المفاوضات التي بدأها المفوض السامي مع قادة الثورة اذ لم يكن اي من الجانبين يثق بالاخر كما لم يكن بوسع الثوار القاء سلاحهم قبل تحقيق شيء من اهداف الثورة . ومر شتاء عام **١٩٢٦** وكلا الفريقين يستعد لجولة حاسمة في ساحة المعركة تبدأ في ربيع ذلك العام . وبقي الثوار في هذه الفترة يسيطرون على جبل حوران بكامله والغوطة والقلمون واقليم البلان . وفيما كانت قيادة الثورة تعمل على الاحتفاظ بمواقعها السابقة وتحاول اشعال نيران الثورة في اماكن اخرى من البلاد السورية كانت السلطات الفرنسية تستقدم الجيوش والمعدات العسكرية وتضع الخطط لاعادة سيطرتها الكاملة على تلك المناطق . ولم يأت ربيع عام **١٩٢٦** حتى اصبح لدى الفرنسيين قوات هائلة استقدمتها من مستعمراتها فيما وراء البحار ومن شمال افريقيا . وفوق هذا كله جندت حشودا من المناصرين المحليين او المتطوعة من الاقليات الطائفية والفت منهم فرقا لقتال الثوار بنفس الطريقة فاذا بهم يقدمون لفرنسا على حد قول الجنرال اندريا « خدمات لا تقدر »[٦٧] .

والواقع ان الاعمال القتالية لم تتوقف خلال شتاء عام **١٩٢٦** فقد كانت دمشق يومذاك شبه محاصرة من قبل الثوار . وجرت عدة معارك بين القوات الفرنسية والمجاهدين في منطقة الغوطة ابرزها في زاوية الحمرة قرب داريا والميدان والبواب وعربين وحرستا وجسر تورا وجوبر وشبعا . وكان سكان هذه القرى يشدون ازر الثوار هناك .

---

٦٦ ـ راجع نص هذه الرسالة في سلامة عبيد ، **المرجع السابق** ، ملحق رقم ٥٨ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤

٦٧ ـ اندريا ، **المصدر السابق** ، ص ١٣٦

واستمرت الاعمال الحربية خلال هذه الفترة في اقليم البلان وجبل الشيخ ، وخاصة في بلدة مجدل شمس . ومن الذين برزوا في معارك الاقليم شكيب وهاب وفؤاد سليم .

كان فؤاد سليم احد ادمغة الثورة العربية الدرزية . كابد المشقات في سبيل الالتحاق بالثورة الدرزية وساهم في توجيه مسارها لتكون ثورة عربية شاملة . وهو صاحب شعار الثورة المعروف « الدين لله والوطن للجميع » . وكان على رأس قادة الثورة العسكريين الذين عملوا على تحديث سلاح الثوار ليكون في مستوى القتال المطلوب ضد قوات الانتداب . ولكن فؤاد سليم استشهد في سحيتا احدى قرى الاقليم قبل ان تبلغ الثورة المستوى العسكري الذي كان يطمح اليه فكان استشهاده هذا خسارة جسيمة على الثورة[٦٨] .

معركة مجدل شمس :

كانت بلدة مجدل شمس في سفح جبل الشيخ الشرقي معقلا حصينا للثورة السورية . واشترك بعض ابنائها الدروز في المعارك التي جرت في وادي التيم بين الفرنسيين وقوات الثورة . وحاولت السلطات الفرنسية احتلال بلدة المجدل في اواخر عام **١٩٢٥** ولكنها فشلت في ذلك . وفي ربيع **١٩٢٦** بعد ان سيطرت القوات الفرنسية على منطقة القلمون واحتلت النبك ، قررت القيادة الفرنسية التصدي للثورة الدرزية في اقليم البلان . وأرسل الفرنسيون حملتين كبيرتين من قواتهم لقتال الثوار في ذلك الاقليم دفعة واحدة . وتوجهت الحملة الاولى عن طريق مرجعيون واما الثانية فقد سلكت طريق القنيطرة . وتألفت الحملة الاولى بحسب ما جاء في « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق الاوسط » من اللواء الثالث من فيلق الرماة الافريقيين العشرين واللواء الثاني من فيلق الرماة الافريقيين الحادي والعشرين ولواء الشرق من جيش المستعمرات وكوكبة من فيلق الصباحيين مع سريتين من المدفعية . اما الحملة الفرنسية الثانية فقد تألفت من اللواء الاول من فيلق الرماة الافريقيين الحادي والعشرين واللواء الاول والثالث من فيلق الرماة التونسيين السادس عشر

---

٦٨ - الكتاب الذهبي ، ص ١٩٧ - ١٩٨ ، والريس ، **المصدر السابق** ، ص ٣٧٦ - ٣٨٠ .

ورافقها سرية من الدبابات مع خمس كوكبات شركسية فضلا عن عدد من السيارات الرشاشة[٦٩] .

كانت الخطة الفرنسية تقضي بهجوم هاتين الحملتين على بلدة المجدل من الجنوب والغرب ومن الشمال الشرقي . وتصدى الثوار الدروز لهاتين الحملتين في اكثر من موقع خلال عبورهما الى البلدة . ومن اشهر تلك المعارك معركة خان ارينبه (٣٠ آذار ١٩٢٦) حيث اجبروا القوات الفرنسية على التراجع حتى القنيطرة . ثم حققوا انتصارا آخر على القوات الفرنسية في موقعة غجر في الاول من شهر نيسان وتمكنوا من ايقاف تقدمها عند وادي العسل بعد معركة عنيفة جرت بالسلاح الابيض وكان على رأس الثوار الامير عادل ارسلان واحمد مريود[٧٠] .

ولكن القوات الفرنسية تمكنت في نهاية المطاف وبفضل تفوقها العددي وقوة عتادها الحربي من ان تضرب طوقا من الحصار على بلدة المجدل من جميع الجهات تقريبا ، وبدأت هذه القوات هجومها على البلدة في اليوم الثالث من شهر نيسان . ولكن سكان البلدة تصدوا ببسالة للقوات المغيرة وخاضوا ضدها معركة غير متكافئة طوال النهار . وتذكر المصادر الدرزية انه لم يكن من السهل على القوات الفرنسية ان تدخل المجدل لو لم يجبر بعض ابنائها على ترك البلدة للدفاع عن احد المعاقل في جبل حرمون حيث لجأت اليه نساؤهم واولادهم . وكان احد الخونة من قرى الجوار قد اهدى القيادة الفرنسية الى ذلك المكان . وعلى الرغم من شراسة الهجوم الفرنسي فقد تمكن الباقون من رجال البلدة ان ينسحبوا باتجاه منطقة اللجاه تاركين ساحة المعركة مليئة بجثث القتلى . اما القوات الفرنسية فقد دخلت بلدة مجدل شمس بعد تدميرها بقنابل الطائرات والمدفعية وانشأت فيها قاعدة عسكرية كبيرة[٧١] .

الزحف على السويداء :

وبعد ان تمكن الجنرال غاملان من السيطرة على اقليم البلان ووادي التيم ،

---

٦٩ ـ الكتاب الذهبي ، ص ١٧٦ ـ ١٨٢

٧٠ ـ المصدر نفسه ، ص ١٨٣ ، وسلامة عبيد ، المرجع السابق ، ص ١٨٥

٧١ ـ سعيد فرنسيس ، بنو معروف في ساحات المجد (بيروت لات) ص ١٠ ـ ١٤ ، كذلك راجع الكتاب الذهبي ، ص ١٨٤ ، وامين سعيد ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٢٥

وضع خطة عسكرية لضرب بلدة السويداء عاصمة جبل الدروز والمركز الرئيسي للثورة فيه . ورأت القيادة الفرنسية عن حق بأن القضاء على قلب الثورة السورية في حوران كان يعني نهاية الثورة . وبعد تجمع القوات الفرنسية خلال شهر نيسان في ازرع وبصر الحرير وجه غاملان حملتين من تلك القوات بلغ عدد افرادها اكثر من عشرة الاف مقاتل . وتألفت الحملة الاولى من ستة الوية وثلاث كوكبات ومفرزة رشاشات وبطاريتين مدفعية ٧٥ وكتيبة فنية ومفرزتين من العربات الرشاشة ومئات الشاحنات المحملة بالمؤن والذخيرة . وسلكت هذه الحملة طريق ازرع ـ المسيفرة ـ تل الحديد وكانت بقيادة الجنرال اندريا . اما الحملة الثانية فقد تألفت من خمسة الوية وكوكبتين ومفرزة رشاشات وكوكبة سيارات رشاشة وبطاريتين ٦٥ وسرية فنية بقيادة الضابط بيشو[٧٢] .

سلكت الحملة الثانية طريق عرى السويداء على ان تلتقي بالحملة الاولى في الوسيداء نفسها . ولكن بيشو قائد الحملة الخفيفة نجح في خداع الثوار عندما اشاع انه سيتوجه الى بلدة صلخد اولا مما جعل الثوار يوزعون قواهم لحماية البلدتين المستهدفتين بدل ان يركزوا قواتهم في بلدة عرى . وما ان وصلت حملة بيشو الى مشارف عرى حتى استنهض الثوار سكان البلدة وتصدوا للقوات الفرنسية بما لديهم من امكانيات عسكرية محدودة وكبدوها خسائر ملحوظة . الا ان الحملة استطاعت ان تدخل البلدة عند الظهيرة بعد معركة ضارية[٧٣] .

وفي الوقت ذاته كانت حملة الجنرال اندريا تتقدم باتجاه السويداء مستعينة بسلاح المدرعات والمدفعية وجابهت اثناء تقدمها مقاومة عنيفة من الثوار الدروز . واستطاع الثوار اكثر من مرة التغلغل في خطوط القوات الفرنسية واوقعوا بها خسائر لا يستهان بها بلغت بحسب ما ورد في بعض المصادر الفرنسية اكثر من ثمانين قتيلا بينهم ستة ضباط ونحو مئتين وثمانين جريحا . اما خسائر الثوار الدروز فقد بلغ عددها بحسب المصادر نفسها حوالي خمسماية قتيل . لقد خاض الثوار منذ البداية معركة غير متكافئة اذ قدرت المصادر الفرنسية عددهم بنحو ستة الاف مقاتل بينما زاد عدد القوات

---

٧٢ ـ اندريا ، **المصدر السابق** ، ص ١٥١ ، **الكتاب الذهبي** ، ص ١٨٥

٧٣ ـ لمزيد من التفاصيل ، راجع :

اندريا ، **المصدر السابق** ، ص ١٦٦ ـ ١٦٨ كذلك شهبندر ، **مذكرات** ، و ص ١٠٤ ـ ١٠٥

الفرنسية على عشرة الاف جندي مجهزين بشتى انواع الاسلحة الثقيلة والخفيفة والمتفوقة على سلاح الثوار . ودخلت القوات الفرنسية بلدة السويداء ظافرة واضطر الثوار للتراجع نحو الجبل ولكن بعضهم رفض التراجع وظلوا على حد قول قائد الحملة الفرنسية الجنرال اندريا « يطلقون النار وهم منبطحون على الارض حتى مرت فوقهم العربات فسحقتهم »[٧٤] .

نهاية الثورة :

وعلى الرغم من هذه التضحيات فقد كان انتصار الفرنسيين في معركة السويداء بمثابة الضربة الموجعة التي تلقاها رأس الثورة السورية الكبرى . لقد كانت هذه الضربة نكسة خطيرة في تاريخ الثورة ، فلم تقتصر آثارها السلبية على منطقة جبل حوران بل تعدتها الى سائر المناطق التي بلغتها الثورة . واستطاعت السلطات الفرنسية خلال هذه الفترة وبعدها ان تحاصر الثورة في مختلف المناطق وحالت دون امتدادها الى اماكن اخرى . وكان بعض المجاهدين قد حاولوا اشعار نار الثورة في مناطق جديدة عن طريق حرب العصابات بغية تشتيت القوات الفرنسية وبعثرة جهودها . ويجدر بنا في هذا الحال ان نذكر انتفاضة المجاهد توفيق هولو حيدر الذي احتل مدينة بعلبك خلال ربيع ١٩٢٦ وتصدى للقوات الفرنسية اكثر من مرة بنجاح ، ولكنه اضطر فيما بعد لترك بعلبك ليساند الثوار في الغوطة وبعدها في الجبل[٧٥] .

اما محاولة الثائر سعيد العاص اشعال نار الثورة في منطقتي الضنية وعكار في لبنان فقد خنقتها السلطات الفرنسية في مهدها بعد ان اعتقلت عددا من الثوار وبعض الزعماء الوطنيين في طرابلس . ولم تكن الثورة اوفر حظا في منطقة الغوطة اذ استطاعت القوات الفرنسية ان تحاصر قرى الغوطة بعد معركة السويداء وان تقضي على جيوب المقاومة فيها[٧٦] . وعبثا حاول الامير عادل ارسلان بعد ذلك تثبيت اقدام الثورة في اقليم البلان من جديد واضطر بدوره للتراجع نحو

---

٧٤ ـ الكتاب الذهبي ، ص ١٩١ ، واندريا المصدر السابق ص ١٥٧ ـ ١٧٦ كذلك راجع ايضا ص ١٦٥ من المصدر نفسه . راجع ايضا ، الحلبي مذكرات ص ١٢٥ ـ ١٢٨ والبشير ، عدد ٣٤٨١ (١٨ أيار ١٩٢٦)
٧٥ ـ سعيد المصدر السابق ج ٣ ، ص ٤٥٩ ، والسفرجلاني المرجع السابق ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨
٧٦ ـ الكتاب الذهبي ص ١٩٧ ـ ٢٠٥

منطقة اللجاة . اما في جبل حوران فقد ترك احتلال السويداء اثرا سيئا في نفوس الناس واخذ المشككون والمترددون منهم في تأييد الثورة يعلنون استسلامهم للسلطات الفرنسية . والواقع ان قسما من الذين اعلنوا خضوعهم للفرنسيين قد تأثروا بالدعاية الفرنسية وما كان اعوانها يطلقونه مع اشاعات حول ما يمكن ان توقعه الجيوش الفرنسية من خراب ودمار في قرى الجبل اذا لم يستسلموا . وفعلت سياسة الترهيب والترغيب فعلها في القسم الاخر من المستسلمين اذ شهد هؤلاء بام عينهم الدمار الذي احاق بالقرى التي جرت فيها اعنف المعارك بين الثوار والقوات الفرنسية . وكان لتفوق القوات الفرنسية عدة وعددا ولامكانات الثوار المحدودة اثر سيء في نفوس هؤلاء المترددين والمشككين في امكان نجاح الثورة وبسلامة اهدافها .
اما السبب الاخر لهذا الاستسلام فيمكن رده بالفعل الى وضع سكان الجبل السيء من جراء الحرب إذ خسر هؤلاء اموالهم وكثيرا من ابنائهم ولم يبق لهم سبيل آخر للصمود طالما ان قادة الثورة عجزوا عن تأمين الحد الادنى من مقومات هذا الصمود .

والدليل على ذلك ما ورد في بعض المصادر عن موقف عدد من اهالي قرى الجبل ازاء الاستمرار في الثورة بعد معركة السويداء . ففي اجتماع ابو زريق في المقرن الشمالي الذي حضره قادة الثورة وطلبوا فيه من الحاضرين الاستمرار في مقاومة الفرنسيين وقف احد اعيان القرى ليقول : « اننا لا نقوى على متابعة القتال لاننا لا نملك شيئا نأكله فغلالنا لم تجمع بعد وعلينا ان نقوم بالحصاد لنبعد المجاعة عن عائلاتنا . اننا لن نعلن استسلامنا في السويداء ولكن لن نقاوم الفرنسيين اذا مروا بقرانا »[٧٧] .

وعلى الرغم من الضيق الذي كان يعانيه دروز جبل حوران خلال هذه الفترة ، فقد استمرت جماعات من ابنائهم الثوار بمضايقة القوات الفرنسية بشتى الطرق وقد شجعهم على هذا الاستمرار بعض المساعدات المحدودة التي كانت تصلهم من المهاجرين عن طريق رشيد طليع . اما السلطات الفرنسية فقد استأنفت بدورها العمليات العسكرية لاخضاع ما تبقى من جبل حوران مستعينة ببعض الدروز المستسلمين لها .

---

٧٧ - راجع اندريا ، **المصدر السابق** ، ص ١٩٨ - ١٩٩

اتخذت السلطات الفرنسية بلدة السويداء قاعدة لتجمع قواتها العسكرية وشرعت بتحصين البلدة وحشد المؤن والذخيرة لاستئناف اعمالها الحربية ضد مواقع الثورة الاخرى في الجبل. وفي الخامس عشر من ايار وجه الجنرال اندريا حملة من هذه القوات لاحتلال بلدة شهبا ، فتصدى لها الثوار في قرية عتيل واوقعوا بها بعض الخسائر الا ان القوات الفرنسية تمكنت من دخول تلك البلدة الاثرية واقامت حامية فرنسية فيها[٧٨] . واعقب هذا الانتصار الفرنسي الجديد على قوات الثورة استسلام عدد من قرى المقرن الشمالي باستثناء وادي اللوا الذي بقي ثائرا بقيادة الشيخ عز الدين الحلبي ومنطقة اللجاة . الا ان القيادة الفرنسية ارتأت تأجيل الزحف الى هذه المنطقة وتوجيه اهتمامها نحو قرى المقرن الجنوبي الثائرة . وفي اوائل شهر حزيران بعث الجنرال اندريا حملة كبيرة مؤلفة من ثمانية الوية وفيلقا من الجنود المراكشيين يصحبها كوكبة من السيارات الرشاشة وسريتان من الدبابات واربع بطاريات من المدفعية لاحتلال بلدة صلخد . وما ان وصلت تلك الحملة الى قرية ام الرمان حتى لقيت مقاومة عنيفة من الثوار الذين استولوا على بعض المدرعات الفرنسية واحرقوها في قلب البلدة . ولكن الحملة الفرنسية تمكنت من السيطرة على الموقف بفضل سلاح المدفعية وتابعت تقدمها الى بلدة صلخد واحتلتها رغم مقاومة الثوار[٧٩] .

كان سقوط صلخد بمثابة هزيمة اخرى للثورة في عقر دارها وتحديا كبيرا لزعامة قائدها سلطان باشا الاطرش . ولم تكتف القوات الفرنسية باحتلال تلك البلدة بل تقدمت الى بقية القرى المساندة للثورة في المقرن الجنوبي واضطر الثوار للانسحاب الى واحة الازرق في [illegible] ؛ التي هي امتداد لمنطقة حوران . واخذ الثوار من هناك يقومون بعمليات محدودة ضد القوات الفرنسية واشتبكوا معها اكثر من مرة وحققوا في موقعة قيصا انتصارا كبيرا على تلك القوات . بيد ان تلك العمليات العسكرية اقلقت بال السلطات الفرنسية فسعت لعقد اتفاق مع البريطانيين يقضي باقصاء الثوار من منطقة الازرق . ولم تمض فترة قصيرة حتى ارسلت السلطات البريطانية قواتها الى تلك المنطقة لتطبيق الاتفاق واحرق البريطانيون الخيام التي نصبها الثوار

---

٧٨ ـ المصدر نفسه .ص ٢٠٨ ـ ٢١٧

٧٩ ـ المصدر نفسه ص ٢٢٦ ـ ٢٤٥ وكذلك الكتاب الذهبي ص ١٩٢ ـ ١٩٥

لخصومهم السياسيين من جهة وواقع عامة الدروز المتردي من جهة ثانية جعل تلك الانتصارات العسكرية تنقلب الى خسائر سياسية متوالية تكرست رسميا بعد انشاء نظام المتصرفية في لبنان .

واذا كان نظام المتصرفية قد اعطى الموارنة حقوقا وامتيازات لم تكن لهم من قبل وجسد الى حد ما المشروع الفرنسي لانشاء دولة مسيحية في لبنان . فان وضع الدروز السياسي في النظام الجديد كان قد وصل الى الحضيض . وغدا الدروز اكثر ضعفا من ذي قبل وأصبحوا اقلية ذات تأثير سياسي محدود بخاصة بعد ان سلخت مناطق حاصبيا وراشيا ذات الاغلبية الدرزية عن الجبل والتي كانت تقليديا تابعة للامارة اللبنانية .

الا ان هذا الضعف السياسي الذي مني به الدروز في لبنان خلال القرن التاسع عشر كان يعوضه بالمقابل انتصارات عسكرية وسياسية كان يحققها الدروز في جبل حوران (جبل الدروز) . وحيث سمحت طبيعة الحياة في ذلك الاقليم بالاستفادة من تفوق الدروز القتالي ، تربية ومهارة وشجاعة ، كان الدروز في جبل حوران ينتقلون من نصر الى نصر . وربما كانت الاخطار التي أحدقت بهؤلاء النازحين من كل جانب قد علمتهم عدم التراخي او التهاون مع خصومهم والتمسك بكل ما لهم من حقوق الى اقصى الحدود والتضحية في سبيل المحافظة عليها . وما سلسلة المعارك والحروب التي خاضها الدروز في جبلهم لرد غزوات البدو أو لصد قوات ابراهيم باشا المصري ومن بعدها الحملات العثمانية المتكررة الا من اجل المحافظة على وجودهم وحقوقهم في ذلك الاقليم . ويمكن اعتبار تلك الانتصارات العسكرية المتلاحقة التي حققها الدروز هناك ضد قوات ابراهيم باشا والقوات العثمانية دليلا اخر على تفوق الدروز العسكري وعلى مقدرتهم في استغلال تلك الميزة القتالية لكسب مركز سياسي افضل ، ولتقوية وحدتهم السياسية . ومن الملاحظ انه في الوقت الذي كان فيه الدروز في لبنان منقسمين الى طبقات وشيع وأحزاب متنافرة عملت على اضعافهم نرى مجتمع الدروز في جبل حوران اكثر توحدا وديمقراطية وهو اشبه بعشيرة يتساوى افرادها في الحقوق والواجبات ولا يتميز احدهم على الآخر الا بما يستطيع ان يقدمه لخدمة ابناء قومه .

وما يسترعي الانتباه حقا في تاريخ الدروز في جبل حوران خلال هذه الفترة

تأصل الروح العربية الدرزية في معناها العشائري الموروث عن اسلافهم قبل نزوحهم الى جبل الدروز . اذ لم تنتقل اليهم عدوى التصنيف الطبقي والعائلي الذي كان يسود النظام الاقطاعي الدرزي في لبنان خلال هذه الفترة والذي جزأه الى طبقات اجتماعية واقتصادية متفاوتة واحزاب وفئات سياسية متنافرة . وحيث تميزت طبقة العامة في لبنان بانقيادها لزعماء الاقطاع فان عامة الدروز في جبل حوران خرجت على زعمائها من آل الحمدان ثم آل الاطرش عندما شعرت ان روح الاقطاع اخذت تتسرب الى هؤلاء الزعماء .

وفوق هذا كله جسد المجتمع الدرزي في جبل حوران مبدأ مساعدة اخوانه الدروز في الظروف الحرجة والصعبة . وتناسى ابناؤه الهجرة القسرية التي فرضها عليهم القيسيون في لبنان . ليستقبلوا كل لاجيء مظلوم او حتى فقير معدم . وخفّوا في اكثر من ظرف حرج لنجدة اخوانهم في لبنان ربما للوقوف معا في وجه خطر مصيري . ولا يستطيع الباحث في هذا المجال الا ان ينوه بتلك الصلات الوثيقة التي كانت قائمة بين الدروز في مختلف انحاء بلاد الشام . وبعض هذه الصلات كانت مبنية ولا تزال على القرابة العائلية التي تجمع بين الاسر الدرزية المختلفة . اذ ان العديد من العائلات الدرزية لها فروع في غير قرية ومنطقة . وكان يشد اواصرها حصر الزواج ضمن المجتمع الدرزي والهجرة المتبادلة ومناصرة بعضهما البعض خاصة في الظروف الصعبة . وهذا ما حدث مثلا ابان الثورة ضد ابراهيم باشا حيث خف دروز لبنان لمساندة اخوانهم في منطقتي راشيا وحاصبيا ثم ليعلنوا بدورهم الثورة في لبنان . وجاء دروز الجبل لنجدة اخوانهم في حوادث سنة ١٨٦٠ في لبنان كما تطوع العديد من دروز لبنان في صفوف الثورة الدرزية عام ١٩٢٥ . وقد وجد دروز لبنان ملاذا دائما لهم عند اخوانهم واقربائهم في جبل الدروز في حوران . وكثيرا ما لجأوا اليه افرادا وجماعات في الاوقات العصيبة لا سيما في اعقاب حوادث ١٨٦٠ الطائفية والمجاعة التي حدثت ابان الحرب الكبرى في لبنان .

واذا كان التردي المستمر في اوضاع الدروز السياسية والاقتصادية من ميزات تاريخ الدروز في لبنان خلال القرن التاسع عشر فان النصف الاول من القرن العشرين شهد تحسنا ملموسا في الاوضاع الثقافية والاقتصادية الدرزية . فبعض الدروز استفادوا من النهضة الثقافية التي شهدها لبنان لا سيما في المناطق التي انتشرت فيها مدارس الارساليات البروتستانتية . وتخرج العديد من هؤلاء من

الجامعات المحلية والاجنبية في مختلف حقول الاختصاص . اما على الصعيد الاقتصادي فقد هاجر عدد كبير من الدروز الى البلدان الاميركية وأوستراليا وبعض الدول الافريقية يحدوهم في ذلك طموح فردي لتحسين اوضاعهم الاقتصادية والمعيشية .

اما على الصعيد السياسي فقد تركت النهضة الثقافية في المشرق العربي اثارا واضحة على وعي الدروز القومي العربي بخاصة عند المثقفين منهم . وبرز عدد من هؤلاء في مختلف الجمعيات السياسية التي تأسست في اواخر العهد العثماني بغية الدفاع عن حقوق العرب داخل الامبراطورية العثمانية . كان بعض هؤلاء المثقفين كالامير شكيب ارسلان يسعى للتوفيق بين القومية العربية والوحدة الاسلامية . غير ان الجمعيات التي كانت تدعو لاستقلال البلاد العربية عن الاتراك استقطبت عددا اكبر من مثقفي الدروز ، ولعل وعي هؤلاء المثقفين لتراث الدروز العربي نسبا ولغة وثقافة وتاريخا فضلا عن العداء العثماني للدروز كان يدفعهم لتأييد التيار العروبي المتجه نحو الانفصال عن الدولة العثمانية . وهذا ما يفسر حماس الدروز عامة لثورة الشريف حسين في الحجاز وتأيدهم للامير فيصل كما رأينا . لا بل نجد احد فتيان الدروز المثقفين كفؤاد سليم مثلا يتكبد المخاطر من اجل الالتحاق في الثورة العربية في الحجاز .

واستهوت اقامة دولة عربية موحدة تشمل بلاد الشام حماسة الدروز ايضا . وعلى الرغم من وعي الدروز لكونهم اقلية صغيرة في مثل هذه الدولة ، فان حماستهم القومية كانت تظهر اقوى بكثير من شعورهم كأقلية . وربما كان الدروز ولا يزالون ابعد الاقليات في المشرق العربي شعورا بخوف الاقلية وضعفها . وليس في تاريخهم السياسي القديم والحديث ما يدل على انهم عملوا من اجل تحويل خصوصية مذهبهم الى قومية درزية . وهذه الظاهرة تجلت حتى في الفترات التي كان باستطاعة الدروز ان يؤسسوا دولة خاصة بهم كما كان الحال في العهدين التنوخي والمعني . وكثيرا ما لجأ العثمانيون الى الطعن بمذهبهم من اجل تأليب العرب السنة ضد الدروز في جبل حوران . غير ان الدروز في جبل حوران اظهروا حماسة لا مثيل لها للقومية العربية حتى على حساب مصالحهم الدرزية الصرف في عهد الانتداب الفرنسي . ويمكن اعتبار الثورة الدرزية ضد الانتداب الفرنسي سنة **١٩٢٥** ثورة عربية في مسارها . اذ ان العداء الدرزي الفرنسي يومذاك لم يكن دينيا بل قوميا . ومما يؤكد

هذا المنحى رفض قائد الثورة الدرزية سلطان الاطرش للدولة الدرزية ومطالبته بالوحدة مع البلاد السورية . كما ان قادة الثورة الدرزية رفضوا في اوج انتصاراتهم العسكرية التخلي عن المبادىء القومية العربية للثورة مقابل امتيازات خاصة تمنحها سلطات الانتداب للدروز .

انتهت ثورة الدروز ضد الانتداب الفرنسي بخسارة عسكرية وسياسية بسبب ضعف وتلكؤ سائر القوى العربية انذاك عن دعمها . غير ان الثورة وضعت الدروز في طليعة حركة التحرر العربي بخاصة ان الدروز تحملوا القسط الاكبر من الخسائر البشرية والمادية . وباستثناء محاولات التصدي للاستعمار الصهيوني في فلسطين فلم تقم خلال عهد الانتداب اية حركة ثورية مماثلة في المشرق العربي .

وبعد القضاء على الثورة الدرزية وتشريد زعمائها انكفأ الدروز نحو النضال السياسي طيلة عهد الانتداب . واتسم موقفهم العام بمعارضة سلطات الانتداب والمتعاونين معها .

اما في عهد الاستقلال فان الدروز سواء في لبنان ام في سوريا كانوا من دعائم الحكم الوطني في كلا البلدين . ففي لبنان قام الامير مجيد ارسلان بدور بارز في ادق مرحلة مر بها العهد الاستقلالي في ايامه الاولى . اذ بعد ان اعتقلت السلطات الفرنسية معظم اعضاء الحكومة الاستقلالية الاولى اتخذ الامير مجيد ارسلان مع حبيب ابي شهلا من بلدة بشامون الدرزية مقرا للحكومة الشرعية . واعترف المجلس النيابي بتلك الحكومة . وعمل الدروز على حماية اعضائها ، وتصدوا للقوة الفرنسية التي هاجمت مقر الحكوْمة اللبنانية وقدموا شهيدا في سبيل الاستقلال هو سعيد فخر الدين .

وساهم الدروز في دعم مواقف السلطات في كلا البلدين الوطنية والقومية وانضوى كثيرون منهم في الاحزاب الوطنية والقومية . وبعضهم رأى في الحزب « السوري القومي الاجتماعي » الذي تأسس سنة **١٩٣٢** ما يصبو اليه من الاماني القومية . بخاصة ان هذا الحزب كان ينطلق من مبدأ وحدة بلاد الشام الجغرافية وتأسيس دولة علمانية عن طريق فصل الدين عن الدولة . اما في سوريا فقد انخرط العديد من شباب الدروز في الاحزاب القومية العربية وبخاصة حزب البعث العربي الاشتراكي . الا ان القسم الاكبر من شباب الدروز في لبنان رأى في الحزب

التقدمي الاشتراكي ضالته المنشودة اذ ان مبادىء الحزب التقدمية والعربية وكون مؤسسه زعيما درزيا مثقفا استقطب العديد من الدروز .

اما الدروز في فلسطين الذين لم يذكروا في هذه الدراسة كمجموعة منفصلة عن دروز بلاد الشام فلا بد في هذه المرحلة من فصلهم عن بقية الدروز . اذ بعد استقلال كل من سوريا ولبنان ومن ثم اغتصاب فلسطين ، اصبح الدروز في فلسطين يعيشون في ظل الاحتلال الصهيوني مما حال دون استمرار الصلات السابقة التي كانت تربطهم ببقية الدروز في انحاء بلاد الشام .

لقد كان الدروز في فلسطين ولا يزالون يشكلون اقلية ضئيلة بين سكانها العرب . وكان عددهم اثناء وقوع الاحتلال الصهيوني لا يتجاوز الخمسة عشر الفا موزعين على ثماني عشرة قرية يقع معظمها في الجليل وبعضها في جبل الكرمل . وهي قرى جبلية وعرة المسالك فقيرة الموارد ، ارضها قليلة الخصب يعيش معظم سكانها على الزراعة البعلية ورعي المواشي . وهؤلاء السكان هم اكثر الدروز فقرا والقليل منهم تسنى له قبل الاحتلال وبعده الحصول على شهادة جامعية او أصاب من رزقه ثروة مادية ذات شأن . اما بعض الدروز الذين هاجروا الى المدن وهم قلة فقد تسنى لهم بعض الثقافة والوعي السياسي فانخرط قسم منهم قبل الاحتلال في الاحزاب العربية الوطنية كما أسس بعضهم النوادي والجمعيات الخيرية .

وعلى الرغم من التخلف الاقتصادي والثقافي والاجتماعي الذي ساد المجتمع الدرزي في فلسطين فقد ساهم الدروز هناك منذ وقت مبكر في حركات التصدي العربية للاستيطان الصهيوني واشتركوا بشكل فعال في عصابة الكف الاخضر التي اسسها احمد طافش في منطقة صفد سنة **١٩٢٩**(*) . كما اشتركوا في ثورة **١٩٣٦** واستشهد العديد منهم كمحمود ابو يحي وغيره .

وتطوع العديد من هؤلاء الدروز في حرب فلسطين سنة **١٩٤٨** . وانخرط البعض منهم في الفوج الدرزي الذي قاده شكيب وهاب وخاضوا الى جانب العرب عدة معارك في الجليل . كما ان فوج جبل الدروز وسرية درزية من الاقليم ووادي العجم بقيادة الضابط مفيد غصن وعدة مفارز درزية اخرى كانت تقاتل في صفوف

---

*١ - راجع بهذا الشأن ، غالب ابو مصلح ، الدروز في ظل الاحتلال الاسرائيلي (بيروت ، ١٩٧٥) .

جيش الانقاذ . وابرز المعارك التي خاضها الدروز يومذاك ضد القوات الصهيونية في الجليل كانت معركة الهوشي والكساير وقد خسر الدروز في هذه المعركة نحو مئة شهيد وعددا كبيرا من الجرحى . غير ان وضع الدروز المقاتلين في فلسطين لم يكن افضل من بقية القوات العربية المقاتلة فوقع الاحتلال الصهيوني على القسم الاكبر من فلسطين وشمل القوى الدرزية في الجليل .

ومع قيام دولة اسرائيل لم يتبع الصهاينة سياسة خاصة تجاه الدروز الا ضمن اطار السياسة الصهيونية القائمة على التفرقة الطائفية بين العرب وذلك على عكس ما اشيع واتهم به دروز فلسطين من تحالف مع الصهاينة . وتعززت هذه الاشاعات بعد ان بقي الدروز في منطقة الجليل في قراهم في أعقاب حرب فلسطين . والواقع ان بعض الدروز القليلين الذين وقفوا مع الصهاينة خلال هذه الفترة لاسباب انية وشخصية لم يختلفوا في موقفهم هذا عن بقية ابناء الطوائف العربية الاخرى الذين وقفوا الى جانب الصهاينة «للاسباب نفسها . والدليل على انه لم يكن للاسرائيليين سياسة خاصة تجاه الدروز انذاك هو تمثيل الطوائف العربية الاخرى في الكنيست الاسرائيلي منذ عام ١٩٤٩ دون الدروز ، اذ رشح حزب العمل الاسرائيلي يومذاك عضوين عربيين احدهما سنى حاز على وسام محاربي الاستقلال الاسرائيلي والاخر مسيحي . ولم يمثل الدروز في الكنيست الا بعد مضي عدة سنوات على الاحتلال . اما لماذا لم يترك الدروز قراهم ويطردون الى خارج اسرائيل اثر حرب فلسطين فذلك لا يعود لعطف الصهاينة الخاص على الدروز بل لاسباب اخرى ابرزها ان وقوع القرى الدرزية في منطقة وعرة فقيرة التربة قليلة المياه عديمة الاهمية استراتيجيا جعلها اقل المناطق جاذبية للاستيطان الصهيوني . فضلا عن ان الصهاينة كانوا يدركون مدى تشبث الفلاح القروي الدرزي بأرضه اذ لم تؤثر بهم سياسة الصهاينة لطرد العرب من ارضهم . كما ان الصهاينة كانوا يعرفون جيدا بان تخلف الدروز الاقتصادي والثقافي والسياسي سيبقيهم في قبضة اسرائيل الحديدية . لا بل يمكن في هذه الحالة استغلال الدروز دعائيا لاهداف اكثر خطورة على صعيد العالم الخارجي . وهذا ما حدث فعلا فيما بعد اذ عملت اسرائيل على تطبيق قانون التجنيد على الدروز مستغلة بذلك فقرهم وتخلفهم ولتظهر نفسها امام العالم الخارجي انها دولة ديمقراطية . وبالتالي لتفصل الدروز عن بقية الطوائف العربية

كمقدمة للقضاء على هويتهم العربية* . ولم يكن من الصعب على السلطات الاسرائيلية ان تجند بعض المتنفعين الدروز لدعم سياستها هذه وذلك على الرغم من المعارضة الدرزية المستمرة للتجنيد . بل ان السلطات الصهيونية كانت تلجأ دائما الى اساليب الضغط والاكراه من اجل تطبيق قانون التجنيد الاجباري على الدروز وسجنت الكثيرين ممن تخلفوا عن الخدمة العسكرية . غير ان الذين كانوا يخدمون طوعا في الجندية فقد كانت حاجتهم المادية الدافع الاساسي لذلك . ولم يكن المجندون من هؤلاء الدروز يعطون بأي حال اي مركز له شأن في الجيش الاسرائيلي ولا أن يكلفوا بأية مهمة قتالية على الحدود ، اذ على عكس ما حاول ان يشيعه المغرضون والجهلة من ان هؤلاء المجندين كانوا يقاتلون على مختلف الجبهات ضد العرب . وسبب ذلك بسيط للغاية وهو عدم ثقة السلطات الاسرائيلية بهؤلاء الدروز فضلا عن تخلفهم العلمي والثقافي . غير ان الخطير في هذا الامر هو محاولة اسرائيل الدعائية لاظهار الدروز كقوة ذات شأن داخل اسرائيل مثيرة من خلال ذلك الشكوك حول موقف الدروز من القضايا العربية القومية . والغريب ان وسائل الاعلام الصهيوني استطاعت احيانا ان تثير مثل هذه الشكوك عند بعض مصادر الاعلام في العالم العربي دون ان يفطن هؤلاء لمخطط الصهيونية القاضي بعزل الدروز عن قوميتهم العربية ، وبالتالي لخدمة اهداف اسرائيل البعيدة المدى والرامية الى تجزئة المشرق العربي الى كيانات ودول طائفية ومنها اقامة دولة درزية على حدودها الشمالية . وانكشف مخطط اسرائيل هذا بعد سقوط الجولان في حرب حزيران عام ١٩٦٧ اذ حاولت بمختلف السبل اغراء الدروز للسير في هذا المخطط . غير ان وعي الدروز ظل اقوى من مخطط الصهاينة .

ومع ازدياد وعي الدروز في الاراضي المحتلة لتراثهم العربي اشتدت وطأة الاحتلال على مناطقهم التي غدت لا تختلف عن بقية الاراضي العربية المحتلة بشيء سوى مزيد من الفقر والتخلف والجهل . واخذ مع الزمن ينكشف زيف الدعاية الصهيونية حول وضع الدروز « المميز » في اسرائيل . اذ الحقيقة تظهر ان الدروز مغلوبون على امرهم هناك وان سياسة الاستيطان الصهيوني قد ابتلعت القسم الاكبر

---

* راجع : صبري جرجس ، العرب في اسرائيل (بيروت ، مركز الابحاث ، ١٩٦٧) ص ١١٠ - ١١١ .

من اراضي القرى الدرزية في الجليل . واضطر العديد من فلاحي هذه الاراضي للعمل في مرافق اخرى بأجر زهيد . بيد ان هذا الوضع السيء افرز عددا من المناضلين الدروز في فلسطين ضد الاحتلال الاسرائيلي ولعل اشهر هؤلاء المناضلين الشاعر سميح القاسم .

اما الدروز في لبنان وسوريا فقد وقفوا دائما الى جانب الحق العربي في فلسطين كما عرفوا بتأييدهم لكافة حركات التحرر العربي . وكان ابرز من قاد هذا الخط القومي العربي بين الدروز الزعيم الراحل كمال جنبلاط سليل البيت الجنبلاطي الدرزي ومؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي في لبنان .

قام كمال جنبلاط بدور اساسي في السياسة اللبنانية عبر مواقفه السياسية التقدمية منذ مطلع الخمسينيات . وقد عرف على الصعيد اللبناني بنضاله الدؤوب من أجل تحديث النظام السياسي وتحقيق العدالة الاجتماعية . وقد مثل دورا اساسيا في الانقلاب السلمي الذي ادى الى استقالة الشيخ بشارة الخوري من منصب رئاسة الجمهورية اللبنانية سنة **١٩٥٢** . وقاد منذ ذلك الحين التيار الوطني اللبناني المناهض لسياسة الاحلاف الاجنبية في لبنان والدول العربية ، وكان مع اتباعه الدروز من ابرز عناصر المقاومة في ثورة **١٩٥٨** الوطنية .

وتجاوز دور كمال جنبلاط الاطار الدرزي واللبناني من خلال نضاله السياسي في سبيل نصرة القومية العربية والحق العربي في فلسطين والوحدة العربية حتى استشهاده فأصبح بين قادة العرب التاريخيين في هذا المضمار . لقد فهم كمال جنبلاط العروبة بمعناها الوحدوي والتقدمي والديمقراطي والانساني كما عرف بصلاته الواسعة والوثيقة مع حركات التحرر العالمية وبميوله الاشتراكية ونزعته الصوفية وثقافته السياسية والفلسفية العالية .

كان كمال جنبلاط قائدا لبنانيا وعربيا فذّا ، اعطى الدروز الكثير من العزة السياسية والمعنوية في تاريخهم المعاصر . وكان مؤهلا على صعيد دوره القيادي لاحياء دور الدروز التاريخي على الصعيدين اللبناني والعربي . غير ان هذا الدور لم يستطع الدروز احياؤه حتى الان بسبب ضعف الدروز العام فضلا عن الظروف السياسية والاجتماعية القائمة في محيطهم العربي ، اذ ان المقاييس الطائفية ما زالت تحد من قيمة الدور السياسي للدروز مهما كان موقفهم العام معبرا عن القضايا

الوطنية والعربية . كما ان الكيانات الطائفية القائمة في المشرق العربي كانت تحد دائما من طموح القيادات الفذة المتحدرة من اقليات مذهبية كالدروز . وربما لا تستطيع اية اقلية كالدروز القيام بدور هام في المستقبل الا في مجتمع علماني ديمقراطي . اما في ظل المجتمعات الطائفية القائمة فان اية اقلية كالدروز لن تستطيع المحافظة حتى على حقوقها الا من خلال التمسك بتلك الحقوق وتنمية كافة مؤسساتها في مختلف المجالات .

ولعله يستنتج من هذا العرض السريع لتاريخ الدروز السياسي ، بان الدروز رغم وجودهم كأقلية مذهبية فانهم لم يشعروا يوما انهم اقلية على الصعيد القومي . ولهذا يمكن القول ان الدور السياسي المهم الذي قام به الدروز في تاريخ المشرق العربي ناتج عن الفصل بين شخصيتهم الدينية وشخصيتهم الوطنية والقومية . وهذا ما جعلهم يبرزون من حيث العقيدة والاخلاق كما يبرزون من حيث النفوذ السياسي . ومع ان دورهم السياسي هذا كان متأثرا بمسلكهم الخلقي فانه لم يتحقق الا من خلال عدم تسييس عقيدتهم الدينية . كما يمكن القول ان النظام الطائفي السائد في لبنان هو نظام غريب عن تراث الدروز السياسي والاجتماعي والثقافي ، وقد فرض على الدروز فرضا مما يجعلهم يتعاملون مع النظام القائم بواقعية حفاظا على حقوقهم الاساسية . وربما يكون هذا التصرف السياسي حلا واقعيا غير انه لا يتعدى كونه حلا على المدى القصير اذ ان منطق الدروز السياسي الذي اكتسبوه عبر تاريخهم تجعلهم اكثر انسجاما مع نظام قومي غير طائفي . وهو النظام الذي لا يجعل الدروز يشعرون بانهم اقلية بل يدفعهم للمساهمة بشكل فعال ورئيسي في العمل القومي العربي . ومن خلال هذه المساهمة يستطيع الدروز ان يحققوا شخصيتهم القومية العربية ويقومون بدورهم الوطني كما قام به اجدادهم من قبل .

مصادر ومراجع مختارة

أ ـ الكتب المنشورة :

ابن البطريق ، سعيد .
التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق . تحقيق الأب شيخو . بيروت ، ١٩٠٥ ـ ١٩٠٩ .
ابن تغري بردى ، جمال الدين أبي المحاسن .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٩٣٣ .
ابن خلدون ، عبد الرحمن .
العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر . بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩ .

ابن خلكان ، أحمد .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . القاهرة : بولاق ، ١٢٩٩ هـ . .

ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة .
ذيل تاريخ دمشق . بيروت : نشر الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٨ .
ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد .
زبدة الطلب من تاريخ حلب . دمشق : المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥١ ـ ١٩٦٨ .

ابن عذارى المراكشي .

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . بيروت : دار الثقافة **١٩٦٧** .

ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أحمد .

الكامل في التاريخ . بيروت : دار صادر ، **١٩٦٥ - ١٩٦٧** . **١٣** ج .

ابن يحيى ، صالح .

تاريخ بيروت . نشر الأب شيخو اليسوعي ، بيروت ، **١٩٢٧** .

اسماعيل ، حقي .

لبنان مباحث علمية واجتماعية . تحقيق فؤاد افرام البستاني ، بيروت ، الجامعة اللبنانية ، **١٩٦٩** .

أبو اسماعيل ، سليم .

الدروز ، تعريف وتأليف وتصنيف . بيروت : مطابع فضول ، **١٩٥٥** .

أبو شقرا ، سامي .

مناقب الدروز في العقيدة والتاريخ . عماطور ، مكتبة ناصيف ، **١٩٧٩** .

أبو شقرا ، يوسف .

الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية . بيروت : تحقيق عارف أبو شقرا ، **١٩٥٢** .

أبو راشد ، حنا .

جبل الدروز . مصر : المطبعة التجارية الكبرى ، **١٩٢٥** .

أبو عز الدين ، سليمان .

ابراهيم باشا في سوريا . بيروت : المطبعة العلمية ، **١٩٢٩** .

أبو مصلح ، غالب .
الدروز في ظل الاحتلال الاسرائيلي . بيروت : ١٩٧٥ .
ارسلان ، الأمير شكيب .
الروض الشقيق في الجزل الرقيق . دمشق : مطبعة ابن زيدون ، ١٩٢٥ .
ارسلان ، الأمير شكيب .
سيرة ذاتية . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ .
ارسلان ، الأمير عادل .
ذكريات الأمير عادل ارسلان . بيروت ، ١٩٦٢ .
اندريا ، جنرال .
ثورة الدروز وتمرّد دمشق . ترجمة حافظ أبو مصلح ، بيروت : المكتبة الحديثة ، ١٩٧١ .

انطونيوس ، جورج .
يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ .
الاصفهاني ، حمزة .
تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء . ليبنرغ ، ١٨٤٤ .
الأطرش ، فؤاد .
الدروز ، مؤامرات وتاريخ وحقائق . بيروت ، ١٩٧٤ .
الأعظمي ، علي ظريف .
تاريخ ملوك الحيرة . مصر : المطبعة السلفية ، ١٩٢٠ .
الأمين ، محسن .
خطط جبل عامل . تحقيق حسن الأمين (بيروت ، مطبعة الانصاف ، ١٩٦١) .
الانطاكي ، يحيى بن سعيد .
تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي . تحقيق لويس شيخو بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٠٩ .

المقريزي ، تقي الدين أحمد .
اتعاظ الحنفاء بأخبار الأمة الفاطميين الخلفاء . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٤٨ .

المقريزي .
المواعظ والاعتبار . القاهرة . ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ .

باز ، رستم .
مذكرات رستم باز . بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٥٥ .

البستاني ، فؤاد افرام .
دائرة المعارف الحديثة . المجلد الخامس .

البستاني ، بطرس .
دائرة المعارف القديمة . المجلد السادس .

بيجه ده سان بيير .
الدولة الدرزية . ترجمة حافظ أبو مصلح . بيروت ، ١٩٦٧ .

بيهم ، محمد جميل .
لبنان بين مشرق ومغرب . ١٩٢٠ - ١٩٦٩ . بيروت ، ١٩٦٩ .

بيهم ، محمد جميل .
العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨ - ١٩٢٢ . بيروت ، ١٩٦٨ .

البلاذري ، أحمد بن يحي .
فتوح البلدان . طبعة دي غويه ، ليدن ، ١٨٦٦ .

تقي الدين ، حليم .
قضاء الموحدين الدروز في ماضيه وحاضره (كفرمتى ، ١٩٧٩) .

تقي الدين ، سليمان .
التطور التاريخي للمشكلة اللبنانية ، ١٩٢٠ - ١٩٧٠ .

(مقدمات الحرب الأهلية) بيروت : دار ابـن خلـدون ، ١٩٧٧ .

تقي الدين ، منير .
ولادة استقلال . بيروت ، ١٩٥٣ .

جنبلاط ، كمال .
حقيقة الثورة اللبنانية . بيروت ، ١٩٥٩ .

جنبلاط ، كمال .
في مجرى السياسة اللبنانية . بيروت ، ١٩٦٠ .

جنبلاط ، كمال .
هذه وصيتي / كمال جنبلاط . باريس : الوطن العربي ، ١٩٧٨ .

جيوش الشرق .
الكتاب الذهبي لجيوش الشرق الأوسط ، ١٩١٨ - ١٩٣٦ .
ترجمة ادوار البستاني ، بيروت ، ١٩٣٩ .

حتي ، فيليب .
لبنان في التاريخ . ترجمة الدكتور أنيس فريحة .
بيروت : دار الثقافة ١٩٥٩ .

حسين ، محمد كامل .
طائفة الدروز ، تاريخها وعقائدهـا . دار المعـارف بمصر ، ١٩٦٨ . ط٢ .

الحصري ، ساطع .
يوم ميسلون ، صفحة من تاريخ العرب الحديث .
بيروت : مكتبة الكشاف ومطبعتها ١٩٤٧ .

الحكيم يوسف .
سوريا والعهد الفيصلي . بيروت : المطبعة الكاثـوليكية ، ١٩٦٦ .

الحكيم يوسف .
بـيروت ولبنـان في عهـد آل عثمان . بـيروت : المطبعـة الكاثوليكية ، ١٩٦٤ .

حوراني ، البرت .
الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩ .
بيروت : دار النهار للنشر ، ط ٣ ، ١٩٧٧ .
الخالدي ، الشيخ أحمد بن محمد .
لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني .
بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية . ١٩٦٩ .
الخوري ، بشارة
حقائق لبنانية . بيروت منشورات أوراق لبنانية ، ٣ أجزاء ،
١٩٦٠ - ١٩٦١ .
الخوري ، شاكر .
مجمع المسرات . بيروت : ١٩٠٨ .
الدويهي ، اسطفان .
تاريخ الأزمنة . بيروت : نشر الأب فردينان توتل ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥١ .
الدويهي ، اسطفان .
تاريخ الطائفة المارونية . بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٩٠ .
رابطة العمل الاجتماعي .
الواقع الدرزي وحتمية التطور . بيروت ، ١٩٦٢ .
رستم ، أسد .
الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب . بيروت : دار المكشوف ، ١٩٥٦ .
رستم ، أسد .
بشير بين السلطان والعزيز .
بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٥٦ .
رستم ، أسد .
المحفوظات الملكية المصرية .
بيروت : الجامعة الأميركية ، ١٩٤٠ - ١٩٤٣ .

رستم ، أسد .
الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي .
بيروت : منشورات الجامعة الأميركية ، ١٩٣٠ - ١٩٣٤ .

رستم ، أسد .
لبنان في عهد المتصرفية .
بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٣ .

الريس ، منير .
الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي . الثورة السورية .
بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٩ .

الزعيم ، محمد سعيد .
مع ثورة حماه لسنة ١٩٢٥ وفي غياهب سجونها .
حلب : مطبعة الضاد ، ١٩٦٢ .

زكي ، عبد الرحمن .
التاريخ الحزبي لعصر محمد علي الكبير .
مصر : دار المعارف ، ١٩٥٠ .

زيادة ، نقولا .
أبعاد التاريخ اللبناني . القاهرة . معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٢ .

زيدان ، جرجي .
تاريخ آداب اللغة العربية . دار الهلال : لا . ت .

زين ، نور الدين زين .
نشوء القومية العربية . بيروت : دار النهار للنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩ .

زين ، نور الدين زين .
الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان .
بيروت : ١٩٧١ .

السفرجلاني ، محي الدين .
تاريخ الثورة السورية ، صفحات خالدة من روائع الكفاح العربي في سبيل الحرية والاستقلال والوحدة . دمشق : دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ، ١٩٦١ .

سرور ، محمد جمال الدين .
النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة . القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٥٧ .

سعيد ، أمين .
الثورة العربية الكبرى ، تاريخ مفصّل جامع للقضية العربية في ربع قرن . القاهرة ، لا . ت .

الشدياق ، طنوس .
أخبار الأعيان في جبل لبنان . بيروت : مكتبة الوفاء ١٩٥٤ .

شهاب ، موريس .
دور لبنان في تاريخ الحرير بيروت : منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٨ .

الشهابي ، حيدر .
الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان . نشر نعوم مغبغب . القاهرة : ١٩٠٠ .

الشهابي ، مصطفى .
القومية العربية ، تاريخها وقوامها ومراميها . القاهرة : ١٩٥٨ .

الشهبندر ، الدكتور عبد الرحمن .
الثورة السورية الوطنية (مذكرات) .
دمشق : الجزيرة : ١٩٣٣ .

صايغ ، أنيس .
الهاشميون والثورة الكبرى . بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٦

صايغ ، أنيس .
لبنان الطائفي . بيروت : دار الصراع الفكري ، **١٩٥٥** .

صفير ، بطرس .
الأمير بشير الشهابي . بيروت : دار الطباعة والنشر ، لا . ت .

صعب ، محمود .
قصص ومشاهد من جبل لبنان . بيروت : المجلس الدرزي للبحوث والإنماء ، **١٩٨٠** .

الصليبي ، كمال .
منطلق تاريخ لبنان . بيروت : منشورات كارفان ، **١٩٧٩** .

الصليبي ، كمال .
تاريخ لبنان الحديث . بيروت : دار النهار للنشر ، **١٩٧٨** .

ضاهر ، مسعود .
تاريخ لبنان الاجتماعي : **١٩١٤ - ١٩٢٦** . بيروت ، **١٩٧٤** .

الطبري ، محمد بن جرير .
تاريخ الرسل والملوك .

طربين ، أحمد .
لبنان منذ عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب . **١٨٦١ - ١٩٢٠** .
القاهرة . معهد البحوث والدراسات العربية . **١٩٦٨** .

طرخان ، إبراهيم .
النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى .
القاهرة : دار الكتاب العربي . **١٩٦٨** .

طليع ، أمين محمد .
أصل الموحدين الدروز وأصولهم . بيروت : دار الأندلس ، **١٩٦١** .

عبيد ، سلامة .
الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ على ضوء وثائق لم تنشر
بيروت : دار الغد . ١٩٧١ .

عثمان ، فتحي .
الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري .
الدار القومية للنشر . ١٩٦٦ .

العدوي ، أحمد .
الأمويون والبيزنطيون . القاهرة : مكتبة الانجلو- مصرية ، ١٩٥٣ .

العقيقي ، انطوان ظاهر .
ثورة وفتنة في لبنان . بيروت : نشر إبراهيم يزبك . لا . ت -

عواد ، عبد العزيز .
الادارة العثمانية في ولاية سوريا . ١٩٦٤ - ١٩١٤ .

القاهرة : ١٩٦٩ .

عوض ، محمد بن عبد العزيز .
الادارة العثمانية في ولاية سوريا القاهرة : ١٩٦٩ .

غيز ، هنري .
بيروت ولبنان منذ قرن ونصف قرن . تعريب مارون عبود .
بيروت : دار المكشوف . ١٩٤٩ .

فولني ، قسطنطين .
سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها أحد مشاهير الغربيين . ترجمة حبيب السيوفي . صيدا : مطبعة دير المخلص . ١٩٤٨ .

القاسمي ، ظافر .
وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى .
بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٦٥ .

القاوقجي ، فوزي
مذكرات فوزي القاوقجي ، ١٩١٢ - ١٩٣٢ . بيروت : دار القدس ، ١٩٧٥ .

قرألي ، بولس .
فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان . ادارته وسياسته .
١٥٩٠ - ١٦٣٥ . حريصا ، ١٩٣٧ .

قرألي ، بولس .
علي باشا جنبلاط والي حلب . ١٦٠٥ - ١٦١١ .
بيروت : ١٩٣٩ .

كرد علي ، محمد .
خطط الشام . دمشق : ١٩٢٥ .

كوثراني ، وجيه .
الاتجاهات الاجتماعية السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٢٠ .
بيروت : معهد الانماء العربي . ١٩٧٦ .

الكيالي ، عبد الرحمن .
الجهاد السياسي . حلب : المكتبة العصرية ، ١٩٤٦ .

لوكري ، ادوار .
احمد الجزار . ترجمة جورج مسرّة . سان باولو ، ١٩٢٤ .

لويس ، برنارد .
أصول الاسماعيلية . ترجمة خليل جلّو وجاسم الرجب .
مصر : دار الكتاب العربي . لا . ت .

ماجد ، عبد المنعم .
ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها . مصر : دار المعارف ، ١٩٦٨ .

المحبي ، محمد بن الأمين بن فضل الله .
خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر .
القاهرة : المطبعة الوهابية ، ١٢٨٤ هـ .

المحافظة علي .
الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩١٤ الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية .
بيروت : المطبعة الأهلية . ط . ١٩٧٨ .

مسعد ، بولس .
لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده . المطبعة السورية ، ١٩٢٩ .

مشاقة ، ميخائيل .
الجواب على اقتراح الأحباب . بيروت : نشر رستم وأبو شقرا .
بيروت : مديرية الآثار . ١٩٥٥ .

مشاقة ، ميخائيل .
مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان . مصر : نشر عبدو شخاتيري . ١٩٠٨ .

المعلوف ، عيسى اسكندر .
تاريخ فخر الدين المعني الثاني حاكم لبنان من سنة ١٥٩٠ - ١٦٣٥ م .
جونيه : مطبعة الرسالة اللبنانية ، ١٩٣٤ .

مكي ، محمد علي .
لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني . بيروت : دار النهار ، ١٩٧٧ .

مكارم ، سامي .
أضواء على مسلك التوحيد - الدرزية - بيروت : منشورات صادر ، ١٩٦٦ .

ناصر الدين ، أمين .
الأمراء آل تنوخ . أوراق لبنانية ، **١٩٥٧** .

نجار ، عبد الله .
بنو معروف في جبل الدروز . دمشق : المطبعة الحديثة ، **١٩٢٤** .

النصولي ، أنيس .
رسائل الأمير فخر الدين من توسكانا . بيروت : **١٩٤٩** .

نويهض ، عجاج .
أبو جعفر المنصور وعروبة لبنان ، لخم والمردة . بيروت : دار الصحافة . **١٩٦٢** .

نويهض ، عجاج .
التنوخي ، الأمير جمال الدين عبد الله والشيخ محمد أبو الهلال المعروف بالشيخ الفاضل . بيروت : دار الصحافة . ط . **١٩٦٣** .

الهمذاني ، حسين .
الصلحيون والحركة الفاطمية في اليمن . القاهرة : **١٩٥٥** .

هشي ، سليم حسن .
سجل محررات القائمقامية النصرانية في جبل لبنان . بيروت : منشورات المديرية العامة للآثار ، **١٩٧٤** - **١٩٧٩** . ٤ أجزاء .

هشي ، سليم حسن .
المراسلات الاجتماعية والاقتصادية لزعماء جبل لبنان خلال ثلاثة قرون (١٦٠٠ - ١٩٠٠) . الجزء الأول ، بيروت : مطبعة غانم . **١٩٧٩** - **١٩٨٠** .

لامنس ، هنري .
تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار .
بيروت : ط ٢ ، المطبعة الكاثوليكية ، **١٩١٣** . ج ٢ .

اليازجي ، ناصيف .

رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الاقطاعي .

حريصا : مطبعة القديس بولس . **١٩٣٦** .

يزبك ، يوسف إبراهيم .

ولي من لبنان ، سيرة العارف بالله الأمير السيد جمال الدين عبد الله التنوخي ـ قدس الله سرّه ـ بيروت : **١٩٦٠** .

اليعقوبي ، ابن واضح .

كتاب البلدان . ليون : طبعة دي جون **١٨٩٢** .

Bell, Gertrude. *Syria; the Desert And the Swon*. London, 1908.

Bouron, Capitaine N. *Les Druzes, Histoire du Liban et de la Montagne Houranaise*. Paris: 1930.

Chasseaud, G. W. *The Druzes of Lebanon, their Manners, Customs And History*. London , 1855.

Chevallier, Dominique. *La société du Mont-Liban à l'époque de la révolution Industrielle en Europe*. Paris, 1971.

Chrchill Charles. Mount *Lebanon; A ten year Residence From 1842-1852*. 2nd. edt. London ; 1853.

Chrchill Charles . *The Druzes And the Maronites under Turkish rule From 1840-1860*. London, 1862.

Doty, Bennet. J. *The Leigion of the Dammed*. London: the century co. 1928.

Ehrenkreutz, Andrew S. *Saladin*. New York: state University of New York, 1922.

Fournier, A. *Napoleon I; Biography*. London, 1914.

Gibb, H. A. R. And Bowen, H. *Islamic Society And the west*. Oxford, 1950

Great Britain, Foreign Office. *Correspondance Relating to the Affairs of Syria 1860-61*.

Haydar, Ali. *Midhat bey, The life of Midhat Pasha*. London, 1903.

Herold, C. *Bonaparte In* Egypt. London, 1962.

Hitti, Philip. *The Origins of the Druze People And Religion*. New York: Colombia University Press, 1928.

Hourani. Albert. *Syria and Lebanon, A Political Essay*. London. 1959.

Howard, Harry. *The king-Crane Commission*. Beirut, 1963.

Hurewitz, J.C (*Diplomacy In the Near and the Middle East; a. Documentary Record*. Princeton: Van Nostrand, 1956

Ismail Adel. *Documents Diplomatiques Et Consulaires Relatifs A l'Histoire Du Liban Et des Pays Du Proche- Orient Du XVIIe Siècle A Nos Jours*. Beyrouth. 1975- 78. 12 Vols.

Izzedin, N.M. *The Racial Origin of the Druzes*. Chicago, 1944.

Jessup, Henry. H. *Fifty three Years In Syria*. New York, 1910.

Longrigg, S. *Syria And Lebanon Under the French mandate*. Oxford, 1958.

Mahan, A.T. *The Influence Of The Sea Power Upon The French Revolution And Empire; 1793- 1812*.

Makarem, Sami. *The Druze Faith*. New York: Caravan, 1974.

Mao's, Moshe. *Ottoman Reform In Syria And Palestine 1840- 61*. Oxford, 1968.

Maundrell, H. *A Journey From Aleppo To Jerusalem On Easter A.D. 1697*. London, 1810.

Maccaliom. Elizabeth. *The Nationalist Crusade in Syria*. New York; 1928.

Napier, Charles. *The War In Syria*. London, 1842.

Niebhur, Carstin. *Travels Through Arabia And Other Countries In The East*. Trans. by R. Heron. Edinburgh, 1972.

Parfit, J.T. *Among the Druzes Of Lebanon And Basham*. London, 1917.

Perrier, F. *Le Syrie sous Le Government de Mehmet Ali Jusqu'en 1840*. Paris, 1842.

Porter, J.L. *Giant Cities of Bashan And Syrian Holy Places*. London: T. Nelson And Sons, 1866.

Runciman, S. *A History Of The Crusades*. Colombia University Press, 1951.

Sacy, Silvestre de. *Exposé de la Religion des Druzes*. 2 Vols. Paris: Imprimerie Royale, 1838.

Salibi, Kamal. *Syria Under Islam, Empire on trial 634-1097*. Delmar: Carvan, 1977.

St. John, James. *Egypt And Mohammad Ali*. London, 1843.

Thiers, Louis A. *Expédition de Bonaparte en Egypte*. New York, 1894.

Temperly, Harold. *England And The Near East; The Crimea*. U.S.A.: Frank Cass And co., 2nd edt. 1964.

Touma, Toufic. *Paysans et Institutions Féodales chez les Druzes et les Maronites du Liban du XVIIe siècle à 1914*. Beyrouth, 1972.

Urquhart, David. *The Lebanon: A History And A Diary*, London; 1860.

Vasiliev, A.A. *History of the Byzantine Empire*. Madison: University of Wisconsin Press, 1952.

William of Tyre. *A History of the Deeds Done Beyond the sea*. Colombia University Press, 1943.

Wood Ward, E and Butler, B. edts. *Documents on British Foreign Policy 1919- 1939*. London, 1952.

Wright, Quancy. *Mandates Under the League of Nations*. Chicago: Chicago University Press, (N.d).

ب ـ المخطوطات :

ابن أحمد ، أبو الحسن علي.
واقعة السلطان سليم خان في فتوح مصر مع السلطان غوري وطومان باي .

ابن اسباط ، حمزة ابن الفقيه شهاب الدين أحمد . تاريخ ابن اسباط .

الأشرفاني ، محمد مالك . عمدة العارفين .

تقي الدين ، الشيخ زين الدين عبد الغفار . مختصر البيان في مجرى الزمان .

الحديثي ، نزار عبد اللطيف .
« أهل اليمن في صدر الاسلام ، دورهم واستقرارهم في الأمصار » (رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد ، ١٩٧٥).

الحلبي ، عز الدين . مذكرات . ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ .
الحياري ، مصطفى .
« الامارة الطائية في بلاد الشام في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين » (رسالة ماجستر مخطوطة ، الجامعة الأميركية في بيروت ، ١٩٦٩ .)
ديب ، كامل أمين .
« أسباب الفتنة الكبرى » (رسالة ماجستر غير منشورة ، الجامعة الأميركية ، ١٩٥٧) .
العقيلي ، يوسف . خبايا الجواهر . (المؤلف) .
القنطار ، علي سيف الدين .
مراسلات سرية عن ثورة سلطان (الأطرش) ، ١٩٢٢ .
القنطار ، علي سيف الدين . على هامش الثورة ١٩٢٥-١٩٢٧ ، مذكرات تاريخية .
عبيد ، علي . مذكرات عن الثورة الدرزية (ميكروفلم ـ مكتبة الجامعة الأميركية) .
النكدي، نسيب. تاريخ النكديين (مخطوط ـ مكتبة الجامعة الأميركية) .
نوفل، نسيم . كشف اللثام عن محي الحكومة والحكام في اقليمي مصر والشام.

Abusalih, Abbas. « The French Expedition to Egypt ». (M. A. Thesis. The University of Texas At Austin, 1969).
Mcdowell David « The Druze Revolt 1925- 1927. - And its Back ground in The Late Ottoman Period ». (B. Litt. Dissertation, Oxford, 1972.)

ARTICLES:

Bell, G. and Hogarth. «Druzes» *Encyclopaedia Britannica.* IIth ed. Vol. VIII.
Carra de Vaux. «Druzes» *Encyclopaedia of Islam.* Ist ed. Vol. I.
Hodgson, M.G.S. «Druz» *The Encyclopaedia of Islam.* New ed. Vol. II.

Salibi, K. «Fakhr Al-Din» *The Encyclopaedia of Islam*. New ed. Vol. II.
«Karamations» *The Encyclopaedia of Islam*. (New ed. Vol. II).
كندرمان هـ . « تنوخ » دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) المجلد الخامس .
ابو اللمع ، رئيف . « ابو اللمع » دائرة المعارف (ادارة فؤاد افرام البستاني) م ٥ .
رستم ، اسد . « ارسلان » دائرة المعارف (ادارة فؤاد افرام البستاني) م ١ .
مكارم ، سامي . « الشيخ الفاضل » دائرة المعارف (ادارة فؤاد افرام البستاني » م ٥ .
النكدي ، عارف . « ابو نكد » دائرة المعارف (ادارة فؤاد افرام البستاني) م ٥ .

٢ ـ الدوريات

Blanc, H. «Druze Particularism: Modern Aspects Of an Old Problem». *Middle East Affairs* III, No II. (Nov. 1952)

Caix, R. de. «La France dans le Levant : La Syrie» *Histoire des Colonies Françaises*, III (Paris, 1931).

Caix, R. de. «L'action de la France en Syrie»-*Revue Hebdomadaire*, No 36 (Feb, 1927).

Catroux, Lt-Col. «Le mandat Français en Syrie: Son Application à L'Etat de Damas» *Revue Politique et Parlementaire* (Feb 10, 1922).

Dawn, C.E. «The Rise of Arabism in Syria» *The Middle East Journal* (Spring 1962)

Hassler. «Les insurrections Druzes avant la guerre 1914- 1918» *L'Asie Française* (March 1926).

Hourani, Albert. «Lebanon From Feudalism to Modern State» *Middle East Studies*, Vol II, (1966).

al-Nakady, Arif bey. «The Syrian Revolt 1925- 1927» In *Druze History* (Michigan, 1952).

Makarem, Sami. «The Hidden Imams of the Ismaîlis» *(Al Abhath)*. 21 (1969)

Makarem, Sami. «Al-Hakim bi- amrallah; Appointment of His successors» *Al-Abhath*, Vol. 23, Nos 1- 4 (December 1970)

Salibi, Kamal. «The Buhturids of the Garb, Medieval Lords of Beirut and Southern Lebanon» *Arabica*, Vol VIII, (January, 1961).

Wright, Quincy. «Syrian Grievances Against French Rule» *Current History* (Feb. 1926).

Wright, Quincy. «The Bombardment of Damascus» *American Journal of International* Law, Vol. XX (April, 1926).

أبو عز الدين ، سليمان . « أصل الدروز » **المقتطف** . ج ٧٧ (حزيران ، ١٩٣٠) .

أبو عز الدين ، سليمان . « الدروز عرب خلّص » ، **مجلة البادية** (١٩٣٠) .

أبو عز الدين ، سليمان . « توطّن الدروز في حوران **الكلية** ، (أيار ، ١٩٢٦) .

أبو عز الدين ، سليمان . « نزوح الدروز إلى حوران وحربهم ضد ابراهيم باشا » ، **المقتطف** ، ج ٦٨ . (١٩٢٦) .

ارسلان ، الأمير شكيب . « عروبة آل معروف » **مجلة المجمع العلمي العربي** ، م ١١ (تموز - آب ١٩٢١) .

باز ، هاني . « التنوخيون والأمير السيد » **الضحى** (كانون ٢ وشباط ١٩٨٠)

قرألي ، بولس . « فخر الدين المعني الثاني » ودولة توسكانا ، رد وايضاح » **المشرق** ، م ٣٥ (ت ١ - ك ١ ، ١٩٣٧) .

المعلـوف ، عيسى اسكندر .
« دروز حوران وحـرب ابراهيم باشا » **المقتطف** ،
م ٦٧ (**١٩٢٥**) .
المعلـوف ، عيسى اسكندر .
« تاريخ الأمير فخر الـدين المعني الثاني » **المقتطف** ،
ج ٨٥ (**١٩٣٤**) .
النقاش ، زكـي . « دور العروبة في تراثنا اللبناني » ، **الضحى**
(آذار ، **١٩٧٤**) .
نويهـض ، عجـاج . « الشهيد فؤاد سليم » **مجلة الأماني** ،م (١٩ **أيار ١٩٧٣**).
يزبـك ، يوسف ابراهيم .
« مـن التـاريخ وللتـاريخ » **الضحى** (آذار ، **١٩٨٠**) .
ينّي ، جرجي افندي . « تاريخ آل معن » **المقتطف، مجلّد ٢٦**(آذار، **١٩٠١٠**).

مقالات أخرى متفرقة في الدوريات التالية :

الصفـاء
الضحـى
الميثـاق
أوراق لبنانيـة

فهرس أبجدي لأعلام الأشخاص
والقبائل والشعوب

ملاحظة : تشمل هذه الفهارس المتن دون المقدمة والحواشي .

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ظ ٠

غ

ف

ن

هـ

لا

ي

فهرس الأماكن والبلدان

أ

ت

ج

ح

خ

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨	٢	هوهوجارث	هوجارث
١٨	٤	الاريمي	الأراميي
٢٣	١٨	القوات	قوات
٢٩	١٨	كعرمتي	كفرمتى
٣٩	١٨	حلفاء	خلفاء
٤١	١٥	تكراء	نكراء
٥٢	٧	مرداسي	مرداس
٦٥	١٦	احد	احسب
٧٠	١٧	انتقاض	انقضاض
٧٦	٤	استقلال	استغلال
٧٧	١٧	الذي	الذين
١٣٩	٦	الا	الاف
١٥٨	١٨	١١٦٤ م	١٦٦٤م
١٥٩	٨	تشتتت	تشتت
١٧٧	١١	والمبطش	البطش
١٩٣	٦	ما منهابوا	ما نهابوا
١٩٦	٨	١٩٨٥ م	١٦٨٥ م
١٩٨	١١	مصادر	مصاد
١٩٩	٦	الوحيدان	الوحيدون
٢٠٧	٢٤	السلطان	السكان
٢٢٢	١٨	باش	باشا
٢٣٩	٣	اما	امام
٢٦٧	١٣	نوع	نواحي
٢٧٣	١٨	فصد	قصد
٢٩١	٤	استقرا	استقر

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٩٥	٢١	لاسباعيل	لاسماعيل
٣٠٤	١٧	١٩٠٠ ١٩٠١ م	١٩٠٠ - ١٩١٠ م
٣٠٧	١٨	مشورة	منشوره
٣٤٣	١٤	نفادت	نفدت
٣٤٥	١	الثورا	الثوار
٣٤٩	١٢	الوسيداء	السويداء
٣٥٠	١٢	اشعار	اشعال
٣٥١	٤	مع	من
٣٦٧	٤	وللجنبلاطي	والجنبلاطي

تاريخ الموحدين الدروز السياسي
في المشرق العربي

يتناول هذا الكتاب تاريخ الدروز السياسي بطريقة علمية ومنهجية توخّي فيها الاعتماد على المصادر الأساسية ، بخاصة المصادر الدرزية المخطوطة التي لم يتسنّ لكثير من المؤرخين السابقين الاعتماد عليها . ويشمل هذا البحث تاريخ الموحدين الدروز في المشرق العربي منذ بروزهم على مسرح الأحداث السياسية في الدولة العربية الإسلامية حتى نهاية ثورتهم ضد الانتداب الفرنسي ، وهو تاريخ سياسي عام لم يتناوله أحد من قبل من حيث شموله وتفصيله .

منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء